

هنري كوريسيل

رجل من طراز فريد

عُزِّبَهُ وَقَدَّمَ لَهُ: كميل داغر



منشورات دار الاتصال للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - ص. ب: 6693 - 113

هنري کوريسيد
رجسٽرڊ مينيٽر ان فرينڊ

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

1986

مقدمة الترجمة العربية

ما ننقله هنا للقارئ العربي إنما هو الفصل الأول من مؤلف ضخم وضعه جيل بيرو Perrault حول هنري كورييل ، وتناول فيه حياته ونضاله في مصر ، ثم بعد طرده منها عام 1950 ، دوره في دعم الشعب الجزائري على طريق تحرره من الاستعمار الفرنسي ، مروراً بتضامنه العملي مع العديد من حركات التحرر عبر العالم ، ووصولاً في النهاية الى موقفه الرافض للحروب العربية - الاسرائيلية ، ومساعيه لأجل سلام عادل في الشرق الأدنى* .

ولقد اكتفينا بالفصل حول مصر ، ليس لعدم أهمية الفصول الأخرى ، ولا بسبب الخلاف العميق والجذري مع طريقة كورييل في النظر الى الصراع العربي - الاسرائيلي ، بل لأن الحافظ الأساسي الذي دفعنا لنقل النص الى العربية هو تأريخه ، عبر تركيزه على دور هنري كورييل ، للحركة الشيوعية في مصر في المرحلة التي شهدت غوها الجدي ، وإن المحدود ، واندماجها في نضالات الجماهير المصرية ، ولا سيما الوطنية منها ضد الاحتلال البريطاني والملكية ، في الأربعينات من هذا القرن ، بوجه خاص ، وصولاً الى انقلاب 23 تموز 1952. إن الفصل الذي نحن بصدد تقديمه يقدم صورة مفيدة للغاية ، ومثيرة ، عن مرحلة بالغة الأهمية من حياة مصر ، تفتقر المكتبة العربية الى وفرة الكتابات الجادة حولها .

وهذا لا يعني أن بيرو استوفى الحديث عن الموضوع ، إذ ثمة الكثير الكثير الذي يمكن التطرق إليه أيضاً مما أغفله صاحبنا ، أو مما لم يكن الهدف المباشر لكتابه ، المتمحور بشكل أساسي حول إسهام هنري كورييل في الحركة الوطنية المصرية . كما لا يعني أيضاً أن المؤلف كان دائماً موضوعياً في تناوله للأشخاص والأحداث وتعليقه للمواقف وحكمه عليها . فثمة رنة ذاتية

* عنان كتاب صدر بعد وفاته ، وجمع كتاباته حول الموضوع .

واضحة دائماً في نص الكاتب الفرنسي ، الذي لا يخرج من مسابقات الحضارة التي ينتمي إليها ، ولا من اهتمامات وهموم مجتمعه الخاص به ، وإن كان فتح كوة فيه يطل منها على مصر ، ورغم كل ما يبدو لديه من « حنان » تجاه شعب مصر ، يستقيه من حنان هنري كوريل وحنيه العميق إلى مسقط رأسه ، حيث عاش جزءاً أساسياً من حياته ونضاله .

الحركة الشيوعية المصرية في الأربعينيات

يركز بيرو على دور أولاد البورجوازية اليهودية الأجنبية ، المنسلخين عن طبقتهم ، في إطلاق الحركة الشيوعية المصرية وقيادتها في العقد الخامس من هذا القرن (1940 — 1950) ، معتبراً في الوقت ذاته أن هذا الواقع كان إلى حد بعيد وراء فشل هذه الحركة . فهو لا ينفك يكرر ، إما نقلاً عن آخرين ، أو تعبيراً عن وجهة نظره الخاصة به ، استحالة نجاح حركة سياسية يقودها أجنب في قيادة جماهير بلد ما إلى النصر وتحقيق المهام الوطنية والثورية ، أو كما ينقل عن الكاتب ، والمناضل الشيوعي المصري ، رفعت السعيد : لا يمكن أن يقود أجنبي حركة شيوعية في بلد محتل .

ويبرو يستفيض في تصوير ظروف اعتناق الأولاد المدللين للبورجوازية - ومن بينهم كوريل - فكر الطبقة العاملة ، والتزامهم بالماركسية سبيلاً إلى حل مشكلات المجتمع المصري ، وانخراطهم في النضال العملي ضد الواقع القائم . فمارسيل اسرائيل شاهد بأم عينه المظالم المترتبة في المصنع الذي كان يملكه والده ، والاستغلال البشع لأولاد الفلاحين ، الذين كان يموت ثلثهم سنوياً بمرض السل . وهو يقول : « انطلاقاً من هذا المصنع وبسببه اخترت الشيوعية » . ويصرح ريمون أغيون : « حين فتحنا أعيننا على بؤس الناس الذي لا يصدق (. . .) ، لم يكن ثمة غير موقفين ممكنين : إما القبول بهذا النظام ، بالأعمال والمال ، وإما التحول إلى ثوريين » . وديدار روسانو ، التي كانت ترى صور البؤس المخيف في الشوارع ، وأمام مداخل البنايات ، لم تمتلك إلا أن تعلن : « إزاء هكذا مشهد ، لا مكان للشفقة . فإما أن يدفعك القلق إلى الهرب من الجحيم وشتم الانسان ، وإما يقودك التمرد إلى أن تقرر بأنه لا شيء أهم من قلب النظام الذي يوصل إلى هكذا انحطاط بشري . »

أما هنري كوريل ، الذي كان يرى هو الآخر المظالم بحق البشر في كل مكان ، وفي مزرعة والده بالتحديد ، فكان رد فعله الأول السعي مع صديقته (وزوجته لاحقاً) ، روزيت العجم ، لتخفيف ذلك الظلم عن طريق العمل الانساني . لكنه سرعان ما اكتشف عقم هذا العمل الذي يكتفي بمعالجة محدودة وقاصرة لنتائج المظالم ، ولا يذهب إلى الجوهر ، أي إلى

مصدر هذا الظلم من اجل القضاء عليه . « لم تكن تلك هي الطريقة الفضلى - حسبها تقول روزيت - وكان ينبغي قلب الأمور رأساً على عقب (. . .) . لقد قرر الانخراط في العمل السياسي ، الطريقة الوحيدة ليكون المرء فعّالاً » .

ولقد اختار هؤلاء المثقفون من أبناء البورجوازية (والبورجوازية الصغيرة) اليهودية ، الماركسية خلفيةً نظرية لعملهم السياسي . فبعد أن قرأ مارسيل اسراييل كتاب بوخارين حول الماديتين الديالكتيكية والتاريخية ، حدث لديه « الكشف والحماس » . يقول : « شعرت بأن لي جناحين . مذاك لم أعد أتوقف عن قراءة الكتب الماركسية » . وهيلل شوارتز اشتّم « أن شبكة فك الرموز الماركسية تحل رموز المجتمع المصري بدقة مذهلة . . » وديدار روسانو التي قرأت محاضرات مطبوعة على الرونيو حول المادية التاريخية سلمها إياها روني فارفارا ، الايطالي المناهض للفاشية ، تقول : « تولد لدي الانطباع بأن كل ما يحيط بي وجد تفسيراً له (. . .) كنت أهتف بلا انقطاع : كم هذا صحيح ! كم هذا واضح ! كان ذلك شيئاً يشبه الانبهار » . وما حدث للمذكورين حدث أيضاً لكوريل وكان الجميع ، حسب بيرو ، « يقرأون الماركسية في كتاب مفتوح هو المشهد الاجتماعي المعروض أمامهم » . وبالطبع فإن دراسة النظرية لم تكن كل شيء . فهم كوريل بوجه خاص الأهمية القصوى للانطلاق الى العمل ، تحت تأثير الشيوعي السويسري جورج بوانتيه ، حتى ان راوول شقيق هنري يقول : « بالنسبة لنا جميعاً ، لا شك في أن بوانتيه هو الذي صنع من هنري شيوعياً » .

بمعنى آخر ، كان الحافظ الأساسي وراء خيارات هؤلاء ، هو مشهد البؤس الاجتماعي الناجم عن الظلم ؛ وشكلت الثقافة الفكرية والسياسية الدليل النظري لمكافحة هذا الظلم . لكن من اجل فهم الطريق التي اختارتها الانتليجنسيا المشار إليها ، يضيف بيرو عاملاً آخر ، هو انسداد الطريق أمام الانخراط في الحياة السياسية « العادية » : « بات ذلك مستحيلًا عشية الحرب العالمية الثانية . لقد كان الوفد يستقبل في الماظمي اليهود ، مانحاً إياهم حتى مناصب وزارية . إلا ان تجذر الحركة الوطنية ومزاحمة الأحزاب المتطرفة غيراً ذلك » . ونحن لن نناقش هذا العامل ، حيث قد يكون لعب دوراً ، ولو متفاوتاً ، بالنسبة لهذا الشخص أو ذاك ، ولكنه لم يكن بالتأكيد سبباً جدياً وراء قرارات مصيرية لمعظم أولئك الشبان والشابات ، من الطائفة اليهودية ، الذين انخرطوا في الحياة السياسية المصرية تحت الراية الشيوعية .

يقول بيرو : « شيوعيون ، لكن من دون حزب . نوادٍ ، وحلقات ، ومتمديات دراسة ، في غياب أية منظمة ذات بنية للقيام بالعمل السياسي . المصريون بالغو الندرة ، ينتمون للانتليجنسيا ، والكثيرون منهم في الحركة السورالية ، وتطوروا فيما بعد الى التروتسكية . أما الآخرون فأحياناً يونانيون أو إيطاليون ، وسرعان ما جعلهم النزاع العالمي يعيدون تركيز

اهتمامهم بوطنهم الأم . والباقون - الغالبية الساحقة - يخرجون من الطائفة اليهودية المصرية ، وللمزيد من الدقة من البورجوازية المنعزلة في الحي المسمى الحي الأوروبي . . . » .

« شيوعيون دون حزب » . لكن سرعان ما ستظهر مجموعة من المنظمات التي ترفع راية الشيوعية ، وتضع نفسها أمام مهمة التحول الى حزب . الى الحزب . وأهم تلك المنظمات ، الأيسكرا التي أسسها هيلل شوارتز ، وتحرير الشعب ، بقيادة مارسيل اسراييل ، والحركة المصرية للتحرير الوطني (حمتو) ، التي أسسها هنري كورييل بالذات في بحر عام 1943 . وضمت هذه الأخيرة المئات من المناضلين ، معظمهم من الأجانب . واختار لها كورييل هذا الاسم ، انطلاقاً من اعتباره ان المهمة الأساسية المطروحة في تلك المرحلة انما هي مهمة اثناء الاحتلال البريطاني لمصر . ويذكر بيرو ان هذه المسألة ترسخت لديه بوجه خاص بعد احتجازه ، للمرة الأولى ، في سجن زيتون ، والنقاشات التي دارت هناك بينه وبين نزلاء السجن المذكور . وكان حاول كورييل الحصول على دعم السفارة السوفياتية في القاهرة ، بعد افتتاحها بقليل ، من اجل تأسيس منظمة شيوعية . لكن عبثاً ، حيث كانت موسكو لا تزال تحت تأثير الملف المثير للحزب الشيوعي الميت ، الذي كان تأسس في العشرينيات واخترقته الشرطة من القمة الى القاعدة ، قبل ان يزول من خارطة القوى السياسية المصرية . لذا رأى نفسه مضطراً لبدء منظمته من دون عون خارجي . وقد حدث ذلك في السنة ذاتها التي قرر فيها ستالين ان يدفن ، تحت الحاح حلفائه في واشنطن ولندن ، الأمية الثالثة ، حزب الأحزاب الشيوعية عبر العالم .

ويقول مارسيل اسراييل ، الذي دعاه هنري للانضمام إلى قيادة الحركة بعد عودته من فلسطين إلى مصر في نهاية عام 1943 ، ان جميع الذين رأهم في الاجتماع الوحيد لتلك القيادة الذي كان حاضراً فيه كانوا من أصل أجنبي ، وإن كان يشير في الوقت ذاته الى انه كانت هناك لجنة قيادية أخرى لـ حمتو تضم بعض المصريين . وقد نصحه أصحابه بالانسحاب وأعاد معهم تكوين مجموعة تحرير الشعب التي كان الوحيد تحير المصري بين أعضائها .

وفي المقارنة بين الرموز الثلاثة الأساسيين ، حسب بيرو ، للحركة الشيوعية المصرية في الأربعينيات ، يقول إن شوارتز واسراييل سمعا مصر « تزبحر في قيودها وتطالب بكرامتها الوطنية » ، وبلاستقلال ، الا انها كانا يريان الغش في استبدال السيد الانكليزي بالمستغل المصري ويعلنان انه « لا يمكن حل الجبهة الطبقية ، تحت طائلة الخيانة ، في جبهة وطنية نجسة » . بينما ، ودائماً حسب بيرو ، « سوف تثبت الممارسة أن الجبهة الطبقية ستتهزم في كل مكان تجري فيه محاولة إرسائها ، وأن نضالات التحرر الوطني التي ستخاض في القارات الثلاث سوف تسير إلى النصر تحت راية جبهة وطنية تفرضها الارادة الشعبية » . ويقول بيرو ان

كوربيل فهم هذه الحقيقة ، وتوقع ان تندفق « موجة المطالبة الوطنية العاتية ، مازجة النقي والنجس ، لكن عملاقة لا تقاوم ، وان من الضروري امتطائها أو الحكم على النفس بالبقاء في الرمل » .

عام 1946 ذروة النضالات الشعبية

كان الاستعمار البريطاني قد استفاد ، مع اندلاع الحرب العالمية الثانية ، من مضمون معاهدة عام 1936 ليعيد انتشار جيشه في الأراضي المصرية ، بدل ابقائه في منطقة القناة حصراً . لكن نهاية الحرب عام 1945 لم تؤد إلى انسحاب الجيش المذكور مجدداً إلى القناة ، وكان ذلك تحدياً صارخاً لكرامة الجماهير المصرية وطلاتها .

بالاضافة الى ذلك ، فإن الوضع الاقتصادي والاجتماعي كان متفجراً ، حيث انتهت مع الحرب الأرباح التي كانت تدرها ، وفتح البلد من جديد أمام المنافسة الدولية ، بعد أن كانت الحرب قد عزلته ، وحفزت بالتالي قيام صناعات كثيرة تلبي الحاجات المحلية وحاجات الجيوش المتحالفة . وقد أدى ذلك كله إلى تزايد العمال الصناعيين بنسبة 140 % .

الا أن الوضع المستجد بعد نهاية الحرب ترافق مع تغييرات واسعة في الاقتصاد والحالة الاجتماعية . مورس الصرف الجماعي بحق خمسين ألف عامل كانوا يشتغلون في مشاريع باتت عاجزة عن المنافسة ، ومئتين وخمسين ألف عامل آخرين كانوا يعملون لجيوش الحلفاء . « وارتفعت الأسعار ارتفاعاً جنونياً ، وتعرض الفلاحون الصغار لصعوبات قاسية . وفي المدن كان تحالف العمال والطلاب قد مَّهر بالدم . شبكة مترابطة من اللجان القاعدية تمتد عبر النسيج المدني : كان كل شيء يساهم في جعل عاصفة ثورية تهب على مصر » .

هذه العاصفة شهدت إرهابات كبرى في الاضرابات العمالية التي بدأت تتفجر هنا وهناك منذ أوائل كانون الثاني 1946 . وقد تلتها في شباط مظاهرات طلابية ضخمة ضد الاحتلال البريطاني ضمت الألوف ، وواجهتها الشرطة فسقط العشرات من الطلاب بالرصاص ، أو غرقاً ، بعد فتح جسر عباس فجأة ، وكان المتظاهرون بدأوا يتدفقون عبره .

واحتُرقت القاهرة بعد ذلك . انتخب الطلاب لجنة من 115 عضواً لتنظيم النضال . وتأسست لجان قاعدية في المدارس . وتحرك العمال في شبرا الخيمة ، حيث مشات المصانع الصغيرة وأقوى تركيز عمالي في البلد ، جارين في إثرهم المركز الصناعي في المحلة الكبرى .

يقول بيرو : « لدى الطلاب كما لدى العمال ، كان الشيوعيون في الطليعة ، وقد

امتزجت كل المنظمات لشدة ما كان الحماس متوقداً ، وكانوا روح اللجنة الوطنية للطلاب والعمال التي تأسست لتجمع مئات اللجان القاعدية وتمثلها . ووفقاً لمارسيل اسراييل : « يمكن القول إن الشيوعيين كانوا على رأس الحركة مئة بالمئة » .

وعلى إثر المظاهرات الدامية التي تلاحقت في شباط وآذار 1946 ، اضطر رئيس الوزراء الانكليزي اتلي لأن يعلن في مجلس العموم عن إجلاء جيشه عن وادي النيل إلى منطقة القناة الأمر الذي كان بمثابة انتصار للحركة الوطنية .

وقد تصرفت حكومة صدقي باشا على أساس منع ذلك الانتصار من التحول إلى ثورة ، ونجحت في ذلك ، عن طريق تفكيك اللجنة الوطنية بدق إسفين بين العمال والطلاب غير الشيوعيين ، وقطعها عن قاعدتها بواسطة قمع انتقائي ، وبالتالي إزالة اللجان المحلية الواحدة بعد الأخرى .

ويشرح كورييل أسباب ذلك الجزر ، فيقول بعد زمن طويل :

« في ذلك الحين ، يمكن القول إن الجماهير كانت مستعدة للاستمرار في اللحاق بنا . لكننا لم نكن نعرف إلى أين نقودها . كان انعدام الخبرة لدينا كاملاً . ولم نكن الوحيدين الذين ادركوا ذلك . فصدقي باشا وعاه تماماً . . . يمكن ان يؤخذ ذلك علينا ، لكن ينبغي تذكّر انه لم تكن لدينا غير ستة أشهر من التجربة في القيادة السياسية ، واننا كنا إزاء وضع داخلي يمكن وصفه بالفوضى الكلية . . . » ويضيف بيرو : « إن اللجنة التي ولدت عند جسر عباس ، في الألم والنقمة ، لم تكن تملك لا برنامجاً لأجل طويل ، ولا منظورات للمدى القصير » . بمعنى آخر ، كانت المأساة تتمثل بوجود بذور قيادة ، والافتقار بالمقابل إلى قيادة متمرسة في النضال وحاملة برنامجاً متكاملًا .

الموقف من قرار التقسيم وإعلان دولة إسرائيل

عام 1945 اندمجت ح م ت و ومنظمة الأيسكرا في تنظيم واحد باسم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو) . هذا وقد بقي موقف شتى المنظمات الشيوعية المصرية ، بما فيها حمتو ومن بعدها حدتو بقيادة هنري كورييل ، سلباً تجاه الحركة الصهيونية حتى ذلك العام بالذات ، أي بالتحديد موقف العداء لهذه الحركة والتنديد بها ورفض طروحاتها والدور الذي تلعبه في فلسطين والعالم .

إلا أن قرار التقسيم الذي صدر عن الأمم المتحدة وأيدته الدول الكبرى ، ومن ضمنها

الاتحاد السوفياتي ، جاء ليشكل منعطفاً في مواقف حدتو بالأخص ، التي بدّلت خطها 180 درجة وأيدت القرار المذكور ، ومن ثم نشوء دولة إسرائيل . ويقول بيرو إن هذا الخيار من جانب هنري كورييل « لم يكن ناتجاً عن سبق إدراك سياسي خاص ، بل عن الموقف الذي اتخذته الاتحاد السوفياتي . كان اندريه غروميكو قدم بذاته مشروع التقسيم . وليس من شك في انه لو اختار الكرملين الموقف المعاكس لانحازت حدتو الى هذا الموقف » .

وبالطبع ، ليس لدينا أية نية للتشكيك بصحة هذا التحليل ، إلا إنه إذا كان يبيّن مسؤولية القيادة السوفياتية في هذا المجال ، فهو لا يعفي كورييل بتاتاً ، من تبعة موقف كان في تقديرنا قاتلاً ، ولزمن طويل ، بالنسبة للحركة الشيوعية في مصر وفي العديد من البلدان العربية الأخرى ، التي اختارت الأحزاب الشيوعية فيها ألا تكون أكثر من صدى للقرارات المتخذة في الكرملين ، أيّاً تكن ، ومهما تناقضت مع المصالح التاريخية لشعوب المنطقة .

يجب الاعتراف بأن بيرو أشار ، ولو بشكل خاطف ، إلى الطابع الكارثي لقيام دولة اسرائيل حيث يقول :

« إذا استثنينا الأقلية الصهيونية ، لم يكن أحد يشعر بضرورة وجود دولة يهودية ، ولم يكن ثمة شعور بالحاجة لانشاد « العام القادم في أورشليم » ، إذ كان يكفي ركوب قطار العاشرة إلا ربعا للذهاب إلى هناك . إن الأبعد نظراً بين يهود الشرق ، الذين هزتهم المحرقة بعنف لكنهم نجوا منها ، فهموا فوراً أن إرادة إخوتهم في الدين الأوروبيين الناجين من المجزرة ان يقيموا موطناً لهم كانت تدق نهاية الطوائف السفاردية التي عاشت منذ قرون بسلام في العالم العربي . هكذا سيكون الضحايا الأولى لخلق اسرائيل الفلسطينيين المطرودون من وطنهم ، أما الثانون فسيكونون اليهود الشرقيين المحكوم عليهم في مدى يقصر أو يطول بهجرة جديدة . وقد لجأت الأجهزة السرية الصهيونية ، الواعية قلة حماس يهود القاهرة أو بغداد لاللتحاق باسرائيل ، الى تسريع الحركة عن طريق حملة اعتداءات بالمتفجرات ، الهدف منها إقناع الأكثر تحفظاً باستحالة البقاء في البلدان العربية . »

إلا أنه ، في الوقت ذاته ، لا يعبر عن موقف مناهض لقيام هذه الدولة . أكثر من ذلك ، إنه يقع في أخطاء خطيرة ، سواء في سرد الوقائع أو في التحليل . يزعم مثلاً أن خلق دولة إسرائيل لم يكن مشكلة « لا بالنسبة للشيوعيين ، ولا بالنسبة لمجمل الشعب المصري . » ثم يضيف : « إذا استثنينا الأخوان المسلمين وبعض المجموعات المتطرفة (؟) ، لم يكن الشعب المصري يهتم بالموضوع . » ، أو « لم يكن لدى الجماهير المصرية الكثير من المبررات كي تتحمس لحرب دوافعها بعيدة كل البعد عن مصالحها » .

ونحن لا نريد أن نتهم بيرو بالكذب ، وسوء النية ، لكننا نعتقد أن « معلوماته » مغلوطة تماماً ، والأرجح أن من وفروها له تعمدوا الكذب ، على خلفية نية سيئة بالتأكيد ، تستسهل تزوير حقائق تاريخ مازال قسم كبير ممن عاصروه قيد الحياة .

فبالنسبة للشيوعيين المصريين ، وعلى عكس الصورة التي يقدمها بيرو ، لا بد من الإشارة إلى أنهم كانوا منقسمين بخصوص موضوع التقسيم وإنشاء إسرائيل . فحتى داخل حذوتو بالذات ، إذا كانت القيادة بصمت بالعرش على الموقف السوفياتي ، فلقد كان ثمة جزء مهم من القاعدة متمعضاً شديداً لامتصاص من قرار تلك القيادة . ناهيك بأنه كان ثمة إلى جانب الشيوعيين الستالينيين في مصر شيوعيون آخرون - ولو في وضع الأقلية - رفضوا قرار التقسيم رفضاً قاطعاً وشهروا به ، أي أنهم بقوا على موقفهم السابق من القضية الفلسطينية . ففي عام 1944 ، نشر أنور كامل ، التروتسكي ، كتاباً بعنوان ، الصهيونية ، يختتمه بالقول :

« واجب اليهود اليوم (ولا يعني من اليهود إلا فقراءهم) أن يتخلوا نهائياً عن المعسكر الصهيوني ، سواء في فلسطين أو في غير فلسطين ، وإلا فإن نكبة كبيرة من نكبات التاريخ قد لا يدركون اليوم مداها سوف تنصب فوق رؤوسهم عاجلاً أو آجلاً في قلب الشرق الأوسط ! فيا أيها اليهود في أنحاء العالم ، ابتعدوا عن فلسطين ! »

وبعد صدور قرار التقسيم ، رفضته طليعة العمال* (الجماعة التي كانت تصدر مجلة الفجر الجديد بين أيار 1945 وتموز 1946) ، كما رفضه أيضاً « الحزب الشيوعي الثوري » ، الذي كان ينسب نفسه آنذاك إلى الأهمية الرابعة ، وأصدر بياناً يشجب فيه التقسيم وعصابة اللصوص (الأمم المتحدة) التي أقرته . وبعد قيام حرب 1948 ، بقي الحزب المذكور على موقفه وأصدر بياناً بعنوان « لا مع سلامكم ولا مع حربكم » ، حيث أكد من جديد الموقف ضد التقسيم ، ودعا بدل حرب السلطة القائمة آنذاك (حرب حيدر ، رئيس الأركان) إلى حرب ثورية .

ولا شك أن هذا الموقف الحازم من جانب الشيوعيين الثوريين المصريين ، المعادين للستالينية ، كان يستلهم موقف الأهمية الرابعة الواضح ضد التقسيم ، هذا الموقف الذي عبر عنه بوضوح مقال صدر في أحد أعداد مجلة « الأهمية الرابعة » سنة 1947 ، بين ما ورد فيه :

« إن موقف الأهمية الرابعة تجاه المشكلة الفلسطينية يبقى جلياً كما في السابق . إنها ستقف في طليعة النضال ضد التقسيم ، في سبيل فلسطين موحدة ومستقلة حيث تقرر الجماهير

* وإن كانت هذه الجماعة عادت فقبلت بالقرار بعد حرب 48.

مصيرها بكل سيادة عبر انتخاب مجلس تأسيسي . وضد الأفندية والعملاء الأمبرياليين ، وضد مناورات البورجوازيين المصرية والسورية اللتين تحاولان حرف اتجاه النضال التحرري للجماهير إلى نضال ضد اليهود ، استدعو الأئمة الرابعة إلى الثورة الزراعية ، وإلى النضال ضد الرأسمالية والأمبريالية ، وهي المحركات الأساسية للثورة العربية . إلا أنها لن تستطيع خوض هذا النضال مع إمكانية النجاح ، إلا بشرط تحديد موقفها ، ودون أي إهمال ، ضد تقسيم البلاد وضد إقامة الدولة اليهودية .

« إنه لمن الضروري في الوقت نفسه وأكثر من أي وقت مضى ، دعوة البروليتاريا الأمريكية ، والانكليزية والكندية والاسترالية ، وبروليتاريا جميع البلدان ، إلى النضال لفتح أبواب بلدانهم ، دون أي تمييز ، إلى اللاجئين والمبعدين ، وإلى جميع اليهود الذين يودون الهجرة . إن خوض هذا النضال فعلياً ونجاح هو الشرط الذي لا يمكن دونه أن تشرح لليهود الأسباب التي يجب من أجلها ألا يذهبوا إلى الأرض الفلسطينية . وإن التجربة الرهيبة التي تنتظر الجماهير اليهودية في « الدولة » ستخلق في الوقت نفسه المقدمات لانفصال شرائح أوسع عن الصهيونية المجرمة . أما إذا لم يتم هذا الانفصال في الوقت المناسب ، فإن « الدولة اليهودية » ستغرق في بحر من الدماء » .

هذا بخصوص الشيوعيين المصريين ، أما بخصوص الجماهير المصرية فهل من السهولة يمكن الموافقة مع بيرو على أن قيام دولة إسرائيل لم يكن يشكل مشكلة بالنسبة إليها ؟ ! وأنه ، « باستثناء الاخوان المسلمين وبعض المجموعات المتطرفة ، لم يكن الشعب المصري يهتم بالموضوع » ؟ إذا كان هذا صحيحاً ، فلماذا شكلت الهزيمة العربية في حرب فلسطين ذلك الزلزال الهائل الذي زعزع أسس أكثر من نظام ، ومن بينها النظام المصري بالذات ، الذي لم ينتظر أكثر من سنواتٍ أربع بعدما سمي بالنكبة ليسقط سقوطاً عظيماً وإلى غير ما رجعة ؟

إن الأستاذ بيرو يتحدث من بعيد جداً ، ولا يفقه شيئاً ، على ما يبدو ، من حقيقة الجماهير المصرية ، والشعب المصري ، وموقع القضية الفلسطينية من اهتماماتها . ولهذا فهو لم يستطع أن يحاكم هنري كورييل باسم القضية الوطنية بالذات ، التي أورد أن المذكور كان من أوائل الذين رفعوا شعاراتها ووضعوها على رأس اهتماماتهم . إلى حد ربط اسمي المنظمين (همو ، وحدتو) اللتين قادهما كورييل على التوالي بقاسم مشترك هو التحرر الوطني . إن هزيمة هنري كورييل ، والحركة التي قادها ، لم تكن ناجمة عن اسمه الأوروبي ، ولا عن أصله الأجنبي ، بقدر ما كانت ناجمة عن غربته العميقة عن إحدى أهم مهمات الثورة في مصر ، كما في المنطقة العربية كلها ، عتينا مهمة تحرير فلسطين . فليست نزعة العداء للسامية (وبيرو يعترف بأنها لم تكن موجودة لدى الجماهير المصرية بخاصة ، والعربية والإسلامية عموماً) ،

ولا دسائس الحكومات الملكية في مصر ، هي التي قضت على الشيوعيين المصريين ، رأسهم قياديهم ذرو الأصل اليهودي ، الذين جرى طردهم من مصر ، بل موقف المفرط في الانحطاط والبهوس تجاه موضوع التقسيم ومن ثم موضوع قيام دولة اسرائيل . الموقف الذي سمح بعزلهم عن الجماهير المصرية الواسعة ، وأتاح للملك فاروق وأركان - ضربهم وإخراجهم من الحياة السياسية المصرية . ولو انهم وقفوا على العكس موقفاً صحيحاً ذينك الموضوعين ، لكانت أمور كثيرة أخذت منحى آخر ، وليس في مصر وحسب ؛ بل كانت تبدلات جذرية طرأت على المنطقة العربية بأكملها ، كي لا نقول على العالم بأسره .

الأسباب العميقة لفشل الحركة

حددنا اعلاه أحد أهم الأسباب التي تقف وراء النهاية الكارثية التي عرفتھا الش المصرية حوالي منتصف هذا القرن ، والفشل الذريع الذي حصده بدل السير بخطى حثي النصر . عينا الموقف المدان والمسؤول الذي اتخذته حيال القضية الفلسطينية . وهو موقف أن أشرنا الى ان بيرو يرجعه الى انحكام كورييل وحركته بموقف الاتحاد السوفياتي من الذ ومن تأسيس دولة اسرائيل . بمعنى آخر ، فهو يرجعه الى ستالينية الحركة المذكورة وقيادتها

وبالفعل ، فقد كان كورييل ستالينياً حتى العظم ، في شخصيته ، كما في أفكاره و السياسية والتنظيمية . ولن نتوقف بالتأكيد عند الجوانب الحميمة في الشخصية التي نحن نضالها ، مكتفين بتقويم أحد أصدقائه ، مارسيل ماسيكا ، الذي يقول : « كان يمكن أن يبدي عناداً غير معقول . كنت أحبه كثيراً ، لكن الحقيقة انه كان ستالينياً . أعني ستالينياً . » ؛ وبالتقويم السريع الذي يورده لطف الله سليمان (في الملحق الذي وضعنا الفصل عن مصر من كتاب جيل بيرو) . فسليمان يفسر شخصية كورييل الستالينية بـ « إنه لم يكن يستطيع الامتناع عن الخلط بين التاريخ وزعامته الخاصة به » .

الا ان بيرو إذا كان يعتبر ستالينية كورييل هي التي حكمت موقفه من الة الفلسطينية ، فهو لا يضعها في خانة الأسباب التي قضت على حركته بالموت وأقصته عن السياسية في مصر ، وحتى عن الحياة العادية فيها . بل كثيرة هي المقاطع ، على امتداد ال الطويل عن مصر ، التي يعيد فيها سوء طالع وطالع الحركة الشيوعية الى أصله الأجنبي . أمر سوف نبين قصوره الكبير عن تحليل التاريخ المصري بطرح السؤالين التاليين :

أ - إذا كان هذا الحكم سليماً ، فلماذا توصل الشيوعيون المصريون أثناء أحداث

1946 العاصفة ، بقيادتهم « الأجنبية » ذاتها ، الى فرض أنفسهم قيادة حصرية تقريباً ، لا مجادلة في أصالتها ، رغم عددهم الضئيل ، إلى حد قول بيرو بالذات استناداً لمارسيل اسرائيل : « كان الشيوعيون على رأس الحركة بنسبة مئة في المئة » ؟ ولماذا كانت الجماهير تستجيب لدعواتهم إلى التظاهر والإضراب وتعريض النفس لرصاص الشرطة والاعتقال ، سائرة خلفهم وتحت راياتهم بحماس ، لا بالألوف وعشرات الألوف فقط بل بمئات الألوف ؟

ب - إذا كان الأصل الأجنبي لتلك القيادة هو السبب في اخفاقاتها ، فلماذا لم تتمكن القيادة المصرية مئة بالمئة ، التي خلفتها على رأس الحركة الشيوعية في مصر ، من ان تتجاوز تلك الاخفاقات ، وتفتح الطريق نحو بناء حركة شيوعية جماهيرية أصيلة ؟ علماً أن العكس هو الذي حصل ، حيث فاقت هذه الأخيرة سابقتها في الهزائم ، ولم تحقق بالمقابل ولو نزراً يسيراً مما كانت الأولى حققتة من النجاحات ؟ 1

إننا نعتقد أن الأسباب الأساسية التي تقف وراء هزائم الحركة الشيوعية المصرية تتلخص بما يلي :

1 - الارتباك بمواقف الكرملين ، وغياب القرار الذاتي الثوري المتناسك

ولم يظهر ذلك فقط في موضوع قرار التقسيم ، كما بينّا أعلاه ، بل في جملة من المواقف الأخرى ، نكتفي بأهمها :

أ - اللهاث خلف اعتراف القيادة السوفياتية

وبيرو يتكلم بالتفصيل على سعي كورييل الحثيث ، لا بل على تهافته ، للحصول عبر مسؤول في المخابرات السوفياتية في سفارة موسكو بالقاهرة ، المدعو سلطانوف ، على دعم سوفياتي لجهوده من أجل بناء منظمة شيوعية في مصر . ثم استمراره في المساعي النشطة ، بعد تأسيس حركته ، وبكل الوسائل ، للحصول على اعتراف سوفياتي بهذه الحركة ، سواء مباشرة أو عبر واسطة الحزب الشيوعي الفلسطيني ، المقرب من موسكو آنذاك .

ب - الموقف من انقلاب 23 تموز 1952

هذا الموقف الذي تشاركت فيه مختلف المنظمات المصرية الستالينية ، باستثناء حدثتو في مرحلة أولى . حيث حذت تلك المنظمات حذو الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية في إدانة الانقلاب على انه فاشي ورجعي على الطريقة الأميركية اللاتينية . الا أن حدثتو وبموجب ارشادات كورييل المنفي في فرنسا ، تبنت في فترة أولى موقف الدعم للانقلاب والدعوة للتظاهر تأييداً له . لكنها سرعان ما تراجعبت عن هذا الموقف تراجعاً كاملاً ، تحت تأثير الموقف

السوفيياتي ، ومواقف الأحزاب الشيوعية الموالية لموسكو عبر العالم ، وشاركت في الحملات ضد عبد الناصر والضباط الأحرار ، سواء داخل مصر او في الخارج ، مع ما أدى اليه ذلك من ردود فعل قاسية من جانب القيادة المصرية تجاه الشيوعيين المصريين الذين رُجِّع ألف منهم في السجون وتعرضوا لأبشع أنواع التعذيب .

ثم حين قرر الاتحاد السوفيياتي ، فجأة ، وبعد مؤتمر باندونغ ، العودة عن موقفه السابق حيال عبد الناصر ، دار الستالينيون المصريون ، ومن ضمنهم جماعة حدتو وكورييل على رأسهم ، 180 درجة ليسجم موقفهم مجدداً مع الموقف المستجد للقيادة السوفيياتية . وذلك بطريقة أقل ما يقال إنها غير عقلانية بتاتا ، إذا لم نقل مخزية .

ج - قرار حل الستالينيين منظماتهم والاندماج بالاتحاد الاشتراكي

وهو القرار الذي تم اتخاذه عام 1964 تحت ضغط خروتشوف ، وانسجماً مع نظرية التطور اللا رأسمالي المفضي برأي الفقهاء السوفيات الى الاشتراكية ، وقامت بموجبه المنظمات الستالينية المصرية بحل نفسها والاندماج في حزب النظام الناصري ، الاتحاد الاشتراكي ، مع ما يعنيه ذلك من خلط للرايات وقبول أناس كانوا يرفعون راية الشيوعية بأن ينخرطوا في تنظيم بورجوازي سلطوي ، متخليين عن أحد أبسط مبادئ الماركسية ، وهو الاستقلال الطبقي ، الفكري والسياسي والتنظيمي .

2 - الارتباط بنظرية المراحل

وهي النظرية المنشفية بامتياز ، التي تنبأها ستالين وفرضها على الكومنترن ، وبعد حل الأخيرة ، على الأحزاب الشيوعية عبر العالم . وتقول هذه النظرية بتقسيم المسيرة نحو الاشتراكية الى مراحل ، وبالأخص إلى مرحلتين تاريخيتين متميزتين : تكون الأولى منها بقيادة البورجوازية ، ويتم خلالها إنجاز المهام الديمقراطية ، قبل التفكير بالانتقال الى الثورة الاشتراكية مع ما يفترضه ذلك من قيادة الطبقة العاملة . وذلك على نقيض ما كانت تدعو إليه الأهمية الثالثة أيام لينين ، أي عدم الفصل الميكانيكي بين المهام الديمقراطية البورجوازية والمهام الاشتراكية ، والحرص على استقلال الطبقة العاملة .

وضمن تطبيق هنري كورييل لنظرية المراحل ، اعتبر أن المهمة الأساسية التي يجب التركيز عليها في مصر في مرحلة أولى هي التحرر الوطني ، مع ما تتطلبه من جبهة وطنية واسعة تضم الجميع بمن فيهم الاخوان المسلمون وحزب الوفد ، والامتناع عن تأجيج الصراع الطبقي وطرح مطالب العمال والطبقات المفترقة الأخرى .

ويمكن اعتبار ان الاسمين المتتاليين اللذين اختارهما لمنظمته، الحركة المصرية للتحرير الوطني، ثم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني، (بعد اندماج 1947 مع الايسكرا) يلخصان برنامجه المرحلي : التحرر الوطني والديمقراطية .

تقول إيميه سيتون ، في معرض حديثها عن أول لقاء لها مع كورييل :

« وجدته في البدء بالغ الذكاء وشديد الخبث ، لكنه اقنعني في النهاية ، وأثار حماسي مع منظور العمل الديمقراطي الجماهيري . كانت الفكرة المسيطرة لديه هي المسير وفقاً للمراحل . وكان يردد : « كيف نتحدث عن الثورة في حين لا يزال الجيش الانكليزي في مصر . »

ويروي لطف الله سليمان (انظر الملحق) ذكرياته عن أحداث 1946 التي تعارض خلالها خطأ همسو من جهة ، و« الحزب الشيوعي الثوري » ، الصغير جداً ، من جهة أخرى ، فيقول :

« كان الوضع آنذاك عبثياً . فمن جهة ، المظاهرات « الوطنية » المؤلفة عموماً من الطلاب الذين كانوا ينطلقون من جامعة القاهرة ويتجهون الى عابدين (القصر الملكي) ، هاتفين « ليُخَيَّ الجلاء » ، « عاش الاستقلال » . ومن جهة أخرى ، المظاهرات العمالية التي كانت تنطلق من شبرا الخيمة ، غير متمكنة أبداً من اقتحام حواجز الشرطة والوصول إلى وسط العاصمة ، وتطالب بشكل أساسي بـ « ضمان العمل » .

« في ذلك الحين بالذات ، بدا لنا من المفيد ، لا بل المُلِحّ ، أن نوجّه نداء إلى الطلاب : « لا إلى عابدين بل إلى شبرا الخيمة * » . وقد لقي نداؤنا تأثيراً أكيداً في جامعة القاهرة ، لا سيما انه حظي بالدعم الحماسي للطلبة الوفدية .

« بعد ظهر اليوم ذاته الذي أطلقنا نداءنا خلاله ، تلقيت زيارة أحد مساعدي هنري كورييل (الذي سيلعب فيما بعد دوراً مهماً في السودان) ، وكانت المقابلة صاخبة . فبحجة انه لا يمكن الاخوان المسلمين القبول بأن يجري « حَرْف » الحركة الوطنية ، جرى اتهامي بـ « الخيانة في خدمة الامبريالية » ، وتهديدي بالتعرض لـ « العقوبة ** » نفسها التي تعرض لها « عرابي » تروتسكي - الخائن . . . »

* أي لتوجه الى شبرا الخيمة تضامناً مع العمال ، لا الى عابدين ، حيث قصر الملك .

** قبل ذلك التاريخ بست سنوات (1940) كان عميل ستاليني قد اغتال تروتسكي في المكسيك بضربة فأس شقت رأسه .

وبالطبع ليس مجالنا هنا الاستفاضة حول طريقة الستالينيين في التعامل مع حرية الرأي داخل الحركة الشيوعية بالذات ، ونحن نكتفي بالتالي بالتعقيب حول الموقف من دمج النضالين الوطني والاجتماعي ، فنقول إن مطالب الطبقة العاملة ، بدل أن تكون مهمزاً ورافعة للنضال الوطني ضد الاحتلال ، يجري النظر إليها عند « الكورييليين » ، كعقبة مرفوضة أمام التحالفات الفضفاضة مع القوى الطبقة الأخرى ، ولا سيما البورجوازية . ويجري بالتالي الفصل الميكانيكي بين النضالين الوطني والطبقي ، بدل أن يتلازما ويتعاضدا ويخدمهما معاً العملية الثورية غير المنفصمة ، في المجتمع .

3 - التشرذم وذاتية القيادات

لقد نبئت في الأربعينيات مجموعة واسعة من المنظمات (عشر أو أكثر) ، التي ترفع كلها راية الشيوعية ، متنافرة ومتزاورة ، ومنشغلة بتبادل الاتهامات واغتيال بعضها بعضاً . يقول بيرو : « سرعان ما تولد لدى القيايين الأجانب انطباع بأن الشيوعيين المصريين ليسوا غير حفنة من البورجوازيين الصغار أو الكبار ، المنخرطين في معارك ديوك لا تغتفر ، تنتمي الى العمل السياسي المتبدل أكثر مما الى النضال الثوري . » والعمل الوجدوي الوحيد ، الذي تم عام 1947 بين حتمو واليسكرا لم يعمر طويلاً . هكذا فإن التشرذم هذا لعب دوراً مهماً في الابقاء على المنظمات الشيوعية المصرية في وضع الشلل ، وفي الحيلولة دون تحولها إلى حزب جماهيري قادر على قيادة المجتمع قيادة مظفرة باتجاه التغيير الثوري .

ونادراً ما كان هذا التشرذم ناجماً عن خلافات نظرية (كان الحزب الشيوعي السوري - التروتسكي ... الوحيد بين تلك المنظمات الذي لا ينتمي للفكر الستاليني) ، وكان وراءه في معظم الأحيان طموح القيادات وذاتيتها وتنافسها البائس .

يتحدث بيرو بالتخصيص عن ثلاثة من القيايين البارزين للحركة الشيوعية المصرية في الأربعينيات : كورييل ، وشوارتز ومارسيل اسرائيل ، فيقول :

« ثلاثة تماسيح في الخليج المصري . لماذا إنكار لعبة الطموح البشري ؟ كانوا على يقين بأن مصر تنتظر لينينها ، وكان كل واحد يقدم ترشيحه . »

الا انه في غياب الكومنترون التي حلها ستالين عام 1943 ، لم يكن هناك مرجع يقوم بالتنصيب ، بحيث يدفع المنظمات الأخرى لحل نفسها والانضواء تحت لواء المنظمة سعيدة الحظ . وهكذا بقيت الساحة الشيوعية المصرية مقطعة إلى مربعات ومستطيلات . . . متفاوتة الحجم لكن متقاربة نسبياً ، يتبارى فوقها ديوك عاجزون عن الحسم .

كلمة ختامية

يبقى أن نشير أخيراً إلى أنه رغم العديد من الأخطاء* التي وقع فيها بيرو ، سواء في عرض الوقائع أو في تحليلها ، خلال دراسته الطويلة والشيقة بصدد « الرجل من طراز فريد » ، هنري كورييل ، فإن كتابه يبقى عظيم الفائدة لمن يود الاطلاع على دقائق مرحلة حاسمة من حياة مصر ، بالغ الاثارة بالطريقة التي يعرض فيها مسار تلك القبضة الشجاعة من الرجال والنساء الناقمين على طبقتهم والمنسلخين عنها ، والمتحقيقين بالمصالح الانيسة والتاريخية لكادحي مصر ومعذبيها ، وبرسمه القدر المأساوي لرجل وضع حياته بكاملها في خدمة الأفكار التي آمن بها ، وكانت أمنيته الأعرز « ألا يموت على فراشه » .

* يمكن الإشارة ايضاً ، على سبيل المثال ، الى ظلمه لطف الله سليمان الذي يلتمح اليه في ص 175 دون ذكر اسمه ، معتبراً أنه لما كان التروتسكي الوحيد المعروف في مصر ضخم دوره للتعويض من ضالة العدد ، فكان آخر من اخلي سبيله . والحقيقة انه ابقى في السجن لأن اجهزة الأمن عرفت بطلبه الى رمسيس يونان المجيء من باريس للمشاركة في الأحداث ، ففسرت ذلك بمسؤوليته عن تنظيم .

كما نشير الى تبني بيرو قول جوزف هازان إنه لو جرى اعتماد تحليل كورييل لحركة الضباط الأحرار ، واتخاذ مجمل الحركة الشيوعية المصرية الموقف الذي اتخذته حدثت في البداية ، « لبات لدينا في مصر كاستروية ناصرية . كان قدر الشرق تغير بالكامل » . وهو تحليل لا يأخذ بالاعتبار التباين الواسع بين حالي كوبا ومصر ، لا سيما ان الضباط الأحرار ، الذين كان معظمهم ينتمي الى الجناح اليميني ، كانوا يركبون ، عدا ذلك ، وكأداة للسلطة ، جيشاً بورجوازيًا جاهزاً ، إلا يكن الواقع الطبقي لجنوده وضباطه الصغار ، بينما جرت في كوبا تصفية جيش باتيستا وحله بالكامل على يد المتحعين القادمين من السيرا مايسترا ، المستلدين لجيش من العمال الزراعيين والفلاحين الفقيرين والمتفقين الثوريين .



كان يردد أمام امرأته وأصدقائه : « نحن محظوظون للغاية ، نسكن أجمل حي في أجمل مدينة في العالم . » هذه الجملة وحدها كانت تعبر عن طويّة ابن الستين المولود خارج فرنسا : فلم يعد ثمة غير الأجانب الذين بلغوا حداً معيناً من العمر يجدون أن باريس عيد لا مثيل له . ولم يكن هنري كورييل ليغير رأيه في هذا الصدد . أكثر من مناضل أجنبي وصل لاحقاً من أطراف العالم كان يجد نفسه راكباً زورقاً للحجج على امتداد نهر السين ، مع تعليقات تاريخية - معمارية مفصلة حول النُصب التذكارية عند ضفتي النهر . وكان يحق للمناضلات ذوات الطلعة البهية ان يقمن بزيارة لمتحف اللوفر بصحبة دليل . كانت نوتردام تستثير على الدوام استهلالاً حماسياً بصدد الروائع التي أوحى بها إيمان جماعي . وحين كان يعود كورييل من جولة المواعيد التي تقوده من الصباح إلى المساء من مقهى إلى مقهى ، كان يفضل أن يمر بالسين ، ولو اقتضى منه ذلك دورة ، وكان يسعده أن يسلك من جديد المسار الذي طالما اعتبر انه لا يضاهى . حين يصل إلى أسفل جبل سانت جونفيف ، ينخرط في الشوارع الصغيرة في الدائرة الخامسة - أحد الأحياء الشعبية النادرة التي نجت من الغزو العقاري - إلى ان يصل لشارع رولين حيث استقر عام 1972 مع زوجه روزيت . كان قد جرى تجديد البناية رقم 4 ، لكن حجراً منحوتاً ، تحت سقيفة المدخل ، كان يشهد على قِدَم المكان : في ظل حكم لويس الثالث عشر ، وَضَعَ هذا الحجرَ الأوّل جيهان هوير ، ابن ايرها هوير ، المعلم الصيدلي في باريس . كان الزوجان كورييل يقطنان مسكناً من طابقين في السابع والثامن من مبنى حديث في آخر الحوش (غرفة جلوس ومطبخ في الطابق السابع ، وغرفتان في الثامن) ، بحيث كانا يستمتعان بإطلالة رائعة على المدينة المحبوبة .

كان هذا الشغف غريباً بعض الشيء ، لأن باريس كانت بالنسبة لهنري كورييل مكان النفي والكبت قبل أن تغدو مع الوقت نوعاً من السجن الذي يحتجزه فيه وضعه كإنسان لا

وطن له ولا جواز سفر . لكن في سن الرابعة والستين - من ضمنها 27 عاماً في باريس - ما كان ليجمع الحد الحواري الذي تم في الماضي ، في بوليفار سان ميشيل ، على بعد خطوتين من شارع رولين ، بين صديقه وخصمه السياسي ، مارسيل اسرائيل ، المولود هو أيضاً في مصر واستاذ سويسري كان يدرس في القاهرة . كان ذلك عشية الحرب العالمية الثانية ، وكان أي من الناس يتوقع أياماً قادمة حزينة ، لكن ذلك أيضاً هو الوقت الذي كان يعيش فيه الشبان من طرازهما وهم على قناعة علمية بأن الأيام التي ستلي ستكون جميلة . كانا يتحدثان عن سيادة المساواة القادمة حين توقف الأستاذ فجأة ، ووجهه قد اكفر ، ليقول : « لا ننخدع » . فنحن لن نبلغ المساواة التامة في يوم من الأيام . سيكون ثمة على الدوام من يسكنون باريس ، من جهة ، والآخرين ، من جهة أخرى » . وقد هز مارسيل اسرائيل رأسه موافقاً .

كان هنري كوريليل يجاهر أيضاً بأن مسكنه يضمن له حماية نسبية ضد الاعتداءات على حياته . ومما لا شك فيه أنه كان يريد تبديد قلق أصدقائه ، الذين كان الكثير منهم يحثونه على الانتقال لمسكن آخر مذ جرى اتهامه بصورة مفضوحة بأنه على صلة بالارهاب الدولي . إن شارع رولين ، القصير والضيق ، يصل شارع مونج بساحة لاكوتترسكارب ولا تدخله السيارات الا انطلاقاً من لاكوتترسكارب ، لأنه يُنقذ إلى شارع مونج ، من أعلى إلى أسفل بواسطة درج من 30 درجة . أما المبنى رقم 4 فهو على بعد عشرة أمتار من الدرج . إن هذا الشارع ، الذي لا يصلح لمروور السيارات ، والمحاط بمبان سكنية ، هو بالتأكيد أحد أهدأ الشوارع لا بل أكثرها إقفاراً . وكان هنري كوريليل محقاً حين اعتبر ان هكذا هدوء يجعل من الصعوبة بمكان أن يتمكن قتل محتملون من استخدام المكامن التي يحتاجون للبقاء فيها وقتاً طويلاً وهم يرصدون عاداته : فأي حضور غريب كان نبه سريعا فضول البوابين ومدبرات البيوت في المنطقة . لكن في حال تم التغلب على هذه الصعوبة (وسيتم البرهان دائماً على أن تقنيات التجسس الحديثة توفر الوسائل لذلك) ، فإن المبنى رقم 4 ، في شارع رولين ، كان يقدم تسهيلات خارقة لعصابة من القتلة . إن المرحلة الأشد خطورة بين مراحل اعتداء ما هي دائماً مرحلة الانكفاء ، حين يكون ضجيج الطلقات النارية قد أثار الشعور بالخطر ، لا بل أثار ذعراً ينتشر بالتدريج : يمكن ان يسجل شهود عيان أوصاف القتلة ، ويدونوا نوع سياراتهم ولونها ، وأن يبلغوا الشرطة بسرعة ، فتعمد هذه في الحال الى إخطار سيارات الدورية التابعة لها . لكن إذا كانت الرماية على الهدف ستمزق هدوء شارع رولين ، فلقد كان القتلة متيقنين من أنه لن يراهم سائقو سيارات وهم يخرجون من المبنى ، كما كانت لديهم فرص كبرى لعدم الالتقاء بأي راجل ؛ كان يكفيهم ، بوجه خاص ، أن يخطوا عشرة أمتار وينزلوا ثلاثين درجة كي يفلتوا من البلبلة التي تكون أثارها إغارتهم الدموية : إن شارع مونج العريض ، وبالغ

الحوية ، الذي يشهد سيراً كثيفاً ، لا يرى ولا يسمع ما يحدث على بعد ستة أمتار فوقه ، في شارع رولين الريفي . إنه عالم آخر . ما أن يهبط القتلة الدرج حتى يصبحوا خارج امكانية ملاحظتهم .

يمكن ألا يكون هنري كوريليل لاحظ هذه المخاطر (لم يمكس يوماً سلاحاً نارياً ولا شارك في عمل عنيف) لكن من المرجح أنه لم يجد في ذلك سبباً كافياً لمغادرة شقة ممتعة . كان يردد أمام أصدقائه الحميمين أن أي احتياطات لا تنفع على المدى الطويل في وجه إرادة الاعتداء على حياة انسان . عدا ذلك ، فمنذ ثلاثين عاماً وضعته حياته النضالية خلالها في مرمى أجهزة الاستخبارات الأكثر استعجالاً ، كان قد رفض على الدوام أن يضحى بفعاليته لصالح أمنه . كانت طريقته في الحياة - مع أنه لم يتحدث عنها يوماً ، لأنه كان وجد ذلك غير ملائم - طريقة رجل جعل من حياته قرباناً ، مرة وإلى الأبد .

في ذلك اليوم ، الرابع من أيار 1978 ، كان غداؤه شطيرة من الجامبون وفنجان قهوة ؛ فقد كان سيأخذ درس اليوغا بعد الظهر مباشرة ، ولم يكن يريد إئقال معدته بالطعام . في الثانية تماماً ، غادر شقته تصحبه امرأته روزيت على قرص الدرج ، كما العادة . كان يرتدي طقمًا كحلياً ، وصدرية رمادية وكنزة بيضاء ذات طوقٍ مقلوب . تطلعت اليه روزيت وهو يدخل المصعد ، وحين غابت الكابينة عادت الى الشقة وتمددت على سريرها لقضاء بعد الظهر في القراءة .

حين كان هنري كوريليل نازلاً ، أخرج من جيبه مفاتيح سيارته ومفكرة ذات غلاف أسود . أمسك هذه الأشياء بيده اليسرى ، وأخذ ييمناه قلم الحبر وراجع المفكرة التي فتحها على تاريخ 16 أيار . كان يكتب ، أو يستعد للكتابة ، حين وصلت الكابينة الى الطابق الأرضي ، بحيث ربما لم يلاحظ الرجلين الكامنين في الردهة . في كل حال ، لم يعد في وسعه القيام بأي شيء للافلات منهما . كان القتاتل يسد مسدسه من نوع كولت 45 . أما دور شريكه ، فمما لا شك فيه أنه كان فتح باب المصعد الذي كان يمكن هيكله المعدني وتشبيكه أن يعيقا الرماية ؛ وقد وُجد مفتوحاً قليلاً . أطلق القاتل النار عبر زجاج الماطورة الشمالية لباب الكابينة ذي المصراعين . وقد انهار هنري كوريليل ، وهو لا يزال يمكس بمفاتيحه ومفكرته ، وسبابته اليسرى على صفحة السادس عشر من أيار .

أعلن أحد عشر شاهداً أنهم سمعوا دويّ طلقات ثلاث . كان أحدهم صحفياً مختصاً بالسينما وكان يتناول الغداء عند صديقة له ، في الطابق الثالث من المبنى المطل على الساحة . وقد فكر على الفور في هنري كوريليل . كان قد التقاه قبل أيام وقال لصديقتيه : « سوف يتم

تفجير شقة كوربيل ، في يوم غير بعيد » . نظر إلى ساعته (كانت الثانية ودقيقتين) ، في رد فعل فوري لرجل المهنة . وقد أوضح للمحققين الأوائل أنه لما كان اشتغل خلال حرب الجزائر كمدرّب على السلاح ، فهو متأكد من أنه لم يخطئ بصدد عدد الطلقات . أضف إلى ذلك أن رجال الشرطة جمعوا ثلاث خرطوشات من أمام باب المصعد . فقط شاهد واحد سمع أربع طلقات . كان مدرّساً يعمل في الجزائر ، وقد جاء إلى باريس لبعض الوقت . سمع الطلقات من غرفة فندقه ، في الرقم 54 من شارع مونج ، أي من مكان أبعد بكثير من الأمكنة التي كان فيها الشهود الآخرون . ومع ذلك ، فهو الذي كان على حق . لقد استقرت ثلاث رصاصات في جسم هنري كوربيل ، لكن التصوير الشعاعي للجثمان بكامل الثياب سمح باكتشاف رصاصة رابعة في بطانة سترته . وقد اكتشف الطلقة الفارغة الرابعة ، بعد ثلاثة أسابيع في حفرة المصعد ، الاختصاصي الذي جاء لاصلاح الكابينة .

توفي هنري كوربيل دون أن يستعيد وعيه ، بعد دقائق من حصول الاعتداء ، بنتيجة نزيف داخلي أحدثته جراح في الرئة والكبد . بعد أن تمت المعاينات المعتادة ، نُقِل جثمانه الى البراد ، على حافة نهر السين ، قرب كنيسة نوتردام .



قال لي شحاتة هارون ، المحامي في القاهرة ، قال لي وهو متسمّر أمام شبّاك مكتبه :
« انهض . هيا بنا ! فأنت لم تر بعد كل شيء... »

كنت قد مررت لأصطحبه إلى مسكنه ، في قلب ما كان يُسمّى في السابق المدينة الأوروبية . وهو يقطن مع امرأته شقة من خمس غرف لا يزيد إيجارها عن 42 فرنكاً في الشهر ، بفضل التثبيت المفروض منذ عقود . والبناء ، الذي كان في الماضي يليق بالنبل ، بات يتفتت صفائح مبقعة . ولما كانت المياه قليلة الجريان قد أضحت تنفر من تسلق الطوابق ، فقد رُكّب كل مستأجر مضخة لاستخدامه الخاص ؛ ثمة دائماً عائلة مستعدة لأن تضخ كثيراً وتمنع الماء عن الآخرين . كل شيء يتفسخ . أما المصعد القديم فحينئذ يكون شغّالاً وحيناً آخر يكون معطلاً .

(في الثلاثينيات ، كانت ديدار روسانو البالغة آنذاك 12 عاماً ، والتي كانت عائلتها تسكن في الطابق العاشر ، كانت تتطلع بهدوء ، في هذه الكابينة بالذات ، إلى البواب - عامل

المصعد وهو يستمني أمامها - كان يصعد إلى الطابق السادس قبل أن يعود فينزل إلى الثاني كي لا يستعجل أمره - وكانت تدهشها فقط الرائحة القوية للمني والعرق وقد امتزجا . كان البوابون في المدينة الأوروبية يأتون من النوبة ، في صعيد مصر . كانوا شديدي السواد ، شديدي الفقر ، يبقون سنوات من دون أن يروا عائلاتهم ، التي كانوا يرسلون إليها أجورهم الزهيدة . كانت ديدار تحب البواب ، ولم يخطر ببالها يوماً أن تفضحه .

كان مكتب شحاتة هارون على بعد مئات الأمتار لا أكثر . ولقد سلكنا أرصفة منقوبة ، واجتزنا شوارع شعناء ، وحاذينا أبنية متشقة ، منهكة ، قربها قاذورات كريهة الرائحة . في كل مكان ، كنا نرى حشداً كبيراً من الناس ، لم يعد يُرى في أوروبا الا عند تشيت مظاهرات كبرى سياسية أو رياضية . كان هناك عبور كثيف ووحشي للسيارات ، ولا يبدو على أي سائق أنه يهتم بالمشاة أكثر مما نهتم بالحشرات التي ينتظرها السحق على واقية الريح . وكانت تطفو فوق موج السيارات عناقيد بشرية ضخمة تثن تحت ثقلها حافلة كهربائية - في الأيام الأولى ، يتم إغماض العينين لتحاشي رؤية الأولاد البهلوانين يقعون (وهم لا يقعون) . هنا خنادق تصدأ فيها قنوات : وهنالك ورشة مفتوحة منذ خمس سنوات أو عشر ، نسي من فتحوها أن يعيدوا إغلاقها . مناضد يعرض عليها الباعة بضائعهم ، تتجاوز الرصيف ، وبائعون على السريع ، وعربات محملة بالكثير من الخضار تتعرج بين الأوزان الثقيلة . وترى كُتُعا ومُقعدين ، وعمياناً ، ومحدودين ؛ وأولاداً كما لو كانت السماء تمطر منهم ، لكثرة عددهم . لكن السماء لا تمطر أبداً ، بالطبع ، والغبار الدُّبق يدهن المدينة بصباغ رمادي . كل شيء رديء ، منحط ، مخْلَع . فالمنخران يغتاظان من الروائح النتنة ، والعينان تصدمان عند كل منعطف ببشاعة جديدة . والأذنان الموقورتان تصابان بالهلع من أصوات متنافرة عجيبة حيث يسيطر النغم الدائم لمنبهات السيارات (تبقى كف كل سائق ضاغطة على الزمور) على خلفية مدوية من المناديات ، والشتائم والضحكات وأنواع الموسيقى المتناقضة التي تخرج من حلق مئات الترانزستورات المتدلية من الذراع .

وبالنسبة للأحياء الأخرى ، لقد تم الرضوخ سلفاً : فهذه آسيا - وفي الأخير ، أفريقيا . قُصَّة هائلة من القرى التي تساوي كل منها مقاطعة فرنسية . حتى إذا كان الزائر على علم مسبق فهو يندesh مع ذلك إزاء الحشود البشرية المنتشرة في الشوارع ، الجالسة على الأرصفة ، والمنصرف للعطالة عن العمل في سراويل النوم المضلعة . حتى أن المرء ليساوره الاعتقاد بأنه جرى إنذار الناس بقرب وقوع هزة أرضية فاحتاط كل واحد بمغادرة مسكنه لكن ليس ثمة شيء من ذلك ، إذ إن البيوت مكتظة بالنساء والأولاد والشيوخ . البيوت التي لا تزال متصبة . حيث لا تُعد ولا تُحصى المباني المقوّضة ، المهدمة ، إلى حد أن السائحين قليلي المعلومات

يتخيلون عمليات قصف اسرائيلية عنيفة . لكن حين يفيد القرش الأخير في تحاشي الموت جوعاً ، أين يمكن إيجاد المال لتدعيم بيت مزدحم ؟ يحفر الناس مغاور لأنفسهم في الانقاض ، أو يتكدسون أكثر قليلاً في الأكواخ المجاورة . ان ثلاثمئة متر من الشوارع الصغيرة تضم عدداً من الأنفس يزيد عن عدد سكان كانتوني النورماندي . والقبور تثير الدهول . فلنتخيل 30 ألف شخص في مدفن بير- لاشاز الباريسي ، وخمسة آلاف في مقبرة مونبارناس ، وقد استقرت في كل جناح عائلة كبيرة العدد ، وازدهرت الأكواخ بين القبور ، بينما الغسيل يتطاير في الريح ، والمطابخ تنتشر في الهواء الطلق ، وجماعة من الأطفال يثرثرون وهم يلعبون بالعُظَيمات فوق رميم الأموات . . .

لكن كل هذه الأشياء الغربية ما كانت تتوصل لابتذال المدينة المسماة أوروبية . حتى التمازج الخرافي بين الموتى والأحياء كان يثير ذهولاً أقل مماثيره المفارقة بين الديكور الأنيق للجميلة العجوز ، الواجهات العابسة لواحدة بورجوازية تحذرت نحو مهاوي البؤس ، والجمهور القادم من مكان آخر الذي يتكدس على ارضيتها . كان يبدو على المدينة الأوروبية السابقة كما لو أنها أخطأت الفيلم .

قال لي شحاته ، الذي كنت قد انضمت اليه عند نافذة مكتبي : « انظر ، هذا الكوخ الصغير ، الى اليمين ، بُني حديثاً . أول من امس لم يكن موجوداً بعد » .

كنا نشرف من عل على السطوح الترابية للمباني المجاورة ، وكنت أكتشف فوق ظهر المدينة النبيلة مدينة أخرى جاثمة تتراوح بين مخيم البدو ومدينة الصفائح ، أكداً من البيوت الحقيبة ، والأكواخ الصغيرة ، والملاجيء ، والحيام ، التي كانت بدت بشاعتها لو لم يستخدمها عدد كبير من الأولاد كما لو أنها علبة جواهر .

قال شحاته : « هكذا الأمور في كل مكان . يستقرون صدفةً . قريباً سيكون هناك أناس على السطوح أكبر عدداً من الناس في البيوت . في الصباح ، حين اخرج من بيتي ، ألتقي على الدرج سيلاً من الأولاد الذاهبين الى المدارس . . . » .

كان قد رأى مدينة صباه وقد ابتلعها بحر بشري ، على طريقة جزيرة الأطلنطيد . حين ولد عام 1920 ، لم يكن أي مصري يذهب الى المدينة الأوروبية اذا لم يكن مقاولاً أو خادماً ؛ وحين بدأ شحاته تدرجه كمحام بعد ذلك بخمسة وعشرين عاماً ، لم يكن شيء قد تبدل بعد . كان الحي الكبير المبني على ضفة النيل اليمنى ، مقابل جزيرة الزمالك ، ذلك الحي الذي لا تعين حدوده تحوُّم مادية ، كان قطعة من أوروبا ترصُّع القاهرة . كانت تسود جاليات ثلاث ، أكبرها وأقواها الجالية اليهودية ، تتبعها من بعيد الجالية الايطالية ومن ثم الجالية اليونانية . في ذلك

الزمان ، كانت الشوارع محاطة بالأشجار وكان الكناسون يجمعون ، وهم يحملون ، روث البهائم التي تهر العربات ؛ وكان الرجال ينصرفون لأعمالهم في سيارات يقودها سائق ، بينما كانت النسوة يتبضعن بصحبة خادمة تتولى حمل الرزم . وكانت الفتيات يذهبن الى صفوفهن وهن يتحققن من ترتيب لباسهن في حين يتمتم الصبية بلائحة المحافظات الفرنسية ؛ وكان يجري الالتقاء مجدداً في الخامسة مساء لتناول الشاي أو تذوق البوظة لدى غروبي .

ثم تبددت الجاليات الأجنبية تحت الرياح العاصفة للخمسينيات واكتسح الأحياء الأوروبية وباقي المدينة موج عالٍ مفاجيء لا مثيل له في تاريخ المدن .

القاهرة 1940 : مليون نسمة .

القاهرة 1980 : عشرة ملايين نسمة .

اليوم ، هي المدينة الأشد اكتظاظاً بالسكان في افريقيا ، وربما في آسيا (الارقام غير أكيدة ؛ لسنا أمام فرق مليونين أو ثلاثة ملايين . . .)

كرر شحاتة وهو يضحك : « سيل من الأولاد ، كما لو كانوا يهبطون من السماء ! » .

كان يجد ممتازاً أن تغمر الحياة المدينة الأوروبية مثلما تغمر القبور الأخرى .

لكنني كنت أتيت لأتقفي في القاهرة آثار هنري كورييل ، وقد محها طوفان بشري هائل .

هذه القصة تبدأ إذن قبل الطوفان .



كانت روزيت كورييل عمدة على سريرها منذ نصف ساعة تقريباً حين أخرجها من غفلتها رنين الجرس ، فذهبت لتفتح . كان على الباب جيرانها الساكنون في الطابق ذاته . وكان الرجل ، ابن الخامسة والثلاثين تقريباً ، أستاذاً في الحقوق وقاضياً في المحكمة الادارية . أما زوجته ، طويلة القامة وضامرتها ، والجميلة جداً فكانت تربي ابنتيهما . وكانا يقطنان المبنى منذ ما قبل مجيء آل كورييل إليه ، لكنهما حتى ذلك الحين لم يكونا استحصالاً على هاتف ، وإن كان في ذلك ما يثير الدهشة ؛ وعند الحاجة كانا يستخدمان جهاز آل كورييل .

قالت روزيت كورييل : « كانا زائغين ، ولا سيما هو . فقد كان يرتجف ، وترتجف

شفتاه . ففكرتُ بأن مصيبة حلت بابتئيهما وبأنهما يريدان استعمال الهاتف . أمسكني بكتفتي وقال لي : « يلزمك الكثير من الشجاعة » . لم أفهم في البداية لماذا قال لي ذلك طالما أن أمراً حدث لابتئيهما . ثم فكرت في هنري ، في حادث سيارة . لكن لم يكن ذلك ممكناً ، فلا بد أن يكون هنري وصل منذ وقت طويل الى حيث يمارس اليوغا . تطلعت الى امرأته التي كانت شديدة الاضطراب . قال لي : « لقد حدث اعتداء على زوجك » . ففكرت على الفور : « إنه جريح ، جريح فقط . » قال لي : « تعالي ، هو في الأسفل » .

« نزلت معها الطوابق السبعة وأنا لا أنفك أسأل : هل هو حيُّ يُرزق ؟ » إلا أنها لم يكونا يجيبان . فقلت لنفسي : « إنهم الفلسطينيون أو الصهاينة . سيارة مفخخة . كم مرة قلت له : « سوف تعرّض نفسك للاغتيال ! » لكن ما الفائدة ؟ حتى لو عرف أنهم سيقتلونه ، فقد كان سيواصل طريقه . سأله عندئذ : « متى ستقاعد ! » فأجابني ضاحكاً : « ليس هذا وارداً . حتى إذا أصبت بالشلل وتسمّرت في كرسي متقل ، فسوف أستمّر . وآمل أن أعيش الى سن متقدمة جداً » . كان يتمتع بصحة جيدة جداً ، فمُنذ 25 عاماً ونحن في فرنسا مرض ثلاث مرات فقط ، أصيب بالزكام .

« كان هناك تجمع في البهو ، يضم عشرين شخصاً تقريباً . رجال شرطة وممرضين . سدّ أحد رجال الشرطة طريقي ، فقلت له : دعني أقترّب منه ، فهذا يقوي معنوياته . » فhez رأسه وقال لي بلطف زائد في صوته : « كلا ياسيدي ، يجب الا تذهبي اليه » .

« أتاني أحدهم بكرسي . لم يكن في وسعي حتى أن أرى هنري بسبب كل هذا الجمع . في إحدى اللحظات ، رأيت ممرضاً يمر ومعه زجاجات دم وفكرت بأنهم سوف ينقلون دماً اليه . »

كانت النجدة قد وصلت بسرعة ملحوظة . فالفاتل أطلق النار في الثانية ودقيقتين . وقد تلفنت البوابة لرجال الاطفاء وللشرطة في الثانية وخمس دقائق . ووصل رجال شرطة كانوا في سيارة دورية في الثانية وست دقائق ، بعد أن تمّ تنبيههم بواسطة الراديو ؛ أما رجال الاطفاء فوصلوا بعد ذلك بثلاث دقائق . أزاح العريف أول في الشرطة خمسة مستأجرين أو ستة كانوا قد تجمعوا أمام المصعد . كان هنري كورييل جالساً في عمق الكابينة ، مرفوع الركبتين ، ورأسه منحني على صدره . كان الدم يسيل من أنفه وفمه . ومن المرجح أن رجال الشرطة اعتقدوه ميتاً لأنهم اكتفوا بجمع الرصاصات الفارغة الثلاث بعد أن ميزوا أمكنتها بواسطة الطبشور ، ثم عاد رئيسهم الى السيارة ليبلغ بما رأى بواسطة الراديو . وقد دنا منه في الساحة الصحفي الذي سمع ثلاث طلقات ودوّن لحظة سماعه اطلاق النار بدقة . أخبره الرجل بأن

الضحية هنري كوريل ، وهو « متطرف يساري » . بالنسبة اليه ، كانت الجريمة جريمة سياسية .

وصل الاطفائيون في ذلك الحين وتدخلوا بفعالية فظة علّق عليها رجال الشرطة الحاضرون ، فيما بعد ، بتعابير تنطوي على مرارة . كان الرقيب أول الذي يقود فريقاً من سبعة اطفائيين قد أدرك على الفور أن الضحية ما تزال تنفس . فانتزع بابي الكابينة الزجاجيين (كانا يفتحان مبدئياً باتجاه الداخل لكن ركبتي هنري كوريل كانتا تحولان دون ذلك) ، وسحب من اليدين المتصلبتين المفكرة وعلاقة المفاتيح ، واستعاد قلم الحبر المضغوط بين ورك الجريح والجدار ، ووضع هنري كوريل على جنبه في « وضع جانبي أمني » وركز على فمه قناع أوكسيجين . في غضون ذلك ، كان أحد الاطفائيين يقص الثياب لتحديد مكان الجروح . وقد تمّ وضع كمادات معقمة عليها . أما العريف أول فأبدى أسفه الشديد ، لأنه بالرغم من توصياته فقد سلّمه الاطفائي المفكرة مغلقة وليس مفتوحة . الا أنه تمّ مع ذلك تحديد الصفحة المطلوبة - صفحة 16 أيار - بفضل بقع الدم التي كانت تلتخطها .

وصل طبيب السامو SAMU الذي بلغه الاطفائيون وهم قادمون ، وصل بعد دقائق من وصولهم هم . فأمرهم باخراج هنري كوريل من الكابينة . وقد تمت الاستجابة لطلب العريف أول بتحديد وضع الجسم بواسطة الطبشورة . كان الطبيب لاحظ من أول وهلة حالة « موت ظاهر » ، من دون نشاط للقلب ، لكنه باشر مع ذلك الأعمال التقليدية لانعاش الجريح . وكانت هذه الأعمال مستمرة دون جدوى منذ 15 دقيقة قبل وصول روزيت كوريل .

سألت روزيت كوريل . الجالسة على كرسيها ، مفصولة عن زوجها المحضر بحاجز رجال الشرطة ، سألت مستأجراً في الطابق الأرضي إذا كان في وسعها استخدام الهاتف . وقد خابرت جوزيف هازان ، أحد أقدم أصحاب زوجها . كان يسكن في شارع مالو ، قريباً جداً من شارع رولين . قالت له : « لقد تم اغتيال هنري » . فصرخ وأغلق جهاز الهاتف على الفور . ولم تمر دقيقتان حتى كان هناك هو وامراته . إلا أن رجال الشرطة لم يدعوهما يقتربان من الجثمان وبقياً قرب روزيت ، الجالسة من جديد على كرسيها .

في الثالثة إلا ثلثاً ، نهض الطبيب واتجه نحو روزيت ، كان شاباً ذا هيئة جذابة ، وقد بدا شديد التأثير . قال لها : « آسف جداً ، لم يعد في وسعي أن أفعل شيئاً لزوجك » . شعرت روزيت كما لو أصيبت بضربة قاضية . بدا لها أنها تعيش كابوساً ، وقد نهضت بشكل آلي . قال أحدهم ، ولا ريب أنه هازان : « لا يمكنها أن تتسلك كل هذه الطوابق ، فهي مصابة

بالقلب . » كانت روزيت كورييل صغيرة القامة ، نحيلة ، مغضنة الوجه ، وكانت صحتها شديدة العطب . عام 1975 ، أي قبل ثلاث سنوات ، أصابتها نوبة قلبية تلازمت مع نزيف داخلي سدّ الكليتين وتمّ نقلها يومذاك الى مستشفى بروسيّ Broussais وكانت تلك هي المرة الأولى في حياتها التي ترى زوجها فيها يبكي . كان يردد عندئذها : « لا تركيني » . أما الآن فقد كان هو الذي يتركها .

عرض الطبيب الشاب مساعدته . وقد صعدت إلى الطابق السابع ، تسندها جارتها وامرأة جوزيف هازان . وما كادت تدخل حتى كان مفتشو المفزة الجنائية يقرعون على الباب . كانوا يريدون اصطحابها الى رصيف أور فيشر لاستجوابها . ولما كانت في أقصى درجات الانهاك ، فقد رجّتهم أن يتركوها وشأنها ، لكن إزاء إلحاحهم رضخت في نهاية المطاف ونزلت معهم من جديد . وقد قرر جوزيف هازان مرافقتها .

عند الثالثة بعد الظهر ، تلقت وكالة فرانس برس مخابرة هاتفية من مجهول بادر إلى القول : « اليوم ، في الساعة الثانية تماماً ، أوقف عميل الكا . جي . بي . هنري كورييل ، المناضل لأجل القضية العربية ، وخائن فرنسا التي تبنته ، أوقف نشاطاته نهائياً . لقد تمّ إعدامه عربوناً لذكرى كل أمواتنا . خلال عمليتنا الأخيرة ، كنا قد وجّهنا تحذيراً . دلتا . » .

※

※ ※

جرى إعلام راوول كورييل عن طريق مخابرة من جوزيف هازان . وقد ظن في البدء أن الأمر يتعلق بجرح بسيط ، لكن حين علم بوفاة أخيه ، رزح تحت الألم الشديد . قبل أن يمضي الى شارع رولين ، خابر جويس بلو : « هل بلغك الخبر ؟ - خبر ماذا ؟ - حصل اعتداء على حياة هنري . لقد مات . » أطلقت جويس بلو صرخة ، وقالت : « إلى اللقاء » ثم أغلقت الهاتف . كانت قد انتظرت عبثاً هنري كورييل أمام المبنى الذي تُعطى فيه دروس البيوغا ، ثم عادت إلى بيتها ، حائرة لكن دون قلق . وللحال مضت إلى مسكن آل كورييل .

كان ريمون أغيون ذاهباً إلى بيت الصحفي - الكاتب كلود بورديه . فتحت إيذا بورديه الباب له وأخبرته أن إذاعة طرفية أعلنت في نأ خاص أن ابن خاله هنري تعرّض للاغتيال . فبقي عند عتبة الباب ، مصعوقاً وذهالاً (لدى التفكير ، بدا له الخبر مؤلماً أكثر منه مفاجئاً) ، ثم رجع أعقابه وهرع إلى شارع رولين .

كان شحاتة هارون استقل في الصباح ذاته الطائرة إلى باريس . في القاهرة ، علمت امرأته من صديق التقط الخبر فيما كان يستمع إلى الاذاعة الانكليزية . وقد انفجرت بالبكاء ؛ قالت لابنتها التي كانت تجتهد كي تعزيها : « لا يمكنك أن تفهمي ، فثمة أشخاص لا يمكن تخيلهم أمواتاً » .

كان ريمون اسطمبولي في بيته ، في حي الانفاليد ، حيث أوردت الاذاعة النبأ الخاص الذي يعلن اغتيال صديقه . وقد شعر بأنه يتلقى ضربة على معدته ، وهرع للحال في سيارة إلى شارع رولين . فيما كان يمضي مسرعاً في الشوارع المقفرة ، بعد ظهر ذلك اليوم ، يوم الصعود ، تذكر محادثة جرت بينه وبين هنري كورييل حين تلقيا نبأ شق عبد الخالق محجوب ، الأمين العام للحزب الشيوعي السوداني وصديقهما الحميم ، في الخرطوم . كان هنري قد قال : « في يوم من الأيام ، سأنتهي بهذه الطريقة ، بموت عنيف . وهكذا بالضبط أتمنى أن انتهي . إنه الموت الأجل ، موت الجندي . » أما قتلته ، فقد كان لدى ريمون اسطمبولي حدس غامض بأنهم من « رجال الشرطة اليمينيين » .

تلقت ليديا ألوني مغامرة هاتفية إلى بيتها من صحفي قال إنه يتكلم من قبل جان لاکوتور . كانت صديقة آل لاکوتور منذ إقامتهم خمس سنوات في مصر ، في الخمسينيات . وقد سألتها الصحفي إذا كان في وسعها أن تعطيه بعض التفاصيل المتعلقة بهنري كورييل . وإذا أصيبت بالحيرة ، اقترحت على محدثها أن يوجه إليها أسئلته مباشرة . وران صمت في الجانب الآخر من خط الهاتف ، ثم جاءت هذه الجملة المرتبكة : « . . . ألا تعلمين أنه تعرض للاغتيال ؟ » - « أنزع ؟ » - كلا ، لقد سقط قتيلاً قبل ساعة من الآن . « كانت قد باشرت جمع ذكريات هنري حول عمله في مصر ، وكانا يمضيان مرة في الأسبوع إلى حديقة اللوكسمبورغ حيث كانت تسجل ما يقوله على شرائط . وقد قطع رحلته في الماضي ، ليقول لها قبل خمسة عشر يوماً أو ثلاثة أسابيع : « أشعر بأني مهدد . » كانت تلك هي المرة الأولى التي يكلمها فيها بهذه الطريقة . وإذا تأثرت بالحزن الذي كان يخالط صوته ، تصنعت عدم أخذ كلامه على محمل الجد ، قائلة : « دعك من هذا ! أنت تستسلم للثائرة . هنالك أناس أهم منك بكثير . . . » وقد تتمم : « أشعر بالكثير من الأحقاد تحوم حولي . . . »

كانت ايميه سيتون في الريف ، قريباً من باريس . وقد اعتقدت في البدء أنها تسمع مزحة سمجة حين قالت لها ليديا ألوني على الهاتف : « لقد اغتالوا هنري » . وحين اقتنعت في الأخير ، قررت العودة إلى باريس في أول قطار .

إلا أن الشرطة كانت قد منعت الوصول إلى البناية رقم 4 في شارع رولين . وحتى راوول

كوريل لم تنفعه القرابة أنني تذرُع بها . فالأوامر كانت تقضي بعدم السماح لأحد بالدخول .
كان قد بدأ التحقيق ، ولم يكن وارداً عرفلته وإفساده بالروح والمجيء من جانب عائلة القتيل
وجمهور المصريين .

*

**

كان الشاهد الأكثر إثارة للاهتمام مساعد مباشر بالوكالة في مستقبل الشباب لا يزيد عمره
عن 17 عاماً ، يسكن مع أمه في الطابق الأول من المبنى المطل على الشارع . كان ينتظر صديقة
له ، وهو منحني من النافذة ، حين رأى رجلين يصلان عبر الدرج الذي يصل شارع مونج
بشارع رولين (تقع نوافذ الشقة بين هذا الدرج وسقيفة مدخل المبنى) . وقد نهت فضوله
حركة أحد الرجلين ، اللابس معطفاً أزرق غامقاً ، والذي سحب من جيبه قفازين وأدخل
كفيه فيهما : كان النهار حاراً بحيث لا حاجة إطلاقاً لوضع القفازات . واختفى الرجلان تحت
سقيفة المبنى .

كانت امرأة في زيارة صديقة لها ، وقد أشرفت على الانتهاء من الغداء ، في الطابق
الأرضي للمبنى المطل على الشارع . رأت الرجلين من نافذة غرفة الطعام ، التي كانت تنفتح
على الساحة ، يسيران في اتجاه المبنى الكائن في عمق الشارع . شاهدت أحدهما من الخلف ،
فبدأ لها في الخمسين من عمره ، قوي البنية ، متوسط القامة ، مرتدياً ثياباً قاتمة . أما الآخر
الذي كان يمشي خلفه قليلاً ، فكان طويلاً ورقيقاً ، يلبس سروالاً بلوجين وبلوزة من الجلد
الكستنائي . وقد لفت انتباهها أمر ثانوي : كان شعره غزيراً جداً ، طويلاً بما فيه الكفاية لأنه
كان يغطي عنقه ، وكان معقوصاً ، ذا لون كستنائي فاتح . كان عمره يتراوح بين الخامسة
والعشرين والثلاثين . وقد أعلنت أمام مفتشي المفزة الجنائية : « ما أن وصلاً إلى مدخل المبنى
المطل على الساحة ، حتى سمعت ثلاث طلقات ، كما لو أنهما كانا يقرعان على التول* أو على
شيء معدني . وقد تعاقبت الطلقات الثلاث بسرعة خاطفة . في تلك اللحظة ، وبما أني كنت
لا أزال أمام النافذة ، نظرت ورأيت أحد الرجلين يخرج راکضاً ، وبالتحديد صاحب الشعر
الكستنائي الفاتح ، الذي كان يلبس البلوجين والبلوزة الكستنائية ، وذلك في اللحظة التي
تلت الطلقة الثالثة . ومع أني رأيته مواجهة ، إلا أني لا استطيع إعطاء أي وصف لوجهه » .

* صفيحة من الفولاذ (العرب)

أما المباشر بالوكالة ساكن الطابق الأول فهرع إلى نافذة تطل على الساحة ، ورأى الرجلين يغيبان وهما راكضان تحت سقيفة المدخل . وحين انتقل إلى غرفة مطلة على الشارع رأهما يسيران بسرعة باتجاه الدرج المؤدي إلى شارع مونج . وحين مرّا تحت نافذته ، سمع الرجل المرتدي المعطف يكلم الآخر ، لكنه لم يفهم غير الكلمات التالية : « . . . خمس أوست ساعات » . وبما أن الرجل صاحب المعطف بدأ يتطلع إلى الخلف ، فقد تراجع المباشر بشدة مخافة أن يلمحه .

لم يكن يعرف هنري كوريل إلا بنتيجة تبادلته معه أحاديث بين الجيران لا أهمية لها . كان بالنسبة إليه رجلاً « لطيفاً ، ودوداً ومبتسماً » .

وقد أوضح لمفتشي المفزة الجنائية أنه ربما أمكنه التعرف على الرجل ذي المعطف والقفازين ، لكن بالتأكيد دون التعرف على مساعده . وقد أعطى عن الأول علامات دقيقة بما يكفي : ثلاثون عاماً تقريباً ، قامته تقارب المتر وثمانين سنتم ، شعر غامق وطويل يغطي الأذنين ، جسم متوسط السمنة ، معطف ترواكار واسع ، وقفازان كستنائيان غامقان . وكان مساعده من عمره تقريباً ، لكنه أكبر ، وأثقل ، وأكثر هدوءاً ، وذو مشية رياضية ؛ كان مرتدياً - على الأرجح - بلوزة من الجلد القاتم وسروالاً من نوع الجين . كان الرجل صاحب المعطف لا يزال واضحاً قفازيه لدى خروجه من المبنى .

بفعل الصدفة المدهشة ، كانت البوابة وزوجها مصريين مثل الزوجين كوريل . لم تكن العائلتان تقيمان أكثر من علاقات تافهة بين مستأجرين وحراس مبنى . في لحظة الاغتيال ، كان الزوج يأخذ القيلولة (كان محاسباً ويتابع دروساً في الاقتصاد بالسوربون) وكانت امرأته تستعد للخروج . وكما الحال في أيام الاحاد والاعياد ، كان الباب الزجاجي لمسكنهما ، المطل على السقيفة ، مسدوداً بمصراع خشبي ، بحيث لم تر البوابة القاتلين يمران . سمعت فجأة دوي انفجارين وفتحت نافذة تطل على الساحة . كان رجل يجتاز هذه الساحة راكضاً ، آتياً من المبنى المواجه . وقد تولد لدى البوابة انطباع واضح بأن رجلاً آخر سبقه ، لكنه بات تحت السقيفة ولم تره . وإذ أصيبت بالذعر ، وخنقت صرخة في حلقها ، قررت ألا تخرج . كان الهارب في عمر يتراوح بين الخامسة والعشرين والثلاثين . وكان طويل القامة ، غامق الشعر ، مجعده ، وقد قصه قصة قصيرة ؛ وعلى عينيه نظارات للنظر . يرتدي قميصاً سماوياً من دون ربطة عنق ، وسترة فوقها . ولم تكن البوابة تتذكر نوع النسيج المصنوع منه سرواله ، ولا لونه .

في حين كان زوجها يرتدي ثيابه بسرعة ، خاطبت بالاشارة مستأجرة واقفة على نافذة بيتها ، في الطابق الثاني من المبنى المطل على الساحة ، وتلقت تأكيداً بأن رجلين قد هربا للتو .

كانت هذه المستأجرة قد سمعت الطلقات الثلاث . وقد فكرت في صدمات على صفيحة من الفولاذ قبل أن تفهم بأن الأمر يتعلق بطلقات نارية . وتحت تأثير الخوف ، ترددت في الاقتراب من نافذتها ، ثم قررت ذلك . وقد كان الوقت كافياً لترى رجلين يغيبان تحت السقيفة . كان يغطي وجه أحدهما غصن شجرة ، بينما بدا لها الآخر معتدل القامة ، رقيقاً ، شعره متوسط الطول ، كث ، وكان يرتدي قميصاً رياضياً غامقة .

هكذا فإن أربعة شهود لمحو القاتلين لكن لم يكن أحد منهم قادراً على إعطاء وصف لهما يمكن الاستفادة منه حقاً . فالميزة البدنية الوحيدة ظلت الشعر الغزير والمعقوص لأحد الرجلين : وهي ميزة تكفي عدة ضربات مقص لتزيلها . كما أن القامة الكبيرة والبنية القوية شائعتان . وقد كانت بعض التوضيحات متناقضة . فالمباشر الشاب كان رأى شعره كثيفاً ومتوسط الطول لرجل يرتدي معطفاً أزرق ؛ أما الشاهدان في المبنى المطل على الساحة فأشارا على العكس إلى أن القاتل لا لبس الجين والقميص الرياضية القامة هو الذي كان شعره طويلاً ؛ وقد كانت البوابة هي الوحيدة التي أشارت إلى أن الرجل صاحب القميص الرياضي كان يضع نظارات . وأعلن المباشر الذي رأى القاتلين ثلاث مرات ، أعلن بشهامة أنه قد يتعرف على الرجل لا لبس المعطف لكنه لن يتعرف بالتأكيد على زميله .

لكن الافادات كانت مثيرة بمقدار ما تكشف الدقة الخارقة التي تم تنفيذ الاعتداء بها . فلقد دخل القاتلان المبنى بخطى ثابتة وهادئة ، كما لو كانا موقنين بأنهما سيجدان ضحيتهما على الموعد تماماً . لقد سمعت المرأة ، التي كانت تراقبهما من نافذة قاعة الطعام المطل على الساحة ، طلقات النار تدوي « مذ وصلا إلى مدخل المبنى المطل على الساحة » . كان القاتلان قد وصلا إذن إلى أمام قفص المصعد في اللحظة بالذات التي أنهت فيها الكابينة نزولها . كانت المزامنة دقيقة بشكل كامل .

لا شك أن هنري كوريل كان صاحب عادات ، كما ستشير إلى ذلك زوجته روزيت أمام مفتشي رصيف أورفيئر . كان يغادر شقته صباحاً بين الثامنة والثامنة والنصف ، ويعود عادة للغداء حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف ، ثم يمضي من جديد قرابة الساعة الثانية ليعود مساء حوالي الساعة والنصف . لكن مهما تكن مواعيته منتظمة ، فهي لم تكن بالطبع مضبوطة على الدقة ، وهذا الانتظام لم يكن وارداً ، بوجه خاص ، إلا في أيام العمل . حيث في أيام الأحاد والعطل كان هنري كوريل يقطع الروتين ، على غرار غيره من الناس . فبعد الظهر ، كان يبقى في أغلب الأحيان في بيته ، بصحبة امرأته . لقد كان ذلك الرابع من أيار 1978 خيس الصعود . وفي شكل عادي ، لم يكن يمكن أحداً أن يتوقع أنه سيغادر مسكنه

كبقاقي الأيام ؛ ما كان يمكن أحداً أن يعرف متى سيخرج ، وخاصة بدقة تسمح للقتلة بأن يبلغوا مدخل المبنى في اللحظة بالذات التي يصل فيها المصعد .

كان بالامكان التفكير إذن بأن يسعى التحقيق البوليسي بادية ذي بدء لاكتشاف كيف أمكن القاتلين أن ينجزوا أحد الاغتيالات الأكثر دقة في حوليات الجريمة .

البعض تبعوا سيف بونابرت ، والآخرين عادوا إلى ضربة معول ليسيس* :

التاريخ تقريبية ، أما خطوط السير فغير أكيدة . يتسلق راوول كوريل ، شقيق هنري البكر ، وهو عالم أثريات مرموق ، يتسلق بسهولة شجرة الأنساب لسلالات فارسية دهرية لكنه يبلغ الأوج في شجرة العائلة عند فرع الجذ نسيم . أبعد من ذلك ، تتبدد الأوراق غير القابلة للمس ، الخاصة بالذاكرة الأسطورية . لقد بدأ كل شيء في أسبانيا ، حيث ثمة قرية في مقاطعة فالادوليد لا تزال تدعى كوريل . بلغت العائلة ازدهاراً عظيماً لأن شعارات النبالة الخاصة بها تضم شعار الثروة والغنى ، لكن عهد التفتيش يشقها ويشتها . بعض آل كوريل يعتنقون المسيحية ويبقون في أسبانيا (ما يزالون إلى الآن فيها) ، بينما يذهب الآخرون إلى البرتغال ، الملجأ المؤقت ضد التعصب . وسوف يغدو أحد أبناء عائلة كوريل سفيراً للملك البرتغال في هولندا . وحين التقت الملكة جوليانا راوول كوريل خلال زيارتها إيران ، قبل عدة سنوات ، هتفت قائلة : « نحن أيضاً لدينا حصتنا من آل كوريل ! » (أحدهم ، وهو منتج أفلام ، جاء يقدم أعماله في باريس عام 1981) . إلا أن الدياسبورا الهولندية كانت قليلة العدد ، حيث انتقل القسم الأكبر من العائلة إلى توسكانة ، التي كانت العائلة المالكة فيها عظيمة التسامح إزاء اليهود .

لا أحد يعلم ما فعله أصحابنا من آل كوريل في توسكانة خلال ثلاثة قرون ، ولا في أي تاريخ بالضبط قرر أحدهم السفر إلى مصر . يفترض راوول أن هذا مضى بمعية بونابرت ، الذي كانت حملته تَعد بتحريك الأعمال . وبيروي اندريه فايل - كوريل ، المحامي في باريس ، وهو ابن عم راوول وهنري ، أن الجذ عاد بالفائدة على بونابرت إلى حد أن استحصل منه على منحة دراسية في فرنسا لصالح أولاده . لكن ريمون أغيون ، بائع اللوحات في باريس ، وهو ابن خال يتحدّر عن طريق أمه من الجذ المشترك نسيم كوريل ، يؤكد أن جد،

* فردينان دي ليسبس ، مهندس قناة السويس (م)

من آل أغيون هو الذي قام بالمعجزات في تموين الحملة واستحصل جزاء ذلك على إرسال ابنته إلى مؤسسة باريسية - في رحلة كادت تتعرض فيها المسكينة للاغتصاب من جانب بحارة فرنسيين . موافقون يا بونابرت !

كان عمره 29 عاماً . نحيلاً ، ومحتدماً ، وممتلىء الرأس بالأخيلة ؛ كان يحلم بأن يصبح الاسكندر ، ولم يكن ينظر إلى نفسه بعد على انه نابوليون . وكان ضباطه على صورته ومثاله : فتيّة ومحتدمين ، وמתمرسين كفاية باللعب بحيث لا يبدلون رهانهم بسهولة مقابل قارة . بفضل أولاد الثورة هؤلاء ، لم تكن الحملة الاستعمارية لعام 1798 مذبحة إجمالية وحسب ، وقمعاً آلياً ، فرضاً للحوة على شعب مستعبد ، بل كانت أيضاً فعلٌ شعر سورالياً في الغالب وطبعت بطابع السحر والفتنة كل المشاريع الفرنسية في مصر منذ فجر القرن التاسع عشر وحتى أواسط القرن العشرين ، أي حتى الحماقة القذرة المتمثلة بالهجوم على السويس عام 1956 .

كانت مصر تنتظر مَنْ يلتقطها . لم يجد فيها فولني ، الذي زارها قبل وصول بونابرت ، غير « فوضى سياسية ، وانحطاط اجتماعي ، وجهود فكري » . إن الأرض التي ولد عليها التاريخ ، كما تقول وكالات السفر ، كانت تثن تحت هرم من التهاين يسمى السلطة . على رأس هذه السلطة الباشا العثماني ، وهو مشرف* يحمل معه الخراب . ثم أوليغارشية المماليك ، وهم سلالة أجنبية اجتازت خلال ستمئة عام منحنيّ سياسياً خيالياً ، لأن الأوائل من بينهم كانوا قد وصلوا من القوقاز في القرن الثالث عشر وهم تحت نير العبودية ، ولأن المتحدرين منهم حكموا البلد من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر ، معطينه أمراء رائعين قبل أن يخضعوا للسلطة العثمانية ويعملوا خلال قرنين كحراس فظّين وجبابة ضرائب لحساب القسطنطينية . لم يكن لجشعهم حدود . وكان الباشوات العثمانيون على عداء تاريخي شديد مع المماليك الشرکس ؛ ولا هؤلاء ولا أولئك كانوا يتكلمون لغة البلد . وهو ما كان يرهق الفلاحين . كان التهاون معمماً . وكان الانحطاط يهدد حتى نظام الري . والحال إن مصر صحراء يجتازها شريان مغدّ وحيد ، هو النيل ، الذي يفرّق فيضانه كل عام بين الحياة والموت . كل سطل ماء يساوي حياة بشرية . إذا ذهب الذهب السائل إلى البحر من دون إجباره على أن يروي قطعة أرض خصبة مهما تكن صغيرة ، فإن المجاعة تحل . ولقد كان الفلاح اليائس يستسلم لهذا النوع من الانتحار الجماعي .

لا أدنى دولة ؛ لا أدنى شعور وطني ؛ وكان ثمة مجابهة شرسة بين أحقاد أهلية .

* شخص ممنوح مركز شرف ، دون عمل يقوم به (المغرب) .

لكن الاسلام كان يشكل ملاطاً لكل ذلك ،

وهو ما فهمه بونايرت ، الذي رفع منذ بلوغه الياسة ملصقات تعلن بكل صفاقة : « ان الفرنسيين مسلمون حقيقيون » . هل هذا مكرّ نابع من جانب فاتح مهتم بالسخرية من السكان الأصليين ؟ لا يكون فتح مصر عندئذ غير حملة استعمارية عادية . إذا كان يفلت من التفاهة فعبّر باب الحلم . كان بونايرت يشعر بالانجذاب تجاه الاسلام ، وهو ما سيتحدث عنه أيضاً على صخرة القديسة هيلانة - وكان أتى حاملاً مشروعه الجميل القاضي بـ « أن يقرن الهلال بالقبة الحمراء » . وقد مرّ في باله ، في ضرب من الوقاحة غير المعقولة ، أن يجعل أفراداً حملته يعتقدون الاسلام بجملتهم ، وأجرى مفاوضات مع رجال الافتاء في القاهرة . الا أن نقطتين حالتا دون ذلك : الختان والاقلاع عن شرب الخمر . لقد أدى موضوع الخمر إلى قطع المفاوضات . كان الكورسيكي يتقن فرنسيته .

الأربعون قرناً من أعالي الأهرام ، الانتصار على المماليك - المهزومين لكن غير المقضي عليهم - ، المطاردة في سوريا ، المصابون بالطاعون في يافا ، الفشل أمام عكا ، الانسحاب الى الدلتا المصرية ، القائد العام الذي يعتمد إلى الفرار ، اغتيال خليفته كليبير ، الجلاء النهائي لأفراد الحملة ، وكل ذلك في ثلاث سنوات : لقد كان الاخفاق مشهوداً . إن مصر ، التي أذابت أحقادها الداخلية في المصهر الاسلامي ، طردت الكافر من ظهرانيها . لكن صوراً سوف تبقى ، تُدَوّن في ذاكرة الشعوب وقتاً أطول مما هي الحال مع البيانات العسكرية . صورة الجنرال Menou الذي اهتدى الى الاسلام وغدا عبدالله مونو حياً بفتاة مصرية . صورة فيفان - دونون ، الرسام الذي اصطحبه بونايرت معه ، ابن الخمسين البدين ، والأب فونوبار البطولي الذي كان يتقدم الصفوف دائماً كي يتسنى له نهب الآثار القديمة خلال المعركة ؛ صورة دوزيكس Desaix اللاهية عن المعركة بتأمل هيكل دنديراه ؛ صورة الشوارع العشرة الباريسية فيما بعد وأجل ما أعطته فرنسا من عقول (مونج ، برتوليه ، لاري ، جوفروا سان هيلير . .) تضع جردة بالبلد العجيب وهي في ارتعاشات نشوة فكرية حقيقية ؛ وأخيراً في فرنسا صورة العمل الصبور على المنهوبات التي جلبها مغامرو العلم والفن هؤلاء ، ذلك العمل الذي أدى بعد مرور خمس وعشرين سنة الى نشر وصف مصر ، ذلك النص التذكاري العظيم . أولئك الفرنسيون فعلوا أفضل من فتح مصر : لقد أعادوا اختراعها . (هل هذا إفراط في الغرور الشوفيني ؟ فلنقرأ عبد الناصر من جديد ، عبد الناصر غير المشبوه كثيراً بحب فرنسا ، الذي كتب عن مغامرتنا العسكرية - الثقافية ما يلي : « كانت تلك بداية النهضة . »)

في الظاهر ، لم يتغير شيء . بقيت مصر ذلك الهرم المتسمّر في نعاس القرون . لكن

المغامرين الفرنسيين كانوا قد أحدثوا شقاً سوف يتسرب عبره هواءُ الحداثة الذي لا يقاوم .

ولقد وصل في الوقت ذاته الذي وصل فيه بونابرت قائد مرتزقة عبقرى ألباني ، هو محمد علي ، بائعٌ لتبغ بلده ، فأجهز على البنى المهترئة التي كان قد هزها الجنرال الكورسيكي بعنف . طرد الباشا التركي ، ودفع لاغتيال خمسمئة من قادة المماليك أثناء تناولهم الحلوى ، وكان دعاهم لتناول الطعام معه ؛ واحتكر كل السلطات ، وأخذ ملكية كل أرض مصر ، على غرار الفراعنة القدماء ، وخلق جيشاً وطنياً سوف يقاتل ويتنصر في ميادين القتال في الشرق الأوسط . لقد ولدت الدولة . لأنه حتى إذا بقيت مصر من حيث الشكل تابعة للإمبراطورية العثمانية وظلت تدفع الضريبة لاسطنبول ، وحتى إذا اكتفى المتحدرون من محمد علي بلقب نائب الملك كي لا يخذلوا كبرياء السلطان ، فلقد أرخى البلد مراسيه .

أيضاً وأيضاً فرنسيون . لقد اكتشف المهندس جوميل غرسة قطن تتفوق أليافها ، الطويلة والمرونة ، تفوقاً كبيراً على الانتاج الوطني . وفرض محمد علي « قطن جوميل » . وهكذا في غضون خمسة عشر عاماً تضاعف انتاج القطن 250 مرة . واكتشف عالم الأثرىات شامبوليون سرّ الكتابة الهيروغليفية ، معيداً لمصر ذاكرة ماضٍ يمتد سبعة آلاف سنة إلى الوراء . أما سان سيمون ، أفضل حالم في القرن (التاسع عشر*) ، فكان أول من طلع بفكرة قناة السويس ، وقد مات قبل أن يطأ أرض مصر لكن دفع فريقاً من المجانين اللطفاء بقيادة بروسير آنفانتين إلى اجتياز البحر المتوسط . وقد وصل الفريق وهو ينشد الأناشيد ، مرتدياً الزي الموحد الذي تخيله آنفانتين : سروال أبيض ، لون الحب ؛ صدرية حمراء ، لون العمل ؛ جلباب بنفسجي ، لون الايمان . كانوا خمسة وخمسين ، رجالاً ونساءً مختلطين - مختلطين جداً بحيث كان لا بد أن يصدموا الأخلاق الإسلامية المتعالية . كان الرجال ذوي تكوين علمي ، تخرج العديد منهم من مدرسة البوليتكنيك . وكانت النساء ممرضات أو مدرسات . الرأس في الغيوم لكن القدمين على الأرض . وقد قام مهندسان من المجموعة الرائعة ، فورنيل ولامبير ، ببناء أول سد على النيل لمحمد علي ، وأوحيا إليه بفكرة حفر البرزخ ، وألها لأجل المشروع حاس نائب قنصل فرنسا في القاهرة ، فردينان دي ليسبس ، وهو أيضاً من أنصار سان سيمون .

هل هي صدقة أم دعوة؟ إن فرنسا، التي أنتج بطنها الاستعماري الخصيب ذلك العدد من وحوش الحرب، والاداريين المحدودين، ورجال الاعمال الجشعين، والمرسلين المخبلين، فرنسا التي شوّهت ثقافات، ونزعت شخصية شعوب، وجعلت البرنس والتنورة يعرقان - إن

* التحديد من وضعنا (المعرب)

فرنسا هذه أعارت مصر على امتداد قرن بكامله أفضل ابنائها: من فيفان دونون إلى آنفانتين، مروراً بشامبوليون، أناس عجيبيون، مؤثرون، علماء، متجددون، ماهرون، كانوا يأتون ويرحلون دون أن يستقروا أبداً، لكن أياً من مشاريعهم كان يوقظ الماضي، ويحسن الحاضر، ويخترع المستقبل.

إن قناة السويس، التي تمّ تدشينها خلال حكم حفيد محمد علي، إسماعيل باشا، هي موضوع آخر. لم يتم حفرها لصالح مصر، حتى وإن عادت عليها بمردود وفير، بل لوضع المستعمرات الاسيوية في متناول أوروبا بشكل أفضل. لقد جعلت القناة من مصر رهاناً استراتيجياً من الدرجة الاولى، وسوف تدفع جزاء هذا الرهان من حريتها. رفعتها أخيراً، هي التي كانت تخرج لتوها من عصر وسيط طويل للغاية، إلى قمة موجة القعر الاقتصادية لنهاية القرن التاسع عشر.

كان كل شيء يساهم في ذلك. لقد تضاعف عدد السكان في ستين عاماً. وحرب الانفصال التي قطعت إمدادات القطن الأميركية عن أوروبا فتحت سوقاً لا حدود لها عملياً أمام الانتاج المصري: فالصادرات التي بلغت مليوناً ونصف مليون ليبرة عام 1861، وصلت إلى 14 مليوناً بعد ثلاث سنوات. ولدت صناعة تستخدم عشرات الألوف من العمال. وقد أسكر ذلك اسماعيل الذي اخترع شعار «مصر جزء من أوروبا» وانطلق بحماس منقطع النظير في التحديث مهما يكن الثمن. فامتلاً البلد بالورش. جرى بناء خمسة آلاف مدرسة رسمية - لم يكن ثمة غير مئتين - ومرافئ أيضاً، وسكك حديد، وخطوط هاتف، وقنوات، ومبان عامة، ومتحف القاهرة ومعاهد. كان ينبغي التعجيل في العمل والإفراط في التعجيل. ثمة حاجة لمعماريين، ومهندسين، وعلماء، وممولين، ورجال قانون. كان يتم الحصول على اليد العاملة المتخصصة بأجور عالية للغاية، ولم تكن اسعار القطن تتوقف عن الارتفاع. كل شيء ممكن. مصر تستيقظ.

※

※※

كان جد رمون اسطمبولي لأبيه يدعى ليفي، لكنه لما كان قد اضطر للبقاء وقتاً طويلاً في اسطمبول لأجل دعواه، فقد ركبته كنيةً اسطمبولي («الذي يذهب الى اسطمبول») وغدا اللقب اسماً للعائلة. كان ذلك في نهاية القرن الماضي. كانت الامبراطورية العثمانية، الديناصور المنهوك، تتخلص بفتور من الكلابات القوية المربوطة إلى خاضعيتها. وخلال تدشين قناة السويس، عام 1869، كانت لا تزال تضم جزءاً كبيراً من البلقان وتمتد حتى تونس غرباً،

والكويت شرقاً، وزغرب شمالاً، وعدن إلى الجنوب. وفي دمشق، عاصمة الاقليم السوري، كان بيت اسطمبولي يشبه خان قوافل ضخماً مع 40 غرفة حول ساحة كبيرة وغرف الخدمة منتشرة حول متاهة من صحنون الدار. (اشترت البيت عام 1943 الطائفة اليهودية في نيويورك لإقامة مدرسة يهودية - عربية فيه. وآخر الأخبار تقول إن المدرسة لا تزال تعمل، والأرجح أن تكون باتت يهودية أقل وعربية أكثر، لكن البيت هو نوع من المتحف حيث يقع الزائرون على المسكن النموذجي للبورجوازية الدمشقية في القرن التاسع عشر.) كان الجلد اسطمبولي يغادر إذن مبناه - السفينة مع حاشية وفيرة قاصداً اسطمبول لينكّد محاميه الذين يمكن أن نتخيلهم متسمرين خوفاً لأن خصمه القضائي لم يكن غير السلطان شخصياً الذي لم يكن يستجيب بسهولة فيدفع ديناً كبيراً في ذمته لصالح المصرفي اسطمبولي.*

هذا الأخير ربما كان تعرّض لحادث طريق أو لحالة عسر هضم مشؤومة لو لم يكن من الرعايا البريطانيين، وبهذه الصفة تحت رعاية قنصل صاحب الجلالة (كان اسطمبولي ذاته قنصلاً للنرويج والدانمرك، وكان يرفع شعارات النبالة الخاصة بهذين البلدين فوق مدخل بيته)، هذا القنصل الذي كان يفعل المستحيل لأجل تحميّه ويُتعب إبلاط السلطان. بمساعيه غير المنقطعة. كان العجوز اسطمبولي (طريقة في الكلام، حيث أنه توفي في سن الثامنة والاربعين) يملك فرادة كونه مواطناً انكليزياً لم تطأ قدماه يوماً ارض انكلترا ولم يتفوه بكلمة انكليزية واحدة. كانت العربية هي لغته الأم وكان يتلو صلواته اليهودية بالعبرية أو العربية، سواء بسواء. لما كانت تفوح من الامبراطورية العثمانية رائحة تحلل وشيك، فقد كانت الدول الكبرى تنهش لنهش الجثة القادمة. وكان ثمة اسلوب كلاسيكي يقضي بتجنيس مواطنين عثمانيين، يُفضّل أن يكونوا اغنياء، بحيث يصبحون معتمّدي نفوذ في المكان، هكذا كان اليسوعيون يصنعون نتاجاً فرنسياً بكل قواهم من أجل منافسة الانتاج الانكليزي. وكان يهود بغداد قد غدوا بصورة جماعية رعايا بريطانيين، في حين توزع يهود دمشق بين المواطينات الفرنسية والانكليزية والايطالية. كان لعمليات التجنيس هذه الملفقة تلفيقاً مميزة مهمة - لا سيما بالنسبة لمن يكون رفع دعوى ضد السلطان - حيث تضع المستفيدين منها في حماية نظام الامتيازات الاجنبية. هذا النظام، الذي كان عمره ثلاثة قرون، كان يضمن لرجال الأعمال الأوروبيين المقيمين في الامبراطورية العثمانية حق المحاكمة، في حال حصول خلاف بينهم وبين السكان الأصليين، أمام محكمة مؤلفة من مواطنيهم هم. وفي الفترة التي كانت الامبراطورية قوية فيها، كانت تلك حماية ممنوحة لأجانب مبلبلين قليلاً بما يخص التشريع الاسلامي، وبالتالي حصاً على ممارسة التجارة. أما مع انحطاطها، فقد باتت الحماية امتيازاً مبالغاً فيه.

والحالة هذه إذن، فإن الجد اسطمبولي ربح في الأخير دعواه ضد السلطان، لكنه ربحها بعد أن كان نصيبه الدمار، وتوفي في البخور المسموم لهذا النصر*، تاركاً أرملة و12 يتيماً، من بينهم ست بنات كنَّ ينتظرن الزواج. ولقد جرى إدخال والد ريمون لاحقاً إلى معهد اليسوعيين في بيروت، حيث أمضى عشر سنوات وتشبّع بالثقافة الفرنسية. حين كان يعود في الفرص إلى بيته، كانوا يسمونه «الولد الذي كان عند المسيحيين»، أو «الأوروبي». هذا وقد جعلته المعركة القانونية التي خيضت ضد السلطان يحزم أمره على أن يصبح محامياً.

عندما بلغ العشرين، قالت له أمه: «اذهب إلى القاهرة. فهناك المستقبل».

كان جد جوزيف هازان، هو الآخر، من عائلة غنية في دمشق (متفاهمة مع آل اسطمبولي) متمرس بالثقافة العربية ومرتبطة بكل ما كان ذا أهمية في المقاطعة العثمانية السورية. ولقد اضطرتها مأساة مالية للتشتت، فذهب إخوة الجد إلى البرازيل وأسسوا هنالك مصرفاً لا يزال مزدهراً إلى الآن. أما الجد فهاجر إلى مصر، وصعد النيل وصولاً إلى السودان، حيث أثرى ثم أفلس في التسليف لقاء رهونات، ثم انكفأ إلى القاهرة مدمراً تماماً. وقد عاش عندئذ وليس لديه من هاجس غير تأمين دروس جنامعية لولديه اليافعين اللذين عمد إلى تسجيلهما في مدرسة الأليانس اليهودية. ولما كان فقره مدقعاً، لم يكن يستطيع دائماً دفع التكاليف المدرسية وغالباً ما كان يتلقى إنذارات بأن المدرسة مضطرة أسفً لفصل ولديه، فكان يسارع عندئذ إلى المدير، حاملاً بيده هراوة ومهدداً إياه بتحطيم رأسه إذا هو وضع تهديده موضع التنفيذ. وكان الولدان يذهبان للدراسة في الشارع مع حلول الليل، عند أسفل أحد المصابيح، بهدف توفير الإنارة المنزلية. كان الجو العائلي قاسياً لكن مقوياً وحتى منعشاً.

وصل جدًا شحاته هارون إلى مصر على متن المركب ذاته. وكان أحدهما آتياً من دمشق، والآخر من حلب، المدينة المنافسة. ولما كان كلاهما من منشأ متواضع، فقد كانا يُعدّان نفسيهما لممارسة التجارة الصغيرة حين دمر حفر قناة السويس آمالهما وفي الوقت نفسه ازدهار دمشق وحلب، حيث كانت القوافل الآتية من أعماق الشرق، عبر سهوب آسيا الوسطى تُنزل بضائعها الثمينة التي كان التجار المحليون يصدّرونها من جديد إلى أوروبا محققين بذلك ربحاً عظيماً: بات كل شيء بعد الآن يمر عبر القناة الملعونة.

دون أن يكون الجدّان على معرفة الواحد بالآخر، قررا في الوقت نفسه تجريب حظهما في

* ورد في النص الفرنسي victoire à la Pyrrhus، النصر الدموي جدًا، على طريقة انتصار بيروس، ملك Epire، ضد الرومان (المعرب).

البلد مسبب البؤس. اشترى والد الأب بطاقة وسافر الى مصر، وعلى كفه حزمة سجاد شرقي. أما والد الام، المعدم لكن عظيم الذكاء، فسافر سراً. بعد ذلك بثلاثين عاماً، كان الأول لا يزال يبيع سجداً في شوارع القاهرة. بينما ابتسم الحظ للثاني وغدا سمسار أوراق مالية، يعيش في بذخ عظيم، متنقلاً في القاهرة على عربة فاخرة، ومسافراً كل صيف عبر أوروبا. إلا أنه أصيب فيما بعد بالإفلاس واضطر للتخفيف من ترفيهه، لكنه ظل ينظر الى الحياة بإقبال وحسن التفات.

كان جد ليديا ألوني، في اسطنبول، الطبيب الشخصي لذلك السلطان الذي كان اسطنبولي العجوز يسعى للتغلب عليه. وقد أرسل ابنه ليدرس الحقوق في باريس، ثم بعث به الى القاهرة ليستقر فيها. فهناك كان المستقبل.

كان جد روزيت كوريل يعيش على حافة الإملاق في بلغاريا، وكانت هذه مقاطعة عثمانية حتى عام 1878. ولما كان أحد أولاده يُسدي مقدرة نادرة في الدراسة، فقد موّلت الطائفة اليهودية سفره الى فرنسا، حيث تسجل في مدرسة الاليانس اليهودية، في أوتوي. كانت لديه غرفة صغيرة في حيّ الجمهورية. ولما كان غير قادر على دفع اجرة الباص، فقد كان يجتاز باريس راكباً مرتين في اليوم. وبعد أن حاز البكالوريا نجح في امتحان الدخول إلى المدرسة الزراعية في غرينيون. بعد ذلك بثلاث سنوات - عام 1905 - شرف نائب ملك مصر المدرسة بزيارة خلال جولة رسمية في فرنسا، وطلب أن يُقدّموا له أفضل تلميذ. فأشار المدير إلى والد روزيت. فاقترح عليه نائب الملك ان يأتي للعمل في مصر، وهو ما قبله الشاب بحماس: كيف لا يعتقد بأن المستقبل في مصر حين يكون نائب الملك هو ذاته الذي يقدم له مفاتيحه؟ لكن الفتى كان يحلم بالزواج، وكانت اليهوديات المصريات ذوات سمعة سيئة في اوساط يهود بلغاريا. فكتب الى والده، الذي اختار له فتاة شريفة من القرية كانت تعمل مدرّسة في اسطنبول. وقد تلاقيا في بيروت وأعجبا أحدهما بالآخر، وعمدا فوراً إلى الخطبة فالزواج ثم سافرا الى مصر.

ولد جد جويس بلو لأبيها في فالاكيا، رومانيا لاحقاً، وقد أرسله أهله إلى باريس، وحين أنهى دروسه في السوربون تلقى من الحكومة المصرية عرضاً مغرياً بالعمل، وكان جدها لأُمها في تونس، يعمل مدرّساً متواضعاً، لكن إحدى المدارس الخمسة آلاف التي أسسها اسماعيل باشا كانت بحاجة اليه، وهكذا سافر الى القاهرة.

كان جد أيميه سيتون وسيطاً ماهراً في حلب، ماتت امرأته بعد أن ولدت له عشرة اولاد، توفي ثمانية منهم في سن مبكرة. وقد جمع ما استطاع توفيره من مال، وحزم أمتعته ومضى مع ولديه الباقيين على قيد الحياة إلى القاهرة، لان الجميع كانوا يؤكدون أن القرن العشرين سوف

يختار لنفسه مقاماً بين النيل والقناة الجديدة. كان عمر والد أيميه لاحقاً أحد عشر عاماً لكنه لن ينسى أبداً المدينة التي ولد فيها. كان يردد حتى وفاته: «ما القاهرة؟ لو أنك رأيت حلب لعرفت أي مدينة هي!» ولقد تزوج شابة يهودية كان جدُّ جدُّها من المدينة ذاتها التي ولد فيها محمد علي، باني الدولة المصرية من جديد. كان هذا الجسد الأقدم وصل في عربات قائد المرتزقة واستقدم في إثره حولة من الأعمام، والأشقاء، وأبناء الأخ، وأبناء العم وأولاد أبناء العم، وكلهم مهندسون ومعماريون، ومتعهدون، وأطباء، كان البلد العريق الخارج من سباته بأقصى الحاجة إليهم.

وهكذا دواليك.

يهود الشرق!

يا يهود الشرق الذين كان إخوتكم الأوروبيون وصفوكم لي فظين، مبتذلين، عديمي الثقافة، نسائين، بخلاء، قليلي النظافة، بدينين، شرقيين متزلفين، والذين اكتشف أنكم مدهشون، لم يلحق بكم شيء من تفوقهم في الغيتو، لأنكم كنتم وسط الشعوب كالأسماك في الماء، منفتحين على كل الثقافات، هذا نصير شعراء عرب، وذاك محاور حكماء الإسلام، مستقين من كل المصادر، متذوقين كل الثمار، خالصين من التقوسات والاحديدابات التي يتسبب بها الاضطهاد والبصاق والضرب والمحرق والمذابح لليهود، لأن التسامح الإسلامي المدهش وفرّ عليكم الشهادة التي كان المسيحيون يوصلونكم إليها بكل تلك الشهامة، بحيث كنتم تمضون أحراراً ورائعين، مقرّبين لدى العظماء، ومنجدين في الغالب للضعفاء، متبارين مع الحظ، مستعدين دائماً لمضاعفة الربح أو خسارته بكامله، جسورين في النصر، شائخين في حالة الدمار، لا تطولكم الكتابة (اللازمة التي يرددها أودلاككم وأحفادكم هي: «كانت الحياة شديدة المرح في البيت»)، مع هذه القدرة التي لا نظير لها على العودة من جديد، على الضرب صفحاً، تمحون كل شيء وتنطلقون مجدداً من الصفر، تأخذون مركباً الى القاهرة، في مقاعد الدرجة الأولى أو في الأنبار، لأنه هناك بالذات سوف يتم ذلك، لكن دون اليأس القاتم للجماهير البائسة التي كانت تذهب في الوقت ذاته لتختبئ تحت التنورة البرونزية لتمثال الحرية - كانت لديكم شهية غول فرحة حين كانت تلك الجماهير تعاني من المجاعة المحنة - وهذا هو السبب في أنكم تجسدون بصورة ممتازة تلك اللحظة الشاسعة التي كانها القرن التاسع عشر، الغول هو ذاته، والرهيب، مخرب القارات، ومهجر الشعوب، المكس بحركات كبيرة سمجة حشوداً بروليتارية في مناجم ثورته الصناعية ومصايرها، المفترس أطفالاً فُرِضت عليهم عبودية المصانع، لكن الغول لين العريكة الذي كان يرتكب الشر وهو يعتقد الخير، والمتفائل - ربما آخر قرن متفائل - لأن فكرة التقدم لم تكن قد دُفنت بعد، جثة موثقة بأسلاك المعسكرات

الشائكة، في أعماق مقابرنا التي لا مثيل لها، ولأنه كان لا يزال بالإمكان الإقدام ببراءة الفجر الأول، والمواظبة في الاغبرار المذهب لوعده الانوار وهو لم يُلغَ بعد، في حين نسير سيراً ألياً باليقين السرطاني أن خطانا تعيدنا دائماً إلى الوحشية الأصلية، ونتقدم في الغسق حتى الفطر النهائي الذي سينبتق من هذا العفن الذي اعتقد أنه الانسان، في ظرف خففة من هذب الخلود.

※

※ ※

لقد ابتلع الغول مصر :

ليس أغوالنا الصغار اللطفاء الذين يجذفون بقوة انطلاقاً من كل مرافئ الامبراطورية العثمانية، بل الغول الرأسمالي المفرق بين نهايه الكبار: الدول، والشركات، والكونسورسيومات الكبرى . لم يكن الخديوي اسماعيل، قيصر بيروت و ضفاف النيل، بحاجة حقاً لاختراع شعاره ذي النزعة الإدارية «مصر في اوربا»: كانت أوروبا تأتي الى مصر، بموجات متزاخمة من رجال الأعمال، والمضاربين، والنشاليين والمحتالين - وكان الأكثر جشعاً والأقل توسوساً بينهم من يتولون وظيفة قنصل او سفير. معاهدات اقتصادية جائرة. قروض بفوائد ربوية، مضاربات وقحة: كانت جيوب البلد البائس كقروي ثمل في حاضرة، كانت تجري تسلية الخديوي بمقارنته بلويس الرابع عشر، وبلاطه ببلاط فرساي، في حين كان النهابون ينهبون خزائنه .

جرى إعلان إفلاس مصر عام 1878 ، اي بعد سبع سنوات من تدشين قناة السويس . وقد فرضت أوروبا خلق صندوق للدين العام تحت رقابتها، وهوما يضمن لها التحكم المطلق بالمالية . بعد سنة من ذلك التاريخ، ذهل المصريون وهم يرون الأوروبيين يفرضون عليهم مجلس وزراء مدهشاً حتى بالنسبة لشعب لمس خلال سبعة آلاف سنة كل غرابات التاريخ : كان المجلس مؤلفاً من انجليزي وفرنسي ومصري . . . وقد كان الإذلال قوياً لدرجة حفز تمرد قاده ضابط هو العقيد عرابي، الذي أعلن الانتفاض على التدخل الأجنبي وعلى بيع بلاده بالمزاد. لم يكن محمد علي، ولم تكن الدولة التي انتفض ضدها هي السلطنة العثمانية المنخورة التي كان مؤسس السلالة قد هز توازنها بدفعة . منذ ضربة المعول الأولى لفردنانان ليسيس ، كانت انكلترا تنتظر حجة للجلوس عند ضفة القناة التي باتت الطريق الى الهند تمر بها مذاك . وهكذا دخلت قواتها مصر، وهزمت عرابي وأسرته، وركزت في مصر «قنصلاً» سوف يغدو سيد البلد رغم هزال لقبه .

وستبقى مصر انكليزية لمدة سبعين عاماً.

أدهشت المفزة الجنائية روزيت. فبعد ان تم نقلها الى رصيف أورفير في حين كان جثمان زوجها ما يزال راقداً أمام كابينة المصعد، استجوبها طوال ساعة ونصف شرطي مشورب، في الأربعين من عمره، كان يبدو على علم تام بشخصية هنري ونشاطاته. كان يطرح أسئلته بصوت حيادي، لا عدوانية فيه، لكن الاستجواب كان يتم في جو يجعل روزيت، المختنقة، لا تفك تردد: «لكن أخيراً، زوجي هو الذي جرى اغتياله، وهو الضحية!» كانت تحس بالمعاناة في الوضع غير المتوقع المتمثل بالاضطرار للبرهان على أن زوجها لم يكن يستحق الاغتيال. وقد أدى ذلك إلى أن تأتي أجوبتها محروفة. ما كان يمكن احداً أن يأخذ عليها تأكيدها أن هنري «كان رجلاً ذا مشاعر نبيلة بحيث يندر وجود مثلها»، ولكن كان بالامكان اعتبار تعديد نشاطاته مقتضياً بعض الشيء: «منذ جاء زوجي الى فرنسا، كان يهتم بترجمة مؤلفات أطفال من الايطالية الى الفرنسية». وقد خلصت الى القول: «أنا لا أعرف أي شيء عن الحافز، او الحوافز، التي دفعت القتلة إلى القتل.»

أعادها ثلاثة رجال شرطة إلى بيتها بالسيارة. تعرفت بين المتسكعين والصحفيين المتجمعين أمام المبنى على ريمون أغيون، وليديا ألوني، وريمون اسطمبولي وأصدقاء آخرين من أصل مصري. وقد عانقتهم وصعدت مع رجال الشرطة، الذين كانوا سيعمدون للتحقيق. هذا وقد حصلت ليديا ألوني على الإذن بمرافقتهم.

خرج راوول كورييل، الذي استمع اليه باقتضاب المحقق ذاته الذي استمع الى روزيت، خرج بانطباع مزعج من طريقة التحقيق معه. بدا له ان الشرطي كان يتخبط بصورة مزرية. لما كان يجهل نشاطات اخيه، ما كان في وسعه المساهمة إطلافاً في تنوير الشرطة.

كان جوزيف هازان على اطلاع أكثر. لما كان رئيساً ومديراً عاماً لدار نشر تُصدر كتباً وكراسات دعاوية ومطبوعات شتى، فقد كان مفترضاً استخداماً لهنري كورييل، ورسم لوحة غامضة قليلاً لهذا «القائم بعلاقات عامة» الذي «كان يمر بالمكتب بمعدل مرة كل اسبوع، حسب الحالات»، وقد أثبت التحقيق الذي تم في اليوم ذاته في مركز الشركة أنه لم يكن له فيه «اي مكتب، أو أثاث، أو خزانة». لكن هازان اختصر سيرة سياسية لهنري كورييل، منذ سنواته في مصر حتى وفاته، سيرة لم تكن تُخفي شيئاً عن التزاماته المتعاقبة. وقد أشار بوجه خاص إلى جهوده المحمومة للوصول إلى «حل سلمي وعادل في الشرق الاوسط».

كانت جويس بلو، المناضلة المنضبطة بدقة، قد احترمت طيلة حياتها واجب التحفظ حيال الشرطة. كانت في سن الخامسة والأربعين، ولا تبدو أكبر من ذلك أو أصغر، لكنها تعطي الانطباع بسرعة العطب، صوته رخم على بعض الحموضة، وهي تُكثّر في حديثها من استخدام عبارة «بشرقي» هذه العبارة المجلوبة من القاهرة دون أن يكون ثمة ما يستوجب استخدامها، ولها أخيراً هيئة سيدة صغيرة يسهل على رجال المفزة الجنائية قضمها (لكنها كانت قبل 15 سنة قد تحايلت على زملائهم في جهاز الـ DST، صعبى المراس. إذ قادها رجال الشرطة العاملون في شارع رولين إلى رصيف أوريفر، تعاملت معهم برصانة وقحة، رافضة مثلاً أن توضح كيف علمت بالاعتداء. أعلنت أنها لم تر هنري «منذ عدة أيام» مع انه كان قد زارها في الصباح ذاته وكانا سيلتقيان في الثانية والنصف في درس اليوغا. وقد قالت إن الحملة الصحفية التي أثيرت قبل ذلك التاريخ بعامين كان لها ضلع كبير في عملية الاغتيال: «كانت تلك المقالات تشكل دعوة حقيقية لاقتراح جريمة القتل. كنت قلقة على حياته. وأنا لا أعرف لماذا هوجم هكذا. كان هنري عاجزاً عن الإساءة الى أي من الناس. انظروا إلى وجهه: لقد كان لطيفاً».

هذه الأجوبة المبلبلّة، والمحبطة، لا بل الاستفزازية، كان من شأنها على الأرجح أن تدفع مراقباً حيادياً لإمسك جويس بلو من كتفها وهزّها، محرّضاً إياها على أن توقف هذيانها: لم يكن رجال الشرطة خصومها لأن مهمتهم كانت اكتشاف قتل الرجل الذي أحبه. لكن يأس جويس لم يكن السبب الوحيد وراء سلوك منحرف في الظاهر. كانت حساسة، مثل روزيت، حيال افتقار المحققين للود. ربما كان ذلك انطباعاً خاطئاً ناجماً عن الفرق في التوترين الدراما التي كانت تعيشها والاهتمام المهني الصرف لدى رجال الشرطة، لكن كان ذلك كافياً في نظرها كي تحتفظ برد الفعل النبضالي القديم المتمثل بالحدّر والتحفظ.

الا أنها كانت أقل تحفظاً في اليوم التالي وأفشت خلال جلسة طويلة التفاصيل غير المهمة التي اعتقدت في العشية أن من الأفضل كتمانها. لكن دخولاً مفاجئاً أغرقها في الحيرة. دلف أحدهم الى المكتب، وتيقنت من الطريقة التي استقبله بها رجال الشرطة الآخرون أنه ليس من دائرتهم. وقد طرح عليها سؤالاً واحداً، قائلاً: «من هو الدكتور؟» فاجابت جويس أنها لا تدري إلى من يلمح. فنفس صبر الرجل، وقال: «كان كورريل على أهبة أن يلتقي دكتوراً، فمن هو هذا؟» أكدت جويس أنها ليست على علم بذلك. فغضب الآخر وهذّدها بالسجن إذا أصرت على الكذب. وقد بدا رجال الشرطة الجنائية مشدوهين قليلاً حيال فظاظة الاستجواب. اما جويس، فبعد التفكير، أشارت الى إنه لا بد أن يكون الأمر متعلقاً بالدكتور جيرالد دو فانجن، وهو صديق حميم لهنري كورريل. فسخر رجل الشرطة وغادر القاعة وهو

يقول لزملائه : «إنها تكذب!».

في اليوم السابق، وخلال زيارة هنري كورييل لها في الصباح، كانا قد تحدثنا عن استخدامهما للوقت. كانت جويس قد سألته :

«في أية ساعة سترى الدكتور؟» وكان هنري قد أجاب : «في الحادية عشرة». كان الدكتور هو عصام السرطاوي، وهو فلسطيني قريب من ياسر عرفات، يكلفه هذا الأخير بمهمات دبلوماسية، كان من الجناح المعتدل في منظمة التحرير الفلسطينية، وكان يناضل منذ سنتين مع هنري كورييل وآخرين لأجل حل سلمي للنزاع الاسرائيلي - الفلسطيني .

جرت المحادثة في ستوديو جويس. وكانت الأسئلة الفظة التي طرحها رجل الشرطة المجهول تعني أن ذلك الحديث قد تم تسجيله بواسطة جهاز داخلي. أن يكون هاتف المرء موصولاً بجهاز تنصت شيء - وكان كل مناضل يأخذ هذا الاحتمال بالحسبان - بينما وضع ميكروهاث لاقطة - مرسلة في بيت للسكن شيء آخر. كان يتم الخروج بذلك من روتين الرقابة العادية لدخول ميدان الاستخبار الهجومي .

إلا أن جويس لم تربط بين هذا الاكتشاف المذهل والتوقيت الخارق الذي سمح لقتلة هنري كورييل بتلقيه في اللحظة بالضبط التي وصلت فيها كابينة المصعد إلى الطابق الأرضي .

※

※ ※

كان التنقيب في منزل روزيت كورييل طويلاً وبالغ الدقة . جرى تفتيش كل الغرف ، بما فيها القبو . وقد اهتم رجال الشرطة بفتح علب البسكوت وإفراغها ، وتصفّح كل الكتب ، والتحقّق من كل الأثاث . وقد تساءلت ليديا ألوني إذا كانت العادة في فرنسا تقضي بقلب شقة ضحايا الاغتيال رأساً على عقب . وحين سألت روزيت الرجال الثلاثة حول ما يبحثون عنه ، أجابها أحدهم بجفاف : « عليكِ أنتِ أن تقولي لنا ذلك ! » هذا وقد حملوا معهم بعض الملفات ودفتر الهاتف . وبما أن روزيت قد تحتاج لهذا الأخير من أجل إبلاغ بعض الأصدقاء بموعد الجنازة ، فلقد وعدوها بتسليمها صورة عنه لقاء مبلغ 75 فرنكاً . لكن الزمن سيمر على تلك اللحظات الصعبة ، وفيما بعد حين ستذكر روزيت الساعات التي كانت فيها شبيهة بإنسان مسلوخ حياً شديد الحساسية تجاه أدنى صد ، سوف تستنتج بصورة عادلة ما يلي : « لقد تصرف الشرطة كما يجب » .

وصلت أيميه سيتون بعد قليل من رحيل رجال الشرطة ، قادمة من منزلها الريفي في

رامبويه . ووصلت بعدها بقليل ديدار روسانو . وقد تحدثت النساء الأربع حتى منتصف الليل . كنّ عشن معاً عشرين عاماً في الفردوس المفقود ، وناضلن مع هنري كورريل لأجل الثورة المصرية ، وها هن يجتمعن في خريف حياتهن في المنفى لذرف الدموع على وفاته . كان المهن أقوى أو أخف - لا فرق - لمعرفتهن بأنهن يتقاسمن مع هنري ماضياً جعله ساطور التاريخ نضراً لا يذبل . لم يتغير شيء لأن كل شيء توقف ؛ لم يعد يوجد الديكور والأشخاص إلا في ذاكرتهن ، متجمدين كما في متحف شمع . كان الآخرون سيكون صديقاً ، أو رفيقاً . لقد فقد جماعة مصر الشاهد الرمزي بصورة رفيعة على عصر وولد باتا عصيين على التخيل الى حد أنهم توقفوا عن روايتهما لأولادهم .

عند منتصف الليل ، انسحبت أميه وليديا . فتمددت روزيت ، التي بقيت وحيدة مع ديدار ، دون أن تتمكن من النوم . أما الدموع التي حبستها طيلة اليوم فكانت تنهمر الآن على وجهها . كانت تعزيتها الوحيدة قناعتها بأنه لا شيء كان قادراً على أن يحرف زوجها عن حياة النضال . لكنها لم تكن تتوصل لتقبل فكرة أنه مات ، وأنها لن تراه بعد اليوم أبداً . فمند 38 عاماً كانت تشعر نحوه بشغف هادئ ، وعنيد ، وحصري .

في حين كانت شقتها تتعرض للتفتيش ، كان تنقيب لا يقل دقة يتم في محلات جوزيف هازان ومسكنه . ومن المثير للفضول أن من كانوا يتولون ذلك هم رجال مفرزة المخدرات والدعارة . ولا شك أن السبب في ذلك افتقار المفرزة الجنائية للرجال في خميس الصعود . وفي اليوم التالي ، جاء دور مسكن جويس بلو الصغير لتفتيشه . ولم تكشف التفتيشات أي مؤشر يميل لاثبات أن أحد أقدم أصدقاء هنري كورريل وامرأة كان قريباً منها للغاية في لحظة موته أمكن أن يتورطاً في اغتياله .

وجويس ، من جهتها ، لم يكن بالامكان أن تقترح على المحققين بأن يبحثوا بصدد ما إذا كان قد تم وضع جهاز تنصت لديها (وهو بحث كان تطلب استخدام وسائل تقنية مناسبة) لأنه لم يتم إلا بعد انتهاء التحقيق بالضبط اقتيادها الى رصيف أورفير ومواجهتها برجل الشرطة المهتم بمعرفة هوية ذلك « الدكتور » .

في 6 أيار ، اليوم الثالث للاغتيال ، أعلنت روزيت أمام رجال الشرطة الذين كانوا يستجوبونها في مسكنها : « لقد تذكّرتُ حادثاً جرى عشية اغتيال زوجي . حين كنا نغادر المبنى معاً ، حوالي الساعة الثانية (بعد الظهر) ، التقينا في أسفل الدرج ، وفيما كنا نترك المصعد ، رجلاً رأيناه يتظاهر بصعود درجتين أو ثلاث ، أو أكثر . وفي حين كنا نجتاز الرواق ، انعطف

إلى الراء ، وتجاوزنا في الساحة وخرج . وقد كان واضحاً أنه لم يكن لهذا الرجل شأن في المبنى ، وهو لم يكلمنا .

« لو جرى تقديم هذا الرجل ، أو تقديم صورته إليّ ، سوف يكون في وسعي التعرف إليه . أما أوصافه فهي التالية : عمره ثلاثون إلى خمس وثلاثين عاماً ، طوله متر و 75 سنتم تقريباً قامته قائمة مصارع ، مع بعض البدانة ؛ شعره متوسط الطول أسود اللون ، مفروق ، ووجهه مستدير . كان يرتدي سترة من الجلد الأسود بستحاب وينظرون غامقاً . وكان يُمسك شيئاً من نوع توكي ووكي يعلوه هوائي بمقدار عشرين سنتم تقريباً ، يمسكه بيده اليمنى ، مطوي الذراع ، كما يحملون هذا النوع من الأجهزة .

« لفت انتباهي بقوة حضور هذا الرجل ، وتساءلت عما كان يفعله في المبنى وهو يحمل هذا الجهاز . لم أتحدث عنه مع زوجي ، ولا أعرف إذا كان لاحظ حضور هذا الرجل » .

« لم أتحدث عنه مع زوجي . » وهو صمت مذهل ، غير مفهوم طالما أن روزيت قاسمت حقاً الرجل الذي اتهمته جريدة فرنسية كبرى بأنه « زعيم شبكات مساعدة الارهاب » حياته . وهو صمت مدهش حتى بالنسبة لأولئك الذين ردّوا الاتهام العنيف بهزة كتف . كان هنري كوربييل في أي من الأحوال رجلاً مهتداً - إذا لم يكن لشيء فبسبب المقالات التي استهدفتها - وكان بالامكان توقع المزيد من اليقظة من جانب امرأته . لكن روزيت كانت قد توقفت عن النضال منذ أكثر من 15 عاماً . كانت تعرف ما يفعله زوجها من دون الاطلاع على التفاصيل . فهنري لم يكن يستقبل أي مناضل في بيته ، ولم يكن يستخدم هاتفه الخاص لأمواله السياسية ، وكان يمتنع عن الحديث بشأنها مع امرأته . وهي بالذات كانت حريصة على أن تجعل من مسكنها الملجأ الذي يشعر هنري فيه بأنه بمنجى من الضغوط والمهوم . وفي التقاسم الضمني للأدوار فيما بينهما ، لم يكن على روزيت أن تنبه زوجها للأخطار التي تنتظره ، وإلا لكان عليها أن تقوم بذلك من الصباح إلى المساء .

والحالة هذه ، اعتقدت روزيت بوجود رقابة بوليسية .

كانت أوصاف الرجل حامل التوكي ووكي متوافقة مع الأوصاف التي أعطاها شهود الاعتداء بخصوص أحد القتلتين : قائمة مصارع ، شعر طويل بما يكفي ، سترة من الجلد الغامق . كان واقفاً في المدخل ، أمام المصعد ويمكن الاستنتاج من ذلك أن اغتيال هنري كوربييل كان مُقيضاً له أن يتم في ذلك اليوم لكن وجود روزيت غير المتوقع حال دون تنفيذه . كان الرجل لوحده . فهل كان القاتل الآخر قد اختفى ؟ المفترض أنها دخلا المبنى المطل على

الساحة ، لكن تبادلاً محتملاً للكلام بين الزوجين كورييل ، في اللحظة الأخيرة ، أفهم الأشخاص المكلفين بالتنصت أن روزيت ترافق زوجها ، فجرى توجيه الأمر بالانسحاب فوراً إلى القاتلين بواسطة التوكي ووكي . ضمن هذه الفرضية ، لماذا بقي الرجل حامل التوكي ووكي في محله ، ولم يصعد الدرج إلا في اللحظة الأخيرة مجتذباً هكذا انتباه روزيت ؟ صحيح أن هذا الشخص لم يكن يفتقر إلى رباطة الجأش لأنه رجع في الحال ، وتجاوز الزوجين كورييل في الساحة ، ثم خرج في شارع رولين ، أمامهما بالضبط . ومن السهل أن نفهم أن روزيت اعتقدت أنها إزاء شرطي يمكن ، عند الاقتضاء ، أن يرر وجوده بالطريقة الأكثر رسمية .

بالنسبة للمفرزة الجنائية ، وبعد أربعة أيام ، وفيما جثة هنري كورييل في البراد ، لم يكن مسموحاً بالشك : إن الرجل حامل التوكي ووكي على علاقة بالاغتيال . وكان جهاز البث الخاص به يحيل إلى المعطى الأكثر إثباتاً والأشد إذهالاً في القضية : تلك الدقة القصوى في التنفيذ .

بالرغم من ذلك ، لم يتم أي تحقق تقني لاكتشاف أجهزة الميكرو التي أتاحت توقيتاً بمثل هذه الدقة ، سواء لدى آل كورييل أو في الشقق المجاورة .

إلا أن التحقيق في الجوار كان شاملاً . فلقد أعطى المستأجرون في المبنى رقم 4 ، في شارع رولين ، وفي عدة مبان مجاورة ، شهادتهم ، وكان مجموع الشهود 75 شخصاً . لم يتردد رجال الشرطة في العودة وقرع الأبواب التي لم تنفتح خلال زيارتهم الأولى . وقد توسع التحقيق ليشمل المباني والمحلات في شارع مونج ، على بعد عدة عشرات من الأمتار عن مكان الجريمة : جرى الاستماع إلى 52 شخصاً . وهو عمل ممتاز ، حتى وإن كانت النتائج صفراً تقريباً .

لكن بفعل واحدة من حالات سوء الحظ المذهلة ، التي تدعو للثناء بما يخص الشرطة ، فلقد نسيت المفزة الجنائية شاهداً . وهذا أمر يصعب فهمه لأن هذا الشاهد كان يسكن الطابق ذاته الذي يقطن فيه الزوجان كورييل ، في شقة تطل نوافذها على غرفة الجلوس الخاصة بهما . ذلك مدعاة للأسف لأنه كانت لديه قصة مهمة لبروها ، قصة تخص الميكروهاات بالضبط .

كان الجُدُّ ، نسيم كورييل ، مريباً . وكان ابنه دانييل قد ارتقى إلى رتبة مصرفي ، لكن أعماله لم تتبدل من حيث طبيعتها . كنت ترى في المكاتب البائسة في شارع شواربي باشا ارتال الفلاحين الدائمة والمثيرة للشفقة وهي تمر لترهن قطع أرضها الصغيرة بعد موسم سبيء لأجل الحصول على مبلغ من المال تشتري به بذوراً . وإذا كان الموسم اللاحق مخيباً مرة أخرى للأمال ، كانوا يفلسون ، وكانت المكاتب تدوي عندئذ بالتوسلات ، وبالتعهدات الصادرة عن مدينين في حالة ضيق شديد . كل أرياف مصر كانت تنزف من جرح الربا . لكن دانييل كورييل كان يملك أيضاً حقيقة أعمال مهمة ، حيث كان يضارب في البورصة ، وينصرف لعمليات صرف : وكلها نشاطات أكثر تناسباً مع صورة مصرفي حديث .

كانت المكاتب بائسة ، شبه منفرة ، لأن صاحب المكان قليلاً ما كان يهتم بالديكور : كان قد عمي في الشهر الحادي عشر من عمره بعد حادث ما أو مرض ألمَّ به . لم يكن يتكلم أبداً على الماضي . وكان ولداه يعرفان أنه ترمِّل إثر زواج أول لكنهما كانا يجهلان حتى اسم زوجه الأولى . كان رجلاً متكئاً . والصور التي بقيت عنه تظهره ضخماً ، مستدير الرأس ، متحصناً وراء نظارتين غير شفافتين ، ذا هيئة مسالمة ، مع شبه ما بشارل فانييل في الستين من عمره .

كان فناناً إلى حد بعيد ، وكانت الموسيقى موضوع شغفٍ لديه منذ حداثة سنه . لا بل جال بباله حتى أن يتقن مهنة عازف بالرغم من عماء ، وكان يقضي ساعات أمام البيانو ويتردد دائماً على أوبرا القاهرة . وكانت له هواية أخرى هي علم المسكوكات ، وكانت مجموعته من القطع والمدايا ، التي كان يلامس نتوأتها بالتذاذ ، تقدَّر قيمتها بخمسين ألف ليرة مصرية ، أي حوالي ثلاث إلى أربع مئة مليون سنتيم من عملتنا المحلية . والأغرب من ذلك أنه كان يولي اهتماماً شديداً للرسم - وعموماً للألوان . كان قد كوَّن تصوُّراً نظرياً للألوان ، وخلال سفرته السنوية للاصطياف في أوروبا ، كان لا ينفك يزور المتاحف مستقصياً ؛ كانت امرأته زفيرا تتحدثه عن اللوحات مفصَّلة فروحها الأشدُّ ضالَّة ؛ كما أنها كانت تقرأ له كل مساء ، وكان يفضل بيرلوتي وأناطول فرانس .

كانت زفيرا بيهار من عائلة يهودية في اسطمبول ظلت غنية حتى وفاة الوالد ، حيث سرعان ما بذَّر الأبناء البكور ثروة مهمة جرى الحصول عليها من تجارة السجاد الشرقي . وكان أهلها أدخلوها دير نوتردام دوسيون ، حيث هدتها راهباته إلى الكاثوليكية . هي الأخرى كانت قد عانت من المشاكل الصحية وتمَّ استئصال أحد ثدييها . ويصورها أصدقاء العائلة كامرأة تفتقد إلى الفتنة وإلى الجمال . والصور المأخوذة لها في شتاء حياتها تبين عجوزاً ذات وجه متين

البنيان ، وهيئة تدل على الطيبة ، ونظرة حارة . كانت شخصاً صوفياً إلى أقصى الحدود . وثمة إجماع في الرأي على أنها كانت ترهّبت وما تزوجت دانييل كورييل أبداً لولا عمه . كان الزواج بأعمى بالنسبة إليها قرباناً واكتمالاً . وفي حين لم يكن زوجها يبدي أي اهتمام بالدين ، بقيت حتى نهاية حياتها شديدة الورع والتقوى ، ومسكونية تماماً ، توزع زياراتها وتقادمها بين الكنيسة والكنيس والأمكنة المقدسة لدى المسلمين . ولم يكن ثمة حدود لحدها وحسن التفاتها . فحين سرق أحد الخدم مجموعة من السجاد الثمين من بيتها ، رفضت تقديم شكوى . وكان ثمة من هذا السجاد ما يعادل ثروة صغيرة .

كانت العائلة سعيدة . ولم يكن هنالك من اعتقد العكس غير هنري كورييل بالذات ، الذي تذكر قبل عام من اغتياله حياة زوجية شوهها « الميل إلى التدمير الذاتي » الذي عانى منه أهله حسب رأيه . أما راوول وكل من تألفوا مع العائلة ، فكانوا يعتبرون أن التفاهم بين دانييل وزفيرا كان مثالياً . فراوول لا يتذكر مناكفة حقيقية واحدة . والغمامة الوحيدة كانت من أصل موسيقي : فزفيرا ، عازفة البيانو الممتازة كزوجها ، أصيبت بالتهاب مؤلم في أعصاب الكفين ؛ وهو ما اضطرها للتخلي عن العزف على البيانو مع ما عناه ذلك من عذاب بالنسبة إليها ؛ أما دانييل فآلمه هو الآخر أن يُحرم الاستماع لعزفها . مهما يكن ، فقد كتب هنري كورييل عام 1977 : « لا شك أن حماس الأمومة وعاهة أبي قد طبعاً طفولتي ، بالإضافة إلى المساة التي مثلها بالنسبة لأهلي موت شقيقة صغيرة تستحق العبادة ، بنتيجة حادث » . والصورة الوحيدة لهذه الطفلة ، المأخوذة لها مع أخويها الكبيرين ، تُظهر بُنيةً مفعمة بالحياة والروعة . إلا أنها لم تمت « بنتيجة حادث » بل بفعل التهاب في العظام والنخاع العظمي قضى عليها في الرابعة والنصف من عمرها .

كانت تُطلّق على منزل العائلة في القاهرة تسمية « فيلا كورييل » . وينبغي أن نفهم الكلمة بمعناها الروماني . وحسب القواعد الحالية ، فهو بالأحرى نَزْل خاص كبير أو قصر صغير ، ضخّم بما فيه الكفاية ، لكن يخففه نوعاً ما لونه الأغر والأخضر اللذان ينسجمان تماماً مع سماء القاهرة . ثمة بالإضافة إلى غرف الاستقبال والخدمة سبع عشرة غرفة . يحيط به بصورة متمعة متنزه فسّيح ترتفع فيه أشجار النخيل وشجيرات أخرى . وهو مبني في أقصى شمال جزيرة الزمالك ، بين ذراعين لنهر النيل ، على مقربة من نادي الجزيرة الرياضي المشهور ، محراب المحتل البريطاني ، مع ملعب الغولف الخاص به ، وملعب التنس ، ومسبحه ، وممتداه الفخم (حين مُنح مصري للمرة الأولى شرف الانتساب إليه قبل الحرب العالمية الثانية - كان قريباً للملك فاروق ، لكن مصرباً مهما يكن - جرى بفارق بسيط تجنب

استقالة جماعية للجنتمانات المغتاضين .) كانت جزيرة الزمالك آنذاك الحي الأكثر ترفاً في القاهرة ، وكون دانييل كوريبيل ولد فيه يشهد على قدم غنى العائلة . فالمهاجرون اليهود المعدمون كانوا يحلون في البدء في حي حارة اليهود القديم ، حيث كان يعيش في بؤس شديد عشرات الآلاف من اليهود الذين كانت عائلاتهم تقطن مصر منذ الأزمنة التوراتية . كانوا يتكلمون العربية ، ولا يميزهم شيء ، ما عدا الدين ، عن الجمهور المصري ، ومعظمهم لم يكونوا يواصلون الحياة الا بفضل المعونات الكريمة من جانب الموسرين من أبناء دينهم . وكان الطور الثاني يقود إلى الحي الأوروبي ، على ضفة النيل اليمنى ، بمواجهة جزيرة الزمالك . والأغني كانوا يستقرون أخيراً في الزمالك بالذات أو في غاردن سيتي ، الحي الذي تهيمن عليه سفارة انكلترا الفخمة ، مركز السلطة الحقيقي في مصر .

كان دانييل كوريبيل قد وضع هو بذاته تصميم بيته ، لكن مهندس الديكور الشهير جانس هو الذي كان سينفذ ترتيبه الداخلي . إلا أن أزمة 1929 جعلته يلغي تنفيذ المشروع ، الذي كان بالغ الفخامة . ربما كانت تلك حجة : فعماه كان منعه في شتى الأحوال من تثنين الديكور ، ولم تكن زفيرا الطيبة لتشعر بالحماس والشغف إزاء هذه التفاهات . هكذا كانت صالة الاستقبال الكبرى قاعة واسعة جدرانها مغطاة بالأوبوسون ، فيما السجاد المشرقي يغطي أرض القاعة ، التي ليس فيها من الأثاث غير مقعدين وديوان كان سيد البيت يعقد جلساته عليه . وكان ما تبقى على منوال ذلك : أشياء قديمة حيث يتجاور أثاث من طراز لوي سيز مع بشاعات من الطراز الحديث ؛ كما أن الجدران لم تكن حتى مطلية . كان آل أغيون يسخرون سراً (إحدى شقيقات دانييل اقترنت بواحد من آل أغيون) ، لكنهم كانوا يطيلون ألسنتهم بحق آل كوريبيل . فلقد كانوا من طبقة أرقى . كان هناك الجد القديم أغيون ، مؤن بونابرت ، ثم جد آخر من آل أغيون ، وزير للمال مستور أثناء حكم الخديوي اسماعيل ، كان قد نبه إلى الخطر إلى حد التعرض للنفي ، لكن جرى استدعاؤه مجدداً بكل احترام وتوقير بعد أن أكد الافلاس توقعاته المتشائمة . كان آل أغيون قد أسسوا مصارف - مصارف حقيقية - ، وانطلقوا في مجال الصناعة وظلوا يقدمون الاعانات لمدارس يهودية أسسها أجدادهم . كانوا يعيشون بأبهة وترف في الاسكندرية . فحين كان جان أغيون ، ابن خال هنري كوريبيل ، يذهب من الاسكندرية إلى القاهرة ، كان يستأجر مقطورة فخمة بكاملها كي يأخذ راحته . ولقد عرف اندريه - فايل كوريبيل ، وهو ابن عم ايضاً (كانت شقيقة أخرى لدانييل تزوجت بواحد من عائلة فايل في باريس) ، عرف مع آل أغيون ما بدا له لوقت طويل قمة الترف : ففي ناديم ، نادي السبورتنغ في الاسكندرية ، كان خذم يقومون بجمع طابات البينغ بونغ

أثناء المباريات بين الأولاد . أما نمط حياة آل كورييل فكان أكثر تواضعاً : « البورجوازية البسيطة الطيبة - حسب تقدير راوول - . كان لدينا عشرة خُدام ، الأمر الذي لا يمكن اعتباره فاحشاً . » وكل أولئك الخُدام تقريباً كانوا من الرجال . كان طبّاخ ومساعدته يعملان في الطابق تحت الأرض ؛ وكان ثلاثة يخدمون على المائدة ؛ وسائق تحت تصرف دانييل كورييل ؛ أما الباقون فكانوا يتوزعون المهام المنزلية . كانت المائدة تستقبل دون توقف . فالناس يصلون دون كلفة ويأخذون أماكنهم . وقد كانوا يتمتعون للجمالية اليهودية ، إلا في حالات نادرة . وكلما يوضع الطعام كنت تجده عشرة على الأقل من أولئك الضيوف غير المتوقعين . وكان الأكل وفيراً وشهيّاً . قسم من الخضار يأتي من ممتلكات العائلة الواسعة في المنصورة . وقد كان نصف الأراضي يُستثمر استثماراً مباشراً بإدارة مهندس زراعي ، بينما يخضع الباقي للمزارعة . كان دانييل كورييل شغوفاً أيضاً بالأرض .

✱

✱ ✱

بخصوص الآخرين ، الأكثر حداثة والأقل غنىً ، فقد كانوا يعيشون يُسر .

كان ابن المصري اسطنبولي قد بدأ في القاهرة بالتجارة ، ثم تسجّل في نقابة المحامين ، مستجيباً للدعوة التي أيقظتها في نفسه المحن القضائية الوالدية . كان تزوج ابنة مصري دمشقي آخر ، مكلف بجباية الضرائب الريفية في الريف السوري ، وكان هذا قد اشترى من جديد خان القوافل العائلي بعد وفاة العجوز اسطنبولي . وكمتمخصص في القانون التجاري وفي الأحوال الشخصية لليهود في مصر ، كان لدى الأستاذ اسطنبولي مكتب محاماة مزدهر ، ومسكن جميل في القاهرة وخدم . وكانت امرأته تعود الى دمشق في كل مرة تحبل فيها ، بحيث ولد ريمون عام 1923 في خان القوافل الخاص بأجداده .

أبصرت ليديا ألوني النور بعد ذلك بعام في المعادي ، نوبي * القاهرة . وكان جدها طبيب الباشا العثماني ؛ وغدا والدها محامي ملك مصر ، فؤاد ، والد فاروق المشؤوم . كان الأستاذ ألوني ، الحاصل على لقب الشرف باشا ، يسكن بيتاً فخماً محاطاً بجنيئة رائعة ، مع أقبية فسيحة إلى حد إقامة حفلات راقصة فيها . كان يعبد القانون والزهور ، مكرساً لدراسة الأول نهاراته والجزء الأكبر من ليلائه - كانت تكفيه ثلاث ساعات نوم . وكانت امرأته ،

* Le Neuilly Cairote ، ونوبي تجمع سكاني في منطقة باريس (المغرب) .

المتحدرة من عائلة يهودية في جنوبي فرنسا ، عازفة بيانو ماهرة عزفت في حفلات موسيقية قبل زواجها . وقد احتفظت ليديا من طفولتها بالصورة المفعمة بالحنين لانسجام كامل : والدتها أمام البيانو في المنزل الصامت الكبير ، والدها الذي زاغت عيناه لكثرة ما قرأ في مجلدات الاجتهاد ينتزه في الجنية بين الزهور الكثيرة للغاية التي كان يكنّ لها حناناً ممزوجاً بالمعرفة .

أما الجدّ الرهيب هازان فكان قد أوصل ولديه تحت التهديد بالعصا إلى الدراسة الجامعية التي كان مهووساً بها . وقد استقر أحدهما في فرنسا ، حيث أصبح نائب مدير ال PLM ، ومدير كازينو ايفيان ، وعميلاً للشعبة الثانية . وكان الآخر مهندساً زراعياً وشغل منصب مدير في بنك التسليف العقاري المصري ، المنبثق من مصرف الهند الصينية . كان ثمة ثلاثة خدم في المنزل ، وما تقدّم وجبة إلا وعليها ما لا يقل عن خمسة طباق . هكذا فإن ابنه جوزف ، المولود عام 1917 ، لم يكن بحاجة للدرس حتى منتصف الليل على الضوء الأصفر للمصابيح العامة .

كان والد روزيت ، الذي دعاه الخديوي شخصياً للمجيء والاستقرار في مصر ، كان قد أصبح مديراً لمختبر الكيمياء في وزارة الزراعة . وكان يكرس وقته لتحليل مياه النيل والأراضي المصرية . وبالتوازي مع ذلك ، كانت لديه مصالح في الاستيراد المجزي لنيترات السودان التشيلي . وكان في خدمته سائق وخادمان . وحين كانت تذهب الصبيّة روزيت لقضاء الصيف في فرنسا ، على غرار كل شبيبة القاهرة المنعمّة ، كانت ترافقها بالطبع مربيتها .

بما يخص الجد سيتون ، الوسيط التجاري في حلب ، والأرمل المبكر ، كان وصل إلى القاهرة مع ولدين بقيا على قيد الحياة من أصل عشرة أولاد . ولقد أتمّ والد أيميه دروساً سريعة ، ودخل المصرف لكن لينتقل سريعاً الى تجارة القطن . وكان لا يجارى في الكريب الشخين ، والباتستة* والعنبركيس** . كان رجلاً سعيداً . ولقد احتفظت أيميه بذكرى لطيفة إلى حد التأثير للوجبات العائلية التي لم تكن تجمع يوماً أقل من أحد عشر مدعواً (الأقارب ، وستة أولاد ، وثلاثة خدم) ، والتي كانت تقطعها ضحكات الوالد المعديّة ، وتضيئها ابتسامة الأم . كان يجري كسب الكثير ، ليتّم إنفاق كل شيء على طريقة أهل حلب .

كان جد شحاتة هارون لأبيه قد باع سجاده في شوارع القاهرة دون أن يحوّل ذلك إلى دراما ، لأنه لم تكن لديه طموحات . وقد دخل ولده في سن العاشرة إلى المخزن الكبير

* قماش قطني أركتاني باسم صاحبه (م) .

** نوع من النسيج الهندي (م) .

سيكوريل ، حيث اشتغل 48 سنة ووصل في الأخير إلى رتبة رئيس فرع : فضمن كل مفزة نفر يقف في المؤخرة .

*

**

هاكم أناساً لم تكن جذورهم الغارزة هنا أو هناك صلبة إلى حد مقاومة جاذبية مغامرة جديدة يتم ركوبها ، إعادة للكرة تتم محاولتها ، لكن كانوا قد وجدوا ، في نهاية محن طويلة ، المكان الملائم لاتحاد وثيق نادر مع الوسط المحيط ، وذلك في الضفة الشرقية للبحر المتوسط ، في السلطنة العثمانية العجوز . كانوا يعيشون كالسكان الأصليين ، ويشاركونهم ثقافتهم ، وإذا كانوا يُصلّون لاله آخر فعلاً ما كان ذلك بلغة أولئك السكان . كان الأجداد مندمجين كلياً في السياق البشري للشرق الأدنى . وقد استقر أولادهم على ضفاف النيل ، وبجرد واقع الانخراط في صفوف البورجوازية ، من النموذج الأوروبي ، سوف ينجز ما لم يحلّه العرق يوماً ، أو ما يسمونه هكذا ، ولا الدين : قطعاً جذرياً مع الشعب المحيط . ليست الشجرة المصرية هي التي رفضت المطعم اليهودي ، بل العكس . كان الجد يستقبل أفضل شعراء دمشق أو حلب ، أو يعاشر نخبة اسطمبول المثقفة ؛ أما الحفيد فيقول « العرب » بغطرسة لأن الوحيد الذين يعرفهم من هؤلاء إنما هم خدمه .

في بيت آل كوهين ، كانت الجدة لابسة مثل امرأة مسلمة ، تقضي نهاراتها خلف المشربية ولا تتكلم غير العربية . فيما الأم تتقن العربية لكن تستخدمها أقل ما يمكن . وحين بلغ ابنها ألفرد سنته الثالثة ، منعه من التكلم بها منعاً باتاً . وفي بيت آل أرييه ، كانت الأم تستشيط غيظاً حين ترى الأب ، المولود في اسطمبول ، يصرّ على معاشره مصريين ، فتقول : « إنه عربي ! فهو لا ينفك مختلطاً بهم ! » لكن لن يجتاز أحد منهم عتبة البيت إلا إذا كان خادماً أو صاحب مهنة ، وسوف ينشد الفتى البر هو وزملاؤه : « نحن الجراميز ، صغار الذئاب الفرنسيون » . ولا يختلف الأمر لدى آل كورييل ، وآل أغيون ، وآل سيتون ، وآل ألوي ، وآل اسطمبولي . لا أحد من رفاق هنري كورييل فيما بعد سوف يدخل متحف القاهرة ؛ لا أحد منهم سوف يجتاز النيل صُعداً ليلقي نظرة على كنوز وادي الملوك أو أسوان . إن « الغرباء » المتحصنين في الغيتو البورجوازي الخاص بهم (ما من لافئة واحدة بالعربية في الحي الأوروبي) ، لهم مصالح مع المصريين لكن ليس لديهم أي اهتمام بمصر .

إنها اهانة قصوى للبلد : لا أحد يلتمس الانتماء إليه ، فهذه الفكرة تبدو مضحكة . حتى آل كورييل ، المقيمون منذ أكثر من قرن والذين تستريح رفات آبائهم وأجدادهم في مقبرة

القاهرة ، تحاشوا أخذ جواز السفر المصري . إنهم من الجنسية الإيطالية مثلما كان العجوز اسطمبولي من رعايا بوكنغهام بالاس ، وللسبب ذاته : نظام الامتيازات . إن امتياز القضاء الفاحش الممنوح للأجانب يدفع كل عائلة للسعي بكل الوسائل للحصول على جواز سفر أوروبي . وقد كانت مدينة ليفورن الإيطالية ملائمة من وجهة النظر هذه ، لأن حريقاً اجتاح فندقها البلدي وأتلف محفوظاتها : بسبب غياب وسيلة مراقبة ، لم تكن تتردد في تسليم شهادات الميلاد ، وبهذه الطريقة غدا آل كوريل إيطاليين على غرار مجموعة من العائلات اليهودية في القاهرة التي لم تكن تتلفظ بكلمة إيطالية واحدة . (لكن كل القاهرة كانت تعرف أن تحسب حتى العشرة في لغة دانتي لأن عاملات الهاتف كن إيطاليات أصيلات . . .) وكان مع آل هازان جوازات سفر فرنسية ، حيث أنهم عثروا على جد مرّ بالجزائر . وكان هناك سعي وراء جواز السفر النمساوي بسبب سعره الزهيد ، لكن سوف يظهر الاقتصاد فيما بعد كارثياً لأن حائزي جواز السفر المذكور من اليهود سوف ينظر اليهم المحتل الانكليزي خلال الحرب العالمية الثانية على أنهم رعايا هتلريون . كلا ، لم نصل إلى هذا الوضع . ففي الوقت الراهن ، يتسلى الفتى ريمون اسطمبولي في تكسير المصابيح العامة هو وعصابته من الزعران الصغار ، ويصبح بسخرية في الشرطي المصري الذي يهرع رافعاً عصاه : « لا تلمسني ! ليس ذلك من حقك ، فأنا محمي . » كانت تلك هي الدرجة الأولى من الامتياز ، يليها وضع التابع ، ثم شرف المواطنة . لدى أدنى صعوبة مع الشرطة المحلية ، كان يكفي إعلان المرء أنه محمي فرنسي ، أو يوناني أو إيطالي ، وسرعان ما كان بواب القنصلية يأتي ، بعد إبلاغه ، لتثبيت ذلك وإنهاء القضية . وعلى حدّ قول أولئك بالذات الذين أمضوا عشر سنوات في معسكرات الاعتقال المصرية ، فإن الشعب المصري هو الأطيب والأكثر صبراً بين شعوب الأرض (1) .

هكذا كانوا قد جلسوا على مصر مستريحين فيما هم ينظرون شطر غيرها .

(1) يروي جاك حسون باستمتاع في كتابه يهود النيل عملية تجنيس جماعية غير عادية . بما أن قنصل إيطاليا في القاهرة أكثر من نفخ عدد أفراد عصابة القمصان السوداء الفاشية في صفوف الجالية الإيطالية ، وذلك لأسباب مالية ، فإن الإعلان عن زيارة تفتيش قام بها المارشال بادوغلبيو عام 1938 ، كان يجب أن يدفعه للهروب أو للالتحار . إلا أن القنصل كان آتياً من بلد الكوميديا ديلارتي ويحيا على أرض ألف ليلة وليلة . جند عدة مئات من المتطوعين من بين بؤساء اليهود في حارة اليهود ، ووزع عليهم جوازات سفر إيطالية وقمصاناً سوداء ، وعلمهم أن يمروا في استعراض موقع وهم يهتفون : « تحيا إيطاليا ! » اندهش بادوغلبيو من عدد أفراد القمصان السود القاهريين وحاسمهم الحربي لكنه غادر مجدداً بعد أن ترك تعليمات جعلت وجه القنصل المستبشر يكفهر . في اليوم التالي ، دعي اليهود الفاشيون إلى القنصلية - وكانوا يعتقدون أن عقدهم قد انتهى - وهناك علموا أنه قد جرى استنفارهم وسوف ينطلقون في الأسبوع التالي ليقاتلوا في اثيوبيا . فتلت ذلك فتنة حقيقية فالقمصان السود من حارة اليهود لم ينطلقوا ، وهو ما جعل الحكومة الإيطالية تكرمهم عام 1945 كفارين من القتال شجعان مناهضين للفاشية .

شطر فرنسا .

كيف السبيل اليوم الى افهام الاندفاع العاطفي ، والشغف الطويل لدى أولئك الناس الذين كانوا يخرجون من الأسواق السورية أو من قرية بائسة في بلغاريا ، من دسكرة في فالاكيا أو من ضاحية تركية ، والذين اختاروا كوطن لهم فرنسا التي كان معظمهم يحبونها قبل أن يطأوا أرضها ؟ كانت بلد الثورة العظمى ، بلد الأنوار ، وبلد حقوق الانسان ؛ جوهر الثقافة الكونية ؛ الحَكَم في مواضيع الظرف والأناقة . كانت بالنسبة اليهم أيضاً « الأمة العظمى » لغوته ، وإذا لم تعد كذلك تماماً في الحقيقة ، فهم لم يكونوا يخاطرون باكتشاف ذلك في أحياء باريس الجميلة ومدن الماء التي كانوا يترددون إليها مفضلين إياها على ضواحيها السوداء . كانوا يعشقون فرنسا كتبها فيكتور هوغو ، ورواها ميشليه ، ورسمها فراغونار كان دولاكروا ينتزع منه ريشته حين تسوء الأمور . كان أمراً رائعاً بالنسبة إليهم أن تعيد الاعتبار لدرافوس ، متناسين أنها سبق أن أدانتهم . كانوا يرونها باختصار على منوال شارل دوغول الصغير ، معاصريهم ، « شبيهة بأمية الحكايات أو المادونا على اللوحات الجدارية ، كما لو كانت معدة لمصير رفيع واستثنائي » .

لم يكن ذلك شغفاً سطحياً أو مجرد إعجاب بما هو شائع . في حين كانوا يتفوقون في غيرة أنانية ضمن البلد الذي استقبلهم ، فلقد كانوا مستعدين لبذل الكثير من التضحيات لصالح بلد الاختيار ، إلى حدود بذل الذات . كانت قد تمت رؤيتهم في بوربول أو في فيشي : وُجد منهم عددٌ في فردان وفي شومان دو دام . هكذا انخرط عمّان لروزيث وعمّ هنري مع كثيرين آخرين في الجيش الفرنسي منذ عام 1914 ، في حين لم يكن يجبرهم شيء على التخلي عن رخاء الحياة المتوسطة لصالح الملحمة الدامية في منطقة شامباني الفرنسية . ومن تبقيوا هم فرنسيون بالكامل . فالعم أغيون ، المصري عملياً منذ أكثر من قرن ، والايطالي على صعيد جواز السفر ، يحمل اسم موريس ديروليد بسبب شوفيئته الغالية الشرسة (فيما بعد سُمي ابنه ريمون احتراماً لبوانكاريه) . وكان دانييل كورييل يتذكر دائماً ولادة هنري ، في 13 أيلول 1914 ، موضحاً : « لقد ولد في اليوم ذاته الذي علمنا فيه بانتصار المارن » . وحين تقدم راوول وهنري فيما بعد بدورهما ، في 3 أيلول 1939 ، إلى قنصلية فرنسا في القاهرة من اجل الانخراط في الجيش الفرنسي ، لم يكن لديهما الشعور بالقيام بعمل نموذجي بل بإنجاز واجب بديهي . قبل عام امن اغتيال هنري كورييل ، كتب ما يلي : « كانت فرنسا هي الوطن الوحيد الذي شعرت بالارتباط به » .

على امتداد جبل ، باتت فرنسا المرجع الأول ، إذا لم يكن الوحيد ؛ لقد كان الأستاذ

ألوني - وهو ابن طبيب أحد سلاطين تركيا ، ومخامٍ لملك مصر - يعلّق أهمية على لقب الشرف الذي يحمله كباشا مصري أقلّ مما على رتبته كضابط رفيع الرتبة في كتيبة الشرف . وكان والد روزيت ، الموظف رفيع الرتبة في وزارة الزراعة المصرية ، يُحسّ بالمعزّة تجاه مدالية الاستحقاق الزراعي الفرنسي التي كان حاصلاً عليها . أما والد جوزف هازان فكان لا يزال يعتمر الطربوش ، ويقرأ صحيفة عربية إكراماً لذكرى دمشق ، لكنه كان مشتركاً ككل الآخرين في صحيفة فرنسية . وكل مساء ، كان دانييل كوريل يستمع الى زفيرا الطيبة تقرأ له جريدة لوتان . ولقد كان البيت المنيف في الزمالك مفتوحاً على مصراعيه أمام الفنانين الفرنسيين القائمين بجولة ، وكان الموسيقيون يلقون بالطبع أكبر قدر من الاحاطة . وعلى صعيد الكتب ، كان آل كوريل مرتبطين بعقد مع صاحب مكتبة باريس يزوّدهم بها مرسلةً في صناديق : كانت مكتبة العائلة تضم عدة آلاف من الكتب . وكل صيف ، كانت كل عائلة تقفل حقائبها وتسافر إلى فرنسا . وسوف يحتفظ الأولاد من تلك الرحلات بذكرى أيام لا تنتهي أمضوها في الحدائق العامة لمدن الماء تحت السيطرة الصارمة لمربيات ذوات أطواق منشأة . بعد قضاء أسابيع المعالجة الثلاثة ، كان يمضي راوول وهنري ، هما والأب والأم اللذان لا يتعبان ، في سباق لا ينفك يبدأ من جديد من متحف لمتحف ، مع تعريجات على بلجيكا وانكلترا وهولندا ، حيث شُغِف هنري بامبراندت .

بالطبع كانت التربية فرنسية . لم يكن الخيار ممكناً إلا بين التعليم الديني ، لدى الرهبان واليسوعيين ، ومعهد الارسالية العلمانية الفرنسية . كانت الارسالية العلمانية - التابعة في مصر لوزارة التربية الوطنية - تشغل عقداً بعد عقد معلمين لا مثيل لهم ، مشغوفين بعمل يعيشونه كرسالة ، مفعمين بقناعات . كانت الامبريالية الثقافية كئيبة . ثمة مجال للخيار بين شهادتي باكالوريا ، إحداهما عربية والأخرى فرنسية ، لكن الغالبية الساحقة من التلاميذ كانت تختار الثانية . وكانت دراسة اللاتينية مفضّلة على العربية . يردد التلاميذ دون عُقد « أجدادنا الغاليون » ، ولا يدرسون تاريخ مصر إلا في الصف السادس ، كما الحال في رين أو رومورانتين ، وللمرحلة الفرعونية فقط . لقد كان اسطيمبولي العجوز يعرف عن ظهر قلب القصائد العربية الأكثر روعة وجمالاً ؛ في حين يحفظ حفيده غيباً لائحة مراكز المحافظات الفرنسية .

تحت تلك الصورة ، كانت مصر تتحرك .

لم يكن ثمة غير الانكليز يعتبرون أن استعمارهم للبلد عاد عليه بالفائدة . بالطبع ، من النادر أن يكرّس التصفيق العام امبريالية ما ، وعلى المعمر في أغلب الأحيان أن يكتفي بشهادة رضى عن الذات ، لكن الخبراء غير المتحيزين يعتبرون أن كشف الحساب الانكليزي في مصر

أدنى بكثير مـ فعله الايطاليون مثلاً في ليبيا . كان إنجازهم الأهم تركيز نظام قنوات يسمح بالري الدائم لدلتا النيل . أنهموا هكذا ، بصورة مرموقة ، العمل الذي بدأه مهندسو محمد علي الفرنسيون . وقد نتجت عن ذلك ثورة اقتصادية وبشرية لم يشهدها البلد من قبل . فبدلاً من الموسم الوحيد الذي كان يسمح به الفيضان السنوي للنيل ، بات ثمة مواسم ثلاثة يؤمنها الري الدائم للفلاح بفضل الجمع الملائم إلى أبعد الحدود بين رطوبة الأرض وحرارة الجو . هكذا تضاعف انتاج القطن خلال خمسة عشر عاماً ، وأصبحت مصر الممّون الأول لمصانع الغزل الانكليزية . إلا أن الجردة أكثر التباساً على الصعيد البشري . فالفلاح بات يكسب ما يسدُّ رمقه لكنه يُنهك نفسه في عمل لا يتوقف . أي أن حاله على غرار ما كتب جان وسيمون لاكوتور : « هوذا قد انتقل من وضع نصف مرموط* الى وضع قندس⁽¹⁾ » . وبما أن زراعة القطن تتطلب يداً عاملة كثيفة ، وبما أن الأولاد ينسجمون مع ذلك تماماً ، راحت العائلات الفلاحية تنمو وتتزايد الى حد أنها أعادت طرح المشكلة المخيفة بتأمين الحد الأدنى من شروط البقاء ، مع أول هبوط في السعر العالمي للقطن .

أما بصدد الباقي ، فلقد كان السيد الانكليزي يكتفي بالتسيير والادارة بعد أن أعاد استتباب النظام وأصلح المالية . وليس هذا أمراً نافلاً لكنه يفتقر الى اللطافة . إنه ييدي اسوأ أنواع العجرفة : تلك التي لا تولد من شعور بالعليائية بل من شعور بالتمايز . هوّسه المتمثل بتنظيف اسنانه ثلاث مرات بعد مضاجعة امرأة من أهل البلاد . وقناعته بأن مسيح نادي الجزيرة الرياضي يتعرض للتلوث إذا غطس فيه جسم مصري . ثمة بُعدٌ عن حالات التشوش الصريحة . لكن الوضوح هنا يتناقض مع العمى المجنون لدى المعمر الفرنسي . لقد كتب لورد كرومر عام 1908 ، بعد حكم للبلد دام عشرين عاماً : « لا شيء يرجع على هذا الواقع المتمثل بكوننا غير مسلمين ، وبكوننا لا نأكل ولا نشرب ولا نتزوج مثلما يفعلون .

لقد عززت الحرب العالمية الأولى السيطرة الانكليزية في البداية ، ثم زعزعتها في النهاية . جرى قطع رابط الولاء الأخير تجاه تركيا ، لأن هذه الأخيرة اصطفت في المعسكر الالماني ؛ لكن نظام الحماية البريطاني المنادى به رسمياً كرس سلطة ليست رمزية اطلاقاً . تمركز مليون جندي في مصر ، في حين جرى ارسال حملة من الجنود المحليين الى فرنسا . إلا أن أسعار القطن ارتفعت كثيراً ، وأدى تموين الجيوش إلى خلق مجموعة من أصحاب الملايين ،

* حيوان قاضم ينام كل الشتاء (م) .

(1) جان وسيمون لاكوتور ، L'Egypte en mouvement منشورات لوسوي ، ص 57.

وتأسست صناعات محلية للتعويض عن وقف استيراد المنتجات المصنعة . ووفقاً للتقديرات الأكثر معقولة ، تضاعفت ثروة البلد خلال أربع سنوات . وكما الأمور دائماً في حالة من هذا النوع ، فإن التضخم المتنامي زاد الأغنياء ثروة والفقراء فقراً . وقد فاقم الازدهار الوقوع لأوضاع المستفيدين من الحرب بؤس العدد الأكبر من الناس . وجدت شريحة المثقفين الرقابة الانكليزية المدققة أمراً غير محتمل . وسقطت على هذه الأمة المنشطة لكن مختلة التوازن « النقاط الأربع عشرة » للرئيس الأميركي ويلسون ، ودعوات مكة إلى أن يتمرد العرب ، والاعلانات الفرنسية - الانكليزية المكرسة لتفتيت السلطنة العثمانية وحصول مقاطعاتها القديمة على استقلالها ، سقطت كما لو كانت أصوات نواقيس الخطر .

في 13 تشرين الثاني 1918 ، أي بعد الهدنة بيومين ، طلب ثلاثة مصريين مقابلة المفوض السامي البريطاني وطالبوا باستقلال بلدهم . كان على رأسهم سعد زغلول ، وزير التربية العامة سابقاً ، وهو رجل قومي هادئ ، وماكر ، وصعب الترويض . كان قد كبح جماحه طالما الحرب مستعرة ، متحاشياً بذلك اتهامه بأنه يطعن الحلفاء في الظهر . أما الآن فقد أزفت الساعة . قدم الثلاثة انفسهم على أنهم « الوفد » . كانت تلك لُقيّة رائعة ، ضربة جريئة مذهشة : قرع ثلاثة أشخاص باب السيد الانكليزي المنتصر لتوّه في ساحات الوغى الأوروبية ، والذي كانت امبراطوريته الأقوى آنذاك بين الامبراطوريات التي عرفها التاريخ ، وقالوا بكل بساطة : « لقد أوفدنا الشعب لنطالب باسمه باستقلال مصر . » وفي الواقع أنه لم يوكلهم أحد رسمياً ، ولم تكن لهم أية بنية تنظيمية تشد أزرهم - لا شيء ما عدا الأمة ، لكن الأمة بكاملها ، التي سوف تبرهن ، بعد الرد الجاف من جانب السيد الانكليزي ، انها مستعدة للموت بنيران رشاشاته . غرق البلد في الاضرابات والمظاهرات ، ولم يفلح للقمع الشرس في سد الطريق أمام المد الشعبي الجارف . وهكذا لم يمض شهر على نفي سعد زغلول ورفيقه إلى مالطة حتى كان يتم اطلاق سراحهم . وقد أعقبت الاندفاعة الشعبية الحماسية مقاومة سلبية ودعاوة ذكية لدى الحكومات الأجنبية والرأي العام العالمي . فاضطرت لندن في عام 1922 للاعتراف على الملأ باستقلال مصر . طبعاً كان ذلك الاعتراف مرفقاً بتحفظات تضيق بصورة مزعجة من سيادتها . وقد كتب مؤلف انكليزي كتاباً عن مصر بعنوان البلد الأعظم أهمية . إنه بلد الأمة الأكبر عدداً في الشرق الأدنى العربي المنبثق من الحرب العالمية الأولى ، والمفتاح الأساسي لطريق الهند ، وهُري القطن الذي لا تجد مصانع الغزل البريطانية بديلاً منه . سوف تبقى لندن إذن حاضرة عسكرياً وتستأثر بمهمة حماية « المصالح الأجنبية والاقليات » ، وهو ما يترك الباب مفتوحاً على الكثير من المبادرات . لكن مبدأ الاستقلال مطروح ، هذا المبدأ الذي يعود كل شيء ، انطلاقاً منه ، ممكناً ، بل مرجحاً ، لا بل محتوماً .

للمرة الأولى منذ تكوين الأمبراطوريات الاستعمارية الكبرى في القرن التاسع عشر ، وجدت السلطة الأوروبية نفسها مضطرة للتراجع . تلك بداية وحسب .

*

**

يا لها من بورجوازية ذكية !

تطلعوا إلى ديدار روسانو الصبيّة والجميلة في طريقها إلى المعهد . ها هي ترتدي الزي |
الالزامي الموحد : بيريه ، وفستان وصدار أبيضان زُخرفت عليهما الحروف الأولى أ . ع . ف .
لاسم المعهد : الارسالية العلمانية الفرنسية ، وكل ذلك بالغ النظافة لأن المديرية ، الأنسة
اندرية ، تفتش الصفوف كل صباح بعين مدققة . كان والد ديدار مديراً في مصرف مصر
الوطني . أصحاب الامتيازات وحدهم يستطيعون ارسال أولادهم إلى المعهد الفرنسي ، حيث
رسوم التسجيل مرتفعة . لقد تعرضت كثيراً للسخرية أميرة حمود التي راحت تؤكد أنها يهودية
مثلها مثل الجميع ، في حين كان والدها مصرياً وأمها ايطالية (سوف تقترن فيما بعد بالممثل
دافيد نيفن) ؛ وقد حدثت بلبله حين تمّ اكتشاف أن تلميذة أخرى ، يهودية حسب زعمها ،
ليست أكثر من فتاة كاثوليكية خجول . وهذا يعني أن العداء للسامية لم يكن وارداً . أما
بخصوص عداء محتمل للأجانب ، فلأجل الشعور بمساوئه كان لا بد من وجود احتكاك حقيقي
بالسكان المحليين ؛ والحال أن المصريين الوحيدين الذين كانت ديدار على اتصال بهم هم بواب
المبنى الذي تسكن فيه ، وسائق العربّة الذي تستأجره أمها ، والخادم المستعد لتأدية كل أنواع
الخدمات ، ونفيسة الطيّبة التي تستبسل ، بمساعدة ابنتها ، في « استعادة » البزّات الموحدة
البيضاء المشبعة بغبار القاهرة . بعد ذلك بسنّات ، وبعد أن باتت ديدار فتاة حاذقة ، التقت
في حفلة راقصة خاصة ضابطاً بالغ الوسامة إلى ~ أنها عشقته على الفور (تزوجته فيما بعد) .
ولأجل الكلام ، سألتها في أية وحدة انكليزية يمارس إمرته . فأجابها الشاب ، الذي امتعض
فجأة ، بأنه لا يخدم في الجيش الانكليزي - في أيّ جيش إذن ؟ - في الجيش المصري . وبما
لدهشة الفتاة المسكينة : كانت تجهل وجود جيش مصري . وهذا أمر قاس بالنسبة لابن
البلد . بالمقابل ، كيف يمكن هذا الأخير أن يشعر بالعداء للأجانب تجاه آنسة مع انها ولدت في
البلد إلا أنها تعيش على السطح مثل سائحة عابرة ؟ والأمر نفسه يصبح أيضاً بالنسبة لأبيه
سيتون ، التلميذة في مدرسة جان دارك قبل أن تدخل المعهد ، والتي يهتز قلبها لعودة الالزاس
واللورين فرنسيتين أكثر مما يهتز لقضية السودان . كما أن هذا يصبح أيضاً على المصري دانييل

كوريل ، المهتم بالحياة السياسية الفرنسية (صدمه عام 1924 وصول اتحاد اليسار للسلطة كما لو كان كارثة : اقنع بأن فرنسا سوف تخضع لسلطة بلشفية) أكثر بكثير من مجريات الحياة المصرية . وهل من حاجة للذريعة يخترعها ابن البلد كي يتخاصم مع العم أغيون ، الشرس في الدفاع عن ريمون بوانكاريه ، لكن الذي يبقى غير مبال بسعد زغلول ؟

لن يزعم أحد بأن الحيلة مقصودة . لقد كان الاشعاع الفرنسي يمارس تأثيره بقوة إلى حد أن البعض - كوالد روزيت ، ووالد ريمون اسطمبولي - تلقوا ذلك التأثير حتى قبل أن يصلوا إلى مصر ، وإن من سوف يشهدون لموطنهم المختار حتى في خنادق الحرب الأولى سوف يحتجون عن حق بصفاء مشاعرهم . لذا ليس وارداً الاشتباه بخصوصيات كل واحد بل ملاحظة ظاهرة جماعية لا علاقة لها بالتلاعب . إنهم مرتبطون جميعاً بالرأسمالية الأوروبية ، التي تحمي امتيازاتها أعقاب البنادق الانكليزية ، لكن ارتباطهم العاطفي والعقلي بفرنسا يبرئهم من شبهة التواطؤ مع المحتل . أكثر من ذلك : أن محبة فرنسا هي في مصر طريقة لتأكيد المرء كرهه لانكلترا ، وذلك حتى حدود المفارقة . تتم تبرئة ذمة بونايرت لأن نابوليون عانى من ألبون* الغدارة . ولقد روى انور السادات في مذكراته انه في طفولته في القرية ، في أبعد مكان من الدلتا ، كان والده يقص عليه كيف أن سجين القديسة هيلانة المسكين نجح في التحايل على خبث الحاكم الانكليزي الذي كان قد خفض باب بيته ليجبره على أن يحني رأسه : كان نابوليون يقرقص ويمر رافع الرأس . . . يا للشعوذة ! فالرجل الذي كان قصف القاهرة بالمدافع يطوبونه في القرى المصرية على انه شهيد الانكليز .

أن يعلّق المرء عربته بالنجمة الفرنسية فتلك لعبة لا تستلزم جهداً ، لأن تلك النجمة كانت تلمع في سماء مصر لمعاناً يدعو للتفاؤل وكانت ميزتها التي لا مثيل لها أنها نيزك . لقد قيل : إن حظاً سعيداً كان احتفظ لمصر بنخبة الرّحالة الفرنسيين . فالعلماء والفنانون والمهندسون وعلماء الآثار كانوا يظهرون بمظهر أفضل من مظهر التجار والجنود الانكليز ؛ لقد كانوا بوجه خاص طيوراً مهاجرة ؛ كانوا يفكون ألغاز الحروف الهيروغليفية ، يرسمون سداً ، يشوّرون القطن ، ثم يغادرون مصر ! أما الانكليزي فكان يستقر . كان نصف قرن من الاخضاع يتأمل الشعب المصري من أعالي سفارته ، وكان قد بدأ ذلك يظهر على أنه أبدي .

كانت فرنسا بالنسبة لكل واحد شغفاً أصيلاً ؛ فبالنسبة للجميع ، هي دُفَعٌ بالغيبة ، بالمعنى الأول للكلمة . كان بطنهم في القاهرة وقلوبهم في باريس ؛ وكان الهضم مناسباً هكذا .

* اسم اطلقه الأقدمون على انكلترا (م) .

نادراً ما استطاع علّم تهريب جنسية ما ، حتى إن كانت ثقافية ، أن يغطي بهذه الدرجة من النجاح الواقع الاقتصادي والاجتماعي الفاحش .

لذا سوف يحتفظون بذكرى مفعمة بالحنين لمرحلة صباهم في مصر ، بمن فيهم أولئك الذين أمضوا عشر سنوات في المعسكر ولا يزالون إلى اليوم مناضلين ثوريين . كانت مصر في سنوات صباهم جنة الله على الأرض لأنهم كانوا يتلذذون فيها بالثمرة الاستعمارية الطيبة دون الوقوع في خطيئة الاستعمار الأصلية . كانوا ببراءة في جمال الأشياء وكانت حياتهم تبرز كفجر على القاهرة ، في الغبار المذهب للضوء الذي لا مثيل له على النهر الكبير الأملس ، وهم على قناعة مطمئنة بمستقبل سعيد .

كانت مأساة هنري كورييل الأولى حرمانه من فرنسا .

❖

❖❖

في البدء ، وُضِع هو وأخوه راوول في المعهد الصغير الذي كانت تشرف عليه الراهبات الطيبات ، ثم التحقوا بالصف السادس لدى الأخوة اليسوعيين في الفجالة . كان بعض الأساتذة في المعهد العلماني يعبرون عن أفكار متقدمة جداً بالنسبة لدانييل كورييل ، الرجعي الحازم في موقفه ؛ ولم يكن يسع زفيراً إلا أن تؤيد خيار إعطاء الولدين تربية دينية .

كانت الأم تفضل الابن البكر ، راوول ، الأكثر صوفية . أما الوالد ، الذي لم يكن يفتح قلبه كثيراً ، فكان يكتفي ببعض مبادئ التربية ويولي ثقته بما يخص الباقي . وقد أثار حبه للبيانو ، المناسبة الوحيدة للخصام الزوجي ، اشمئزاز الولدين من الموسيقى إلى الأبد . كان صمم على تلقينها العزف لكنه لم يكن يتحمل أدنى نوبة ناشزة . وكان راوول وهنري يعزفان على امتداد النهار في غرفة بعيدة كي لا يجرحا أذني الوالد ، وكان واحد من الخدم ، يقوم بتأمين الاتصال ، وينبئ دانييل بما يحققه الولدان من تقدم في تمريناتها .

كانت أعمال البر فضيلة ملتزماً بها ، وكان دانييل كورييل يقدم مبالغ مهمة لهيئات الاحسان التي بفضلها كان اليهود المعدمون في حارة اليهود يبقون على قيد الحياة . وحين بلغ راوول الرابعة عشرة وهنري الثالثة عشرة من العمر ، اصطحبهما الى ميثم يهودي وقدم لهما ولداً اختاره أخاً لهما بالعمودية . كان عليهما أن يخصصا له عُشر مال الجيب الذي يتلقبانه . وكان الفتى المسكين يأتي مرة كل أسبوع الى البيت الكبير في الزمالك حيث يُضي يوماً غير مريح بمواجهة الأخوين كورييل ، اللذين لم يكونا أقل تضايقاً منه . وقد دام ذلك ثلاث سنوات .

لكن راوول سوف يحتفظ بهذه العادة ، ويبقى طيلة حياته يعطي العشر من مداخيله لأعمال الخير .

كانت الدروس موفقة . وكان هنري بارعاً في العلم ، ويتلقن بسهولة . وقد فقد بالطبع الإيمان لدى اليسوعيين ، مثيراً فضيحة حقيقية بطرحه ذلك السؤال المُحزن الصادر عن تلميذ قلوي : « انتم تحدثوننا دائماً عن السيدة العذراء ، لكن من تحقق من عذريتها ؟ » . إلا أنه لم يكن إثم ذبول لذلك ، فلقد كان سعيداً في الفجالة . وفيما بعد ، سوف يتهمه خصومه بالجزئية ، وحتى بين محبيه سوف نجد الكثيرين ممن يغتاظون بسبب أسلوب ملتف ومخادع مناسب تماماً مع الكاريكاتور الشائع عن الرهبانية اليسوعية . خلال نقاشات مهمة ، كانت طريقته المفضلة تتمثل بأن يجيب مستعيداً بادئ ذي بدء آخره جملة قالها محاوره ، كما لو كان هذا الأخير قد صاغ مسأمة لا تقبل الجدال . وهكذا فإن المعارض الآتي عاقد العزم على قول الصراحة المطلقة والمزعجة سرعان ما كان يجد نفسه بعد دقائق قليلة وقد تورط في رسال متحركة . فضلاً عن ذلك ، لم يكن هنري كوريل يخفي نزعة اليسوعية لا بل كان يستنح الفرص الأكثر غرابة ليبيد احترامه لمعلميه . حتى ان أكثر من مسؤول سياسي لم يصدق اذنيه . وقبل مماته بقليل ، أراد ان يستفيد من أوقات فراغه القسري الناجم عن إقامة جبرية ليكتب نوعاً من سيرة سياسية . الا انه لم يقيض للمشروع ان يتم . ولقد بدأ بالتحذير التالي : « اثنى التوصل الى عدم التعبير عن غير الحقيقة ، لكني أعرف - وهذا تعلمته قبل كل شيء من اسلاطتي ، الآباء اليسوعيين - كم يسهل تزوين الحقيقة ، كم من السهل ان يكذب المرء مع انه لا يقول غير أشياء صحيحة » . وحين التقاه راوول للمرة الأخيرة ، قبل 15 يوماً من مصرعه ، تذاكر الشقيقتان أيامهما القديمة في الفجالة ، وخلصا الى القول إنه لو كان لديهما أولاد يرعياهم لاسلاهم حتماً لتلقي العلم لدى اليسوعيين .

تماماً كما كان قد رأى دانييل كوريل ، فالمعهد لم يكن يخاطر بأن يبذر في عقل الشابين مراعم التخريب . كانت التربية كلاسيكية وكانت الخصومات المعاصرة تقف عند الباب . وحين أحس راوول كوريل بالألم الشديد أمام هزيمة فرنسا عام 1940 ، مضى يبحث عن تعزية لدى أحد معلميه القدامى في الفجالة . وقد أصغى اليه هذا الأخير برفق ، وهو دكتور في اللاهوت والفلسفة ، وأجابه بصوت مطمئن : « لكن لا ، ليست الهدنة مأساة ! انها العقاب العادل الذي استحقته فرنسا إذ تحالفت مع أمة بروتستانتية . »

أخرت صعوبات مالية رحيل راوول الى باريس . وبما أن أعمال دانييل كوريل قد تزعزعت ، وكانت نفسه القلقة تخشى على الدوام مداً بلشفيّاً يكتسح العالم ، فقد جعل ابنه البكر يبدأ بدراسة الحقوق في كلية الحقوق الفرنسية في القاهرة . ورضخ راوول على امتداد

عامين ، لكن بعد أن استقامت الأحوال سمح له والده بأن يدرس سنته الثالثة في باريس .
لكن الحكم الأبوي سقط على هنري ، حاسماً وصاعقاً : لن يذهب الى فرنسا لمتابعة
دروسه الجامعية ، فطريقه مرسومة سلفاً : الحصول على اجازة في الحقوق في القاهرة والعمل في
المصرف .

أصيب هنري كوريبيل باليأس . فالرحيل إلى فرنسا لم يكن واحداً من تلك الأحلام التي
يتعلل بها المرء وهو يخشى عدم تحقيقها . كان قدر الجميع . فمن بين أعمامه وعماته ، لم يبق في
مصر غير ليندا ، قرينة الثري الكبير ، موريس أغيون . فايفلين تزوجت في باريس العالم شارل
بريان ، الذي غدا فيما بعد مديراً للمحفوظات الوطنية الفرنسية . والعمة ليوني تزوجت هي
الأخرى في باريس واحداً من عائلة وايل ، وكان شقيقها ماكس يعيش هناك حياة قلقة بعد أن
كان قاتل بتفوق في الجيش الفرنسي ؛ كان يعيش حياة فسق ، مدمناً على الشراب والمخدر ؛
وكان ثمة من يقول لراوول وهنري : « استمر هكذا وسوف تنتهي الى ما آل إليه العم
ماكس ! » (كان عشيق مانا هاري لكن هذه العلاقة بقيت سرية ، لذا لم يحتفظ بها مغتابو
هنري كوريبيل ليسجلوها ضده .) ومن ناحية الأم ، فإن الخالة أنجيل ، أخت زفير الجميلة
جداً لكن قليلة الاحتشام ، كانت تعمل في مشغل خياطة باريسي كبير . أبناء العم وبنات
العم ، الأصدقاء أو الرفاق على مقاعد الدراسة ، كلهم كانوا يمضون في وقت أو في آخر إلى
الوطن المختار . حتى راوول ، الذي كان يكبره بعام ، والأقل تفوقاً في الدروس لأنه أكثر كسلاً
(سوف يستدرك تقصيره بقوة فيما بعد) ، تخلص من ورطته بعد أن كان بقي فيها عامين .
وهكذا لم يبق غيره هو ، هنري ، على رصيف الميناء . . .

والأسوأ أنه كان عليه الدخول للعمل في المصرف الوالدي . لم يكن قد تصور يوماً
كبابوساً كهذا : أن يترك الطبقة العليا (من الباخرة) حيث لا تلتقي العين غير الأناقة
والجمال ، لينزل الى ما بين السطحين ، وسط المجذفين لابسِي الجلابية الوسخة الذين يدفعون
السفينة الى الأمام : أن يخرج من بروسست* ، الذي كان شديد الشغف به ، ليدخل في الروتين
البشع للقروض الربوية الى هذا الحد أو ذاك ، مع التهديدات والتوسلات من جانب المدينين
الواقعين في ضيق شديد . . .

كان الوالد أعمى ، وقد بقي هنري مراعاة له .

* روائي فرنسي مشهور (م) .

لم يصدق أحد ادعاء واحدة من مجموعات دلتا أنها هي التي قامت بعملية الاغتيال . كانت الحملة الصحفية التي جرى شنها قبل عامين قد اتهمت هنري كورريل بأنه « زعيم شبكات مساعدة الارهاب » . وكان ذلك يعني وضعه في قلب أحداث راهنة معذبة . فمع دلتا ، كان يتم الغطس مجدداً في الملابس التي مر عليها الزمن لحرب الجزائر . فمجموعات دلتا ، المنبثقة عن منظمة الجيش السري (م . ج . س .) ، كان قد خلقها الملازم دوغيلدر وقادها . وكان اسمها يأتي من الحرف اليوناني ذي الشكل المثلث ، الصورة الأساسية لأي عمل سري : على شاكلة التروبيكا البلشفية ، كانت كل واحدة من مجموعات دلتا مؤلفة من ثلاثة أشخاص يتصل واحد منهم فقط بالحلقة الأعلى . وطوال شهور ، كان قَتْل دوغيلدر قد زرعوا الموت في مدن الجزائر ، غير مميزين في عملياتهم بين أنصار سياسة ديغول والخدمات المسلمات ، ثم جرى اعتقال زعيمهم وحكم عليه بالإعدام ، وتم إعدامه في حين راحت فرق من رجال الشرطة الجمهوريين الآتين من العاصمة الفرنسية تُخضع بالتدريج أتباعه المتعصبين . والناجون هربوا الى اسبانيا أو فرنسا عشية استقلال الجزائر . كان ذلك يعود إلى أكثر من 15 عاماً .

كان البلاغ الذي هتف به صوت مجهول الى وكالة الصحافة الفرنسية يجمع اتهامات عديدة . فلقد اعتبر ان هنري كورريل « عميل للشرطة السوفياتية (ال . كا . جي . بي .) » : كان المشهورون به من الصحفيين قد لمّحوا الى أنه يعمل لحساب أجهزة المخابرات السوفياتية . أما وصفه بأنه « مناضل من اجل القضية العربية » فكان يمكن ان يعود الى عمله السابق لصالح الوطنيين الجزائريين أو إلى جهوده من أجل انجاح تسوية للنزاع الاسرائيلي - الفلسطيني . بالمقابل ، فإن الجملة التي تقول : « تم إعدامه تذكراً لكل موتانا » كانت تشير إلى منظمة الجيش السري وتحيل إلى منظمة أو مجموعة متورطة بعمق في حرب الجزائر : لم يكن أي نزاع مدني قد أدى الى وفاة شخص ما في فرنسا منذ عام 1962 ضمن ظروف تبرّر هكذا تعابير .

كانت سرعة الادعاء تضيف عليه الجدّية . فلقد تمّت المخابرة مع وكالة الصحافة الفرنسية بعد ساعة بالضبط على إطلاق القنلة رصاصاتهم الأربع . طبعاً كانت الادعاءات اذاعت في غصون ذلك ، في نشرة خاصة ، نبأ الاعتداء على هنري كورريل ، لكن لا يمكن تخيل أن يكون مزّاح متعصب ارتجل بلاغاً جاءت تعابيره موزونة . أخيراً ، فإن مجموعة دلتا بقيت الوحيدة التي أعلنت مسؤوليتها .

لم يكن التوقيع المشؤوم يظهر ، من جهة أخرى ، للمرة الأولى . فمن رجوع الصحفيين إلى وثائقهم ، أرخوا عودة اسم دلتا للظهور على أنها في 2 كانون الأول 1977 . في ذلك اليوم ،

سقط العيد سباعي ، الحارس الليلي لرابطة الجزائريين في أوروبا ، 23 ، شارع لوي لوغران ، بفعل إصابته بست طلقات في باريس . بعد ذلك بثلاث ساعات ونصف ، خابر أحدهم المكتب الباريسي لوكالة الصحافة الفرنسية زاعماً مسؤولية منظمة دلتا عن الاغتيال . وفي اليوم التالي ، خابر مجهول فرع ليون في الوكالة ذاتها باسم منظمة دلتا أيضاً ، لكن مضيفاً : « فرع التقدم والثورة » . وجرى الاعلان عن أعمال لاحقة ، لا سيما في مدينة ليون . كانت تلك هي المرة الأولى التي يجري الكلام فيها مجدداً على منظمة دلتا منذ نهاية الحرب الجزائرية* .

بعد مرور تسعة أيام ، في 11 كانون الأول 1977 ، جرى إطلاق ثلاث قذائف مولوتوف على مسكن للشغيلة المهاجرين في ستراسبورغ ، الأمر الذي تسبب بخسائر مادية . وقد ادّعت المسؤولية عن هذا العمل ، في مخابرة هاتفية مع شرطة النجدة ، مجموعة تتكلم باسم منظمة دلتا .

وفي 14 كانون الأول ، حدث اعتداء مشابه على مسكن للمهاجرين في لاغارد في الفار . وقد تلقت صحيفة فار-ريوبليك مخابرة تدّعي فيها منظمة دلتا مسؤوليتها عن الاعتداء .

وفي 26 كانون الأول ، انفجر جهاز من صنع حرفي أمام بيت نقابات كامبري ، إلا أن الأضرار كانت طفيفة . وقد تلقت الجريدة الشيوعية ليبرتيه بلاغاً من منظمة دلتا .

وفي 15 آذار 1978 ، انفجرت قنيتا غاز في قعر رابطة الجزائريين في فرنسا ، في مدينة طولون . وأعلنت دلتا مسؤوليتها عن العمل ، في مخابرة مع جريدة فار-ماتين .

وفي 24 آذار 1978 ، أعلنت دلتا مسؤوليتها عن اعتداء جديد في لاغارد . وقد وضعت المتفجرة هذه المرة أمام مركز للحزب الشيوعي .

إنها سيرورة كلاسيكية من المحاكاة الهزيلة : انطلاقاً من اعتداء مجرم أعاد إحياء دلتا ، فإن بعض العنصريين المتعصبين من أقصى اليمين يشعلون مفرقعات ناسبين انفسهم إلى الأسطورة المستنكرة . وقد تمّ جلب أحد المشبوهين في ستراسبورغ ثم اطلق سراحه . كما أن شاباً وتلميذاً أُلقي القبض عليهما في لاغارد ، ثم تمّ إطلاق سراحهما من دون ملاحقة قضائية .

كان العيد سباعي قد قُتل ، مثل كوريل . لكن أية علاقة تقوم بين هذا الحارس المغمور وشخصية بحجم هنري كوريل ؟ لقد قدّر اصدقاء هذا الأخير ، والغالبية الساحقة من المراقبين ، أن القتل نبشوا المتاع الرث والدامي لمنظمة الجيش السري كي يغطوا به دوافعهم الحقيقية .

في 12 أيار 1978 ، بعد مصرع هنري كوريل بشمانية أيام ، وقّع البروفسور سيكالدي ، وهو رئيس مصلحة السجل العدلي في باريس ، مدير مختبر الشرطة العلمية ، وقّع تقريره كخبير بصدد الرصاصات التي أطلقها القتلة في شارع رولين : « لقد تم إطلاق الرصاص من مسدس عيار 45 ACP . كان قد جرى استخدامه في 2 كانون الأول 1977 خلال عملية اغتيال العيد سباعي . »

※

※ ※

بعد أن أنهى العيد سباعي ، وهو أب لسبعة أولاد ، حراسته الليلية ، خرج ليأخذ فنجان قهوة مع عضوين آخرين في الرابطة . وفي طريق العودة بين التاسعة والدقيقة 35 والتاسعة والدقيقة 38 إلى مركز المنظمة ، في شارع لوي - لوغران ، كان يستعد لدخول المصعد في آخر الساحة حين اندفع قتلة من خلفه وأطلقوا النار . وقد سقط العيد سباعي ، مصاباً بست طلقات . اخترقته خمس رصاصات من سلاح عيار 7,65 ، ورصاصة من مسدس عيار ACP.45 سوف يتم استخدامه بعد مرور خمسة أشهر ضد كوريل .

جمع رجال الشرطة من مكان الاغتيال سبع خرطوشات وخمس رصاصات 11,43 . فالقاتل حامل المسدس عيار 45 . لم يصب هدفه البشري بأكثر من رصاصة واحدة ؛ لكن في شارع رولين ، وعن كُتب ، سوف يكون حامل المسدس 45 . أكثر دقة . وقد أصاب شريكه الهدف خمس مرات من أصل خمس .

كان شاهدان يعتقدان بأنها شاهدان القاتلين .

الأول ، وهو نقيب في سلاح الجو ، كان في ذلك الصباح ينظر من نافذة مدرسة برليتز . وبين التاسعة والدقيقة 27 والتاسعة والدقيقة 28 ، وفقاً لتقديره ، رأى شاباً يخرج من الرقم 23 ، شارع لوي - لوغران ، وكانت اليد اليمنى لهذا الشاب داخل قميص الرياضة التي يرتديها . كان يسير مسرعاً . وقد قدّر الضابط عمره بـ 25 عاماً ، وطوله بـ 75 سنتم . كان شعره كستنائياً فاتحاً ، وكانت قميصه الزرقاء ذات طوق من الفرو أشد زرقاً ، وكان سرواله رمادياً . أما مشيته فرياضية .

وكان الشاهد الثاني بائع الصحف في الكشك الواقع عند زاوية شارع لوي - لوغران وبوليفار الكبوشيات . كان قد لاحظ رجلاً يصل بخطى سريعة جداً من شارع لوي - لوغران . كان طويل القامة - متر و80 سنتم - وربما في الثلاثين من عمره . وكان شعره طويلاً . أما ما

علق في ملاحظة الشاهد من ثيابه فهو كنزة ذات لون بيج ، لا أكثر ولا أقل . وخلال استجواب ثان ، أوضح أنه لم يشاهد الرجل إلا من الخلف ، وحدد طول قامته بين متر 75 سنتم ومتر 80 سنتم ، وأشار إلى أن لباسه كان « قميصاً لون بيج ، من نوع الزي الذي يلبسه الجنود صيفاً » .

في الساعة الواحدة وسبع دقائق بعد الظهر ، تلقت وكالة الصحافة الفرنسية المخابرة الهاتفية التالية : « لقد أعدمنا مسؤولي روابط الجزائريين في أوروبا . وهذا إنذار أول رداً على اغتيال بعض الرهائن على يد مرتزقة الجزائر . انتقام للزوجين فيشيه . نطالب بإطلاق سراح كل مواطنينا قبل يوم الأحد الساعة الواحدة بعد الظهر . فإذا مرت هذه المهلة ، سيغدو وضع الجزائريين في فرنسا لا يطاق » .

قبل سبعة أشهر ، وبالتحديد في أول أيار 1977 ، كانت قوات جبهة بوليساريو قد أغارت على مدينة زويرات في موريتانيا ، حيث كان يقيم كوادرو مهندسون فرنسيون مع عائلاتهم يعملون في الشركة التي تستثمر الحديد . وقد قُتل الزوجان فيشيه خلال الهجوم ، وأسر صحراويو البوليساريو ستة فرنسيين . وفي نهاية الغارة ، قادهم خاطفونهم في اتجاه مجهول لكن يمكن تحديده دون خطر الوقوع في الخطأ على أنه الجزائر ، لأن هذا البلد الحامي لجبهة بوليساريو يشكل بالنسبة إليها قاعدة خلفية . أما تعبير « مرتزقة الجزائر » فقد استخدمه أصحاب المخابرة الهاتفية للإشارة إلى المقاتلين الصحراويين . وفي 25 تشرين الأول ، حُطِف في موريتانيا عاملان فرنسيان في سكة الحديد بدورهما . وقد أثارت القضية تأثراً مشروعاً في فرنسا ، وهاجم قسم من الصحف حكومة الجزائر بعنف ، محملاً إياها المسؤولية عن العملية .

لم يكن ممكناً اعتبار العيد سباعي مسؤولاً في رابطة الجزائريين في أوروبا ، لكن الاستماع إلى رئيسه عبد الكريم غريب أظهر أن الحارس الليلي المسكين راح ضحية سوء تفاهم . فلقد كانت الرابطة تعرضت للتفجير عام 1975 . ومذاك لم ينفك السيد غريب يتلقى رسائل ومخابرات هاتفية تتضمن التهديد . تدخلت سفارة الجزائر لدى السلطات الفرنسية بهدف تأمين حماية له . وهو ما جرى رفضه بسبب النقص في عدد أفراد الشرطة . فاتخذ السيد غريب إذن بعض التدابير الأمنية . هكذا كان سائقه ، وهو في الوقت ذاته حارسه ، ينزل معه من السيارة عند وصولهما أمام المبنى ، في الساعة التاسعة والنصف صباحاً ، وكان أحد أعضاء الرابطة ينتظره أمام الباب ، بحيث كان الرئيس يتجه نحو المصعد يحيط به شخصان . ومن الخلف ، كانت قامته تشبه قامة العيد سباعي .

رأى القتلة ثلاثة جزائريين يدخلون المبنى في الساعة بالذات التي كان السيد غريب

وحارساه يدخلون فيها في العادة ، فأطلقوا النار على الرجل الذي بدا لهم أنه رئيس الرابطة .
إن وصف القاتلين المفترضين يتناسب مع وصف قاتلي شارع رولين دون أن تتمكن من
استخلاص تماثل أكيد . هما طويلان ، في سن الشباب ، ومشيتهما رياضية . ونادرون هم أبناء
الستين المتكرشون الذين يطلقون النار في الشارع بواسطة كولد 45 .

كان البلاغ المتبني جريمة اغتيال هنري كورييل ينتهي بالجملة التالية : « لقد حذرنا خلال
عمليتنا الأخيرة . » هذه الخلاصة الغامضة هل كانت تحيل الى رسالة دلنا المتعلقة بالسباعي ؟
كانت الرسالة تشترط اطلاق سراح « رهائن » بوليساريو : هؤلاء كانوا قد اخلي سبيلهم سالمين
معافين قبل ستة أشهر ، وأعلنوا جميعاً ان خاطفيهم عاملوهم معاملة حسنة .

لكن الحقد ذاته على العرب ، وبخاصة على الجزائريين : والاطار ذاته - مصعد - ، ولا
سيما السلاح ذاته .

ليس ثمة مكبرات للصوت .



عمره عشرون عاماً وفي هذا العمر نفدت جميع وسائله . إنه غندور ضجران لم يعد
يعرف ما يفعله بحياته التالفة .

هناك في باريس ، يُشبع شقيقه راوول نهمه للثقافة . أنهى إجازته في الحقوق ، وهو
يدرس العلوم السياسية ، وحصل على اجازة في الفلسفة ، كما أنه شغف بالألسنية وتسجل في
معهد الحضارة الهندية ، في السوربون ، بهدف دراسة السنسكريتية ، وهو ما يقوده شيئاً فشيئاً
الى اللغات الايرانية والسلافية والجرمانية . كل شيء يثير اهتمامه . لا أدنى همّ مبتذل يتعلق
بالمستقبل يقف حاجزاً دون هذه الحالات من الغرام الثقافي الصاعق ، أو يقننها : « لم يكن
وارداً ان تراودني فكرة الاضطرار يوماً لكسب معيشتي . » (بعد ذلك بخمسين عاماً ، سأعثر
على راوول كورييل في مسكن صغير في حي بوبور ، في آخر شارع محاط بحانات مشبوهة عربية
حيث تشوى حتى الاحمرار لحوم المرغيز ، لكن الترميم الاسيوي العنيد كان في حالة الهجوم ،
بعيث تختلط في نوافذ راوول الروائح الجادة لشبابه في القاهرة بالروائح الأكثر حلاوة في سنواته
الافغانية والباكستانية . كان الاثاث متواضعاً لكن ينم عن ذوق مرهف . وكان ببغاء أصفر
وأخضر يتنقل هنا وهناك . رجل وسيم ذو قلب سريع العطب لكن محاط بهالة من الهدوء -

« كانت حياتي سعيدة جداً ، وأنا انتظر الموت من دون قلق » - ، كان راوول كورريل ، المحال الى التقاعد منذ ثلاث سنوات ، لا يزال يتردد لأجل التسلية على مكتبه في المكتبة الوطنية ، حيث يهتم بمجموعات المداليات الشرقية . كان يخصص كذلك خمس ساعات يومياً لدراسة الكيمياء الحياتية .

أما هنري فيذبل في دفينته في الزمالك .

كان في الماضي ولداً جميلاً مرتب الشعر « على طريقة أولاد الملك ادوار » ، يعضاوي الوجه ، ذا فم رائع الجمال ، نظراته جدية ومتأمل ، لابساً مثل بورجوازي كبير شاب من نوبي أو باسي . وقد طالت قامة المراهق كثيراً ولم تسمن ابداً ؛ أصيب بتقوس لم يشف منه طيلة حياته ، ووضع نظارات ، وكان يحمل معه هيئة عابسة تزيلها فجأة بسمة مشعة . بسمة هنري كورريل . هذه البسمة سوف يحتفظ بها على امتداد حياته . البعض سيقولون : « كان يبتسم ، ويحس الناظر إليه بأن نفسه تدوب . ابتسامة تجول فيها شهامته ، ولطفه اللا متناهي . كانت لا تقاوم . » وسيقول الآخرون ، وكانوا يحبونه أيضاً : « كانت لديه هذه البسمة المغيظة ، الأسرة ، التي كان يقذفها في وجهك حين لا تكون متفقاً معه . كان هذا هو الجانب الذي يشبه فيه شخصية الكاهن ، قلبه على كفه لكن رأسه بارد ، وكنت تحس ثاماً بأنه يمارس سحره عليك . » الحانقون كلهم تقريباً رجال ؛ أما النساء فيدبن . وهويتفق معهن . وقد بدأ ذلك منذ بلغ السادسة عشرة . أما راوول ، الأقل تحسناً بجاذبية الجنس الآخر ، فكان يفتأ إذ يرى أخاه الأصغر منه يحتكر الهاتف للثرثرة على مدى ساعات مع جمهور من الأنسات اللواتي يتزههن على خطوط السير المزدوجة لبطاقة الحب . وكانت الأم ، زفيرا ، تحس بالقلق الشديد ، تحت هاجس السابقة المشؤومة التي كان يمثلها ماكس الماجن . وكان الوالد ، الطبيب القلب ، يرفع أصبعه ويدمدم : « أجبهن كلهن لكن لا تحب أياً منهن » . كان يخشى الارتباط . وكان هنري يجرجر ربطة خيوط . بذلك ، كان أقل ما يكون تفاخراً ، نقيض الجندي في سلاح الخيالة . كان يحب أن يفتن النساء وأن يغزيه . في أغلب الأحيان كان ينبغي اغتصابه قليلاً . وما أنه قاوم أحياناً ، فسرعان ما تضخمت الاشاعة ولاحقته حتى القبر : « هنري كورريل ؟ لكنه كان عاجزاً ! » الرجال يطرحون البداة بهدوء ، دون ان يجعلوا منها قصة ، وتتطلع اليك نساؤهم بعينين ثرثارتين . كان يحبهن جميعهن . كان ثمة بينه وبينهن معاهدة عدم اعتداء في حين كان محترساً مع الرجال - ما عدا الشباب . من المؤكد انه كانت لديه صداقات مع رجال ، ومن نوع نادر . كانت تنصهر على نار العمل ، وتغدو كما لو كانت محتومة ، لكن اللقاء الأول غالباً ما كان يترك الآخر محبطاً . اما مع النساء ، فكان التفاهم فورياً ، وكلياً ، ونهائياً ، وكان توافق القلوب يبقى دائماً على قيد الحياة بعد رياضة الأجساد .

كان العمل في المصرف أكد مخاوفه الأكثر سوءاً : كان منفراً ومثيراً للضجر . وكان يقوم من جانبيه بما هو ضروري وحسب . أما أفضل ما لديه من وقت فكان يخصصه للقراءة وللبنات . وبما أنه كان شديد الشغف بالبحث عن الزمن الضائع ، فإن بعض الأنسات اللواتي لم يكن يطلبن منه الكثير - رأين أنفسهن يقمن حصراً بنشاطات عملية بروتية* بصدد الغياب ، والغيرة ، وتقلبات الهوى ، وفقاً لسيناريوات يُخرجها هنري . كن يجدنه معقداً بشكل رائع ، مَرَضَانِيّاً بصورة ممتعة ، كان استشهاده المصري يؤثر في القلوب وكن يتأثرن لسرعة عطبه : لما كان يكثر من أخذ المقويات والعقاقير المخدرة ، كان يبدو دائماً على حافة الانكسار . وكانت أجمل خبائثاته تلقبه بـ « الليلكة المصعوقة » . كان عمره عشرين عاماً .

بعد ذلك بثلاث سنوات ، أدى حادثٌ صحي أصيب به - داء الجنب - إلى إطلاق سراحه . كان مهتداً بالسل ، فأرسله أهله ينتشق هواء سافوا ؛ وقد أقام أيضاً في المكان الجميل الذي كانت تمتلكه في الواز عمته وإيل - كوريل . كان الأطباء قد وصفوا له عاماً من الراحة . والأهم أن دانييل ، الذي كان لا شك يعي أنه يسبب البؤس لولده الأصغر بحصره قبل الأوان في المصرف ، اذن له بأن يستقر في باريس في نهاية نقاهته كي يستأنف هناك دروسه الجامعية .

مرّ عام وجاءت ميونيخ - في ايلول 1938 . فتلقى راوول وهنري أمراً من والدهما بالعودة الى القاهرة حيث يجدان الملجأ . إلا أن العاصفة التي كانت تهب في أوروبا سوف يصل هبوبها حتى جزيرة الزمالك .

✱

✱ ✱

لم تكن قدما راوول وطلتنا أرض مصر منذ عام 1933 ؛ وكان الأهل والأقارب يلتقون في باريس حين يقصدها آل كوريل كل عام . كان في سن الخامسة والعشرين ولم يكن يتصور مستقبلاً آخر غير متابعة دروسه العزيزة . ولا بد أن القرار الأبوي بإدخاله المصرف مع هنري ازعجه كثيراً لا سيما أنه تطور للغاية منذ وصوله الى فرنسا . حين كان في صف البروفيه ، في سن الخامسة عشرة ، كان قد تسجل في جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي . وكان يطرح بذلك فعلاً بعيداً عن الامتثالية . لقد قرأ كثيراً بصدد الماركسية ، لكنه كان يقرأ حول كل شيء . وفي

* نسبة الى الروائي الفرنسي مارسيل بروست (م) .

باريس ، التزم نهائياً . فوصله نطاق مع استيلاء هتلر على السلطة . في العام التالي ، انهزمت روابط أقصى اليمين الفرنسية بفارق قليل ، في 6 شباط . ثم قامت الجبهة الشعبية ، وتبعتها الحرب الاسبانية ، فالانسلوس . اختار راوول كورييل معسكره وبات عضواً في اتحاد الطلاب الاشتراكيين . واقترب من الشيوعيين بعد قرار ليون بلوم عدم التدخل الى جانب الجمهوريين الاسبان . وقد جاء ابن خاله ريمون اغيون ، الأصغر منه بسبع سنوات ، لدراسة الطبابة في باريس : انخرط في الطريق السياسي ذاته ، واعجب بتروتسكي ، وناضل في المجموعة الاشتراكية الميالة إلى اليسار بقيادة مارسويفير ، حيث وجد بجانبه اندريه وايل كورييل ، وهو ابن عم له .

حين عاد الشقيقان الى الحظيرة ، وجداها متغيرة . كانت البورجوازية اليهودية قلقة على فرنسا ، المحاطة من جهات ثلاث ببلدان كلياتية . بوجه خاص ، فإن صعود هتلر والاضطهادات العرقية الأولى كانت تعني كل يهودي ، وإن كان مصرفياً في القاهرة ومالكاً في الزمالك . فالفاشية كانت تفرع في الأخير أبواب مصر لأن موسوليني كان في ليبيا واستولى على أثيوبيا .

كان راوول كورييل وريمون أغيون تابعا في باريس التعبئة الكثيفة في صفوف المثقفين المعادين للفاشية . فقررا أن يصدرا في القاهرة جريدة اسبوعية تستلهم جريدة فاندرودي Vendredi أو جريدة ماريان . وقد انضم اليهما الشاعر السوريالي جورج حنين صديق اندريه بریتون ، بالاضافة الى الرسامين رمسيس يونان وكامل التلمساني ، وبعض المصريين المتأورين الآخرين . وقد اختاروا كاسم لها دون كيشوت ، احتراماً لذكرى غابرييل ألومار ، السفير السابق لأسبانيا الجمهورية في القاهرة ، وهو شخص خارق يجمع الى ثقافة نادرة كرملاً لا حدود له (تم دفنه في احتفال فخم ، ونعشه مغطى بالعلم الجمهوري الذي كان عقده حول جسمه وهو يغادر السفارة) . وقد بات هنري كورييل عضواً في هيئة التحرير . وأقيمت حفلة راقصة كبرى بمناسبة إطلاق الجريدة ، في أقبية محامي الملك فاروق ، الأستاذ ألوي ، الذي كانت ابنته ليديا ، إحدى المؤتمنات على أسرار هنري ، عضواً هي الأخرى في الهيئة . وقد حقق العمل نجاحاً باهراً لكن ألفت عليه الظلال خيبة أمل مالية : جرى تكليف راوول كورييل بالاهتمام بالبار ، الذي كانت مداخيله ستؤمن تمويل الجريدة . لكن عند الفجر ، كان الصندوق فارغاً . ذلك ان راوول الذي يقيم علاقة صعبة دائماً مع المال ، لم يتمكن من مطالبة الحضور بالدفع مقابل ما يستهلكونه .

قدّمت دون كيشوت نفسها للقارئ على أنها « اسبوعية بإدارة شباب » (الجريدة المذكورة لن تعمر اكثر من ستة اشهر) . وفي الواقع فإن الزاوية المهمة المتعلقة بالسياسة

الدولية ، كانت تحت اشراف ريمون اغيون ، ابن التسعة عشر عاماً . (إذا قرأنا افتتاحيات الفتى بعد مرور قرابة نصف قرن ، نجد أنها تصمد بصورة عجيبة . كانت تحليلاته تتناول ما هو جوهري ، ولقد برهنت الأحداث على اصحة توقعاته . . .) وكان جورج حنين ، المكلل بهالات صداقاته السورية ، يشرف على الصفحات الأدبية ، التي كانت نوعيتها بديهة . في تشرين الثاني 1939 ، كانت الكتب الأربعة التي نُصح بها القارئ هي التالية : *Au château d'Argol* لجوليان غراك ، و *Les Javanais* لجان مالاكيه ، و *Le Mur* لجان بول سارتر ، و *S'il est minuit dans le siècle* لفيلكتور سيرج . ولم يكن ذلك حكماً سيئاً طبعاً ، يمكن ان نقدر ، في نظرة لاحقة ، أن الدونكيشوتيين الشباب في القاهرة كانوا ينخدعون احياناً بطواحين الهواء . فحين نشر جورج حنين مقالاً بالغ العنف بعنوان « بصدد بعض السفلة » ، وأنهى باستشهاد من رونية شار : « لا أمزج مع الخنازير » (تلت ذلك مساجلة واسعة على اعمدة الصحيفة) ، يدهشنا ان نكتشف ان السفلة - الخنازير هم لافونتين ولابروير « وأمثالهما » . لكن « الاسبوعية التي يديرها شباب » لا تحصر نفسها في تصفية الحسابات الأدبية . وإذا كان ثمة تعريج على السياسة الداخلية المصرية ، بصورة يخالط فيها الحذر الاحترام ، فإن المقاربة ذات البعد الانساني تتيح معالجة بعض المشكلات الاجتماعية . هكذا ينضم الفريق للحملة التي اطلقها الأب عيروت ، وهو يسوعي صدامي ، عملاق ملتج يحبب الأرياف غارساً في كل مكان اساتذة مدارس وممرضات (كان قد جند ليديا ألوني منذ الخامسة عشرة من عمرها ، مسبباً الضرر لأهلها ، ومصطحباً إياها في العطل المدرسية في غزواته للصعيد المصري ؛ كانا يسافران على ظهر حمار ، وينامان على القش في الأكواخ الفلاحية . تم تكليف ليديا بتصوير بؤس الشعب ، كي يحرك العرض السنوي لكليشياتها ، في القاهرة ، لواعج القلوب ، ويؤمن الأموال اللازمة) . موضوعة من موضوعات الريف : « خمسة قروش يومياً ، الحد الأدنى الحيوي للفلاح المصري لتمييزه عن الحيوانات الأليفة التي يعيش وسطها » . كان يتم استئجار الرجل آنذاك بثلاثة قروش ونصف ، بينما يستأجرون الحمار بأربعة قروش .

كان هناك مقال واحد لهنري كوريل في الأعداد التي وصلتنا . مقال قصير ، وسطحي ، وينطوي على تحذير . كنا ننتظر من « الليلكة المصعوقة » تمريناً معقداً من النقد الأدبي او احدى تلك القصائد التي كان يلقيها بواسطة الهاتف على مسمع من صديقاته الجميلات . يبدأ المقال باستشهاد غير مألوف من صحيفتين قاهريتين ، *La Caravane* ، و *La Bourse égyptienne* ، لم يكن قراء دون كيشوت يهتمون بها .

أعلنت *La caravane* ضرورة اخضاع شركة تدفع لمستخدميها بالكثير من الأريحية ، لـ « اشراف وصي قضائي » . أما *La Bourse égyptienne* فتطالب بحق التنظيم للصناعيين ،

وتنكره على العمال الذين تعرض مطالبهم الاقتصاد المصري للخطر . كتب هنري كوريل : « ما ينقص مصر كي تتقدم صناعتها بسرعة اكبر ، ليس الرساميل ولا المواد الأولية ولا المبادرات الخاصة ، بل يد عاملة متخصصة . والحال انه طالما ستبقى مهنة العامل جحيماً ، فسيبقى المجبرون على ممارسة تلك المهنة على حالهم . لكن اعطوهم اجراً محترماً يحسن وضعهم ، وأوقات فراغ تتيح لهم أن يستريحوا ويتثقفوا ، ومسكناً يكونون بمنجى فيه من الحشرات والأوبئة ، وعندئذ سيكون في متناول الصناعة أيدي حاذقة وقوية تنمي في آن معاً مردودها وأسواقها » . وبالطبع فإن الخاتمة مكتوبة لقراء دون كيشوت ، الذين يمكن ان تصدمهم هذه المعالجة التجريبية لواقع كرية : « لا يفترض أحد من الطريقة الهادئة التي اكتب بها أن استيائي أقل من استياء كل الشرفاء » هذا لا يمنع أن يكون هنري كوريل الذي سنعرفه فيما بعد قد بدأ يظهر في هذا المقال الصغير ، بقدرته على الذهاب الى ما هو جوهري - في الحالة التي نحن هنا بصدددها ، الى علاقات الانتاج - وقدرته الدياكتيكية على وضع نفسه على أرض الخصم - هنا ازدهار الاقتصاد المصري - كي يبرهن ان الوسائل المنادى بها تعاكس الغاية التي تجري ملاحقتها رسمياً .

مقال واحد ، وهو مقال لا علاقة له بلهجة الجريدة . وفي الواقع فسرعان ما ضجر هنري كوريل من دون كيشوت . كانت تهمة نزع أتباع الطبيعة قدر ما تهمة السياسة . دعا الى التحكم بالجلسد ، وغدا نباتياً متطرفاً ، وراح يمارس السباحة والتنس ، ويُنهب نفسه في مسيرات طويلة عبر الصحراء . يرتدي سروالاً قصيراً وصداراً ، ويمضي حافياً رابطاً قدميه بسيور ؛ وهي طريقة مضحكة في ذلك العصر ، لا سيما في بيئته ، وتحاطر بإثارة الهزء حين يكون الأمر يتعلق بذلك الهيكل النحيل (خمسون كلغ في حالة قامة تصل الى متر و 82 أستم) ؛ قد يقال إننا أمام فزاعة . إلا أن نزع أتباع الطبيعة لا تعني التشف .

لقد التاعت زفيروا وهي ترى ولدها الأصغر ينخرط في الطريق الجهنمي الذي سبقه اليه العم ماكس . كان هنري يرتبط برفيق له في الفحش من اصل يوناني ، هو جورج جوانيدس . كان هذا قد تابع دروساً في جراحة الأسنان في باريس لكنه فضل لدى عودته الى القاهرة ان يستعيد ملهى Le Tabarin ، الذي كانت تديره أمه ، وحيث تزدهر أعمال الساقيات والعواهر . وقد عشق هنري رومانية ، وباتت راقصة في نادي الكيت كات ، وقد بقي ينفق عليها طيلة سنتين . راح يتردد على مواخير القاهرة وتوصل حتى الى استئجار بيت سري ليكون مقراً لهيئة تحرير دون كيشوت . وقد هال ذلك والدته ليديا ألوني ، فجاءت تنزعها من المكان بالكثير من العجب وتمنعها من أن تعود اليه مرة ثانية . كان هنري يدعو اصدقاءه لاصطحابه في

نزهاته الماخورية بحجة ان العاهرات هن بالنسبة للبورجوازيين أقصر الطرق الى امتلاك الوعي السياسي . بالتوازي مع ذلك ، كان يعظ البنات طوال ساعات ويحرضهن على الخروج من وضعهن كأدوات جنسية . لقد تغلب دوستوفسكي على بروتستانتية ليديا ، الرومانسية ، التي اقتنعت ، تخلت في الواقع عن حياة العاهرات ، وغادرت مصر الى فرنسا ، لتعمل فيها بعد في مقر قيادة الـ SHAPE في فونتينبلو [سوف يبقى المشهرون هنري كورريل جاهلين هذا التفصيل ولن يقفوا عنده كمؤشر الى انتمائه للشرطة السرية السوفياتية (الكا. جي. بي)] ، ثم تشتغل في الأخير عاملة هاتف في فندق باريسى كبير . وقد ظل هنري كورريل يراها حتى اغتياله .

في ذلك الحين التقى روزيت العجم . صغيرة القامة ، سمراء ، بعينين سوداوين وحادتين ، ومظهر لائق جداً مع شيء ما عنيد في التعبير ، وقد كانت تسافر أكثر منه . حتى المراهقة ، درست في اليسييه الفرنسي ، وكانت تقيم صيفاً في لابلوربول ولابول ، حيث كانت شديدة الضجر . حصلت على البكالوريا في باريس ، ثم أقامت عاماً في لندن ، في نزل عائلي مخصص للشبان والشابات الأغنياء ، بهدف تحسين لغتها الانكليزية . ثم عادت الى القاهرة وحصلت على اجازة في الآداب في الجامعة الأميركية . ووقعت مريضة ، فاكشف الأطباء « فقداناً لشهوة الطعام بسبب الافراط في ممارسة الرياضة » . بقيت ثمانية أشهر في المستشفى وتم تشخيص حالة سل لديها . فأرسلها أهلها الى سويسرا . ولدى عودتها ، سجلت في مدرسة صغيرة للممرضات .

كان لديها إحساس بالخطأ . فالمصريون الوحيدون الذين عرفتهم كانوا خدم أهلها ، وكانت ترى أنهم يعاملونهم معاملة قاسية . كانت والدتها شخصاً طيباً مع ذلك ، لكنها كانت تتعامل مع الخدم وفقاً للقواعد الرائجة في بيتها . كانت روزيت تحتج عبثاً وتغلق على نفسها للبكاء . وقد كانت مهنة التمريض تتيح لها ان تنكب على البؤس المصري . وبعد عام من الدراسة عملت مجاناً في مستشفى بايايوهانو . وقد لمحت هنري للمرة الأولى في حفلة شاي أقامتها صديقة لها : « رأيت شاباً كبير القامة وهزياً بحيث قلت في نفسي : « المسكين ، كم يبدو مريضاً » . أما هو فلم يوجه لي الكلام . في كل حال ، لم يكن يكلم أحداً ، وكان المرء يشعر بأنه شديد الضجر . وقد وجدت ذلك غير لطيف من جانبه . ولم أكن أفكر برؤيته مجدداً لكن صديقتي كانت تهتم كثيراً به وخابرتني لتسألني تدبير موعد . وهكذا عدنا فالتقينا نحن الثلاثة في نادي البريدج واللينغ بونغ الخاص بي ، كان ذلك نادياً أوروبياً ينتمي أعضاؤه المصريون النادرون الى البورجوازية الكبرى . وقد خاب امل صديقتي لأن هنري لم يبد أي اهتمام بها . وعدنا فرأينا الواحد الآخر في النادي مرة أخرى . في تلك الفترة كان يقرأ كثيراً

حول الماركسية . كان اخوه راوول هو الذي دفعه للشغف بدراسة الماركسية . فراوول كان اكثر تسيساً منه بكثير . ثم سرعان ما وقع مريضاً ، بمرض قريب من السل . فلقد كان يعيش بصورة تفتقر الى التعقل ، منهكاً نفسه بتمارين رياضية وبالخروج كل ليلة مع صديقه اليوناني . وصف له الأطباء إبر الكلس ، وكان هو عيقت الحقن بالابر . الا أني نجحت في اقناعه بأن يأتي لرؤيتي كل يوم في المستشفى كي أحقنه بالدواء . وكان المستشفى المشار اليه رهيباً ، ففيه يرى المرء ماذا يعني بؤس البشر . وكان هذا البؤس قد هزني بعمق . ولقد قررنا ان نمضي للاعتناء بالفلاحين الذين يعملون في أرض آل كوريل ، وهي ملكية كبرى تبلغ حوالي المئة هكتار على بعد خمسين كم من القاهرة . مئة هكتار في دلتا النيل شيء بالغ الضخامة . فالكثير من العائلات كانت تعيش على آرين او ثلاثة . ذهبنا إذن بواسطة السيارة مع لترات من قطرة العيون وصناديق من الأدوية . كان تشخيص الأمراض سهلاً : فلما التراخوما او البلهارسيا . كل الناس تقريباً كانوا يعانون من امراض العيون وكنا نوزع القطرة . وكانت البلهارسيا تعيث هي الأخرى فساداً . وهو مرض تنقله طفيليات تكثر في قنوات الري : يمكن القول انه ما كان بوسع فلاح ان يفلت منه . هكذا امضينا اياماً كثيرة ونحن نعتني بالناس ، الذين كانوا يبدون الكثير من العرفان بالجميل تجاهنا ، لكنني كنت احس أنهم يتضايقون من وجود هنري . مهما يكن ، فهو يبقى بالنسبة اليهم ابن صاحب العمل . اما والده ، دانييل كوريل ، فكان غاضباً منه . فهو كان قادراً على الكثير من الطيبة ، وكان يعطي بكرم لأعمال البر اليهودية ، لكن بالنسبة للفلاحين المصريين فذلك كان شيئاً آخر . لم يكن الناس في بيئته ينظرون بعين الرضا الى الاهتمام بهؤلاء . لا بل لم يكن يتبادر ذلك الى الذهن . كان والد هنري ينظر الى زيارتنا لمزرعته بالكثير من الاستياء ، معتبراً إياها دليلاً على الانعدام التام للفروق .

« استمرت تلك الزيارات اشهرأ ، ثم قرر هنري التوقف عنها . كنا منسحقين إزاء المفارقة بين البؤس الذي نلقاه والأدوية البائسة التي تأتي بها . لم تكن تلك هي الطريقة الفضلى ، وكان ينبغي قلب الأمور رأساً على عقب ، وعدم الاكتفاء بجلب القطرة . لقد قرر الانخراط في العمل السياسي ، الطريقة الوحيدة ليكون المرء فعالاً . لكنه لم ينس ابدأ ما اكتشفناه في أكواخ الفلاحين . يمكنني القول انه لم يتعاف من الصدمة التي اصيب بها وهو يكتشف البؤس المصري » .

*

**

الصدمة .

ما يتبع ينبغي طبعه بالأحمر .

الأحمر بلون الدم .

الأحمر بلون النار .

كان عيروت إبناً لمتعهد اشغال عامة في القاهرة . في احد الأيام ، وكان في الخامسة عشرة من عمره ، رأى في إحدى ورش والده رئيس عمال يقتل ولدأ لم يكن يعمل بالسرعة المطلوبة . فهرب من مصر في اليوم ذاته ، ومضى الى عند اليسوعيين في بيروت ، حيث دخل الرهينة ، ليعود بعد ذلك بخمسة عشر عاماً ويكرس نفسه للفلاحين .

يقول مارسيل اسرائيل ، رفيق النضال فيما بعد لهنري كورييل : « كان والدي يملك مصنع حلج للقطن . وقد أجبرته مشاكل مالية على بيعه ، لكنه بقي فيه كموظف كبير . كان العمال في معظمهم أولاد فلاحين تتراوح اعمارهم بين سبعة اعوام وثلاثة عشر عاماً . وكانوا يعملون ست عشرة ساعة يومياً . هذا كان يحدث في الثلاثينيات . حين ذهبت الى المصنع ، رأيت رؤساء العمال ، مسلحين بالسياط ، يتمشون بين الآلات ويضربون الأولاد لجعلوهم يزدون سرعتهم . كان رؤساء العمال هؤلاء ، ذوو الأصل الأوروبي ، يضعون أقنعة ليحموا أنفسهم من الغبار الخائق ، بينما لم يكن بحوزة الأولاد شيء من ذلك . وحين سألت لماذا ، أجبت : « إنهم عرب » . كان الأولاد ، القادمون من الريف ، يسكنون غرفاً يتكدسون فيها بمعدل خمسين الى ستين . وكان ثلثهم يصابون بالسل ويموتون خلال العام . انطلاقاً من هذا المصنع ، وبسببه ، اخترت الشيوعية » .

ريمون اغيون : « حين فتحنا اعيننا على بؤس الناس الذي لا يصدق ، ولا يسمى ، لم يكن ثمة غير موقفين ممكنين : إما القبول بهذا النظام ، بالأعمال وبالمال ؛ وإما التحول الى ثوريين » . بعد ان حاز على البكالوريا في السابعة عشرة ، مضى لدراسة الطب في باريس ، ناوياً ان يقيم ، لدى عودته ، في قرية ما يعتني فيها بالفلاحين . وقد بقي شقيقه جان في الاسكندرية ، وأنشأ معمل زجاج حيث سيكتشف أندريه وإيل - كورييل عام 1945 اطفالاً في الثامنة من العمر ينفخون عجينة الزجاج .

بالنسبة لديدار روسانو ، انكشف الهول في شارع مألوف . لقد مرت في العديد من المرات أمام الخرقه البشرية المسترخية في مدخل احد المباني ، ولن تعرف أبداً لماذا اقتربت منها في احد الأيام . كانت الحرارة الرطبة تثير جنون الذباب ، الذي راح يتزاحم على الرجل خائر

القوى ، وفي محجريه ، ولا سيما على ساقيه : « كانت ساقاه ممددتين امامه ، كما لو كانتا مطروحتين . كنت اراهما ، منتفختين ، متورمتين ، مزرقتين ، ومهترتين في بعض الأمكنة » . وكان الذباب يتكاثر في الجراح . شعرت ديدار بأنها على وشك ان يغمى عليها . « إزاء هكذا مشهد ، لا مكان للشفقة . فاما أن يدفعك القلق الى الهرب من الجحيم وشتم الانسان ، ولما يقودك التمرد الى أن تقرر بأنه لا شيء أهم من قلب النظام الذي يوصل الى هكذا انحطاط بشري » . ولقد اختارت ديدار الحل الثاني ، ولن تبدل موقفها ابداً .

جوزف هازان : « أنهيت دراستي في معهد الزراعة في غرينيون . ولدى عودتي ، دخلت في التسليف العقاري . كنت أكسب مئة ليرة شهرياً ؛ بينما كان زملائي المصريون يكسبون عشر ليرات ، حسناً ، لم يكونوا درسوا إلا في المدرسة المصرية ، التي لم تكن مدرسة غرينيون . لكن ابنة عمي البائعة في احد المخازن ، كانت تكسب ست عشرة ليرة ، بينما كانت زميلاتها المصريات يكسبن عن العمل ذاته أربع ليرات . ثم جرى تعييني مديراً تقنياً عاماً لإحدى ملكيات عائلة أنيلي - مصانع فيات . ألف هكتار في الفيوم ، أي في القسم الأكثر خصباً من ارض مصر . كان عمري واحداً وعشرين عاماً » .

« في اليوم الأول ، رأيت حشداً صغيراً من مئتي شخص يحيط بهم حراس يحملون بنادق لوبل من آخر طراز . سألت كبير المراقبين : « لكن من هم هؤلاء الناس ؟ وماذا ينتظرون ؟ فأجابني : هنا ، يجري استئجار العمال مياومة . كم عاملاً تريد ؟ وقد كانت خطة عملي تلحظ الحاجة الى 30 عاملاً زراعياً . فمضى على امتداد الصف وهو يضرب بعصاه على كتف من يختارهم : « أنت تبقى » أما الآخرون فذهبوا يائسين . كان انطباعي أنني حكمت عليهم . فكان العامل يشتغل بمعدل يومين أو ثلاثة في الأسبوع ، وكان يقبض في الفيوم قرشين ونصفاً . والليرة تساوي مئة قرش . لقد أرعبني ذلك . حاولت ان انفخ خطط عملي ، لكن كان هناك دائماً مرشحون يبقون في الانتظار لا بل استثمرت الصحراء ما فوق حدود ملكية أنيلي من اجل اعطاء عمل اكثر بقليل ! غرسنا هكذا أشجار زيتون لم تكن تدين بشيء لأحد . . . في احدى المرات ، اخبروني بأن ثوراً مربوطاً الى محراث كسر عموده الفقري : كانت السكة قد احتجزتها صخرة . فأمرت بذبحه وتوزيع لحمه على العمال . واعتقدت أنني أحسن صنعاً . لكن كلا . فلقد حسم اصحاب العمل ثمن اللحم من أجر العمال . وراحت النساء يصحن من اليأس . هكذا كانت الأمور بالنسبة لكل شيء . كانوا يدفعون للعمال قمحاً تالفاً ، ومسوساً . كان الكتبة يسرقونهم دون ان يتجرأوا على الاحتجاج . وبما أن الطعام كان يقتصر على الخبز والملح ، كانوا يعرضون أنفسهم احياناً للقتل ببنادق الحراس وهم يحاولون سرقة البصل . كانوا بحاجة فيزيولوجية الى الفيتامينات التي يتضمنها البصل . كانت عائلة الفلاح

تأكل اللحم اربع مرات في العام تقريباً . لم يكونوا يموتون جوعاً لأن التضامن فيما بينهم كان خارقاً ، لكن الأوبئة كانت تعيثُ فساداً . رأيت الملاريا تقضي على قرى بأسرها . وكان 95% من الفلاحين مصابين بالبلهارسيا . أما امراض العينين فكانت مخيفة . كانت مصر تضرب قصب السبق في عدد العميان - قصب سبقها الوحيد . وكان معدل الحياة 27 عاماً ، دون حساب الأطفال الذين يموتون في عامهم الأول . وقد كانت نسبة الموت بين الأطفال تصل الى ما يقارب الثلث . طفل على ثلاثة .

« هذه الأرقام ، ليست في رأسي فقط . لقد وضعتها مصر في قلبي ، وفي بطني » .

هل هذا واضح ؟

شبان شبيهون بالشبان الذين يقرأون في باريس مالرو ونيزان وجيد الرواح والمجبي ، ويدورون حول الماركسية ، وينظرون نظرة حائرة الى موسكو ، وتحرطهم في السياسة التعبئة ضد الفاشية . جيل بكامله . شبان القاهرة يفكرون بأنهم أوروبيون ، وتجعلهم سذاجتهم يعتقدون بأنهم مصريون : إعادة ترتيب الأمور ، في هذا الحقل ، تؤجل الى وقت لاحق . ان ما يميز جمهور « المصريين الأجانب » عن الجيش المناضل الكبير الذي يلتحقون به عشية الحرب العالمية الثانية ، إنما هو كونهم ولدوا من احشاء ما لا يسمى الى الآن في العالم الثالث ، في نظام انتاج يحقق ، بوقاحة لا تضاهي ، الشروط القصوى لاستغلال الانسان بيد الانسان . انه كونهم تلقوا ، مثل صفة كشف الشرط اللاانساني للمهانين والمذلولين . وهو كشف غير مجرد ، غير مأخوذ من كتاب عقائدي ، غير مستنتج من حساب لفائض القيمة ، لكنه كشف فيزيائي ، حشوي ، متنفس في الرائحة الكريهة للسيقان المهترئة لمصاب بعاهة ، ومرئي في النظرات العمياء ، ملموس في الوقت الذي تلمس فيه العقد الدرنية للفلاحين ، مسموع في انين الأطفال الطويل الذي تغطيه قعقة محالج القطن . لا يذهبون الى السياسة وفقاً لمسار ثقافي : يندفعون نحوها بفعل تحويل - دفع لكل الكينونة ، « هذه الأرقام ، ليست في رأسي فقط ، لقد وضعتها مصر في قلبي ، وفي بطني » .

وهي لا تزال هناك الى الآن .

إذا كنتم تريدون فهم حياة هنري كورييل ، عليكم أن تضيئوا كل فصل منها بجملة صديقه جوزف هازان : « لم ينس يوماً أن يؤس الشعب المصري هو الذي قاده الى السياسة » . لقد أشعل في نفسه شعلة لن تنطفئ أبداً .

في 13 تشرين الثاني 1979 ، أي بعد مرور 18 شهراً على اغتيال هنري كورريل ، أخذت المفوضة الجنائية للمرة الأولى إفادة السيدة ل. ، وهي جراحة أسنان .

وقد كان ذلك بمبادرة من السيدة المذكورة . كان المحققون استجوبوا 127 شخصاً يسكنون شارع رولين ومونج ، لكنهم لم يقرعوا باب السيدة ل. ، جارة آل كورريل في الطابق الثامن من المبنى . هنالك حالات من نكد الطالع هذا .

كانت إفادتها مثيرة لكن غريبة بعض الشيء .

لم تكن تحدثت أبداً مع هنري كورريل . كان يبدو لها « رجلاً هادئاً ، كثير التكتّم ، لطيفاً للغاية ، باسماً » . كانت تتذكر بصورة غامضة أنها قرأت قبل مصرعه مقالاً يصفه بأنه « رجل سياسة يساري ذو نشاطات متعددة بعضها جرى اعتبار أنه قد يكون خطراً على امن فرنسا » . وربما تكون سمعت ذلك على التلفزيون ؟ لم تعد تتذكر . اعترفت قائلة : « تبدو ذاكرتي ضعيفة بعض الأحيان ، لا سيما حين يتعلق الأمر بوقائع لا تهمني إطلاقاً » . هذا الاعتراف يضع السيدة ل. في عداد فئة الشهود النموذجيين الذين يشددون على شكوكهم أكثر مما على ما هم متيقنون منه . يبقى ان نوافذها تطل على قاعة جلوس آل كورريل ، وانها كانت تراهما يعيشان حياة وادعة ، وأصببت بالدهشة عندما علمت عبر الصحافة أن هنري كورريل كان رجلاً « كثير الانشغال والنشاط » .

بعد ظهر يوم الجريمة ، كانت اصططحت ولديها الى حديقة اللوكسمبورغ ، ثم أخذتها الى بيت والدتها . وعادوا ثلاثتهم الى شارع رولين لأجل العشاء ، لكن في ساعة متأخرة . ولقد صدمها اعلان حدوث الجريمة لأنها كانت تعتبر هنري كورريل « انساناً طيباً » .

كانت إفادتها تتعلق بزيارة تعود الى الورا سنوات عديدة . ولم يكن في وسعها تحديد التاريخ . كان رجل طلب منها موعداً بواسطة الهاتف ، وقد دعته للمجيء الى عيادتها ، في شارع كرولبارب . فحضر زائران ، وأعلننا انهما ينتميان الى الـ DST وأبرزنا بطاقتي رجلي شرطة . « وسألني أحدهما بناء على وضع مسكني في البناء رقم 4 ، شارع رولين ، إذا كان بإمكانني السماح لهما بوضع جهاز لديّ » . لم يحددوا طبيعة الجهاز ، ولا الهدف منه . تولد لدى السيدة ل. انطباع بأن محاورها يريد أن يقول أقل شيء ممكن بصدد ، في حين يحاول تطمينها : سيبقي كل شيء قيد الكتمان ولن ينتج عن ذلك أي سوء . وقد فكرت بأن الأمر يتعلق دون شك بكشف جهاز إرسال غير شرعي . كان المبنى رقم 4 يشرف على كل الحي . ولما كانت حائرة فقد طلبت مهلة للتفكير . وترك لها زائرها اسميها ، اللذين نسيتهما ، ورقمي هاتف ومركز يمكنها الاتصال بهما عليهما . وقد خابرتها بعد أيام وأعطتها جواباً سلبياً .

« لم يكن محاورى مسروراً ، وقد أظهر الكثير من خيبة الأمل ؛ وسألنى ألا اتحدث بالأمر لأي كان » .

القصة قديمة ، والسيدة ل . شددت على ضعف ذاكرتها : « أنا لا اتذكر التاريخ والأحداث التي لا تهمني شخصياً ، أمحوها من ذاكرتي » . ومن البديهي أن هذه الزيارة الفريدة لم تثر اهتمامها في حينها وليست أكيدة من كونها تجدها اليوم أكثر إثارة للاهتمام . لا بل إن السيدة ل . غير قادرة على التأكيد بأن المسعى قد حصل بعد وصول آل كورييل الى المبنى ، بحيث أن علاقته المحتملة باغتيال هنري كورييل تبقى جد افتراضية .

هذا مختلط .

لكن السيدة ل . تترك مجالاً لأمل ضئيل : في تلك الفترة ، سجلت على مفكرتها الرقمين اللذين اعطاها اياهما زائراها . ربما لم ترمِ الفكرة . . . سوف تسعى جهدها كي تجدها .

وبفعل واحد من تلك الخطوط المذهلة التي تعوض من المآسي البوليسية ، عثرت السيدة ل . على الفكرة . تمت الزيارة في تشرين الثاني 1972 ، بعد ستة أشهر من استقرار آل كورييل في الشقة المجاورة . كان احد الزائرين المفتش راي Rey ، رقم الهاتف 2652830 ، المركز 3454 أو 3455 ، والثاني دولاك ، مركزه 3450 . وقد كتبت السيدة ل . ما يلي : « يتعلق الأمر بتركيز مضخم ؟ مرحل* في شارع رولين ؟ ولقد خابرت لأقول لا . لم يُطلب مني اي توضيح بعد رفضي . فقط : أنت تحتفظين بسر - وأنا أثق بك - يجب عدم البوح به » . أنهت السيدة ل . ملاحظاتها بثلاث نقاط استفهام . كان هناك سبب لذلك .

إن لمفاجأة الفكرة التي تم العثور عليها فضيلة إخراج مدير الـ DST من الغابة ، أي من الـ « دفع بالسرية » الذي يتحصن فيه كلما أبدى احد القضاة فضولاً طائشاً بصدد مصلحته ، فقد أعطى ، حين تم استجوابه كتابة بعد ستة أشهر من إعطاء السيدة ل . إفادتها ، أعطى رداً كتابياً أعلن فيه أنه لم يكن في صفوف الـ DST في تلك الفترة شخص باسم دولاك ، لكن في شهر تشرين الثاني 1972 ، كان يُخدم لديها مفتش باسم راي ، وكان يمكن الاتصال به على الرقم 2652830 ، والمركز 3454 . هذا كل شيء . هذا كثير . أية مفكرة عجائبية تجترح معجزة جعل عنقاء سوسي Saussaies تتكلم !

* أداة لنقل برنامج إذاعي من محطة بقوة اكبر (م) .

لكن راي مرض وغادر الخدمة في أول تموز 1973 ومذاك طلب حالته الى تقاعد قبل
الأوان ، واستجيب لطلبه .

وقد جرى الاستماع لإفادته ، بإنبابة قضائية من جانب القاضي المكلف بملف كورييل ،
في المدينة بالجنوب الشرقي ، حيث يقيم بصورة مؤقتة . وقد أخذت إفادته بعد عام على
افشآت السيدة ل . : لا يمكن القول ان السيد راي قد أخذ على حين غرة . هكذا تسير
العدالة ، بطيئة وذات جلال .

السيد راي شاهد لذيذ لكن مخيب للآمال . وهو يجهل السيدة ل . ولا يتذكر أنه زارها
 يوماً . مع أنه ولد في باريس وأمضى في هذه المدينة كل حياته النشيطة ، فهو يجيب بصدد شارع
لودرو- رولين حين يجري الكلام معه بصدد شارع رولين . تصدر عنه جملة مثيرة
للاضطراب : « ان الوصف المعطى للمفتشين لا يبدو لي أنه يتطابق مع هيئتنا العامة ، وفي كل
الأحوال لا يتطابق مع هيئتي أنا » . والحال ان السيدة ل . قالت عن زائريها : « كان الأول
رجلاً في الخمسين ، كبير القامة ، ممشوقاً ، ذا شعر أشيب ، يلبس مشمعةً ويضع على رأسه
قبعة . أما الثاني ، فأتذكر بصورة مشوشة أنه ربما كان في السن ذاته ، ويرتدي بالطريقة
نفسها ، دون ان يكون بوسعي ان أوضح اكثر من ذلك ، ما عدا أن أحد الرجلين كانت عيناه
فاتحتين » . في سن الخمسين : كان عمر السيد راي آنذاك 49 عاماً . وإذا كان لا يتعرف الى
نفسه في أي من الوصفين ، فحسب ما يشير اليه لأنه « كانت القبعة قد الغيت منذ وقت طويل
قبل ذلك الحين » . ويوضح بصورة مضحكة : « بما أنني لم أتدخل ، لا يمكنني أن أحدد لكم
اسم الزميل الذي كان يرافقني وشهرته » . لكنه خلص الى القول ، بعقل سليم ، إن اسمي
دولاك وراي منتشران الى درجة ان « أياً كان يمكن ان يقدم نفسه ضمن هذه الشروط على انه
من رجال الـ DST ، مهما تكن المصلحة او المنظمة الفرنسية او الأجنبية التي يمكن ان ينتسب
اليها » .

وهذا كلام بديهي . لذا جرى اقفال القضية ، مع أنه كان يمكن تصور المسعى البسيط
التمثل بأن يقدم للسيدة ل . ، صورة على الأقل للسيد راي تعود لعام 1972 ، إذا لم نقل السيد
راي شخصياً . فالأمر يتعلق بعد كل شيء بجريمة دموية .

يخرج السيد راي .

يبقى الهاتفف .

لأنه من غير الممكن الالتفاف على الواقع المتمثل بأن السيدة ل . خابرت بواسطة الهاتف

الرقم والمركز المشار اليهما ، اللذين يتبعان الـ DST . ينبغي التسليم بأنها لم تجد السيد راي على الطرف الآخر لخط الهاتف لأن هذا الأخير لا يتذكر شيئاً من ذلك ، لكن من البديهي انها تحدثت مع موظف من الـ DST ، فلو أن هذا الشخص لم يكن على اطلاع على الموضوع لما كان أبدى دهشة واهتماماً ، لأنه معروف في الـ DST اكثر مما في أي مكان آخر ، أن وضع جهاز تنصت في مسكن خاص امر غير مشروع اطلاقاً . لقد لفت السيد راي النظر ، بحق ، الى ان عملاء مصلحة اجنبية يمكن ان يدّعوا انهم اعضاء في الـ DST اثناء انجازهم عملهم المشؤوم : وهذا سبب اضافي كي يأخذ موظف في هذه المصلحة حذره حين يعلم ان غشاشين تصرفوا بهذه الطريقة . كان من المفترض فتح تحقيق في هكذا حال ، وهو ما لم يحصل بتاتاً . لم يكن من الضروري فتح هذا التحقيق طالما نعرف ان محاور السيدة ل . كان على علم تام بالموضوع ، وأبدى انزعاجه حين علم برفضها وطلب منها الاحتفاظ بالكتمان .

✱

✱ ✱

بعد اثني عشر عاماً على تلك الوقائع ، وبعد خمس سنوات على أول استماع للسيدة ل . ، وبعد ثلاث سنوات على انتخاب فرانسوا ميتران رئيساً للجمهورية ، اعترفت الـ DST بأنها حاولت عام 1972 أن تركز جهاز تنصت يتيح تسجيل الأحاديث التي تدور لدى هنري وروزيت كوريليل . وأكدت أن فشل هذه المحاولة ثناها عن تكرارها ، وأن الميكرو - اذا كان ثمة ميكرو - الذي وُضع في ستوديو جويس بلو لم يتم وضعه بواسطة اختصاصييها .

✱ ✱ ✱ ✱

الجميع عرفوا الصدمة البارقة للقاء مع البؤس المصري . كانت بالنسبة لمعظمهم شرارة انبثقت من قراءتهم . لا يمكن فهم تلك من دون هذه . وإذا كان لكتاب كل هذه السلطة عليهم ، فلأن كل فقرة مزينة بالواقع المحيط . هكذا فإن النظرية الماركسية المتعلقة باستخلاص فائض القيمة الرأسمالي تستوعب بسهولة في بلد غالباً ما يؤجر فيه الملاكون الاقطاعيون الكبار الأرض مقابل الحصول على نصف المحصول . وعموماً ، يكفي ان يضع المرء كتابه جانباً ويفتح شباكه ليرى كيف يعمل الاستغلال على مستوى من الفعالية نادراً ما يجد

له مثيلاً . ان ماركس معاصر يقرأونه في الحاضر لأنهم يعيشون في مجتمع من القرن التاسع عشر (في الوقت ذاته يفتح الطالب الفرنسي المنبثق من البورجوازية البيان الشيوعي أو رأس المال في حين تمر تحت نافذته المركبات المرحلة لأولى العطلات المدفوعة) .

لم يكن الكتاب الموجّه ماركسياً بالضرورة، ولا حتى سياسياً . فلقد بدأ مارسيل اسرائيل بتولستوي : « غدوت من انصار تولستوي شديدي التعصب . فكتاب الحرب والسلام قرأته عشر مرات على الأقل . كان في وسعي ان أتلو عن ظهر قلب صفحات بكاملها . انطلاقاً منه ، أثار الروس اهتمامي ، ووجدت في مكان ما كتاباً لبوخارين ، المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ، وعندئذ حدث الكشف ، والحماس ، وشعرت ان لي جناحين . مذاك لم أعد أتوقف عن قراءة الكتب الماركسية » .

ريمون اسطمبولي : « كما الحال كل صيف ، ذهبنا الى دمشق ، ومن هناك الى لبنان . كان ذلك في 38-39 ، وكان عمري آنذاك 13 سنة . التقيت أرميناً مكتهلاً - في الأربعينات من عمره - عضواً في الحزب الشيوعي اللبناني سألني : « هل قرأت L'Espoir ؟ فأجبته : - كلا ، ما هذا الكتاب ؟ فتابع : « إنه نتاج واحد حاز على جائزة غونكور في باريس » . وقد حوّلني إلى وقرأناه معاً . والحقيقة انني صُدمت ببعض الفظاظات ، لكن هذه القراءة كانت الشرارة الأولى » .

اكتشف هيلل شوارتز الماركسية في الليسيه في كتاب كوفيليه ، التوراة الفلسفية لكل الطلاب الثانويين . يتحدث كوفيليه عن ماركس بالكثير من الایجاز ، وذلك لدخضه باستمرار . لكن الشاب هيلل يشتم أن شبكة فك الرموز الماركسية تحل رموز المجتمع المصري بدقة مذهلة . وقد راح يجوب المكتبات بحثاً عن الكتب الماركسية . وكان يوجد بعض منها أحياناً تحت مجلات الجنس .

كان شحاته هارون يلعب بالورق مع عصابته من المحتفلين الفرحين (« كنت اعيش حياة بلهاء . حانات الليل ، والقمار ، والبنات ») وقد دخل صديقه دافيد ناحوم الى الغرفة ، عاقد الحاجبين ، متأبطاً كتاباً ضخماً . قال شحاته : « عذراً ، أنت ترى أننا نلعب دق بوكر » . إلا أن الآخر واجهه بالكثير من الاحتقار ، ماداً إليه الكتاب وهو يقول : « خذ ، اقرأ هذا » . كان الكتاب مجموعة من نصوص لينين .

البرأرييه : « كنت في الثانية عشرة من العمر حين أخذتني اختي الكبرى (كانت بدأت تتردد على بيت هنري كوريل) الى مركز ثقافي اكتشفت فيه الكتاب الذي غير مجرى حياتي :

الأم لغوركي . وهي صدمة لا تُنسى . أتذكر من مقدمة فيكتور مارغريت : « هذا الكتاب هو انجيل روسيا الجديدة » . وقد حفظت هذه المقدمة عن ظهر قلب . جعل غوركي قلبي يخفق بشدة للاتحاد السوفياتي . ولقد استحصلت على كل الكتب المتوفرة - والجزء الأكبر منها بفضل كوريل » .

بخصوص الجميلة ديدار روسانو ، المراهقة الصعبة ، فهي لم تتقدم للباكالوريا وكانت تحس بالضجر وهي تحسب الأوراق المالية من الصباح الى المساء في المصرف الوطني حيث أدخلها والدها . كانت على علاقة عاطفية مع روني فارفارا ، الايطالي المناهض للفاشية ، الذي كان ماراً بالقاهرة . قبل ان يعود الأخير الى الاسكندرية حيث يقيم ، سلمها رزمة من الأوراق وقال لها : « عليك ان تقرئي هذه الأشياء » . كان الأمر يتعلق بمحاضرات مطبوعة على الرونيو حول المادية التاريخية . « تولد لدي الانطباع بأن كل ما كان يخيط بي وجد تفسيراً له . بدا لي كل شيء وقد غدا بسيطاً . أتذكر أي حين كنت أقرأ تلك المحاضرات ، كنت اهتف بلا انقطاع : « كم هذا صحيح ! كم هذا واضح » كان ذلك شيئاً يشبه الانبهار » . ختمت تلك القراءة بالنسبة اليها زمن الشك ، والبحث ، والاستفهامات . وهي لن تضع بعد ذلك موقع الشك ما تكشف لها في سن التاسعة عشرة .

مع ذلك فما واحد منهم سيغدو دكتوراً في الماركسية - ويسري على هنري كوريل في هذا المجال ما يسري على الآخرين . لقد كتب ماكسيم رودنسون ، وهو صديق قديم لهنري كوريل : « لقد كان عقلاً سريع التصديق بعض الشيء . كَوْن أفكاراً بسيطة في صباه ، أصبحت مبرر حياته ، وهو لم يرد إعادة النظر فيها . لم يهتم هنري يوماً بالنظرية الماركسية . وفضلاً عن ذلك لم يفهم شيئاً منها . كان نموذج المناضل . كان من مستوى فوق الوسط وكانت بساطة استدلاله توراتية . فمن جهة ، ثمة الخير ، والشر في الجهة الأخرى . في رأيه أنه قرأ لينين فقط . فحتى ماركس كان شديد التجريد بالنسبة اليه » .

إن ماكسيم رودنسون ، الذي يعرف النظرية الماركسية بصورة ممتازة ، والذي لن يغتاله ، ولله الحمد ، أحد لا يعطي غير تفسير نصفي . اذا كان صحيحاً أن ماركس كان شديد التجريد (اذا لم يكن بالنسبة لكوريل ، فبالنسبة لبعض الآخرين ، على الأقل) ، فليس أقل صحة أن مصر كانت ملموسة جداً . فهي لا تستفهم ، كما يقولون اليوم : إنها تصرخ طالبة النجدة . لذا يسمعونها في عمر تكون فيه الأذن المراهقة ، في العادة ، متنصتة لنداءات أقل درامية . كلهم تقريباً كان لهم من العمر أقل من عشرين عاماً حين انخرطوا في السياسة . عام 1939 ، كان هنري كوريل ، البالغ آنذاك الخامسة والعشرين من العمر ، يبدو

كما لو انه مسنّ (سوف ينادونه « أبونا » بسبب الجانب اليسوعي فيه لكن كذلك بسبب عمره) . ان نضجاً مبكراً بهذه الندرة ، مرتبطاً بذلك الشعور بالالحاح ، كان لا بد أن يُنفذ الى الحاجة للفعل . لقد كانوا يقرأون الماركسية في كتاب مفتوح هو المشهد الاجتماعي المعروض امامهم . وهو مشهد اكثر تعقيداً مما كانوا يعتقدون ، وسوف يكشف عند الحاجة بعض الثغرات في جسم المذهب الماركسي - اللينيني ، لكنه مشهد ذو بساطة توراتية - حسب تعبير رودنسون - . بالنسبة لمن يحييه والثورة تعتمل في قلبه . « الشر ، من جهة ، والخير من الجهة الأخرى ؟ » هذا التحديد لا يعطي صورة دقيقة عن مصر ، حيث الشر يهيمن تماماً على الحاضر في حين يتأجل الخير للمستقبل .

سؤال واحد مقبول : « ما العمل ؟ » .

كان الجواب المعقول هو الانضمام للحزب الشيوعي المصري ، لكن لم يعد ثمة حزب شيوعي مصري .

✱

✱ ✱

كان قد أسس هذا الحزب ثلاثة رجال في عام 1920 . وكانت أصولهم متباينة ، كما ان أقدارهم لن تكون أقلّ تبايناً . فالجوهري جوزف روزانتال سوف يتعرض للطرده بسبب انحراف يميني . وحسني العرابي ، مندوب الحزب الى الكومنترن ، سوف يمزق بطاقته ويغدو في الأخير عميلاً نازياً . أما المحامي انطون مارون ، أول أمين عام ، فسيموت في سجن مصري عام 1924 . وقد اختفى الحزب في العام نفسه دون ان يكون بلغ تعدادة - كما يبدو - الألف عضو . إن تاريخ الشيوعية في شبابها لا ينطوي الا على امثلة قليلة لفشل محزن الى هذه الدرجة في بلد ، كمصر ، يقدم هذا القدر من الامكانيات .

ثمة ثابتة بالنسبة لشيوعي عام 1920 وخلفائهم المحتملين : إنها الحضور الانكليزي . ان مصر (« البلد الأهم ») هي احد محاور الاستراتيجية البريطانية وليس وارداً بالنسبة للندن السماح بأن تنمو على ضفاف قناة السويس ، وهي شريان امبراطوري حيوي ، بؤرة ثورية ، لا سيما اذا كانت موسكو هي التي تغذيها . لقد ساعدت الأجهزة البريطانية على القمع بكل قوتها وتجربتها . فعلت ذلك بحذق ، وخفية ، بحيث لا تعرض سمعة شريكاتها المصريات ، لكن في الوقت ذاته الذي تعرف فيه ان تقدم ، عند الاقتضاء ، دعمها الحاسم . هكذا

فمبادرة من اجهزة الأمن البريطانية جرى تكوين رجال الشرطة المصريين، الأكثر وعداً ، في العواصم الأجنبية ، من اجل مكافحة البلشفية . وبفضلها كان هؤلاء الرجال بالذات ، الذين بلغوا مراكز القيادة ، يستفيدون سراً من كل المعلومات النافعة في النضال المعادي للشيوعية .

هكذا كانت الشرطة السياسية المصرية ، على مستويين . ففي القاعدة ، ملاك يشارك في التخلف العام ، جمهور من الشجعان ذوي الأجور المتدنية والفظين الذين يثيرون مرح ظرفاء القاهرة ومثقفها ، بإيقاف المسافرين في القطارات الذين يقرأون داروين بحجة ان الاسم شبهه باسم لينين وستالين . وفي القمة هيئة أركان ضليعة بتقنيات الاستعلام ، والاختراق والمناورة .

لكن الحزب الشيوعي الذي اسسه رواد عام 1920 كان يعاني من مرض طفولي كافٍ للحكم عليه : لقد كان ثمانون بالمئة من المتسبين اليه ينتمون الى الجماعات الأجنبية ، من يهود ويونانيين وأرمن . كان اختراق حاسم يتيح النفاذ الى السكان الأصليين بعيداً عن الترحيح ضمن تلك الشروط : حفنة فقط من الشيوعيين كانت تتكلم العربية . . إن الحزب السياسي ، غير المحدود نظرياً ، بقي في الواقع ضيقاً . كان يستقطب الجماهير الريفية في مصر حزب الوفد ، الحزب القومي القدير المنبثق من « وفد » عام 1918. وإذا لم يكن بعض العناصر يجدون ما يرضيهم في الوفد ، فلقد كانوا يذهبون شطر القوميين المتشددين او المتطرفين الدينيين ، وليس باتجاه عناصر اجنبية آتية من جماعات منحتها سلطة الاحتلال امتيازات .

أما سكان المدن ، الذين اكتسحهم التضخم ، فقد عانوا بعد عام 1918 من ذبول المزاحمة الدولية التي قضت على اجزاء بكاملها من الاقتصاد بالافلاس . كان معظم العمال يشتغلون اثنتي عشرة ساعة في اليوم مقابل اجر بائس . وقد كانت الاضرابات كثيرة وعنيفة ، ومنتصرة احياناً ، يجري تخطيطها في الغالب بواسطة نيران القمع المجرمة ، الا انها اضرابات مشتتة على الدوام ، أقرب الى « الانفعالات الشعبية » في نظامنا القديم مما الى الهجومات النقابية المعاصرة . كان الجزء الأكبر من الأيدي العاملة في المصانع لا يزال عميق التآثر بأصوله الفلاحية ولم يرتفع بعد الى الوعي الطبقي . وحيث كانت توجد تقاليد عمالية وروح قتالية (مصانع التبغ ، النقليات العامة ، النسيج) كان تكاثر النقابات يحد من فعاليتها . كان مؤتمر متوقع حدوثه في تشرين الأول عام 1925 (حظرت الحكومة) سيضم قرابة سبعمئة مندوب يمثلون اكثر من مئة نقابة مجموع اعضائها سبعون ألفاً .

ان الشيوعيين ، كأقلية فاعلة ، لم يكونوا قادرين في أي من الأوقات على الضغط على الحركة المطلوبة ، فكيف على الإشراف عليها . لقد كان القمع الحكومي يعرف كيف يعزلهم ، على طريق شلهم وتحييدهم .

وثمة عائق آخر ، ربما يكون الأشد خطراً : كان الحزب قد عزل نفسه بنفسه عبر التطبيق الدقيق لاستراتيجية الجبهة الطبقية . كان برنامجه يطالب بجلاء الجيش الانكليزي وبحصول البلد على الاستقلال التام . وكان يلتقي في ذلك مع الهدف الذي أكدّه الوفد . لكن هذا التماثل على صعيد الهدف لم يكن ينبغي في نظر الحزب أن يخفف من نضال « حزب الطبقة العاملة » ضد « البورجوازية الوطنية » . وكان في ذلك بخس لتقدير قوة الشعور الوطني . فبالنسبة للشعب ، كانت الأولوية المطلقة لمطلب الاستقلال ، وإذ كان الحزب الشيوعي يعطي الأولوية للنضال الطبقي ، كان يقطع نفسه عن الجماهير ، لا سيما أن الأصل الأجنبي للغالبية العظمى من أعضائه كان يعرضه للشبهة .

في تموز 1924 ، جرى قمع إضراب عام قمعاً وحشياً ، لا سيما في الاسكندرية . وصلت الى السلطة حكومة وفدية برئاسة البطل الوطني ، سعد زغلول ، وضربت الى اليسار . جرى توقيف كل القياديين الشيوعيين والحكم عليهم . وبعد ذلك بعام ، استكملت حكومة يمينية عملية التصفية . تم توقيف الكوادر ، وحظر المنشورات . وفي خريف عام 1925 ، كان الحزب الشيوعي المصري قد توقف عن الوجود .

أما موسكو ، رابطة الجأش ، فتجاهلت الواقع المحزن تجاهلاً تاماً . كان كل مؤتمر للكومنترن يوجّه للحزب المتوقّ تعليمات من الطموح بحيث لم يكن لديها أي حظ بأن تتلقى بداية تطبيق . هكذا كان يؤمر بالانتقال الى الهجوم على الوفد ، « الحركة الغدارية القومية المزيفة » . كان الوفد يشمل مصر ؛ أما الشيوعيون فلم يكونوا أكثر من مئة ، أو ربما مئتين ، متوزعين بين القاهرة والاسكندرية ، معزولين بعضهم عن البعض الآخر ، محرومين من أية إمكانية عمل .

بذل الكومنترن جهده كي يسد الفراغ . في عام 1925 فتحت شركة تجارية روسية - تركية ، بإدارة اميركي ، مكاتب لها في القاهرة . وبعد عامين ، أسس مواطن سوفياتي وشيوعي الماني في الاسكندرية شركة تكستيل إيمبورت . وقد عمدت السلطات المصرية ، بناء على نصائح في محلها ، إلى اتخاذ قرارات بالطرده بعد أعمال اقتفاء للأثر طويلة ومثمرة .

عام 1928 ، عين الكرملين اميناً عاماً مصرياً مكلفاً بإحياء الحزب المتحول الى موماء . وقد طمأنت تقاريره موسكو : كان ، حسب هذه التقارير ، يستقطب الأعضاء بكثافة ، ويغرس خلايا عبر أنحاء البلاد ، ويُعدّ لنشر جريدة سرية . كل ذلك كان يتطلب أموالاً ؛ ولقد حصل على تلك الأموال . واختفى الأمين العام معها ؛ أما الشرطة المصرية ، التي كان عميلاً لها ، فقبضت على بعض المنتسبين المصابين بالذهول . وفي عام 1934 رفع المشعل من

جديد شيوعي سوري دخل مصر خلصة . وقد أدت نشاطاته الى القبض على أربعين مناضلاً نجوا من أعمال اقتفاء الأثر السابقة فكّفت موسكو عن اللاحاق .

في الكومنترن ، كان ينضاف للملف المصري الأسود عنصر بقي سرياً : لقد اختفى العديد من المبعوثين السريين إلى القاهرة دون أن يتركوا أثراً . وهو أمر يصعب نسيانه . بالنسبة للأمية ، كانت رائحة خيانة كريمة تنتشر فوق مصر .

*

* *

في يوم من الأيام ، قرر كل من راوول كورييل ، وروزيت ، وريمون أغيون ، ومارسيل اسراييل (كان هنري يعيش مرحلة الكيت كات) أنهم الحزب الشيوعي المصري . كان ذلك مؤثراً ، إلا أنه بقي حبراً على ورق .

وراحت تتكوّن حلقات دراسات ماركسية ، وتفرط ، لتتكوّن من جديد ، على هوى التجانسات . تحليل للنصوص المتوفرة ، عروض ، نقاشات لا تنتهي . وكان ذلك يؤلّد الانطباع بالدوران في الفراغ . إرادة محمومة بإيجاد مخرج يتيح النفاذ إلى العمل الملموس ، وسخط لأن يجد المرء نفسه في الوسط ذاته ، العصبية الصغيرة ذاتها على الدوام ، في هذا الصالون البورجوازي أو ذاك في القاهرة . ليس هذا جدياً . كل واحد يعيش انخراطه في السياسة بالكثير من الرصانة ويغتاز لرؤية الآخرين في حالة طيش غير مقبول . لكنهم يخرجون جميعاً من القالب نفسه ، وما ينكرونه لدى الآخرين ، إنما هو انعكاس صورتهم هم .

لقد خلق مارسيل اسراييل فريق الدراسات الخاص به . ثم دعا هنري كورييل للانضمام . الا أن كورييل ، الذي هالته « العصبية » ، و« ضيق المفاهيم » ، سرعان ما مضى مودعاً . وحين أسس هنري حلقة الخاصة به ، هو وراوول وريمون أغيون وروزيت ، دعا الشاب هيلل شوارتز . ولقد ضيق شوارتز أمام مارآه من روح الهواية : « كانت عينا روزيت مطلبيتين بالمساحيق ، وهو ما صدمني كثيراً . إذ ليس ثمة انسجام في نظري بين التجميل والشيوعية . وكانت غابي ، امرأة ريمون أغيون ، أسوأ أيضاً . كانت متجلمة بصورة مهينة ، وترتدي فساتين بالغة القصر . وكانت تجلس مصلبة ساقها ، وتنورتها مرفوعة كثيراً ، ثم كانت تبدأ بتقليم أظافرها . وبين حين وآخر ، كانت تأتي متأخرة أو لا تأتي إطلاقاً ، ثم تعتذر قائلة ان ذلك بسبب حلاقها أو خياطتها . وكنا هناك لدراسة الماركسية ! وحين كنت أعنف غابي ، كانت تجيب : « ليست الماركسية في التضييق على النفس » . ولقد لقيت هذه الصيغة

الكثير من النجاح فيما بيننا . في كل حال ، كانت غايي فتاة محبوبة جداً . أما المكسب الوحيد ، فكان تمكيني من الوصول إلى مجموعة من الكتب . ولقد قرأت بالكثير من النهم . لكنني لم أكن متفقاً مع تركيزهم على النظرية المجردة ، وكانت نزعة الهواية لديهم تثير سخطي . هكذا انصرفت بعد مرور ثلاثة أشهر وأنا أقول في نفسي : « ينبغي فعل شيء ما . »

لكن ماذا ؟

القيام بالحج لدى الكبار الذين ثمة من يهمس سرّاً بأنهم شاركوا في المغامرة التي باتت أسطورية ، الخاصة بالحزب الميت . يرفع بائع الاسفنج اليوناني ياناكاكيس حاجبين مذعورين ويقول : « أنا شيعي ؟ هذا استفزاز ؟ » (سوف يكشف فيما بعد انضمامه للحزب اليوناني واستحالة حصول انتهاء مزدوج) . أحد القدامى يستقبل الوفد برفق ويوافق على استئناف العمل شرط ضمان منصب الأمين العام . والآخرون مستعدون للنضال من جديد لكن ليس لديهم ما يقدمونه غير استعدادهم : لا يملكون أية بنية ، وليس لديهم أي اتصال بالخارج ، ولا وسائل تأثير على الداخل .

فتحت إصابة مارسيل اسرائيل بالربو باباً غير متوقع أمامه (كان هذا الربو أغلق دونه باب الفرق الأمية التي سبق أن تطوّر للانخراط فيها) . فلقد مضى إلى لبنان للنقاهة ، وارتبط بعلاقة صداقة مع نقولا الشاوي ، الأمين العام لاحقاً للحزب الشيعي اللبناني ، وكان رجلاً مرموقاً . ونظم الشاوي فيما بعد لقاء سرياً مع مسؤول الكومنترن للشرق الأوسط ، الأرمني ميدويان . فرسم له اسرائيل لوحة عن الغليان في القاهرة ، وازدهار حلقات الدراسات الماركسية والرغبة العامة في الانتقال إلى العمل الملموس . استمع اليه ميدويان وسأل : « ولكن المصريين . . . اين هم المصريون ؟ » (جملة مخيفة ، وسؤال ظالم ، حتى وإن كان مبرراً ، لم يخلُص إلى أن يدوي في آذانهم ! من هو إذن ، مارسيل اسرائيل ؟ وهنري كورييل ، الذي تراث عظام أجداده منذ قرن ونصف في أرض مصر ؟) ولقد خلص ميدويان إلى القول : « واجبك الأول هو أن تحتك بالجماهير المصرية وتكوّن كوادر . » ولقد كانت النصيحة في موقعها ؛ ولم يكن ينقص غير طريقة استخدام .

بانتظار اندماج إشكالي في الجماهير المصرية ، كان الانفتاح الوحيد يمر بأجانب - بعض الفرنسيين وسويسريين . الأولون ، وكانوا أساتذة في ليسيه القاهرة ، كانوا أعضاء شبه رسميين ، إلى هذا الحد أو ذاك ، في الحزب الشيعي الفرنسي . بفضل ميزة بشرية استثنائية (لقد قيل : إن الارسالية العلمانية الفرنسية كانت تجمع نخبة في العادة) ، وبفضل الهيبة التي كانت تمنحهم إياها جنسيتهم ، وتجربة حقيقية ورؤية سياسية لا تقف عند ضواحي القاهرة ،

فلقد كان تأثيرهم عميقاً . كانوا منبهي وعي ، ومقدمي نصوص ، وموزعي أوكسيجين حين كان الانعزال في الغيتو الأوروبي يهدد بإضعاف الشعلة السياسية لتلامذتهم القدامى .

كان جاكو- ديكومب ، الشيوعي ، قد أسس الرابطة السلمية ذات الارتباط بحركة امستردام - بلاييل . الجميع مروا في وقت أو في آخر بالرابطة السلمية ؛ لكن القليلين بقوا فيها . كان المستوى الفكري مرتفعاً ؛ وكان النقاش السياسي يفتح انفتاحاً واسعاً على الأحداث العالمية ؛ لكن عيب الرابطة أنها لم تكن تضم في صفوفها غير عربي مصري واحد . والمدخل الى الجماهير لم يكن ليمر عبرها . عند عودة عضو لجنة الرابطة ، مارسيل اسرائيل ، من بيروت ، أبلغ جاكو- ديكومب بنصائح رجل الكومترن . يقول اسرائيل : « كان الجواب واضحاً وفضلاً : « هنا نهتم فقط بالنضال من أجل السلام » . ولقد أحسست بالاحباط . مع ذلك كان بول جاكو- ديكومب شيعياً حقيقياً ، لكنه كان شديد الحذر - مفرطاً في الحذر . لم يكن في وسعه أن ينسى خيانة الأمين العام للحزب التي أدت الى توقيف العشرات من المناضلين . كان هذا هاجسه . وكان يؤدي الى عصبوية كلية ، وإلى استشباة غير معقول . كنت على احتكاك بمجموعته من الايطاليين المعادين للفاشية وقد اقترحت أن ينضموا الى الرابطة . إلا أن جاكو ديكومب رفض ذلك . كان يرى عملاء استفزازيين في كل مكان . كان بوانتيه بالنسبة اليه شرطياً خطراً - بوانتيه ! »

جورج بوانتيه ، الرجل الأساسي .

كان شيعياً سويسرياً ، عضواً في حزب الشغل السويسري ، وكان استاذاً في مدرسة الشرطة المصرية . وكان عمره البالغ 35 عاماً يجعل منه أخاً أكبر يفيض تجربة . كان يميل الى الطول ، كستنائي الشعر ، وكان حيواً ، حاراً ، جذاباً ، مغرياً ، ذا شغف بالنساء يعسره حب عظيم لمدرسة فرنسية في القاهرة ، هي مارغريت فويو ، كانت ساكنة معه في نزل عائلي متواضع بادارة روسي أبيض . يقول راوول كورييل ، الذي كان صديقه الحميم ، قبل هنري : « كان يحرك الناس والأشياء » . بصفته أجنبياً ، كان قد فهم الضرورة الحاسمة لـ « التمصير » ، وانشأ هو وزملاؤه وتلامذته العرب حلقة ماركسية كان يبذل جهده فيها لاثهار فائدة مقارَبة تجريبية للمشكلات .

كان تأثيره على هنري كورييل حاسماً . لم يحتج لأن ينفث فيه تذوق العمل ، لكنه أضفى الشرعية بصورة ما على ميل تلقائي لدى هنري كان بعض أصدقائه يصفونه بأنه انحراف انتهازي : تجميع أكبر عدد ممكن حول اهداف بسيطة وتعبوية . يقول راوول كورييل : « كنا متقوقعين داخل النظرية . نتكلم على الانتقال الى الممارسة لكن لا نفعل ذلك ابداً .

بفضل بوانتيه كان هنري بين أوائل من فهموا ، إذا لم يكن أول من فهم ، ضرورة الانطلاق الى العمل وامكانية ذلك . كان بوانتيه رجلاً عملياً ، قريباً جداً من الواقع . كان يشعر تماماً بكل ما في وسعه أن يعمل في مصر . إذن ، لماذا الانتظار ؟ وقد عاد عليه ذلك بعداوات فجأة وسط الشيوعيين الدوغمائيين ، أولئك الذين كانوا يعتقدون انه ينبغي حفظ رأس المال غيباً قبل كتابة بيان . بالنسبة لي - وبالنسبة لنا جميعاً - لا شك في أن بوانتيه هو الذي صنع من هنري شيوعياً . وهنري لم ينسه أبداً . كنا غالباً ما نتحدث عنه وبالكثير من التأثير دائماً . . وحين استقر هنري في فرنسا ، سراً ، عام 1952 ، كان أول اسم مستعار اتخذهُ هو بوانتيه ، اكراماً لذكرى صديقه المتوفى .

شيوعيون ، لكن من دون حزب . نوادٍ ، وحلقات ، ومنتديات دراسة ، في غياب أية منظمة ذات بيان للقيام بالعمل السياسي . المصريون ، بالغو الندرة ، ينتمون إلى الائتليجنسيا ؛ والكثيرون منهم في الحركة السورية وقد تطوروا فيما بعد نحو التروتسكية . أما الآخرون فأحياناً يونانيون أو إيطاليون ، وسرعان ما جعلهم النزاع العالمي يعيدون تركيز اهتمامهم بوطنهم الأم . والباقون - الغالبية الساحقة - يخرجون من الطائفة اليهودية المصرية ، وللمزيد من الدقة من البورجوازية المنعزلة في الحي المسمى الحي الأوروبي . كم عددهم ؟ تصعب الاجابة . لا شك أنهم بالعشرات . أقلية ضئيلة جداً حتى ضمن جماعتهم ، التي باتت أقلية بالغة الضالة في مصر . لقد قال ريمون أغيون : « ثمة موقفان ممكنان : إما القبول بالنظام - الأعمال والمال - أو التحول إلى ثوريين . » لا مفر من الخيار . هل نخطر في الحياة السياسية المصرية « العادية » ؟ بات ذلك مستحيلاً عشية الحرب العالمية الثانية . لقد كان الوفد يستقبل في الماضي اليهود ، مانحاً إياهم حتى مناصب وزارية . الا أن تجذر الحركة الوطنية ومزاحمة الأحزاب المتطرفة غيراً ذلك . وماذا عن الصهيونية ؟ انها تحاول الانغراس . لا بل يملك الاتحاد الصهيوني العالمي بيتاً . ومكتبه في شارع سليمان باشا يفيض بمواد الدعاوة . وقد اكتشف فيه جوزف هازان خارطة لاسرائيل القادمة : ينبغي أن تمتد من الفرات الى النيل ، أي تقطع كل سيناء من مصر . ولقد انصدم هازان قدر ما ينصدم فرنسي أمام خارطة المانية تستعيد الالزاس واللورين . كان الخارج من المكتب معادياً للصهيونية غاضباً . والحاصل أن الحركة الصهيونية لم تحرز أي نجاح لأن يهود مصر لم يكونوا يشعرون إطلاقاً بالحاجة الى ملاذ وطني . ثم ، كما يقول ريمون اسطمبولي بصورة ساخرة : « لم نكن نفهم لماذا يجعل الاشكينازيون ، يهود أوروبا الشرقية ، من فلسطين قصة من هذا النوع . بالنسبة اليها ، كانت القدس تعني قطار العاشرة إلا ربعاً في محطة القاهرة . . . » إلا أن الحرب ستبدل ذلك .

الحرب ها هنا ، وشيكة ، مع المعاهدة الجرمانية - السوفياتية كاستهلال لها . هذه

المعاهدة لم تثر لدى المبتدئين في القاهرة الاضطراب ذاته الذي أثارته لدى الكثير من المناضلين الفرنسيين الذين تمسوا بالديالكتيك الستاليني ، لكن لم يكونوا يستطيعون البقاء لا مبالين إزاء واقع أن التوقيعات المتبادلة في موسكو كانت تعني أن الوبهر ماخت*، المطمئن لظهره ، سوف تكون يدها طليقتين في الغرب . بالنسبة لبوانتييه وأصدقائه الشباب ، كل شيء كان قد لعب في ميونيخ ، حيث عبرت الديمقراطيات الغربية بوضوح عن رفضها قيام تحالف أوروبي واسع ضد النازية . كان ستالين يكتفي بمعاقتهم عبر حرف اتجاه الصاعقة الهتلرية التي كانت لندن وباريس تودان رؤيتها تنقض عليه . سيكون الوقت المكتسب مفيداً لإعداد الجيش الأحمر للصدمة المحتومة لأنه لم يكن من شك لدى أي من الناس في أن المعاهدة لا توفر غير استراحة مؤقتة للغاية .

من المثير للفضول أن هنري كورييل كان الوحيد الذي لم يوافق على المصافحة بين رييتروب* وستالين . دوت الفيلا في الزمالك بمنازعاته مع راوول ، وكان يصيح في وجهه قائلاً : لكن هيا : علّق إذن صورة ستالين فوق سريرك ! » حتى بوانتييه فشل في جعله يترؤى . كانا على شفير القطيعة . لكن بما أن صديقه قرر مغادرة مصر للانخراط في الجيش الفرنسي (لم يكن يرى في ذلك أي تناقض مع القبول بالمعاهدة ، وكان محقاً في ذلك ، فلقد قرر هو (هنري كورييل) أن يرافقه إلى الاسكندرية في القطار . وهناك ، على رصيف محطة القاهرة ، وسط صخب الجمهور ، ودفقات البخار من القاطرة ، تمكن جورج بوانتييه ، في نهاية مرافعة مؤثرة لا سيما أنه كان يعرف أنها الأخيرة ، تمكن من اقناع هنري بشرعية المعاهدة (يحتفظ من حضروا المشهد بذكرى خيالية له) . تعانق الصديقان . ثم عانق بوانتييه مارغريت فويو محدداً تاريخ زواجهما غداة النصر . لكنه همس في أذن هنري : « أعرف أنني سأموت . قل لرفاقي في حزب الشغل إني بقيت مخلصاً حتى النهاية . » (قبل أشهر من اغتيال هنري ، لام نفسه لأنه لم ينقل الرسالة أبداً) . صعد جورج بوانتييه إلى مقطوره ، وفي حين كان القطار يتحرك ، هتف في الشبان الذين كانوا يميّونه : « سننتصر ! »

وقد لقي مصرعه ، وهو في ثياب القتال الفرنسية ، اثناء إنزال آب 1944 في جنوب فرنسا .

نادراً ما تكون الجريمة السياسية غامضة بنتيجة الافتقار لتفسير ملائم ؛ وهي تصبح

* الوبهرماخت : الجيش الألماني . (الناشر) .

* رييتروب : وزير خارجية المانيا الهتلرية . (الناشر) .

كذلك دائماً تقريباً بفعل كثرة الحوافز المنسوبة إلى القتل . ينهال على المتوفى ، كفروق النحل المزدحمة ، مغامرون ومتخصصون زائغون ومولعون حقيقيون بالأكاذيب ، وسرعان ما يدفن هديانهم الحقيقة الممكنة تحت فرضيات خرافية متراكمة . هكذا الحال ، وإن بدرجات متنوعة وفي أنواع مختلفة ، مع مقتل كل من جون كينيدي ، ومهدي بن بركة ، وبيار غولدمان ، وجان دوبروغلي .

لم يفلت هنري كورييل من الاسرافات آكلة الجيف . بالكاد كان تم دفنه حين أزهت الاشاعات على قبره . ويمكن إحصاء حوالي عشر دروب يضيع نصفها في الرمل ، فتحتها مكتشفون جسورون لكن رحلتهم قصيرة .

روى صحفي مطرود من اسبوعيتين باريسيتين أن مخبراً أعلمه ، قبل أيام من الاغتيال ، أن مناضلاً يسارياً سوف يلقي حتفه - « شخص يساري ، له علاقة بالكثير من أعمال الخداع ، وبين ما هو على علاقة به لجان الجنود » . وهنري لم يهتم يوماً بلجان الجنود . وحين استجوبت الشرطة الصحفي ، رفض ذكر مصدر معلوماته . الا أنه تم تحديد المخبر . كان قد سافر الى الولايات المتحدة ، حيث كان يعمل لحساب شركة تباع معدات امنية . وقد عثر عليه مجدداً في طهران اثناء الثورة الخمينية ، في محيط وزير الخارجية ، صادق قطب زادة ، الذي جرى إعدامه بالرصاص . وحين تم استجوابه بعد توقيفه في فرنسا بسبب تواطئه في عملية اختلاس مع مدير سابق لل SAC* ، أنكر أن يكون تفوه بالكلام الذي نُقل عنه . أكد أنه « لم يكن يعرف من الذي قتل كورييل ، لكن قبل مصرعه ، كان مهربو الأسلحة والعملاء السريون يتحدثون عن مقتل كورييل الوشيك » . إن الرجل ، المرتبط بأقصى اليمين في اسبانيا ، ينتمي لفئة مهووسي الاعلام ، وهم الجرح الحقيقي للمحترفين يغمرونهم بعماراتهم الاستشباحية .

جرى ذكر اسم غايتان زامبا . كخليفة لآل غيريني على رأس عصابات مارسيليا ، وكمرتبط بالمافيا الصقلية والاميركية ، ثمة من يزعم انه منفذ صفقة معقودة بين ال SDECE** الفرنسية والأمن العسكري الاسباني : مقابل تصفية كورييل تقبل أجهزة الأمن الفرنسية بإغماض عينيها عن اغتيال أعضاء في الايتا*** لاجئين في فرنسا . وقد جاءت كرونولوجيا جنائزية لتعطي هذه الفرضية بعض التماسك . فلقد جرى اغتيال لاجيء اسباني من منطقة الباسك ، في 2 تموز 1978 ، أي بعد مرور شهرين على اغتيال كورييل . ثم تبع ذلك اغتيال

* ال SAC احد الأجهزة الأمنية في فرنسا (م)

** مصالح التجسس ومكافحة التجسس الفرنسية (م) .

*** حركة ثورية انفصالية في الباسك باسبانيا (م) .

سنة آخرين في الأشهر التالية . وقد أعلن أربعة قتلة من بوردو ، جرى إيقافهم ومحاكمتهم بسبب واحدة من جرائم الاغتيال تلك ، أنهم « يعملون » لحساب أجهزة الأمن الأسباني ، ومباركة من أجهزة فرنسية « معروفة جيداً » . وجرى استجواب قاتل آخر ، منهم باغتيال لاجئة ، في دعوى بن بركة بسبب علاقاته بفيغون .

وأعلنت جريدة لوكو تيديان دو باري في 30 حزيران 1981 أن اغتيال هنري كوريل تقرر وجرى إعداده في آذار 1978 خلال اجتماع عقد في ليريدا ، بإسبانيا ، شارك فيه ضابط فرنسي ، وعضو في الأجهزة السرية الاسبانية ، والعديد من قدامى منظمة الجيش السري ، وذلك برئاسة غوميز بونيه ، الملقب بـ « العراب » ، الذي اتهم في قضية الاعتداء على الجريدة النقدية الاسبانية إيل بابوس (قتل وعشرون جريحاً) ، ولكن أعلنت براءته . وقد رأى صاحب مقال الكوتيديان ، أن الرجل الأساسي في اغتيال كوريل ، وكان حاضراً الاجتماع ، هو شخص اسمه مارتين ريبيونييه ، معروف بـ اينياسو سوروزا ستيفي . وحين سأل قاضي التحقيق انتربول مدريد حول الموضوع ، أعلن عدم معرفته بوجود هذا الشخص .

و جرى الحديث أيضاً عن « فرقة الموت » التي زعموا أنه شكلها في تارب ، في ايلول 1977 ، ضباط احتياط كانوا يخشون انتصار اليسار في انتخابات 1978 التشريعية . أوضحت لومانتييه - ديمانش ، في مجال كشفها للقضية ، ما يلي : « على رأس هذه الجمعية يوجد فريق أقل عدداً (عشرات من الرجال ، كلهم من ضباط الاحتياط) يشكلون « فرقة موت » على الطريقة البرازيلية . قد يكون هؤلاء « كوماندوس دلتا » المشهورين ، الذين استعادوا بكل بساطة هذه التسمية لمنظمة الجيش السري . « لما كان رماة البحرية كثيراً في داخل مجموعات دلتا وفقاً للصحفي ، فقد جرى التذكير بشهادة عضو في رابطة الجزائريين في أوروبا كان سمع أحد المحققين يقول ، غداة اغتيال العيد سباعي : « لا جدوى من البحث : هذا أيضاً من فعل رجال البحرية » . يقال إن هنري كوريل كان الثاني على اللائحة السوداء . وفقاً لمعلومات الأسبوعية الشيوعية ، التي استعادت جريدة ليبراسيون وفصلتها ، فإن مغاوير دلتا الجدد جندوا عدداً من متطرفي اليمين الشباب إثر عودتهم من بيروت حيث قاتلوا مع كتائب الجميل . كان النقيب في الدرك بول باريل يعتقد أن كوريل قُتل على يد متطرفين فرنسيين لدى عودتهما من لبنان .

لم أنجُ من الموجة الكاسحة . لقد قال لي موظف في ال DST لا يمكنني أن أصفه بالمخبر - كانت لقاتنا ، المتباعدة جداً ، حوارات طويلة من جانب واحد ، كان يعرض لي خلالها خيالاته المهنية مع إحالات مطبوعة إلى درجات الوظيفة العامة ومؤشراتها - قال لي يوماً بصورة مفاجئة : « بالنسبة لكوريل ؟ قتله شابان من عندنا . نزيف في المخ . لم يكونا تعافيا من شارع تولييه

أخذنا بندقيتهما دون استشارة أحد . » في 27 حزيران من عام 1975 ، كان مفوض في الـ DST ، يرافقه مفتشان ودليل لبناني ، استجوب في أحد مساكن شارع توليه ، قرب البانتيون ، رجلاً كان الثلاثة الأوائل يجهلون أنه كارلوس . وقد توفي المفتشان ، وسقط المفوض مصاباً بجرح خطير ، أما الدليل فتم قتله برصاصة بين عينيه . وقد انضاف إلى ألم الـ DST من جراء فقدتها اثنين من رجالها الغضب الشديد بسبب التعليقات التي تراثي لافتقارها الى المهارة : ليست الأجهزة لطيفة فيما بينها . كان لديها حساب عليها تصفيته . لكن لماذا تصفّيه بعد ثلاث سنوات على ظهر كورييل ؟ لا شك أن الحملة الصحفية التي اثيرت ضد هذا الأخير كانت تربط بينه وبين كارلوس ، ناشرة صورتيهما الواحدة بجانب الأخرى ، لكن هذه الحملة تعود لعام 1976 بينما قتل هنري عام 1978 : لماذا الصبر عامين قبل إرواء العطش للانتقام الذي كان ناتجاً ، حسب كلام محدثي ، عن « نزييف في المخ » ؟

لم يكن يدري أي اشتغل على القضية . وحين عرف ذلك ، غدا يراوغ . وقد بقي صامتاً حين لفتُ نظره إلى أن جملة حول المنتقمين اللذين « اخذاً بندقيتهما » تستحق التحليل . لم يكونا قد اخذا أي بندقيتين . كان أحد السلاحين قد استخدم في قتل العيد سباعي . هل كان لدى الـ DST حساب تصفّيه مع رابطة الجزائريين في أوروبا ؟ كان ذلك آخر موعد فيما بيننا . وكنت قد صدقت ما رواه لي ، أما الآن فلم أعد مصدقاً . إن الـ DST جهاز أمني منسجم ومحكم الاقفال . ليس محكم الاقفال كفاية ، إذ ان زوبعة 10 أيار استطاعت فتح بعض النوافذ . وصاحبي ، الذي كانت وظيفته تتمثل بأعمال كتابية ، إذا كان علم بـ « النزييف في المخ » لزميليه الشاين ، فلقد عرف ذلك آخرون أيضاً . ويبدو لي أن أحداً قد تكلم .

※

※ ※

غايان زامبا ، صحفيون مشكوك بهم ، أوساط مدينة بوردو ، فرقة موت ، مغامرون مصابون بذهان هذيان ، شرطي كالخنكليس* ، « عراب » اسباني ، أجهزة استخبارات وعمل فرنسية أو أجنبية ، خليط لا يُصدّق من الاشاعات ، ومن المعلومات التي لا يمكن التحقق من صحتها ، ومن الهذيان الغريبة : ثمة ما يغري كثيراً بنذ كل هذا الركام . قد يكون في ذلك حكم على النفس بعدم معرفة الحقيقة أبداً . ربما امكن إلقاء الضوء على الجريمة السياسية بصورة أسهل لو كنا إزاء كتاب عدل ومستشارين في مجلس شوري الدولة . إن الزمرة

* سمك هنري (م) .

المقينة أكثر تنوعاً ، حتى اذا كان التوزيع يتكرر من حادثة لأخرى . نجد في قضية بروغلي شرطياً ساقطاً ، وقاطعي طرق ، ومغامرين دوليين ، وأجهزة شرطة ذات دور ملتبس . صحيح أن جان بروغلي كان يعاشر هذه الأوساط المشبوهة . لكن المهدي بن بركة ، الذي يمكن مقارنته أكثر بهنري ، كان ضحية مؤامرة يشارك فيها قطاع طرق من طراز رفيع ، قدامى في الغستابو الفرنسية ومتعاونون شبه رسميين مع الأجهزة الفرنسية ، وزقافي مولع بالكذب لديه اسلاك التقاط في كل مكان ، وصحفيون غير متمسكين كثيراً بآداب المهنة ، ورجلا شرطة مفسّدان ، و « مراسل شريف » لجهاز التجسس ومكافحة التجسس (SDECE) ومن المؤكد أن ثلاثة أجهزة استخبارات على الأقل كانت مشاركة في المؤامرة : إجمالاً نحن أمام النموذج البشري ذاته الذي تستحضره مواطىء القدم المتنوعة في قضية كورييل .

يلزمنا إذن أن نكتشف هذه الغابة ، مهما يكن لقد دخلها أول قاضي تحقيق ، غي جولي ، دون افراط في السرعة ، لكن بتصميم وثبات . كان كليمنصو يقول عن قاضي التحقيق إنه الرجل الأقوى في فرنسا . إنه في كل حال رجل مرهق بالعمل . وقد كان السيد جولي كذلك لا سيما أن اختصاصه كان يتعلق بقضايا الاعتداءات وأن منتصف ولاية فاليري جيسكار ديستان كان يشهد ، بالاضافة إلى نسبة وفيات بواسطة العنف باتت بالغة الخطورة بخصوص الوزراء أو الوزراء السابقين ، ازدياداً هائلاً في الجرائم العنصرية ، وتفجير المكتبات أو مقرات منظمات تقدمية ، والتهديدات بالموت أو محاولات اغتيال شخصيات يسارية .

طبعاً ، كان بإمكان السيد جولي أن يشغل المفزة الجنائية عن طريق الانابة القضائية ، لكن كان واضحاً أن اغتيال هنري كورييل لم يتسبب بنزيف في المخ لدى الشرطة الجنائية . وقد رأينا ذلك بوضوح حين أنبأتهم روزيت كورييل بالتهديدات بالقتل التي كانت تلاحقها بواسطة الهاتف : نصحوها بالاحتفاظ بهدوئها ، مشيرين الى صعوبة القبض على افراد يخابرون من كابينات عامة . وقد أعلمتهم روزيت بخبر جيد ، مفاده أن المخابرات أجريت من مكان خاص لأنها كانت تسمع الى جانب الصوت اسطوانات موسيقى عسكرية أو أناشيد نازية . فكان الجواب أن النقص في عدد الموظفين يمنع من اتخاذ التدابير المناسبة . إن الشرطة الجنائية ، التي لم تبحث اطلاقاً عن مكبرات صوت في شارع رولين وامتنعت عن استجواب السيدة ل واظبت على احتقارها لإمكانات الايليكترونيك . وفي 14 آب 1980 ، انفجرت قنبلة حارقة موضوعة أمام باب روزيت كورييل ، فأتلقت شقتها وكادت تحرقها حية . وقد غيّرت المسكنة مسكنها ، فيا لها من تقاليد غريبة لبلد ديمقراطي حيث ينبغي لأرملة رجل مقتول أن تترك بيتها سراً وتعيش باسم مستعار كي تفلت من قبضة الاضطهاد ، وربما الموت . . .

لقد أحدث العاشر من أيار ثورة . فلقد أعلم الوزير الأول ، بيار موروا ، قاضي التحقيق جولي ، بواسطة رسالة مؤرخة في 19 آذار 1982 ، بأن الملفات المتعلقة بكورييل ، الموجودة بحوزة الـ SDECE والـ DST ، سوف توضع تحت تصرفه . في حال كان تسليم بعض الوثائق يعرض الأمن الوطني للخطر ، يكون من اختصاص وزيرى الداخلية والدفاع أن يحكما في الموضوع . في الواقع ، يمكن أن يقرأ القاضي كل شيء ، لكن يمكن أن يعارض الوزير ألوصي على كل جهاز تحويل بعض الوثائق الى الملف المعد ليصبح علنياً . وكان إجراء مشابه قد سرى على ملف بن بركة .

كان القرار تاريخياً . فأكثر من مرة ، قام فيها « الرجل الأقوى في فرنسا » بما يسمى انتقال المحكمة ، رده على اعقابه بفظاظة بواب الـ SDECE فملفات هذا الجهاز كانت عصية المنال ؛ ولم تكن الـ DST تسلم من ملفاتها إلا ما تود أن تسلمه . فالأجهزة التي تضع نفسها فوق العدالة ، كانت تعتبر أنه ليست لديها حسابات تقدمها لها ، وتتحصن بفعالية خلف « الدفع بالسرية » . فحين استدعى السيد جولي السيد دومارانث ، مدير الـ SDECE أجابه هذا بوقاحة أن التزاماته تمنعه من ذلك وأنه ليس لديه ، في كل حال ، ما يقوله له . أما السيد شاليه ، مدير الـ DST ، فوافق على الذهاب للمرة الأولى الى مكتب قاضي التحقيق في 6 أيار 1981 ، بين دورتي الانتخابات لرئاسة الجمهورية . كانت رسالة السيد موروا تعادل اجبار بعض الأجهزة على الدخول مجدداً الى نطاق القانون ، في حين تود أن تعمل على هوامشه . وبالتأكيد ، فإن تنفيذاً جيداً للقرار الحكومي كان يفترض النية الحسنة لدى المعنيين . فإذا سحب هؤلاء من ملفاتهم أهم ما فيها من المستندات قبل إخضاعها للفحص ، تكون النتيجة فاشلة .

كانت الـ SDECE قد أصبحت DGSE ، لكنها بقيت بلهاء : لقد سلّمت ملفاً مهزولاً . أما الـ DST فنفلت المطلوب منها في الظاهر . وبما أن مقدماتها الوفيرة كانت تضم عدداً من التقارير التي سبق ان حولتها اليها الـ SDECE ، والتي لم تكن موجودة في ملف الـ DGSE فلقد جرى التثبت من سوء نية هذه الاخيرة . إلا ان مديرها الجديد ، الاميرال لاكوست ، محا الانطباع السيئ باتصال جدي .

ان القاضي فرلين ، الذي خلف غي جولي في مهمته ، رجل لديه زحمة عمل . فحتى اليوم الذي نكتب فيه هذه الأسطر (15 كانون الثاني 1984) لم يفتح بعد الملفات الضخمة التي وضعت تحت تصرفه قبل عشرة اشهر .

للتاريخ اكثر من حيلة خبيثة في جعبة مكره. وهو سوف يتعرج الى حد إثارة اشمئزاز هؤلاء الشبان الذين كان قد سرهم انهم وجدوا له اتجاهها مستقيماً في ترجمته الماركسية ، وسوف يجعلهم يكتشفون ان طريقاً رئيسية واسعة يمكن ان تنتهي الى مأزق . انه يجعل هؤلاء الشجعان الذين احتدمت قلوبهم فجأة حبا بالشعب المتألم الذي طالما اقتربوا منه دون ان يروه ، يفكرون بالطلاق قبل الزفاف .

ومع ذلك ألا يظهر الخيار السياسي للمرة الاولى ، ذا بساطة توراتية ؟ حين يكون المرء يهودياً وشيوعياً هل يمكن تصوّر ألا يتمنى هزيمة العنصرية الفاشية . ؟ وحين يكون حلم بفرنسا الى هذا الحد ، هل يمكن أن يشهد أشد هزائمها غرابة دون ان يرتجف ؟ حين يعلن ونستون تشرشل بصوت جاف ان شعبه سيقا تل حتى آخر نقطة دم ولن يستسلم هل يمكن ان يوجد انسان واحد في العالم مشغوف بالحرية لا يقف الى جانب قاذفات اللهب السيتفاير ضد الميسر شميدت ؟ كان لدى راوول وهنري كورييل رد الفعل ذاته الخاص بصديقهما بوانتيه . منذ اعلان الحرب ضد المانيا ، حضرا الى القنصلية الفرنسية للتطوع . وقد جرى تسجيل اسميهما بصورة متعالية وإخطارهما في الوقت نفسه بأن الجيش الفرنسي سيستغني على الأرجح عن اسهامهما . وهو ما حصل .

لقد أذهل حزيران 1940 العقول وعذب القلوب .

كان ألبر أربييه في العاشرة من العمر . وقد كان جده لأبيه من القسطنطينية . أما الفرع من جهة الام فكانت جذوره في روسيا ورومانيا . يتذكر كيف ان « القلق الشديد حل في البيت ما ان بدأ الهجوم الألماني في ايار 1940 . كان ذلك غير ممكن الاحتمال تقريبا . وقد كان يوم احتلال باريس يوم حداد . حل الهمس محل الكلام بصوت عال كما لو ان احد افراد العائلة قد داهمه الموت . ثم في 18 حزيران ، وبينما كنت ابدل المحطات في جهاز الراديو الخاص بي من نوع جنرال الكتريك ، وقعت صدفة على نداء ديغول . وقد اصغينا اليه ولدينا انطباع بأننا نشهد معجزة . كان شيئاً يشبه القيامة . لا احد يستطيع ان يفهم اليوم ما كان يعنيه ذلك بالنسبة الينا . لقد عدنا للحياة . طيلة الحرب ، كنت اصغي للفرنسيين الاحرار في إذاعة لندن . كان موريس شومان يتكلم في العاشرة والنصف ليلاً ، في حين يصرخ بي الأهل بسبب المدرسة في الغد . إلا أني ما كان يمكن ان أدعه يفوتني لقاء أي شيء في العالم . كان جندي فرنسي أعطى والذي صليب اللورين ، وقد وضعته في عروتي حتى النصر » .

غدا الاتحاد الديمقراطي أحد أرفع مقامات الرجاء . لقد تم تأسيسه عام 1939 بهدف انشاء تجمع واسع معادٍ للفاشية . وكان بين مؤسسيه راوول كورييل وجورج بوانتيه ومارسيل

اسرائيل (تأسست الجمعية غداة اللقاء السلبي بين اسرائيل وجاك - ديكومب). وكان معهم الايطاليان المعاديان للفاشية ساندروروكا وباجيلي، والشيوعي اليوناني كيبريو، والاستاذ المصري احمد الأهواني. وقد انضم هنري كورييل لكنه رفض عضوية اللجنة القيادية. استأجر الاتحاد مقراً فسيحاً (قدّم المال اللازم دانييل كورييل) مع قاعة محاضرات تتسع لأربعمئة شخص، وصلات اجتماعات، ومكتبة، الخ. ولقد كان النجاح فورياً وكاملاً.

شارك هنري أيضاً في تأسيس جمعية الصداقات الفرنسية. وكان الهدف إنعاش الشعلة المترجحة للوطن الفضل، والدفاع عن ثقافته في حين انقطعت الروابط المادية لزمن غير محدد، ودعم الجبارة الذين يناضلون من اجل تحريره. لم يظهر مشروع ديغول لأي كان وهمياً او غير ذي جدوى. فالجنرال المتوحد، والمفتقر الى الامكانيات، واللاجيء في الخارج، يتحدث عن فرنسا تدهش 40 مليوناً من الفرنسيين باستثناء عدة آلاف تقريباً، لكن بين هؤلاء الاربعين مليوناً بالطبع اولئك الاجانب الغربيون الذين إذ يرونها من مكان بعيد يرونها افضل على الاربع. وقد استقرت في القاهرة بعثة ديغولية فرنسية بقيادة جورج غورس. اشتغلت فيها روزيت، كورييل نصف دوام، على أساس أن النصف الثاني من يومها كان مكرساً لمكتبة الرونبوان.

كانت «الرونبوان»، كما يقولون بسرعة بالغة في القاهرة، المبادرة الثالثة لهنري كورييل خلال عدة اشهر. كانت محل قرطاسية ومكتبة واقعة في وسط المدينة الاوروبية، مستديرة مصطفى كمال، بجانب مخزن والد البر أرييه (بعد عدة كوارث تجارية، جاءته فكرة فتح دكان ادوات رياضة، وقد ازدهر عمله كثيراً بفضل تدفق الجنود البريطانيين).

كان فرع القرطاسية مخصصاً بوجه خاص لطمأنة دانييل كورييل. فهو كان قد قدم الأموال بنيتي الحصول على ريع من جراء استثماره. أما بالنسبة لابنه هنري، فالتجارة المضجرة لأقلام الحبر ومواعين الورق لم يكن يبررها الا امكانية تقديم مؤلفات سياسية في المكتبة لا يمكن العثور عليها في القاهرة. وينبغي اخذ كلمة «تقديم» هنا حرفياً لأنه كان لدى المستخدمين تعليمات بغض النظر بحياء حين يستعد شاب ذو مظهر متواضع لنشل كتاب مطلوب. وهذا يعني ان الجو كان بالأحرى جوصالون ملتزم او نادٍ يساري اكثر مما هو جو مؤسسة تجارية. وكان دانييل كورييل يحب ان يأتي للجلوس هناك بعد عمله الصباحي في المصرف، وكان عماء يوفر عليه اكتشاف عناوين واسماء مؤلفين لا بد أنها كانت صدمته، او الانتباه للحركات الخفية لسارقي الكتب، التي كانت صدمت استقامته المالية. فضلاً عن ذلك، كان سعيداً لأن الكثير من الضباط والجنود البريطانيين كانوا يترددون على المكتبة، وكان يسره أنه اتاح فتح مكان جديد مناسب لقضية الحلفاء. كانت فيلا الزمالك تستقبل كل من يحضر من الضباط الانكليز، وكل أحد كان دانييل وزفيرا يقيمان في البساتين حفلة شاي راقصة لمئتين الى ثلاثمئة جندي يغدق

عليهم التدليل فينسون قساوة الحرب بين ذراعي فارسات جميلات تقدمهن بوجوازية القاهرة الفضلى . كان كل ذلك يكلف الكثير لكن دانييل كورييل لم يكن ليهتم بالمصاريف في حين يدفع رومل دباباته باتجاه النيل .

كانت الطائفة اليهودية تعرف أن مصيرها الخاص ، اذا لم يكن مصير العالم ، يتوقف على المعركة الحاسمة التي قد تضع فيالق رومل الافريقية بمواجهة جردان الصحراء الخاصة بمونتغمري ، تحت اسوار القاهرة .

*

* *

كانت مصر تراهن على رومل ، وكان الكثير من المصريين يتمنون انتصاره .

ان « الوفد » التاريخي الذي قاده سعد زغلول في 13 تشرين الثاني 1918 للمطالبة بالاستقلال ، كان قد أصبح بسرعة اقوى حزب في البلد . حزب قوي لكن متعدد العناصر ، لا يشجع التحليل السياسي بسبب تناقضات كثيرة الى حد أنه يمكن تحديده بمجموع تلك التناقضات . هو في أيدي الملاكين العقاريين والجماهير تعرف الى نفسها فيه . يطرح نفسه على انه الخصم اللدود لانكلترا ، إلا أنه حاصل على الرضى السري لوزارة الخارجية البريطانية ، التي تفضل هذا المحاور الممتلئ التباسات مُطمئنة على حركة قومية صرفة وصلبة او على حزب اشتراكي يعيد النظر ببنى اجتماعية ملائمة للمصالح الانكليزية . ثمة انشاقات مستمرة تقتطع منه دون ان تخدش هويته المرتبكة . يتخبط دائماً في عصيدة غير مشهية من بيع النفس والابتزاز لكنه ما من فضيحة تفسد ثقة الشعب به . غالباً ما جرت مقارنته بالحزب الراديكالي الفرنسي ، الذي يختلط تاريخه بتاريخ الجمهورية الثالثة .

يلاحظ جان وسيمون لاكوتور بحق أن الحزب الراديكالي لا يمثل مورّاس Maurras وجوريس في حين يدمج الوفد كامل مصر ويحسدها . في الواقع فان اسمه يعرض الظاهرة السياسية أفضل من التحليل الأكثر دقة : يبقى الوفد رغم كل شيء « وفد » شعب يتوق الى الاستقلال .

بالرغم من ذلك ، ولما كان تحت الوصاية الوثيقة للملك فؤاد ، صاحب السلطة المتشككة ، فهو لم يمارس السلطة الا سنتين ما بين 1923 و1936 . إلا أنه يبقى رغم كل دسائس الملك فؤاد ويلعب دوره بحذق في المعركة المثلثة التي تضعه بمواجهة القصر الملكي ودار المندوب السامي الانكليزي . عام 1936 ، توفي فؤاد وصعد ابنه فاروق الى العرش . وقد حاز الوفد نجاحاً منقطع النظير في الانتخابات التالية وشكّل الحكومة . وفي العام نفسه ، فاوض انكلترا بصدد

معاهدة تلغي الآثار الأخيرة لنظام الحماية البريطانية . وقد أطلق توقيع المعاهدة العنان لحماس غير متناسب أكد ثقة الشعب المطلقة به وكشف بصورة غريبة كم كانت لندن على حق في اختيارها لخصمها المفضل : فالوفد وحده كان يمكنه جعل الشعب يستقبل اتفاقاً على انه انتصار باهر ، في حين ان هذا الاتفاق لا يلحظ الانسحاب الفوري والكامل للقوات المسلحة البريطانية بل فقط انكفاءها الى منطقة الفتح : مع الأذن لها باعادة الانتشار في حال حدوث ازمة دولية . هذا ، في أفضل الأحوال ، هو الاستقلال ضمن التبعية . وقد تظاهر الوفد بجهل هذه الاحتمالات واحتفل وسط الكثير من الجلبة بـ « معاهدة الشرف والاستقلال » . وإنه لفتح حقيقي ، هذا الفتح : لقد جرى الغاء نظام الامتيازات الأجنبية القديم والمذل . ولقد كان يجري الشعور بالعار بسببه الى حد بعيد لا سيما انه كان يثقل كاهل مصر وحدها ، حيث ان كل الأمم الأخرى في الامبراطورية العثمانية القديمة خلعت عنها ، الواحدة بعد الأخرى ، هذا النير الموروث من الأزمنة القديمة . فمع تطبيق النظام الجديد (سيتطلب عدة سنوات) سوف تطبق العدالة المصرية على الجميع من دون تمييز او امتياز . والأمر يعني اكثر بكثير من كرامة أساسية مستعادة : لم تحز مصر السيطرة على تشريعها المالي إلا مع إلغاء نظام الامتيازات .

بعد ان مر الفرع العام ، لزمّت رؤية الانكليز حاضرين أبداً ، أكثر حضوراً مع إعلان الحرب الذي اعادهم الى المدن ، حاضرين اكثر من أي وقت مضى حين أدّت الهجمة الجرمانية - الايطالية لأن يتوجه الى البلد من اكثر من حذب وصوب قرابة مليون جندي ومستخدم وموظف آتين من كل الكومنولث . شعرت مصر بأنها لم تكن يوماً خاضعة للاحتلال قدر ما هي حالها مذ حصلت على الاستقلال . وكان هذا شعوراً كريماً .

هذه الحرب ليست حربها . كان القصر الملكي والطبقة السياسية يقاومان كل الضغوط التي تمارسها لندن لاجبارهما على اختيار معسكرهما (لن تعلن مصر الحرب على المانيا الا في شباط 1945 ، قبل شهرين من انتصار الحلفاء . . .) . بعد أن صرف الملك الوفدين مرة اخرى ، سلموا السلطة للحكومة يمينية برئاسة علي ماهر .

وقد ساعدت هذه الحكومة بقدر استطاعتها قوات المحور . وحين انتقلت قوات موسوليني الى المهجوم ، عبّر رئيس الوزراء السابق اسماعيل صدقي عن الشعور العام بقوله : « ليس الهجوم الايطالي اعتداء موجهاً ضد مصر ، بل ضد محارب آخر على أراضي دولة ثالثة محتلة » . لا يمكن ان يكون ثمة وضوح اكثر من هذا .

أما الانكليز الذين سئموا كل ذلك ، فقد فقدوا صبرهم في الأخير . هكذا في 4 شباط 1942 ، طوقت دباباتهم القصر الملكي ، ومدافعها موجهة ، ووضع السفير الانكليزي الملك

أمام الخيار الجاف التالي : إما أن يعين حكومة موالية للحلفاء أو يفقد عرشه . للمرة الأولى ، ليس الإنذار ناجحاً عن الغطسة بل عن نوع من الذعر . فرومل قد نزل في أفريقيا على رأس قواته الأفريقية . إن القيادة البريطانية ، بمواجهة عدو مقاتل من نوع غير ذلك المتمثل بالخصم الايطالي ، ترفض المخاطرة بالقتال وفي ظهرها تهديد محتمل بانتفاضة موالية للامان في القاهرة . لقد وصل الأمر الى هذا الحد . وبعد وقت طويل ، سوف يكشف الماريشال الانكليزي ويلسون في مذكراته مدى شعوره بالمفاجأة ، غداة معركة العلمين حين اكتشف ضمن ملفات القيادة الايطالية المنهزمة خطط الدفاع البريطانية التي سلمها بذاته لرئيس الأركان المصري . . إن رئيس الأركان هذا ، الجنرال عزيز المصري ، أظهر في كل حال ميوله الحقيقية حين استقل الطائرة محاولاً الالتحاق بالعراقيين الموالين للنازيين ، بزعامة رشيد عالي الكيلاني ، وذلك بتأييد ضمني من الضباط المصريين .

رضخ فاروق وشكّل حكومة وفدية موالية للبريطانيين . لا الملك ولا الوفد سوف يتعافيان من آثار ذلك . طالما جرى الحديث عن هيئة الوفد العظيمة : هذه الهيئة فسدت الى الأبد . ولم تكن شعبية الملك أقل .

كان في ريعان الشباب ، بهياً ، وورعاً ، وصعد الى العرش وسط حماسة الشعب . كانت اعياد التتويج قد جعلت مصر تطير من الفرح (تتذكر ليديا ألوني الاستقبال الباذخ ، وكانت دعيت الى القصر مع والدها المحامي ، فتقول : « كان فاروق في مقتبل شبابه ، في سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة ، وكان جميلاً كإله . وقد قُدّم الطعام والشراب في آنية من ذهب ، وقُدّمت منوعات مسرحية فرقة الكوميديا الفرنسية الآتية من باريس » . لقد طبع الرضوخ للأمر الانكليزي على وجه الملك لطخة لا تزول . سوف يكتب السادات بعد 35 عاماً : « إنه تاريخ لن يستطيع جيلنا أن ينساه أبداً » . قدّم العديد من الضباط المصريين المجروحين في كرامتهم استقالتهم للملك ؛ وكان من بينهم رائد اسمه محمد نجيب . كتب النقيب الشاب عبد الناصر الى صديق له : « ما العمل بعد هذا الحدث المؤسف الذي قبلنا به بخضوع هو مزيج من الطاعة والمهانة ؟ في الحقيقة انه ليس لدى الاستعمار غير ورقة واحدة لارهابنا ؛ لكن يوم سيشعر أن المصريين عاقدون العزم على تقديم أنفسهم أضحية سوف ينسحب مثل جبان رعديد يدعي الشجاعة » . وفيما بعد ، حين اصبح عبد الناصر سيد مصر ، علّق كما يلي : « أيقظ انقلاب 4 شباط بعض الخاملين من سباتهم وعلمهم أن ثمة كرامة ينبغي الدفاع عنها مهما غلا الثمن » . هذه التشنجات الغريبة بعض الشيء بالنسبة للقارئ الأوروبي اليوم (ماذا ! ألم يكن يدرك هؤلاء الناس أن الحضارة والحرية في خطر ؟) عبّرت عنها مذكرات انور السادات بسذاجة تكشف راحة ضميره . لا بل إن هذا هو المقطع

الوحيد في الكتاب الذي لا يحس فيه القارئ أن المؤلف يستبسل في تجميل صورته الذاتية - وهو كتاب كتبه السادات بعد الرحلة المشهورة الى اسرائيل التي صنعت منه نجماً عالمياً وما يشبه رسول سلام يوقره مئات الملايين من الناس ، حيث يقدم نفسه ، بثقة بالذات ، كما لو كان فني طبيباً مهتماً بمنفعة الغير ويرزح تحت ثقل الأحماد والسلطة لأن أحرَّ رغبة لديه أن يعود فيزرع الأرض في قريته التي ولد فيها . إلا أن السادات الذي كان يعرف أن المشروع الهتلري ترك ذكرى موضوع جدال ، يتخلى هنا عن أي اهتمام بصورته المميّزة: يكشف بصراحة ما بذله من جهود لظعن الحلفاء في الظهر وفتح أبواب القاهرة للأفريكا كوريس* . لقد قرر هو وفريق من الضباط المصريين - « الضباط الأحرار » فيما بعد ، الذين سيكتشفهم العالم بعد عشر سنوات حين سيطيحون فاروق - الانتقال الى العمل . جرى تحرير مشروع معاهدة لعرضها على رومل يتعهد بموجبها المتآمرون بأن يدخلوا الحرب الى جانبه ولا يتركوا جندياً انكليزياً واحداً يغادر القاهرة مقابل الضمانة الألمانية لاستقلال مصر . وأرفق مشروع المعاهدة بهدية ترحيب : صور المواقع الانكليزية في العلمين . وقد عُهد بكل ذلك الى طيار مصري اسقطت طائرته ، لسوء الحظ ، الفلاك الألمانية بالرغم من الاشارات الودية التي كانت تطلقها الطائرة ، بحيث ضاعت المحاولة في الرمال . وهو ما لم يمنع السادات من شراء عشرة آلاف قنينة فارغة لصنع كوكتيل مولوتوف ، ومن الدخول في محادثات مع جاسوسين نازيين كانا يأويان الى مركب راس على شاطئ النيل ، داخل القاهرة ، حيث كانا يعيشان حياة رخاء بفضل احتياطي لا ينفد من الليرات الاسترلينية المزيفة . وقد اقترح السادات اصلاح جهاز الارسل المعطل الخاص بهما ، مأخوذاً بفكرة ان يتمكن هكذا من الدخول في اتصال مباشر مع رومل ، لكن جهاز مكافحة الجاسوسية الانكليزي سوف يفاجئه ويعتقله هو والألمانيّين . وهي مصادفة تستحق المشاهدة لكنها غير مفاجئة كثيراً اذا أخذنا بالاعتبار ان الأسباب نفسها تنتج النتائج نفسها : ففي فلسطين الواقعة تحت الاحتلال الانكليزي ، ميّز الصهيوني ابراهام شترن ، مؤسس الفريق الارهابي الأنشط ، بين الخصم الانكليزي والعدو النازي : « الخصم هو دولة أجنبية تسيطر على أرضنا وتنكر على الشعب العبري استقلاله في وطنه . أما العدو فهو ذلك الذي يكره اليهود ، هو ذلك الذي يطاردهم ويقتلهم حيث يجدهم ، والذي يرغب في القضاء عليهم » . لكن شترن يلاحظ ما يلي : « إن الحق الذي يكتنه لنا العدو إنما يمارسُ بفعل التبعية التي يبقينا الخصم فيها . فلو ان هذا الأخير لم يكن يمنحنا من أن نتصرف بوطننا على أساس السيادة ، لكان بإمكاننا ان نستقبل فيه كل اليهود الذين يهددهم العدو وننجيهم من حقه القاتل . هكذا فإن واجبنا الأساسي هو مقاتلة الخصم

* الأفريكاكوريس : قوات المحور بقيادة رومل في شمال افريقيا المعروفة باسم الفيلق الأفريقي . (الناشر) .

وتحرير وطننا . ولبلوغ ذلك ، علينا أن نستخدم كل الوسائل ، بما فيها التحالف مع عدونا اذا كان هذا الأخير عدواً لخصمنا في الوقت ذاته » . وعلى أساس هذا الاستدلال المتجاسر ، بعث شترن برسول الى من سيكونون فيما بعد أصحاب مصانع اوشويتز وتريلينكا يعرض عليهم « مشروع معاهدة بين دول المحور وحركة التحرر الوطني العبرية في فلسطين . بموجب هذا المشروع ، يكون على الايرغون (الجيش السري اليهودي) ان يكتف جهوده الحربية ضد بريطانيا العظمى مقابل الاعتراف الرسمي من قبل الأطراف الأخرى بحق الشعب العبري في إقامة دولة سيده في فلسطين⁽¹⁾ . . . » إلا أن العرض لم يُلَقَّ الاستجابة .

القاهرة هي إحدى العواصم الكبرى التي يُلَعَّبُ فيها دائماً قسم من الدراما السياسية العالمية ، مع أزمته حادة ، كما الحال في ذاك الصيف من عام 1942 ، تستقطب الانتباه الدولي باتجاه المسرح المصري . لكنها كذلك قرية ، او اذا شئنا ، واحدة من تلك المدن الريفية التي يعرف كل ساكن فيها كل العالم ، بحيث ان الحدث الأكثر إذهالاً بالنسبة للخارج ، يعيشه ممثلوه بالطريقة الحميمية ، يندمج بالمحليات ، يحتفظ تحت مظاهره الفظة بنوع من اللفة التي تنتزع منه الكثير من الحدة .

إن حادثة عميلي رومل النازيين موجودة في كل قصص الجاسوسية - كان الرجلان انجزا فتحاً حقيقياً إذ قطعاً آلاف الكيلومترات في الصحراء ، متخفين في صفة ضابطين بريطانيين ، قبل أن يظهر في القاهرة . لقد كانت شقيقة ديدار روسانو ، رفيقة نضال هنري كورريل الأكثر إخلاصاً ، على متن مركب النيل في كل لياليه المجنونة . كان أحد الجاسوسين يعشق ساقية في نادي الكيت كات حيث كانت تعمل ليديا الجميلة ، حبيبة هنري القديمة . وكان فؤاد حبشي ، النصير الدائم لكورريل ، رقيقاً ميكانيكياً في سرب ذلك الطيار الذي كلفه السادات واصدقاؤه بأن يحط خلف الخطوط الألمانية . هذه التعقيدات المصرية بصورة نموذجية لا تلغي بالتأكيد التعارضات لكنها تلطفها . (فالعدو الألد ، الذي يثير الذعر ويولد الحقد ، هو دائماً العدو الذي لا وجه له) .

من لم يكن يراهن على هزيمة الحلفاء ؟ كان الخبراء وحدهم يشعرون مسبقاً بأن الزنبرك الألماني مشدود الى حد المخاطرة بالانقطاع . لقد بلغت الامبراطورية الألمانية ذروتها في ذلك الصيف من عام 1942 ، ولم تكن المانيا ظهرت يوماً قريبة الى هذا الحد من الإمساك بالعالم في قبضتها . ففي الاتحاد السوفياتي ، حطَّم هجوم الويهرماخت خاضرة الجيش الأحمر ، وتمتلك فرق الهجوم بقيادة الماريشال فون كلايست رأس جسر شرقي نهر تشيرك في القوقاز ، العائق

(1) ناتان يالين - مور ، اسرائيل ، اسرائيل . . . مطابع النهضة ، ص 92 .

الأخير قبل نفط باكو . وفي مصر ، كانت الأهرام هي الهدف الذي وضعه رومل نصب عينيه وكان يُعدّ المهجوم الأخير الذي سيفتح له القاهرة والسويس - « الفتح الأسمى » كما كتب في دفاتره . اندفاعه أخرى ويرى العالم المذعور نجاح ضربة البوكر الاستراتيجية الأكثر اسطورية في التاريخ العسكري الحديث : طليعة جيش فون كلايست تصافح كشافي رومل في مكان ما لجهة بغداد .

كانت القاهرة على حافة نوبة الأعصاب . فلقد قصفت اللوفتواف* ليلاً الثكنات الانكليزية في وسط المدينة حيث يقوم اليوم فندق هيلتون . في النهار ، كان سيل لا ينقطع من الجنود والمعدات العسكرية ، متجة الى الجبهة ، ينساب من الشرق الى الغرب على امتداد الشوارع الكبرى . وفي الضواحي ، كان الناس العاديون يخرجون الى الشارع ويتظاهرون وهم يصيحون : « الى الامام يا رومل ! » . راحت السفارة البريطانية تحرق ارشيفاتها ، مغطية المدينة بالرماد المنذر بالهزيمة . كان القلق الشديد يسيطر على الطائفة اليهودية . فكل أولئك الذين ناضلوا من اجل قضية الحلفاء - وفي الطليعة اعضاء الاتحاد الديمقراطي - يسمون ما يعنيه بالنسبة اليهم الوصول المظفر للجنود الهتلريين . وقد قررت السلطات الانكليزية ، الرعاية للخطر ، تنظيم اجلاء الناس الأكثر عرضة للتهديد ووضعت تحت تصرفهم عدة قطارات خاصة وُجهتْها فلسطين . ويا له من مأزق رهيب : هل يجب الهرب من اعمال انتقام ممكنة او البقاء والرهان على انتصار مونتنومري ؟ غالباً ما يتم الاختيار تبعاً لتفاهات مؤثرة . فلقد رفض والد ألبر أرييه مغادرة حي له فيه عاداته . ولقد كانت الحقائق قد أقفلت لدى آل بلو حين رفض الأولاد الثلاثة ترك كلبهم الذي لم يكن مسموحاً بصعوده في القطار الخاص : هكذا تقرر عدم الرحيل . ولدى آل اسطمبولي ، الذين ذعروا وهم يرون الجنود الانكليز في ثكنة مجاورة يحرقون حبلاً من الأوراق ويمضون ، يتقدمهم علم بلادهم ، بخطوات موقّعة باتجاه فلسطين ، جمع الوالد عائلته وأعلن : « أنا عام ، ولديّ دعاوى جارية ولا استطيع التخلي عن زبائني . لكن هذه جوازات سفركم . امضوا الى دمشق . الا أن أحداً لم يرحل . مع ذلك يتذكر ريمون اسطمبولي : « الجبن الكبير في حياتنا » .

لكن الألوف تكدسوا في المقطورات المنقذة .

ولقد رحل راوول كوريل وريمون اغيون بصورة رسمية للغاية . وكان على روزيت ، الحاملة للجنسية المصرية ، ان تتظاهر بأنها ملحقة بالجيش اليوناني كي تتمكن من ركوب القطار . ارتدت الزي العسكري على مضض لكنها ظلت تضع في قدميها حذاء من جلد الحية ورافقها الى المحطة احد الخدم حاملاً حقيبة ضخمة ملأى بالألبسة . يا لها من رحلة كابوسية وسط البق

* اللفتواف : سلاح الطيران الألماني (الناشر) .

المتكاثرة ، وقد حدث تأثر شديد على حدود فلسطين حين طلب رقيب انكليزي أوراق الجندية ذات القدمين المدهشتين . لكن هذا الرقيب هو سام باردل ، الضيف المثابر على الحفلات الراقصة في الزمالة ! نظر بمودة الى رفيقة روزيت ، هنرييت ، ابنة عم ألبراربييه ، المستخدمة في مكتبة الرونوبان ، التي اقترن بها فيما بعد : هذه هي مصر .

كانت رحلة مارسيل اسراييل مضطربة . فلقد كان تعرض للتوقيف قبل أشهر بسبب « نشاطات شيوعية » . ولقد كانت دهشته كبيرة ، لأن حسني العرابي ، الأمين العام القديم للحزب الشيوعي عام ١٩٢٠ ، الذي تحول الى عميل نازي ، تعرض للتوقيف معه . فلقد كانا يقطنان في المبنى ذاته . وفي حين أخلي سبيل رفاق اسراييل بسرعة ، فلقد جرى نقله الى معسكر اعتقال بسبب جواز السفر الايطالي الذي كان يجعل منه مواطناً لبلد عدو - نتيجة عكسية لنظام الامتيازات الأجنبية ولقد تدخلت البعثة الفرنسية لأجل اخراجه من هذه الورطة . واضطر مساعد جورج غورس أن يكفل شخصياً لدى السلطات البريطانية عدم نزول عميمه من القطار قبل المحطة الأخيرة في القدس . كانت رحلة صعبة لأن جاسوساً نازياً تسلل الى الموكب وأخطر اللوفتواف بواسطة إشارات ضوئية .

هكذا اضطر القطار ، الذي كان يطارده اليونكرز ، لأن يُمضي يومين لبلوغ القدس بدل ليلة واحدة . وعند فجر اليوم الثاني ، بدت وسط الصحراء رؤيا سوريالية لفرقة من الاقزام بقيادة عريفين انكليزيين اشقرين وكبيري الجثة . وقد بقي اسراييل عاماً ونصفاً في فلسطين في حالة الفقر المدقع . وقد فوجئ بعد أشهر من وصوله ، بتلقي حقيبتين كبيرتين محشوتين بالألبسة الولادية ، أرسلهما هنري كوريل ، الذي كانت علاقته به قد أصبحت متوترة . هذه هي مصر . لكن الألبسة تناسب ولداً عمره عشر سنوات في حين لم يكن ابن اسراييل قد بلغ العام . هذا هو هنري . « بعت الرزمة على امتداد اسبوع عند باب يافا . كنا في حالة البؤس الشديد ، جائعين حقاً ونحن كنا نجلس الى المائدة ، كان بيني وبين زوجتي الاتفاق التالي : إذا قطع أحدهما فالآخر هو الذي يختار . لقد أتاح لنا هنري أن نأكل » .

هيلل شوارتز ، هو الآخر ، اعتزل في القدس .

ومن في وسعه ان يأخذ عليهم انسحابهم الاستراتيجي ؟ كانوا قاتلوا لو جرى تسليمهم بنادق ، لكن الجيش البريطاني لا يطوّع الناس في مصر . لماذا يتركون القوات الألمانية تنصب لهم الفخاخ ليقعوا فيها بصورة بلهاء ؟ لم يكن رومل بالنسبة اليهم الضابط الشهيم الشعبي للغاية لدى جرذان الصحراء الى حد أن هيئة الاركان الانكليزية اعتقدت ان من واجبها اصدار مذكرة خدمة توصي بعدم ذكر اسمه من ذلك الحين وصاعداً : كان الذراع المسلحة للعنصرية القاتلة ، الفصيل الرائد لأمثال ايخمان وباربي . قبل الهجوم مباشرة ، جاب الأميرال كانا

ريس ، قائد الأبوهر ، وكان قومياً المانياً من المدرسة القديمة ، جاب افريقيا ليعطي رومل ما كان يسميه « درس أشياء » : في هذه الحالة ، كان الأمر يتعلق بأن يضع امام عينيه وثائق تكشف هول معسكرات الإبادة .

لقد رفض الجنرال المشهور ، الذي سيكون موضوع اسطورة بعد الممات لا أساس لها من الصحة تظهره على انه بطل مناهض للنازية ، رفض الوثائق مكتفياً بالقول : « انا جندي وأقوم بواجبي كجندي » . ولو كان انتصر في القاهرة لما كان اعتبر أن من واجبه كجندي الوقوف ضد رحيل السفن الى أوشويتز .

لكن الهجرة الى القدس كانت تكرس بصورة مأساوية وضع الغريب - ولا تعود تلك قصة جواز سفر مسحوب باليانصيب . لما كانوا ثورين بنتيجة تفكير وشغف ، كانوا قد نذروا حياتهم لمصر : ها هم يغادرونها في مقطورات المحتل المقيت ، وبحمايته . ثم إن قطار القدس هو بالنسبة لمصريين قطار المتعاونين مع العدو .

لقد قرر هنري كورييل البقاء في القاهرة .

*

**

كان اختياره يأتي من بعيد .

فعام 1936 ، ومع بدء المفاوضات الدولية حول نظام الامتيازات للأجانب ، كان البعض قد شعروا ان الريح تغيرت . هكذا فان ريمون اسطمبولي ، الذي كان يكسر في السابق المصابيح ساخراً من رجال الشرطة على أساس تحصنه في امتياز كمستفيد من «الحماية» ، بدأ يأخذ دروساً في العربية وفقاً لنصيحة والده ، وتسجل في كلية الحقوق المصرية . وتسارعت الحركة بعد إلغاء نظام الامتيازات . اكتشف العديد من الشبان من العائلات المرموقة ، ليس من دون تردد ، انه قد يكون من الفطنة تعلم لغة خدامهم . فالزمن بات زمن التمصير ، كلمة المستقبل الرائجة .

لقد أخذ هنري كورييل اختياره منذ عام 1935 ، يوم كان في الواحدة والعشرين من العمر ، وفي حين لم يكن أحد يتوقع زوالاً وشيكاً الى هذا الحد لامتيازات الأجانب . كانت ولادته في مصر تسمح له بالاختيار بين الجنسيين الايطالية والمصرية . لقد تمصّر وبدأ يدرس في الوقت ذاته اللغة العربية ، مثيراً الغضب الشديد لدى والده . لم يتوصل يوماً لامتلاك اللغة بالكامل ، محتفظاً بنبرة تثير الابتسام لدى أكثر من متحدث من اهل البلاد معه ، لكن نيته حظيت بالتقدير .

ثم خاض معركة داخل الاتحاد الديمقراطي من اجل موضوع اعتبره الكثيرون تافهاً ، اذا لم نقل عصياً على الفهم . فبعد تأسيس الجمعية بقليل ، اتصل رسول من السفارة البريطانية بقادتها ، مبدئياً اهتماماً شديداً بمبادرتهم وعارضاً كل المساعدات المادية والمالية الملائمة لازدهارها . وقد كانت الحركة الأولى ، شبه الإجتماعية ، تتمثل بالموافقة . فيها أن هدف الاتحاد نصرة القضية الديمقراطية لدى الرأي العام المصري ، كان يبدو من المنطقي وضع اليد بيد انكلترا . اما هنري كورييل ، المعادي بعنف لهذا الموقف ، فقد دخل اللجنة القيادية كي يدافع بشكل أفضل عن موقف كان يشترك فيه مع جورج بوانتيه . كانا يؤكدان بالطبع انتفاءهما الى المعسكر المعادي للفاشية ، لكن ميدان عمل الاتحاد هو مصر وليس كندا او استراليا . ظل هنري يردد دون كلل ما سيبقى حتى يومه الأخير فعل إيمانه السياسي : « كي يغير الناس رأيهم ، عليك ألا تفرض عليهم أفكارك الخاصة بك بل أن تنطلق من أفكارهم » . والحال ان الجماهير المصرية ، التي لم تكن شديدة الحساسية ضد الحقيقة الفاشية ، لم تكن لتقبل ان يقترح عليها البعض التصالح مع الشر الانكليزي بحجة ان الشر النازي أشد سوءاً . « لن يصدقنا احد اذا اكدنا ان المانيا هتلر اسوأ من انكلترا » ، هذا ما كان هنري كورييل يكرره امام اصدقائه المدهوشين . « لن يتبعونا اذا دعونا الى تحالف ، وإن مؤقت ، مع الانكليز للتخلص من النازيين . يمكننا ان نقول ان النازيين لا يقلون سوءاً عن الانكليز ، لكن لا شيء اكثر . وهذا يفترض رفض أي تعاون مع جماعة السفارة » . وبعد عدة اسابيع من الجدل ورغم ميزان قوى انطلق في البدء من نسبة 2 ضد 7 داخل اللجنة ، فإن اطروحة كورييل وبوانتيه انتهت باحراز النصر . وهونصر غدا دون موضوع لأن الرسول الانكليزي ، الذي جرى اعلامه على الأرجح بالمساجلة ، كان قد اعتبر من غير المفيد اعادة الاتصال . كانت السفارة على وشك ان تختلق منظمة تحمل الاسم الجميل ، اسم : اخوان الحرية . وسوف تظهر صحة تحليل هنري كورييل بحذافيرها : لقد غرق اخوان الحرية في فقدان الخطوة ، وغرقت معهم القضية العادلة التي كانوا يدافعون عنها ، لسبب بسيط هو ارتباطهم الوثيق بالدولة الممقوتة .

كان تأسيس الصداقات الفرنسية ناتجاً عن تحليل مشابه : كانت تمثل امكانية عمل لصالح معسكر الحلفاء من دون تورط مع المحتل . وكان هامش المناورة واسعاً لا سيما ان الانكليز استفادوا من قطع الاتصالات مع فرنسا لمحاولة تحسين وضعهم الثقافي ، ولم يترددوا في منع اي استيراد لكتب فرنسية ، حتى وإن كانت آتية من كندا او الولايات المتحدة . كانت العلاقة بين البعثة الديغولية والسفارة البريطانية ، التي عقدها تحييد عمارة بحرية فرنسية فيشيية في مرسى الاسكندرية ، تتحمل عواقب كل التوتر الذي كان قائماً بين ديغول وحلفائه الأقوياء : هكذا خلال المسعى الانكليزي - الاميركي لاستبدال زعيم فرنسا الحرة بالجنرال البائس

جيرو ، علقت القاهرة إصدار المارسيليز ، الصحيفة الديغولية التي كان اسسها غورس . وهذا يعني أنه كان بالإمكان العمل في الصداقات الفرنسية دون التعرض لشبهة المحبة المبالغ بها تجاه الانكليز .

لم يبدل وصول رومل الى أبواب القاهرة التحليل السياسي لهنري كورييل ، وإن كان شاب تطبيقه بدرجة من المخاطرة مرتفعة الى حد بعيد . لقد اتخذ قراره دون تردد وأعلنه لأصدقائه مضيفاً عليه طابعاً خيالياً سوف يثير ابتسامته فيما بعد : إذا كان بقي في القاهرة فلأجل ان ينظم المقاومة ضد أي احتلال نازي محتمل - يا له من مقاوم يرطن بلغة البلد ، وهو أشهر من نار على علم لدى كل مصالح الشرطة ، ولا يمكنه المخاطرة بالدخول الى رَبع من الأرباض من دون ان يستفهم أول سوقي قادم حول جنسيته ! هكذا كان قد غدا هنري كورييل : رائعاً ومثيراً للغضب . وهو لن يتغير . سوف يحتفظ حتى الرمق الأخير ، بهذه الرومانسية التي سيسخر منها انداده وخصومه (يمكن تخيل الابتسامات الصفراء لرفاقه الطيين الذين هرعوا لاجئين الى القدس في القطار الانكليزي : ترى من يظن نفسه ؟) في حين ان الشباب سيحب فيه قدرة كاملة على إثارة حميا السياسة ، وذلك دائماً وحتى حين سيكون بلغ الشيخوخة . ان سر القدرة التعبوية لدى هنري كورييل وفعاليته النضالية يكمن في رومانسية تلقائية مقرونة بتجريبية تم اكتسابها في حمى العمل .

كانت الأيام التالية متوقدة ومضطربة . كان الأمر يتعلق بتهيئة الانتقال الى السرية . وقد أبدت شابة مصرية ، هي أسمى البقلي ، اخلاصاً مقروناً بالفعالية ، بأن فتحت للمقاوم مستقبلاً بيت اهلها في المعادي ، نوبي القاهرة ، حيث استقبل والدها هنري كورييل بحرارة . (سوف تقتزن اسمى بعد وقت قصير بأحد مساعدي مارسيل اسرائيل ، وسوف يحل عند ابنيها ، مدير احد سجون القاهرة الكبرى ، وفي احد زنازين ذلك السجن ، بعد سنوات اربع ، هنري كورييل . وهو سيبيدي تجاهه اللطف ذاته الذي ابداه حياله في المعادي - مرة اخرى ، انها مصر) .

لم يتم الانتقال الى السرية . ليس بسبب انتصار مونتغمري على رومل بل لأنه حتى قبل أول طلقة مدفع في معركة العلمين ، اوقفت الشرطة المصرية هنري كورييل . فذات صباح ، في حين كان ماراً بالرونوان ، اكتسحت مجموعة من رجال الشرطة المكتبة ، وفشت الرفوف ، وصادرت بعض الكتب ، واصطحبت الأسير ، مصفد اليدين ، الى فيلا الزمالك حيث تم تفتيش ثان تحت بصر زفيرا المصدومة . لقد كانت تلك مفاجأة لها . فماذا تعني المعاملة المهينة لعائلة كانت عواطفها الموالية للحلفاء معلنة ؟ أما كان هنري كورييل حصل على مقعد له في

القطار الخاص الذي نظمته السلطات الانكليزية وحته ، لوانه اراد ذلك ؟ لا شك ان موظفاً في دوائر الأمن البريطانية قد اخطأ في تصفح الملفات . ولقد كان التفسير بسيطاً: تم توقيف هنري كورريل من دون علم الانكليز ، واذا كانت الشرطة المصرية قيّدت يديه فلكي تقدم للمتصرين الألمان لاحقاً احد اولئك اليهود الشيوعيين الذين يلذ لهم الحصول عليهم ، كما هو معروف . كانت ديدار روسانو، امينة مكتبة الاتحاد الديمقراطي ، تلقت زيارة رجال شرطة أتوا يطلبون منها لائحة المتتبعين . وقد رفضت إلا أنها عرفت فيما بعد أن الجلاوزة حصلوا على اللائحة بواسطة مصدر آخر .

في مساء اليوم الذي تم فيه توقيف هنري كورريل ، كان محتجزاً في فيلا كبيرة في ضاحية زيتون ، وهي محلة قريبة من القاهرة ، حيث كان يتجمع كذلك قرابة خمسين معتقلاً .

كانت تلك أول مناسبة بين المناسبات العديدة التي تعرضت فيها حياته للخطر . كان المعتقلون معه عملاء أو انصاراً موالين للنازية أسرتهم أجهزة مكافحة الجاسوسية الانكليزية . حين عرفوا من هو القادم الجديد ، قرروا سلخ جلده في أول سانحة ورفضوا بادئ ذي بدء استقباله في غرفة . إلا أن باروناً بلطيقياً ، معادياً للشيوعية الى أبعد الحدود لكنه رجل مجتمع ، وجد في هنري سيداً مهذباً ذا عادات لطيفة ، فعرض عليه مشاركته غرفته (بعد أشهر ، استقبل البارون باللطف ذاته انور السادات ، الذي نجا من مفرزة الاعداء بفضل تلك الشبكة المصرية من المشاعر الودية التحارضية التي لا بد أن يبدأ القارئ بالاحساس بفعاليتها على المستوى الانساني) . كان النوم امراً حسناً ، لكن البقاء على قيد الحياة أمر أفضل . ولقد جاء الخلاص هذه المرة ، ويا للمفارقة ، من هذا العُرابي ، مؤسس الحزب عام 1920 والعميل النازي . لما كان عرابي في غاية السرور لأن يكون في متناوله شخص يتحدث معه عن الزمن القديم ، وقليل الميل الى العصبوية في نهاية جولة فلسفية متباينة ، فقد أنقذ كورريل من الفخ المشؤوم .

وبدأت المناقشات .

أكثر من ممثل لا يكون حقاً هو نفسه الا على خشبة المسرح . يقول الكثير من اصدقاء هنري كورريل انه كان في أفضل حالاته في السجن . لا شك ان التوقيف يحصل عموماً في فترة ازمة ، وفي اوج نشاط وتوتر عصبي منهكين ، والمناضل المسجون يتذوق اللذة القائمة المتمثلة بأن يستطيع اخيراً النوم 48 ساعة دون انقطاع . لكن بالنسبة لهنري كورريل فإن استعادة قواه لم تكن غير مقدمة لحياة سجن نشيطة ، ومنسجمة ومثيرة تماماً للرضى . إن أيّاً من الرسائل التي كتبها من سجونته المختلفة (وفي حوزتنا الكثير منها) لا يعبر عن التضايق ولا حتى عن مجرد

انزعاج . انه على ما يرام . ليس السجن بالنسبة اليه معترضة قسرية ، استراحة اجبارية ، بل إنه مواصلة العمل على مسرح آخر ، مع حبكة وممثلين مختلفين ؛ لكن القطعة المسرحية تناسبه . لا بل يخالجنا الانطباع بأنه يفتح في الاحتجاز ، الخائق بالنسبة لكثيرين غيره . وإنها لمفارقة : هذا المناضل الأهمي ، أحد النادرين في جيله (لو ولد قبل عشر سنوات من سنة ميلاده ، لكان واحداً من « الوكلاء المتجولين للثورة » الذين ارسلتهم الأهمية الثالثة لنشر الدعاوة الثورية عبر العالم) لم يكن أكثر ارتياحاً في أي مكان منه في العالم المقفل للسجن ، حيث كل واحد ، اكان حارساً او معتقلاً ، يعرف تماماً علاماته ونسبة القوى . مكان مرمر ، ومحددة مراتبه ، لا يتزعزع في الظاهر ، لكن استراتيجية دقيقة ومتحلية بالصبر يمكن ان تحل باستقراره الى أبعد الحدود .

هنا أكثر من أي مكان آخر ، يكون الكلام عملاً .

إن تطبيق تقنية الحوار الخاصة بكورييل ربما كان ادى الى مشكلة (« لا شك أن اليهود اناس من فئة دنيا وان الشيوعيين كلاب . لكنني ألاحظ ، الخ . . . ») لكنه سرعان ما فهم أنه اذا استثنينا بعض العملاء الاصليين ، فإن المعتقلين معه لم يكونوا غير وطنيين ضلوا السبيل مستعدين للتحالف مع الشيطان من اجل طرد الانكليز الى خارج مصر . كان هنري كورييل قد حدس بقوة الشعور الوطني ، وقد حولت إقامته في زيتون هذا الحدس الى يقين . قال فيما بعد : « كان هذا التوقيف أول حَمَام لي في الواقع السياسي المصري الذي كنت اعرفه بشكل سيء اتاح لي أن أفهم أن أية « مرانة » حيال انكلترا لا يمكن ان يقبل بها وطني مصري حقيقي أياً تكن الذريعة » . وهو درس ماثور لأنه جرى تلقّيه في حالة الرمز القصوى ، في حين كان الواجب الحيوي والشامل القاضي بضرب النازية يفشل في اضعاف المطالبة القومية ، وإن مؤقتاً . فمن اجل ان يتوصل شعب شهم ومسلم الى لعب ورقة هتلر ضد ونستون تشرشل ، كان لا بد ان يكون التطلع الى الاستقلال في المقام الأول ، متعذراً قهراً ، متعذراً الالتفاف عليه . سوف يكون الدرس مفهوماً ومحفوظاً حتى النهاية .

لقد خضع كورييل لإغراء اعتناق الاسلام . كان عرابي يشجعه على ذلك بقوة لأسباب ذات طابع انتهازي : إذا دخل رومل القاهرة فالمسجد سيلقى من التقدير أكثر مما سيلقى الكنيس . وكان كورييل يرى في ذلك إمكانية انخراط أكثر اكتمالاً في صفوف السكان المصريين . كان العديد من اصدقائه اليهود قد سلكوا هذا الطريق ، وبما أنهم تحولوا الى الاسلام حسب الأصول فقد كانوا يحاولون بجرأة ان يجبو المأكولات المحلية ورقصة البطن ؛ ولم تكن نادرة حالات الفشل . وقد تحلى نهائياً عن النبي محمد لأن تحولاً من دين لآخر على

مرمى مدفعية الأفريكاكوربس ليس من الشهامة بمكان، ولأن « المهم ليس ما تكون ، بل ما تفعل » ...

لكنه صام شهر رمضان بصرامة تضامناً مع الموقوفين معه وشارك في إضراب عن الطعام احتجاجاً على الإبعاد التعسفي للمندوب الذي انتخبه السجناء المواليون للنازية كي يتعامل مع الإدارة . كان ذلك أول إضراب له عن الطعام . وسيغدو فيما بعد خبيراً في الموضوع ، ويكتب طريقة استخدام ، لحساب المزمعين تنفيذ هكذا إضرابات ، ويعلم شفاهاً مئات المناضلين من كل البلدان كيفية تحضير إضراب عن الطعام وإنجازه وانهاؤه .

لا بل أبدى حماساً . فالمعتقلون معه كانوا اعتمدوا الحكمة وحددوا يوماً انتقالياً بين نهاية رمضان وبداية الأضراب ، تكون التغذية فيه عادية . اما هو فانتقل مباشرة من الصوم الى الاضراب وفقاً للمبدأ القائل ان على المناضل الشيوعي ان يكون الأفضل دائماً وأن يشكل قدوة . وهو سيطبق هذا المبدأ طيلة حياته ، دون ان يدرك - حسبما يبدو - أن حماسه يثير على الأقل قدراً من الازعاج يساوي ما يثيره من الاعجاب . والحالة هذه ، فان ضيوف معتقل زيتون القسرين كان أرضاهم بلا ريب أن يتقيد يهودي بصيام رمضان وأن يضرب شيوعي عن الطعام لأجل معتقل موالي للنازية دون ان يستفيدوا مقابل ذلك من درس خفي في السعي وراء الكمال .

بالنسبة لدانييل وزفيرا كورييل ، المعتاضين بصورة مشروعة لما تعرض له ولدهما الأصغر ، فقد احتدما غيظاً حين عرفا انه منخرط في اضراب عن الطعام يستحيل عليهما تفهمه . وبما انه لم تكن تنقصهما العلاقات ، فقد غدا مصير هنري أمراً صغيراً من أمور الدولة ، وقد قام رئيس الوزراء ، النحاس باشا ، شخصياً بإعلام السجين بأن اطلاق سراحه سيتم ما ان يوافق على وقف اضرابه . كانت الحكومة ، التي وعت خطأ الشرطة ، تحاول الا تفقد ماء وجهها . إلا أن هنري كورييل ، الصلب في تضامنه ، رفض أن يقطع اضرابه قبل غيره من المعتقلين . وفي اليوم العاشر ، رضخت السلطة واخرجته من المستشفى الذي كان قد تم نقله اليه .

وجد في الزمالك دعوة من المكتب الخاص ، وهو جهاز بوليسي مكلف بمكافحة الشيوعية . كان مديره ، سليم زكي باشا - قائد الشرطة المصرية لاحقاً - وعمر حسن ، قد حصلوا على تكوينهما في موسكو (كانا يتكلمان الروسية بطلاقة) على يد الشرطة القيصريّة المشهورة ، الأوخرانا . وقد استقبله عمر حسن برفق ، وقال له : « انت تعرف ما اكنه من مشاعر الصداقة حيال اهلك ، وانا اعترف لك بما لدي من عظيم المودة حيال نشاطاتك

الاحسانية . لكن لماذا تضيق وقتك مع هؤلاء الشيوعيين ؟ لن تتوصل الى اي شيء . وعليك ان تفهم ان كل نشاطاتك معروفة لدي في ابسط تفاصيلها . ليس بين اعضاء مجموعتك مخبر او اثنين فقط يعملان لحسابي ، بل انت محاط بأناس في خدمتي . صدّقي : أوقف العمل السياسي الذي لن يصل بك الى أي مكان واكتف بالعمل الاجتماعي . انا أعرف كل ما فعلته من خير لصالح الفلاحين العاملين عند السيد والدك . هنا يكمن مستقبلك : في العمل الاجتماعي » .

امتنع هنري كورييل عن الإجابة بأنه حين استولى البلاشفة على السلطة عام 1917 ، وجدوا في ملفات الأوخرانا البراهين الوفيرة على ان شرطة القيصرة السرية كانت تعرف كل شيء عن منظماتهم ، وعن نزاعاتهم الداخلية ومخططاتهم للعمل ؛ وبأن كل ذلك لم يحل دون الثورة .

جرى إخضاعه لنظام المراقبة الادارية . هذا النظام المطبق في الأصل على المجرمين العاديين وحدهم ، الذين كانت جرائمهم تُقترَف في الليل بوجه خاص ، كان يجبر الشخص الخاضع له على البقاء في بيته من السادسة مساء الى السادسة صباحاً ؛ كان رجل شرطة يمر مرتين كل ليلة على بيت المعني ليتأكد من حضوره . والمناضلون المصريون الذين خضعوا للالتزام نفسه ، يحتفظون بذكرى كابوسية عنه لأنه كان على الشرطي الليلي ان يتحقق من هويتهم قسراً ، وكان اضطرابهم للاستيقاظ فجأة مرتين في الليلة الواحدة يؤدي الى اضطرابات عصبية منهكة مع الوقت .

إلا أن واحداً من آل كورييل كان يتخلص طبعاً من هذه التنكيدات . فالشرطي ، الذي كان يتلقى أجراً ضئيلاً ، كان يحضر الى باب الخدمة في فيلا الزمالك ؛ وكان احد الخدم يجلسه في غرفة الخدمة ، ويقدم له وجبه مأخوذة من فضلات مائدة الاسياد ، ثم يضع له عشرين قرشاً في يده ، وكان الرجل الطيب يجتاز باب الخدمة مجدداً وهو يفيض تشكرات بعد أن يكون وقّع على سجل المراقبة الذي يؤكد مروره . كان هنري كورييل قد عاد منذ وقت طويل الى شقيقته الخاصة ، وكانت الحيلة مستمرة ، بتواطؤ من الجميع ، وكان الشرطي المكلف بالتحقق قد أصبح جزءاً من العائلة حين تقرّر أخيراً في المقامات العليا رفع الرقابة الادارية . كانت هذه الرقابة قد دامت ثلاث سنوات .

كل ذلك في فترة العلمين وفي حين كانت تدور احدى المعارك الثلاث الأساسية في الحرب العالمية الثانية . . . يقول شحاته هارون : « مصر في منتصف الطريق بين كافكا وكورتلين » . ويعلق ريمون اسطيمبولي بصورة قائمة فيقول : « المضجر هو انك لا تعرف ابداً في أي جهة انت » .

ان سجن زيتون ، المبرمج لأجل خاتمة كافكويّة ، انتهى عند كورتلين بفضل انتصار
مونتغمري .

عند الانطلاق من محطة الأقصر ، على النيل ، علمت من عدد لجريدة لوموند ، ملقى
على طاولة في الصالة ، بوفاة ليوبولد تريبير ، قائد الأوركسترا الحمراء قديماً .
كنت احبه . وهو كان يحبني ، على ما أعتقد .

دعاه من عملوا معه بالقائد الكبير . وكان مرتبطاً طيلة حياته بأمر كبير : وُجد في فكر
هتلر وستالين ، وعاش بعد وفاتها . كان ثورياً محترفاً ، والقائد العبقري لشبكة تجسس ،
ونزيلاً لسجن لويانكا طوال عشر سنوات ، وضحياً عام 1970 للهستيريا المعادية للسامية في
بولندا ، وقد توفي إذن في القدس ليأتي الجنرال شارون ، وزير الدفاع الاسرائيلي ، فيضع على
نعشه ميدالية أبطال النضال ضد النازية . كان يجب ان يقول إن « الحياة ملأى بالمفاجآت » .
والموت أيضاً .

كان يشارك هنري كوريل احتقار الآثار القديمة . لم يصعد هنري يوماً النهر العجيب
الذي يحيط به التاريخ . وعام 1966 سألتني تريبير ، ملقياً نظرة مندهشة على سائحي بومباي :
« لكن ما الذي يثير اهتمامهم في هذه البيوت الخربة ؟ » (كان سيُمضي ، متأخراً عشرين
عاماً ، شهر غسل في كابري بصحبة حبه في زمن الحرب . رأيته في فندق نابولي ، قبل الانطلاق
لرؤية خرائب كنت اعتقد أنها قد تثير شغفه ، يمزق طرف الصحيفة الذي كان خربش عليه
رسوماً آلية ، ويحرق المِزَق في منفضة كبيرة . سألته : « لماذا ؟ » ، فأجاب : « ينبغي عدم ترك
آثار إطلاقاً » . إنه رجل علمي الكثير) .

كان لديهما المحامي ذاته ، ليوماتاراسو . تريبير ، ليدافع عن شرفه في وجه مدير
الـ DST ، ويحرز النصر ، وكوريل ليغسل ذاكرته من بعض لطخات الريشة .
وكانا يشتركان في حب أقرائهما لها .

وفي نهاية المطاف ، كانا يشتركان في مودتي حيالهما .

كانت الأجهزة الغربية تعتبر تريبير ميتاً منذ عشرين عاماً ، حين بدأت استقصائي حول
الأوركسترا الحمراء . وبما أنني بعثته حياً ، انا الذي كان لي عمر ابن له ، فقد منحته ولادة

جديدة . هكذا كانت بيننا علاقات أب بآب . وليست هذه العلاقات هي الأكثر بساطة ، ولا أقل متعة .

ومن الغرابة بمكان اني سمعت للمرة الأولى باسم كورييل يوم اغتياله . فحين انتزعت الصحف بعنف من الظل ، في حزيران 1976 ، كنت على متن سفينة لشحن الموز وسط المحيط الأطلسي . وكانت التقلبات اللاحقة قد فاتتني . والاغتيال بالذات لم يهزني ، فلقد كنت أنجز كتاباً . (حرب نووية ؟ موافق . لكن بعد النشر) .

بعد أربعة اشهر ، في ايلول 1978 ، كان قد صدر **Le Pull-over rouge** ، وقد رأيت عملاقاً يدخل باب ناشري ، وكان يبدو أنه يبحث عن واحد يصطدم به ، وكانت بصحبته امرأة تغرورق عيناها بالدموع . وقد سألتني إذا كان يهمني ان أكتب كتاباً عن هنري كورييل . يا لها من كائن طيبين . كل عام ، كانت تصلني ما بين عشر رسائل وخمس عشرة رسالة ، يرد فيها الكلام التالي : « أنت داهية محظوظ : لقد عشت حياة بالغة الإثارة وقررت ان اكلفك بمهمة كشفها للعالم » . كانا مستعجلين . في رأيها أن اصداراً يتم في الأشهر الاثني عشر اللاحقة سوف يلقي الترحيب . لكن تمر ثلاث سنوات ، على الأقل ، إلا في حالات استثنائية نادرة ، بين الالتقاء بموضوع ما وكتابة السطر الأول . أي ما يكفي من الوقت للجولان حول الموضوع ، والافتتان به ، فنبذه فاستعادته . . . وفي الأخير ، وضمن حالة من خمود المهمة ، الشروع بالكتابة لأنه ليس ثمة طريقة أخرى للتخلص منها . الناس لا يعرفون . وقد أضاف الاثنان ، مخزيين ملفهما بدون داع : « طبعاً ، ليس في وسعنا ان نقول لك كل شيء » . لو ان المرأة لم تجهش بالبكاء (كان الرجل يلقي عليها نظرات مودة غاضبة) لكان الحديث انتهى عند هذا الحد . لم يكن يمكنه ان يقول لي كل شيء « لأن العمل كان مستمراً » . سوف يستمر في الواقع حتى التوقيف الذي طال في 5 حزيران 1980 كلاً من ماريا آمارال وجان فيليب ايلانتكوفسكي ، اللذين كانا قد حملا المشعل بشجاعة بعد مصرع هنري ، والحكم عليهما بسبب تزوير أوراق . لكن كان بإمكانني أن أحصل قبل ذلك التاريخ بوقت طويل على الأسرار الأخيرة وملفات المحفوظات . لقد كانا مناضلين جيدين بحيث لا يجهلان ان الحقيقة وحدها ثورية . وكنت كاتباً كفاية بحيث أعرف ان الحقيقة وحدها مثيرة ، في مواضيع من هذا النوع .

لقد انتزع مني ألمهما القاسي شجاعة أن أقطع على الفور . إن ألم الرجل ، وهو ألم أقل بروزاً للعيان ، كان اشد تأثيراً . كانا قد ادخلا المأساة الى القطعة . لكن بما اني كنت خارجاً من مأساة جرمية قتل قضائية ، لم اكن احس لديّ القوة لاستئناف العمل في الاغتيال السياسي .

وقد وافقت ، بجبن ، على حل يؤجل الرفض المحتوم الى وقت لاحق . كان لهنري كوريل ابنة خال شابة ، هي سيلفي بريان ، متخرجة حديثاً من مركز تكوين الصحفيين : سيكون عليها ان تبدأ البحث ، وتمهد الطريق . التقيت الأنسة ، فرأيت الحيوية في نظراتها ، والرشاقة في كلامها ، لكنها لا تزال في الثانية والعشرين من العمر . وقد تمنيت لها النجاح بنوع من الرياء .

روى لي خوري قريتي ، فيما مضى ، ما يلي : « ما أن استلمت مهام عملي الرعائي حتى جاء في إثري من يطلبني لاعطاء الأسرار الأخيرة لشخص يُحتَضَر . وقد حذرتني العائلة مسبقاً : « هذا الشخص فاقد الايمان ، ومناهض للاكليروس ، وهو لا يريد كاهناً ، لكننا نلتمس منك المجيء » . فقلت في نفسي : « الأمور تبدأ بشكل جيد » . حين رأي المحتضر ادخل غرفته ، دار على نفسه وانزوى ، رأسه الى الحائط . فجلست إزاء هذا الظاهر المُدار ، ولكي أتملك نفسي شرعت أتلو « الأبانا » بصوت عال . وما ان وصلت الى منتصف الصلاة حتى رأيت الرجل يتحرك ، ويستدير نحوي ببطء . وقد أكملت ، واصلاً « الأبانا » بـ « السلام عليك يا مريم » ، التي انبيناها معاً ، لكنني كنت اصرخ في نفسي ، مهتلاً ومشدوهاً : « الأمور تسير سيراً حسناً ! الأمور تسير سيراً حسناً ! » .

ساعدني التحقيق الذي اجرته سيلفي بريان على الانطلاق . لقد كانت قاطعة في مقابلاتها ، مستبسة في الحصول على الجواب الصحيح عن الأسئلة الجيدة ، موسعة استقصاءاتها فلا توفر شيئاً أو أحداً ، بحيث يمكن ان يقول المرء إنها كانت تعرف بصورة غريزية - هي الفتية الى هذا الحد والتي لم تنشر شيئاً بعد - ان كتاباً عن كوريل أهم من كوريل . يا لها من موهبة !

بعد مرور 18 شهراً ، كانت طريقي ممهدة . ولم يبق الا أن اقوم بتحقيقاتي بنفسي ، التي سوف تدوم ثلاث سنوات .



سوف تتذكر روزيت ، طيلة حياتها ، العام 1943 كالعام الذي عاشا فيه أسعد أيام حياتهما .

كانا قد انتقلا الى الطابق الثالث عشر من احد أعلى مباني القاهرة في تلك الأثناء ، 33 ، شارع عبد الخالق سروط ، في قلب الحي الأوروبي ، على مقربة من مصرف كوريل ومن

الرونيون . وكانت تضاف الى غرف الشقة الأربع مصطبة واسعة وعمتة . كانت الاطلالة على القاهرة وعلى خواصر الجبال الصخرية التي تحيط بالضواحي الشرقية على درجة عالية من الروعة . كانت خادمة ، يساعدها فتى صغير ، يؤمنان الأعمال البيتية . أما أثاث المنزل ، المختصر ، فقدمه الوالدان كورييل .

كان هنري يعمل كل صباح في المصرف الوالدي ، ويقبض اربعين جنيهاً في الشهر . وكانت روزيت تستيقظ مثله في السابعة صباحاً ، فتمضي فترة ما قبل الظهر في البعثة الفرنسية ، تجاورها في المكتب مارغريت فويو ، خطيبة بوانتيه . وبعد الظهر كانت تعمل في المكتبة او في الصداقات الفرنسية . كانت تكسب 15 جنيهاً في الشهر ، الأمر الذي يؤمن لها دخلاً شهرياً مقداره 55 جنيهاً . لم يكن ذلك يعني الترف والازدهار (فجوزف هازان كان يكسب مئة جنيه ، في وضعه كمهندس زراعي مبتدئ وأعزب) ، إلا أن حياتها كانت متواضعة . بقي هنري نباتياً ، يتبنى نظام حمية صارماً دعا اليه شخص يُعرف بالذكور كارتون ، وكان عصير الجزر الجزء الأساسي من تغذيته . وعندما كانت تُحدث صعوبات مالية ، كان الأهل يقدمون العون .

لكن العائلتين كانتا بائستين . فدانييل كورييل ، « الرأسمالي الواعي » كما تقول روزيت ، لم يكن يتوصل لتفهّم مبررات ابنه الأصغر . كان يعتبر ان التزام هنري السياسي نوع من الخيانة - خيانة طبقية كان يحس بها بالقدر من الغضب والألم الذي يرافق احساس آخرين بالخيانة الوطنية . أما زفيرا ، الأكثر تحسناً بالحوافز الانسانية لدى هنري ، فكانت ممزقة بين زوجها وابنها .

لم يساهم راوول في بحث الانشراح في المناخ العائلي حين اعلن ذات صباح قراره ترك المصرف . لم يعد يستطيع التحمل . كانت علاقته العصائية بالمال تجعل من كل يوم كابوساً لا ينتهي ، وكان لديه الشعور المبرر على الأرجح بأنه أتعس موظف بنك منذ اختراع الفينيقيين المال . وقد بدت آثار الصدمة على دانييل كورييل . فبعد خيانة الابن الأصغر ، كان ارتداد الولد البكر يعني ان العمل العائلي سيزول بزواله وقد جاء رد فعله شبيهاً برد فعل اي والد . قال له : « حسناً . يمكنك ان تستمر في السكن معنا لكن لن تحصل على قرش واحد » . وقد شعر راوول بالاحباط والخوف لحظة (« لم تراودني يوماً فكرة انه سيكون عليّ ان اكسب عيشي في يوم من الأيام ») الا انه وجد منصب استاذ للتاريخ والجغرافيا في الليسيه الفرنسي في هيليو بوليس ، بضواحي القاهرة . وقد عجز في نهاية الشهر الأول عن اتخاذ القرار بالتقدم لقبض راتبه مما اضطر مدير الليسيه لأن يهدده بصواعق التدابير الادارية كي يرضخ أخيراً فيطلب حوالته المالية . لم يكن مجهزاً حقاً للتعاطي بالمال . في العام التالي ، دخل كأستاذ للأدب في

الليسيه الفرنسي بالقاهرة ، وارتبط بشكل وثيق ببعثة فرنسا الحرة ، وبناء على نصيحة من جورج غورس ، انطلق في سلسلة من البرامج الاذاعية الموجهة للبحارة الفرنسيين المحيدين في مرسى الاسكندرية . (الكثير منهم التحقوا بدبغول ؛ وقد نظم هنري كورييل استقبالهم ، وهو ما سيدفع بعضاً من المشهرين به الى ان يكتبوا ، بعد أربعين عاماً ، انه انشأ في مصر « شبكة الأولى من الفارين من الجندية ») . ولقد أدى نجاح راوول الاذاعي - كان صوته الخفيض والحرار مدهشاً - الى رفض طلبه التطوع في القوات الفرنسية الحرة . وقد راوده الأمل بتجاوز المنع حين وضعه تقدم رومل في القطار المتوجه الى فلسطين ، لكن قنصل فرنسا في القدس حرص على ان يطلب برقياً موافقة مقر القيادة الديغولية ، في لندن ، وتلقى جواباً سلبياً جافاً يذكر بجنسية المرشح الايطالية وحين عاد الى القاهرة محبطاً وغاضباً ، عجز عن اقناع صديقه غورس بالتدخل من اجل رفع الحظر ووجد نفسه على متن طائرة مسافرة الى برازافيل ، عاصمة فرنسا الحرة ، حيث كانوا يحتاجون للمذيع جيد في محطة الاذاعة الديغولية . واذ دهشت مصلحة الأمن العام الفرنسية بأن ترى مواطناً لدولة معادية ينزل على أرض المطار ، لم تراجع عن فكرة احتجازه إلا بناء على إلحاح الحاكم ايبويه . وقد ارتبط راوول بعلاقة صداقة مع فيليكس ايبويه ، وأعطى دروساً في الفلسفة لابنته ، التي ستصبح الزوجة الأولى للرئيس اللاحق سنغور . لكن برازافيل ستكون بوجه خاص مكان التقائه بعالم الأثريات المرموق دانييل شلومبرجر ، المدير المساعد للاذاعة ، الذي يدين له بالتوجيه الحاسم لحياته . فاذا استثنينا اقامة قصيرة عام 1944 ، لن يرى احد راوول مرة اخرى في الزمالك .

إذا لم يكن اهل روزيت يقدرّون اطلاقاً التزام ابنتهم السياسي ، فان مجونها بوجه خاص هو الذي كان يحزنهم . فالجالية اليهودية كانت تفرض على بناتها قانون سلوك صارماً بهدف جعلهن يبلغن الزواج ولهنّ سمعة العذارى . كانت الانحرافات الحتمية تغطي نفسها بالنفاق . اما هنري وروزيت ، فحين باتا عاشقين ، بعد لقائهما بعامين ، لم يهتما باحترام اللياقات . واذ كان يذعر والدّي روزيت ان يراها تعود الى المنزل في ساعات غير مناسبة ، فقد أفرط في توجيه الاتهامات لها وفي حضنها على الزواج . وقد اتعبها ذلك ، فضربت ضربتها بأن غادرت المسكن العائلي لتقيم في غرفة مفروشة . كان ذلك عام 1940 ، وكان عمرها 26 عاماً . ولقد كانت الفضيحة عظيمة ، إذ لم يسبق ان تصرف فتاة يهودية في القاهرة بالطريقة هذه . أما أهل التعساء فشرّبوا الكأس حتى الثمالة حين اقام المتخادنان في بيت جديد صراحة ، كما لو كانا يريدان ان يتحديا من اعالي الطابق الثالث عشر التقاليد المتعارف عليها والحياء . كان هنري وروزيت ينظران الى الزواج على انه مؤسسة بورجوازية مدعاة للسخرية الشديدة .

تزوجا في 28 شباط 1943 ، وقد بارك زواجهما حاخام القاهرة الكبير الذي شرف

بحضوره الاستقبال الحافل في جنائن الزمالك . ففي نهاية مسار بقي غامضاً ، قرر هنري ان الزواج ينطوي على مصلحة سياسية ، وإن كان عفا عليه الزمن . ومن المرجح ان الغم الحقيقي الذي ساور اهل روزيت لعب دوره ، بالاضافة الى التمني الذي غالباً ما عبّر عنه دانييل كورييل بأن يكون له حفيد (للأسف فإنه لم يكن بإمكان كتنه ان تلد) .

كان ذلك نهراً حزيناً بالنسبة للعديد من الشباب . فحين نسمع اليوم تعليقات صديقات هنري الجميلات ، ونلاحظ مرحها المدهش ، الباقي سليماً بعد 40 عاماً ، من السهل ان نتخيل المحادثات الغدرة على انفراد ، خلف تلال الزهور في الزمالك . ثمة تفصيل معبر : ما من واحدة الا وتتذكر ، على سبيل السخرية ، ان هنري وصل متأخراً الى الاحتفال ؛ كان ذلك هو البرهان على أنه وجد صعوبة في ترك نفسه يعلق في شبك روزيت ، وكانت تعليقات الصديقات الطيبات تتلخص بجمليتين : « لكن ما الذي يجده فيها ؟ » و « لن يدوم هذا » . الا أن الزمن سوف يثبت ان هنري وجد كائناً لا عيب في حبه ، ولقد دام ذلك الحب .

*

**

لقد جعل الحاخام الأكبر ينتظر لأنه كان مرتبطاً بموعد مهم . كان الجزء الأساسي من نهاريته مخصصاً للقاء بعض الناس ، وإقناعهم ، وكسبهم . كان يخطط لتأسيس حركة سياسية : لم يعد المقصود خلق نادي نقاشات او حلقة دراسات ، بل بناء منظمة للعمل .

سوف يقول بعد مرور وقت طويل ، في خريف حياته ، إن قراره الانصراف كلياً للحياة النضالية يعود لـ 22 حزيران 1941 . كان عائداً من الريف في القطار وكان يقرأ كتاباً عن التربية في الاتحاد السوفياتي . النضال ضد الأمية ، تكوين حشد من المهندسين والتقنيين ، انفتاح عب متخلف على الثقافة : لقد كان كشف الحساب السوفياتي مثيراً ، لا جدال فيه ، وكانت حل صفحة من الكتاب ، مقارنة بالواقع المصري المأساوي ، كما لو انك تقارن النهار بالليل . حين نزل هنري كورييل من القطار وجد محطة القاهرة وقد اهاجها خبر مثير : اجتاحت المانيا النازية الاتحاد السوفياتي ، وكانت إذاعتها بدأت تذيع بيانات خاصة تعلن عن انتصار لا مثيل له .

سوف يقول لجان وسيمون لاكوتور : « لقد ولدت الشيوعية في مصر من مدفع ستالينغراد » . بالنسبة لمن عاش ، ولوطفلاً ، تلك الفترة في فرنسا المحتلة ، والذي اغرورقت عيناه بالدموع حين صمدت بير حكيم 16 يوماً أمام رومل ، واحتدم قلبه حين حطم مونتغمري الأفريكا كوربس في العلمين لأن ذلك كان النصر الحقيقي الأول ضد هتلر بعد عدد كبير من الضربات المتصلة التي لا يمكن نسيانها ، ومن الانسحابات الاستراتيجية ،

والاخلاآت المؤقتة (لم يكن هتلر قد نجح في إركاع لندن ولا في الاستيلاء على موسكو ، لكن لم يحصل في أي مكان حتى ذلك الحين ان تصبب عرق الهزيمة والخوف من أجساد جنوده) ، بالنسبة لهذا وبلا شك بالنسبة لكثيرين غيره ، يبقى الانطباع - ربما المبالغ فيه - بأن الأجانب في مصر استقبلوا النصر البريطاني باعتدال وورصانة . هل كانوا قد تماهوا مع الشعب المصري الى حد أن ذلك النصر بقي نجاحاً انكليزياً ، إذن ملتبساً ، في حين أن حياة معظم الناس وأملأك الجميع كانت تتوقف عليه ؟ لا يمكننا تصديق ذلك . لكن الواقع قائم هناك : حتى بالنسبة لمن كان الميل الى الشيوعية لديه في بدايته ، هذا إذا لم يكن غير موجود ، فإن مدفع ستالينغراد البعيد طمس الدوي القريب جداً لمدفع العلمين . ذلك انه لم يكن ينبىء فقط بانتصار ، بل كان يكشف ايضاً حقيقة بلد .

عام 1932 ، كان عمر جوزف هازان 15 عاماً وكان يُعدّ الباكالوريا القسم الأول . كان يبدو كطائر في غير سربه لأن أهله سجلوه في مدرسة عربية . ذات يوم ، اخرج عمه ساعته الذهبية ، فاندھش جوزف ، إذ كان المعدن ابيض . فأوضح العم قائلاً : «انها من الذهب الابيض الموسكوبي .» فسأل جوزف بسذاجة عن معنى «الموسكوبي» . اندھش العم بدوره حين اكتشف أن التلميذ الذي سيحوز قريباً شهادة الباكالوريا يجهل وجود موسكو . كانت تظهر في مكان الاتحاد السوفياتي ، على خرائط كتاب الجغرافيا الخاص به ، لطخة بيضاء كبيرة ، دون أي إشارة ، لا الى مدينة ولا الى نهر ، تماماً كما الحال مع الأراضي المجهولة في الزمن الماضي . قال : «كان الاتحاد السوفياتي لا - بلداً . لم يكن ينبغي تسميته . كان ذلك سحرياً .»

ما كان يقال عنه ، حين يجري الكلام عليه ، كان على مستوى من العبث لا مثيل له ، حتى في أيامنا هذه . كانت مقالات الصحافة والمحاضرات تصف بلداً على وشك الانهيار . خبرته سياسة اقتصادية شاذة ، في حالة نكوص متسارعة ، لكن كذلك مجتمعاً منصرفاً الى الفسق - وكان هذا يشكل نوبة فريدة ، مصرية بشكل خاص ، في اللحن المناهض للسوفيات - بالإضافة الى فئة حاكمة تُكرّس طاقتها لاختراع انحرافات أكثر فأكثر غرابة ، وجماهير تنسى مآسيها اليومية في طقوس عريضة جنسية حيوانية بشكل مطلق . كانت مصر ذات الحياء تهلع أمام تلك الأوصاف الخيالية ، ونادراً ما كان يجد المرء أناساً يخامرهم الشك . فبالنسبة للشعب بكامله تقريباً ، وللغالبية العظمى من البورجوازية ، الكبرى او الصغرى ، كانت المدينتان اللتان ينبغي كتابة اسميهما بالأولوية على الخرائط البيضاء للاتحاد السوفياتي هما سدوم وعمورة ، وحين شنّ هتلر الحرب الخاطفة على الشرق ، لم يشك أحد في أن النار المطهرة سوف تحرق الوجار الشيوعي .

بدت الأشهر الأولى تؤكد ذلك . ولم يعدل الفشل أمام موسكو من طبيعة التشخيص :

فالجنرال شتاء هو الذي أنقذ المدينة الحمراء . إلا أن ستالينغراد غيّرت كل شيء . كان بلد عاث فيه الغزو فساداً ، وجرى احتلال مراكزه الصناعية الرئيسية ، قد عباً امكانات اقتصادية كافية لامتصاص الصدمة في مواجهة المانيا التي كانت تشتغل لحسابها مصانع اوروبا المحتلة . إن شعباً متجمعاً ، ومُكهرَّباً ، استطاع بذراع حديدية لا مثيل لعنفها أن يلوي العملاق النازي . لم يكن يمكن بالتالي أن يشبه هذا البلد وهذا الشعب كاريكاتوراتهما البشعة .

كان انكشاف الحقيقة مثيراً بقدر ما كان غير متوقع . وهو سيفسر الموقف المصري حيال الاتحاد السوفياتي بعد سنوات الحرب بوقت طويل . لقد قال جوزف هازان : «إن الاستعمار دفع غالباً ثمن إخفائه الاتحاد السوفياتي عن أعيننا» .

عام 1940 ، جرى طرد شحاته هارون ، الطالب في كلية الحقوق ، من الجامعة لمدة شهر . كان يشهد مظاهرة جمهور من الشبان المطالبين بالاستقلال ، حين رأى رجال الشرطة يضربون أحد رفاقه فهرع لنجدته . وخلال التحقيق اللاحق ، حضر استجواب الطالب الذي تعرض للعنف . سئل الطالب : «هل أنت من حزب الوفد؟» فأجاب : «كلا ، بل أنا شيوعي» . للمرة الأولى سمع شحاته ، ابن العشرين عاماً ، المتردد على أوساط يُفترض أنها مستنيرة ، والذي في متناوله مصادر إعلام عديدة ، سمع كلمة « شيوعي » .

اول ايار 1946 . ينتهي العرض التقليدي ، بالنسبة لجوزف هازان ، في المفوضية . يجد هناك الجمهور المعتاد من المسؤولين الصغار وجامعي أعقاب السجائر الذين اعتقلتهم الشرطة . احتج زفاقي صغير طويل القامة على توقيفه ، فوجه شرطي صفعة قوية الى عنقه - وهي حركة مهينة في مصر مثل ركلة في القفا عندنا ، فاستدار الفتي وصاح بالشرطي : «غداً» حين يصل ذو الشاربين ، سوف ترى من سيصفع من !» كان أمياً ، وهو لم ير أي فيلم سوفياتي ، لكنه كان يعرف شارب ستالين .

قبل ستالينغراد ، كان يتم النظر إلى شيوعي مصر النادرين على أنهم أعضاء بدعة غريبة ربما تمكنت من أن تثير القلق لولا أنه لا مستقبل لها إطلاقاً . وبعد ستالينغراد ، باتوا يستندون بظهرهم إلى الهيبة الهائلة للجيش الأحمر ويشكلون الطليعة المصرية لحركة شيوعية ينبىء اندفاعها بأنها لا يمكن مقاومتها . كتب تشرشل في مذكراته ، على سبيل الأسف بالطبع : «كانت الشيوعية ترفع رأسها خلف الجبهة السوفياتية ، المزججة بدوي المدافع : باتت روسيا هي الفادية ، والشيوعية الانجيل الذي تحمله معها» .

الساعة ساعة العمل .



كان يجلس عموماً لدى ثُروبي ، وهو صالون شاي مشهور في كل حوض البحر المتوسط ، أو في بار بيغ بن ، شارع سليمان باشا . وإنه لقليل القول بأنه لم يكن يثير من اللحظة الأولى حماس محادثيه . من الناحية الجسدية ، كان يفاجيء الآخرين بنحوله غير المعقول ويلوزته ذات الاكمام القصيرة ، وسرواله القصير المضحك وحذائه المسير . وكان يتعارض مع بساطة اللباس التفاخرية سلوك معقّد ، مع تلميحات ملتبسة وتضمينات غامضة . ومعظم الشبان الذين كانوا يأتون سعيّاً وراء الكلام الحكيم كانوا يمشون ولديهم شعور مزعج بأنهم التقوا رجلاً قليل الصراحة والجرأة يروي قصصاً آملاً بأن يجعل الآخرين يؤمنون بشخصه .

التقاء هيلل شوارتز في السابعة عشرة من عمره ، وكان مفعماً بحماس ماركسي جمعه من كتاب كوفيلىي : «حين عرفت إحدى بنات عمي أي أبحث عن شيوعيين قالت لي ان في وسعها جمعي بمثل الكومنترون في مصر . كنت في مقتبل العمر وعديم الخبرة لكنني فوجئت مع ذلك بمعرفة أن اسم ممثل الاممية الثالثة على كل شفة ولسان في مجتمع القاهرة الرفيع . باختصار ، التمسست لقاء معه ووجدت نفسي وجهاً لوجه مع هنري كورييل . لم يكن بالطبع ممثل الكومنترون وأنا واثق من انه لم يطلق هذه الاشاعة - إذ لم يكن من هذا النوع . لكنه لم يكذبها - وهو كان من هذا النوع .

جوزف هازان : «اعطاني موعداً في الـ بيغ بن ، وهو بار مترف . رأيت شخصاً بالغ الطول ، شديد النحول ، محدودباً مثل عنكبوت الحقل . كان يبدو لقاءه الأول شديد البرودة في حين كان العكس من جانبي . ثم فهمت فيما بعد أن مرد ذلك خجله الشديد . وقد تكلمنا ، وصدمني ببعض أفكاره ، لا سيما بصدد الاصلاح الزراعي . كنت مهندساً زراعياً متخرجاً من غرينيون واندعشت قليلاً حين وجدته يقذفني بقناعاته كما لو كان يعرف شيئاً ما في هذا الصدد . كان يريد تقطيع الارض إلى اقصى الحدود ، مع ملكيات تصل الى حدود ربع هكتار ، كي يحس الفلاح بأنه مالك . يا لها من هرطقة ! كنت بعيد النظر ، مع كل الاختصاصيين . وهو كان على حق ، بالتأكيد : فالأرض المصرية تتم زراعتها باليد ، كبستان . ليس وارداً إنشاء كوخوزات فيها . لكنني انصرفت محبطاً للغاية . ينبغي القول إنه خلال كل الحديث الذي دار بيننا ، تكون لدي انطباع بأنه يريد أن يظهر بمظهر القائد السري الكبير ، والشخص الغامض الذي يمسك بالخيوط . كظمت نفسي كي لا أهزل . كان ذلك اتصالاً أول مثيراً للاشمئزاز .»

كانت لديه دائماً نقطة ضعف تتمثل في تقديم نفسه للمتسبين الشباب مغلفاً بالغموض وموحيّاً اليهم بأن ثمة اسراراً كبرى لديه (كانت تلك ايضاً خطيئة يوناتيه) : وهو تعريض مرجح من حياة رتيبة ، منظمة مثل مخطوطة موسيقية . واذا كان صحيحاً ان يديه كانتا تشغلان اكثر من خيط ، في الاخير ، فتلك لم تكن هي الحال في القاهرة عام 1943 . لو أنه ولد قبل تاريخ مولده

بعشر سنوات، لم يكن من شك في أنه كان عمل كمندوب للكمونترن، لكن ستالين حل الامية بالضبط عام 1943 . . . وفي غياب الكومونترن ، بقي التمثيل السوفياني الرسمي في مصر، وهو امر اقل مهابة بالتأكيد بالنسبة لشاب بورتجوازي حساس حيال ما هو خيالي، لكن دعمه يمكن ان يسهل الى حد بعيد انشاء حركة شيوعية.

هنا ايضاً، فشل الاتصال الاول. فحتى عام 1942 ، لم يكن لمصر علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفياني - هذا اللا بلد - لكن حكومة الوفد التي فرضتها الدبابات البريطانية ما كان يمكنها أن تتحاشى الاعتراف بحليف انكلترا. ولقد كان تأثير هنري عظيم حين استقرت السفارة السوفياتية بالضبط مقابل الفيلا التي يملكها أهله. ولما كان نافذ الصبر لإقامة علاقات لكن شديد الحياء بحيث لم يكن ليقوم هو نفسه بالمبادرة، أرسل روزيت بمهمة الترحيب بالرفاق السوفيات والتاكيد لهم بأنه في حال كانوا بحاجة إلى أي شيء فثمة انصار مخلصون رهن تصرفهم في الجهة الاخرى من الشارع. وقامت روزيت بالمهمة لكن قوبلت بالزجر الجاف. ويمكن تخيل موقف الرفاق السوفيات وهم يرون شابة أنيقة آتية اليهم لعرض خدماتها، وقد خرجت من فيلا كورييل، التي لا بد أنها كانت تمثل بالنسبة إليهم النموذج الامثل للعرين الرأسمالي. وبالنسبة لمن عاشر ذلك الجيل الستاليني الفظ، ولوقليلاً، فما من شك كان خامره في أن اسم كورييل وضع للحال على لائحة العملاء الاستفزازيين للمخابرات البريطانية (الانتليجنس سرفيس).

إلا أن روزيت عادت مجدداً الى السفارة، وفتح البواب الباب لها هذه المرة، ليس بصفتها امينة «صندوق السيدة ونستون تشرشل لمساعدة روسيا» (جمعية مرموقة انتسبت اليها على مضض: كانت «روسيا» تتأرجح بعطر قيصريتها) بل بصفتها منتدبة رسمياً من قبل البعثة الفرنسية: كان جورج غورس قد قرر الاحتفال بالصدافة الفرنسية - السوفياتية عن طريق تنظيم حفلة ساهرة لمناسبة العرض الاول لفيلم سوفياني في القاهرة. وكانت المناسبة الثانية للدخول في محادثة عبور طيارين فرنسيين في القاهرة وهم في طريقهم الى الاتحاد السوفياني حيث كانوا سيخدمون في فرقة نورمانديا - نيمن . وبما أن جوزفين بيكر كانت هي الأخرى في القاهرة، فقد أحييت البعثة في أكبر ملهى في المدينة سهرة حافلة على شرف نورمانديا - نيمن . وقد اهتمت روزيت بقسم نيمن. علق موزيس كوف دي مورفيل فيها بعد وهو يتسّم ، إذ كان على علم بالتزامها السياسي، علّق بقوله: «تدخل السيدة كورييل الى السفارة السوفياتية كما الى بيتها».

ذهب هنري الى السفارة ثلاث مرات بفضل الرونبوان. إن مكتبة تأسست في القاهرة في عز الحرب لأجل نشر الفكر الماركسي كان من الضروري أن تجد في موسكو مصدراً ممتازاً

لتموينها سواء من وجهة النظر الايديولوجية او من وجهة النظر الجغرافية . الا ان المساومات التي افتحتها الرونبوان بحماس انتهت الى خيبة مريرة: كان الجيش الاحمر أكثر فعالية بالطبع من المصالح التجارية السوفياتية . طلبات تضييع في الطريق ، تسليمات يجري تأجيلها الى ما لا نهاية له ، اخطاء مستمرة بخصوص البضاعة - باختصار كل ما يمكن أن يعود بالأذى على آل كورريل (كان هنري يتأسف بسبب المكاسب الايديولوجية المفقودة؛ أما والده ، دانييل كورريل ، فكان يهلع بسبب العجز المالي الكبير الذي كان عليه ان يغطيه من جيبه الخاص). وقد حصلت حادثة مؤلة بشكل خاص تتعلق بتوصية ضخمة على قواميس روسية - عربية . بدل أن يجد هنري وروزيث مجلدات تتيح للشعب المصري أن يمتلك لغة وطن الاشتراكية ، احسا بالهلع وهما يفتحان طروداً تضم مئات القواميس الروسية - الالمانية . كان الخطأ بلا اساس ، في السياق السياسي - الاستراتيجي . الا ان هنري الذي تم استقباله في السفارة لأسباب شرعية ، لم يلتق السفير ، دانييل سولود ، بل سكريتير السفارة ، عبد الرحمن سلطانوف ، القادم من جمهورية اشتراكية اسلامية . وبما أنه جرى فيما بعد تحديد هوية سلطانوف على أنه مسؤول مهم في اجهزة الاستخبارات السوفياتية ، فان المشهرين لاحقاً هنري كورريل سوف يحددون انطلاقاً من هذا اللقاء تاريخ تطويعه في جهاز الـ NKVD ، جد جهاز الكا . جي . بي . K.G.B .

كانت المقابلة مخيبة للآمال ، بشهادة هنري كورريل بالذات . لم تكن قصة القواميس اكثر من حجة ، فلقد كان ينوي القيام بجولة افق مع سلطانوف والبوح له بمشاريعه السياسية . وبالنسبة لشيوعي ، فإن المسعى كان طبيعياً للغاية . لكن المستشار بدأ بالاعلان له ان الاتحاد السوفياتي لا ينوي القيام بأي نشاط في مصر ، البلد الذي يجهل كل شيء عنه ، وحاول هنري كورريل ان يعرض باختصار رأيه هو وأصدقائه بخصوص الوضع والمنظورات المستقبلية . وعرف أنه لم يكن مقنعاً حين قرأ بعد وقت قصير مقالاً لسلطانوف نشرتته مجلة موسكوية يذكر فيه المستشار انه لا لوجود لشيوعيين في مصر . ولم يكن اللقاء الثاني اكثر وداً . وفي اللقاء الثالث ، اعلن سلطانوف دون تردد رغبته في أن تتوقف الرونبوان عن توزيع كتب سوفياتية لأن الشهرة التقدمية للمكتبة قد تعرض السفارة للإحراج . وعاد هنري كورريل الى منزله مذهولاً وكتب مذكرة غاضبة تعيد للذاكرة خيبات الرونبوان ، والتضحيات التي قبلت بها ، والنتائج المستحصل عليها ، وتحذر سلطانوف من انه قد لا يجد في القاهرة مكتبة «بورجوازية» تخلص للقضية العادلة ضمن شروط هذا العقوق . ولم تترتب اية نتائج على الحادثة ، الا انها وضعت حداً للعلاقة بالسفارة . وهو ما أسف له هنري كورريل مراراً كثيرة . كان مستعداً لأن يقدم للسوفيات كل المعلومات التي بحوزته ، على كل الصعد ، ودون أي تحفظ . كان يعتقد أن حذر السفارة عائد الى جبن مفرط . من المؤكد ان الاتحاد السوفياتي ، المغتبط جداً لرؤية باب مصر ينفتح لصالح الحرب ، كان يتمنى أن يبقى على درجة عليا من التحفظ كي لا يجفل الرأي العام

(في الفترة ذاتها قرع شيوعيون شباب في الاسكندرية باب القنصلية السوفياتية بحماس ووجدوا انفسهم يتعرضون للصرف بطريقة مماثلة). وإذا كان سلطانوف يجهل مصر فقد كان يعرف على الأقل ملف الحزب الشيوعي المصري الميت، واختراقه على يد الشرطة، واللغز غير المحلول المتمثل باختفاء عدة مندوبين للكونمترن نهائياً، وفي محيط إشكالي الى هذه الدرجة، كانت القاعدة لدى المصالح السوفياتية - ولدى أية مصلحة - أن تشته بـكل عروض المساعدة التي تعلن عن نفسها كما لو كانت بتولد ذاتي، وأن ترفض التطويع بموجب ترشيح. لو كانت الشروط مختلفة، ولو ان سلطانوف سبرغور هنري كورييل فكشف فيه قدرته البديهة على ان يصبح عميلاً من طراز رفيع، فلا ريب أن عرضه كان لقي قبولاً من دون اي تردد.

والواقع ان هنري كورييل لم يفكر، في ذلك الحين، حتى بفرضية كهذه. كان قد اعتقد ان معلوماته عن الوضع السياسي المصري قد يكون من شأنها ان تنير القادمين السوفيات الجدد. كان يأمل بوجه خاص الحصول على الرأي والمشورة والدعم بصدد الهدف الطموح الذي حدده لنفسه: تأسيس منظمة شيوعية.

لقد تركه عبد الرحمن سلطانوف في وحدته.

※

※ ※

الحركة المصرية للتحرير الوطني (ح م ت و).

«حركة» على سبيل التواضع والواقعية. كان يكفي قبل حل الأمية الثالثة منذ وقت قصير أن يبدي 50 شيوعياً في أي من البلدان الحد الأدنى من الجدية ويقبلوا بالاطروحات اللبينية المعروفة من أجل الاعتراف بهم كـ «حزب». يصبح هذا الحزب فرعاً للأمية، ويطبق التكتيك والاستراتيجية اللذين يحددهما الكومنترن، ويتلقى النصائح او التوبيخات، ويستقبل مستشارين سريين الى هذا الحد او ذاك يأتون ليضعوا في خدمته تجربتهم الثورية. هذه الطريقة كانت قد انتهت. ينبغي الاختراع، والسير تلمساً، والتجريب. كان يجري التحرك إذن باتجاه حزب شيوعي، لكن هذا الحزب لن يولد إلا في نهاية ما كان يسميه هنري كورييل «فترة رحمة»، بعد اشتغال طويل ومزيج على نفسي يتم انجازه على مراحل. لم يعد يكفي، ازاء الفراغ الذي تركه زوال الكومنترن، خلق حزب: ينبغي بناؤه.

كان بديهياً أن يكون هذا الحزب «مصرياً». فالحزب الأول زال عام 1924 لأنه لم يخرج من غيتو «الاجانب». ولا شك أنه كانت لاختيار الكلمة قيمة تعزيمية لأن المؤسسين، وعلى

رأسهم كورييل، كانوا ينتمون هم أيضاً الى الجاليات الاجنبية. كان هذا الاختيار يشير على الاقل إلى ارادة التمسير المفرطة.

كان يمكن تصور صفة «الشيوعي». وقد كان ذلك موضوع نقاش طويل. وجرى التخلي عن هذه الصفة لأسباب ثلاثة. فداعي الأمن ينصح به لأن الشيوعية كانت خارج القانون في مصر. كما أن الفعالية قد تعاني من علامة تنطوي، وفقاً لدعاوة مجنونة، على شرور وانحرافات جنسية. وكانت الواقعية تقضي بعدم استخدام تعبير يخاطر، حتى من دون قرنه بلفظة «حزب»، بجعل الجماهير تعتقد بأن طليعة باتت مستعدة لقيادة صراع الطبقات.

كان «التحرر الوطني» يشكل الاسهام الفريد لهنري كورييل، فكرته المركزية، القناعة الوحيدة لهذا المنتسب الجديد الذي يسبح في اوقيانوس من الشك لأنها الوحيدة التي ولدت من التجربة. كان قد قاسى الشعور بالاذلال الوطني الذي عانى منه كل المصريين إبان الامر الذي جرى فرضه على الملك فاروق تحت تهديد المدافع الانكليزية. كان في القاهرة، على عكس الكثيرين غيره، حين هتف آلاف المتظاهرين في الشارع باسم رومل. لم ينس صحبه في معتقل زيتون المستعدين للسير مع ادولف هتلر ضد ونستون تشرشل. كان التطلع الى الاستقلال يشكل الجامع المشترك الاكبر، ورفض أخذ ذلك بالاعتبار يعادل الانتحار السياسي. بينما يتبع ركوب الموجة، على العكس، تجنب مذهب ومناضلين منظور اليهم على انهم أجنب. وسوف يرد كورييل على الاتهامات بالانتهازية التي لن يتأخر توجيهها، وعلى اولئك الذين سيأخذون عليه تزويب الجبهة الطبقية في خليط قومي حيث سيجد الشيوعيون انفسهم متورطين الى جانب البورجوازية الكبرى لحزب الوفد، سوف يرد بعبارة لينين: «الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية»، كان النضال ضد الرأسمالية في مصر، البلد التابع، يمر بالمعركة ضد الامبريالية.

ومن الغريب أن تحديد البرنامج السياسي كلف من التعب اقل بكثير مما كلفه تحديد البنى الداخلية للحركة وقواعد عملها. كان يكفي النظر الى مصر للاجابة عن سؤال: «ما العمل؟» وقد كان وضع النظام الداخلي اشد صعوبة. فالاجتماع على مصطبة الغروبي او في الصالون الوالدي للنقاش في الماركسية كان شيئاً، وكان بناء منظمة سرية فعالة شيئاً آخر. هل كان ينبغي الابقاء على الشيوعيين التاريخيين القدامى المعروفين لدى الشرطة، والمعتقلين مراراً، خارج الحركة من قبيل الاحتراس؟ هل يكفي تقديم طلب انتساب من أجل قبول المرشح او سوف يفرض على المنتسبين لاحقاً امتحان ما؟ كيف سيتم التوفيق بين الديمقراطية الداخلية والامن؟ اية سيرورة ينبغي تبنيها من اجل اختيار كوادر الحركة؟ اين العثور على المال والمطابع والورق الضروري للدعاوة؟ أي مسار ينبغي اتباعه لتحقيق التمسير الذي لا غنى عنه؟

كان لدى كل واحد متسع من الوقت لقياس مدى انعدام خبرته .
لكن الحركة المصرية للتحرير الوطني وُجدت في الأخير، مع نظام داخلي، وقواعد أمنية،
ولجنة مركزية، ومكتب سياسي - وعدة مئات من المناضلين آتين كلهم تقريباً من أوساط أجنبية .
بعد ثلاثة أشهر، في تشرين الأول 1943 ، نظم هنري كورييل في ملكية العائلة
بالمناصورية أول مدرسة كوادر، جمعت عشرين متدرجاً كلهم مصريون .

*

* *

فؤاد حبشي ، ضخم الجثة ، طويل القامة ، مبني على عجل ، عديم الأناقة ، وديع
وهادى لكن ذو إرادة تشهد عليها سيرته النضالية (عشر سنوات من السجن لأسباب
سياسية) . يتكلم ببطء ، كما لو كان يزن كل كلمة :

« ولدت في 11 آذار 1920 في زفتا ، بمصر السفلى . كان والدي خياطاً ، وكانت أمي
تملك خمسة فدادين (هكتارين) . كان ذلك أكثر بكثير مما يملك معظم الناس لكننا كنا أحد
عشر ولداً . لم يكن لدينا ماء ولا كهرباء . وكان الولد الخامس يقوم بجلب الماء . كان الوضع
مضطرباً عندنا ، في زفتا . فلقد كان ثمة مظاهرات ضد الانكليز دائماً . ولد أبي اثناء تمرد
عراي باشا ، في نهاية القرن الماضي . وغالباً ما كان يحدثنا عن عراي .

« كنا نزرع القطن . كان في كل قرية تاجران أو ثلاثة يشترون كل المحصول . كانت
تلك هي السرقة المنظمة . تتم سرقة الفلاح عبر تصنيف قطنه في فئة دنيا . كان مالك عقاري
واحد يملك عملياً كل المنطقة ، وله شرطته الخاصة به . ومثل كل زملائه ، كان يحظر بناء
مدارس في القرى . حتى حاكم المقاطعة كان يخضع له . حين كان المالك يقوم بجولته على ظهر
حصانه ، محاطاً بحراسه ، كان عليك ان تنزل عن حمارك إذا كنت تمتطيه ، وكان عليك أن
تقف إذا كنت جالساً . وحين كان يصافح عمدة قرية ، كانوا يقدمون له الماء في الحال كي
يغسل يده . عام 1930 كان في زفتا عبيد حقيقيون .

« جميع الناس أو معظمهم كانوا يسيرون حفاة . كان لباسي الوحيد جلابية زرقاء من
العنبركيس وقلنسوة . كانت البيوت من الطين ، وتنام في داخلها البهائم . لا شمس ولا
ضوء . وكانت هناك حشرات غير معقولة : القمل ، والبرغش ، وبنات وردان . . . وكنا
نستضيء بواسطة مصباح على الكاز لا زجاجة له ؛ فالأغنياء وحدهم كان في وسعهم وضع

زجاجة . لكن من حيث المسكن ، لم نكن أتعس الناس ، فالأمر أبعد ما يكون عن ذلك . كان البعض يذهبون إلى التلة فيحفرون حفرة ويضعون لوحاً فوقها ، وكان ذلك بيتهم . كنا نأكل خبز الذرة ، أو الذرة والشعير ، وجبناً كثير التخمر ، هو الميش . لم يكن ثمة خضار . وكان اللحم يقدّم في الأعياد الكبرى فقط . كان هذا سوء التغذية . كنا نشرب من الجرة الكبيرة ، المسماة الزير ، الماء الذي كان أخي يجلبه من القناة . ومن أجل تصفية الماء ، كنا نمرر أنوية المشمش على الجوانب الداخلية من الجرة . وكانت البلهارسيا تفتك فتكاً ذريعاً . فالكثيرون كانوا يموتون في سن مبكرة جداً من سوء التغذية والبلهارسيا . انتبه : لم تكن المجاعة هي التي تضعفك بل سوء التغذية . رأيت وباء الملاريا يقتل مرة واحدة عشرة آلاف شخص . لم تكن العناية الصحية موجودة . كان المرء يُترك لحاله . لقد رأيت معلمي يموت بالتهاب الزائدة .

« دفعني والذي للدراسة . صرت عاملاً متخصصاً . عام 1937 - كنت في السابعة عشرة من العمر - أعلنت الجريدة أن الجيش الجوي فتح مدرسة ميكانيكيين ، فتقدمت للمباراة . كان هناك ما بين ثمانية آلاف وتسعة آلاف مرشح لأجل 95 مكاناً . وقد تم قبولي . وخاب أمني على الفور ، حيث أجبرونا على ارتداء ثياب موحدة مثيرة للقرع ، أسمال بالية حقيقية .

« كان الانكليز يديرون المدرسة . فالمدير الرسمي كان جنرالاً مصرياً ، لكن المدير الحقيقي كان نائب ضابط انكليزي ، يقبض 45 جنيهًا ، أي قدر ما يقبض الجنرال المصري . أما نحن فكنا نقبض جنيهًا واحدًا ، وبعد الحصول على الدبلوم ثلاثة جنيهات . والحد الأعلى الذي كنا نبلغه في نهاية الحياة المهنية كان ستة جنيهات . وكان الطعام سيئاً لدرجة أننا أعلننا الاضراب . وقد جرى صرف خمسة تلاميذ .

« لم تدم الدروس أكثر من عام : فالحرب كانت تقترب . أرسلونا في عداد إحدى الفرق ، مع مدرّبين انكليز . كان من المفترض أنه سلاح الجو المصري لكن الانكليز كانوا يشرفون على كل شيء ، لأنه كان يجب المرور عبرهم لأجل الحصول على قطع الغيار . كان الطيارون يأتون جميعاً من عائلات غنية كبرى . أما نحن فكان نصيبنا الاهانات دون توقف . مرة مات كلب رقيبنا الانكليزي . وضعه في نعش متقن الصنع ، مبطن باللباد ، وكان علينا أن نسير في جنازته . كان الفتان ساخطين .

« الكثيرون من هؤلاء الطيارين أصبحوا موالين للنازية إبان الحرب . لا يمكن القول إنهم فكروا في الموضوع حقاً . فيما بعد ، حين عرفوا أي شيوعي ، جاءت مجموعة بكاملها لتراني وتطلب مني أن أحدثها عن برنامج الحركة المصرية للتححر الوطني . وقد بدوا مهتمين جداً ، وقالوا لي في النهاية : « كل هذا يبدو لنا ممتازاً . هاك ما نقترحه عليك : نأخذ أشياء من

برنامجكم وأشياء من كفاحي* ، ونعمل معاً « لم يكن اولئك اناساً يمضون وقتاً طويلاً في التفكير . لكن هذا ، هذا فقط في نهاية الحرب .

« حدثت مشكلات جدية معهم . فسعودي Saudi طار ليوصل معلومات إلى رومل وعرفنا أن طائرته قد أسقطت . ورضوان ، وكان ضابطاً طياراً أيضاً ، حاول هو الآخر أن ينتقل إلى صفوف الالمان ، لكنه أجبر على العودة وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً . وتحطمت طائرة ثالثة في الصحراء وكان على متنها رئيس هيئة الأركان المصري : هم أيضاً كانوا يريدون الانضمام الى صفوف الالمان . هذا لوضعك في صورة الجو العام .

« عندنا ، نحن الميكانيكيين ، كانت المشكلات مختلفة . كان الانكليز يتفاهمون فيما بينهم ليؤلبونا بعضاً ضد البعض الآخر لاعيين على الفروق في الأجر ، والمكافآت ، الخ . إن سعيد سليمان الرفاعي ، وكان ميكانيكياً مثلي في قاعدة حلوان هذه ، كان قد التقى هنري كوريل . وقد أطلق هو وشخص آخر لن أذكر اسمه شعار : « أجر متساو للمصريين » . وبدأنا ننتظم ، ونقوم باجتماعات سرية داخل كل فرقة . وفيها بعد ، عينا لجنة قيادة من 52 عضواً - عضوان من كل فرقة - وانتخبت اللجنة سكرتيرية دائمة من 11 عضواً . وتم انتخابي سكرتيراً أول . في ذلك الحين ، قال لي سعيد سليمان الرفاعي انه شيوعي .

« بما انه لم تتم الاستجابة لأي من مطالبنا ، قررنا القيام بإضراب غير محدود يتمثل برفض قبض الأجور . كان ذلك قراراً خطيراً للغاية ، وقد قيل لي إن علي أن ألتقي هنري كوريل .

« تحدثنا في سيارته . وما صدمني فوراً كان لغته العربية السيئة . اصغ إلي جيداً : لو كان هذا الرجل مصرياً يتكلم العربية لكأنت تبدلت خارطة الشرق الأوسط . أصغى إلي بانتباه ، وفكر وقال : « بوصفكم عسكريين ، فأنتم في شدة الذئب ، من دون احتياطي من المال للصمود وتحت خطر المجلس الحربي . اعتقد أن إضراباً غير محدود تكون نهايته سيئة . عليكم أن ترفضوا قبض المبلغ خلال الأيام الثلاثة التي تتبع تاريخ الدفع . لا أكثر من ثلاثة أيام . ستعرف السلطات أنكم منظمون ولا بد أن يكون ذلك كافياً لأجل فرض التراجع عليها »

« عدت ، ووجلت على الفرق لشرح الموضوع . وقد واجهني في كل مكان متطرفون اهتموني بالتراجع . وكانوا الأقوى . وهكذا انطلقنا في اضراب مفتوح مع احتلال المشاغل حتى السادسة من بعد الظهر .

في اليوم الأول من دفع الراتب ، رفض الجميع القبض . لا مشكلة . وفي اليوم الثاني

* ماين كامف لهتلر (المعرب) .

حاولوا جعلنا نتعقل ، فلم يحصلوا على نتيجة . في اليوم الثالث ، استعرض قائد القاعدة الفتيان عارضاً على كل واحد أجره : « تأخذ أو لا تأخذ ؟ » والذي كان يرفض كان يمضي فوراً الى السجن . وقد أجاب أحد الرفاق : « فلنتناقش » . - « موافقون » . وعرض الرفيق مطالبنا . سأل القائد : « هذا كل شيء ؟ يمكنك أن تقبض : انا موافق . » وللحال أوصلت للجميع كلمة السر القضائية بوقف الاضراب . لقد ربحتنا . وفيما بعد ، اكتشفنا أن كل المتطرفين كانوا عملاء استفزازيين ، شرطة للقصر الملكي . وقد أدهشني أن أرى الى أي حد كان كورييل على حق . في الحقيقة ، لم أكن من جهتي قاراً على رأي . لكن خطه كان سليماً : لقد كانت ثلاثة أيام كافية لفرض التراجع على السلطات والحصول على ما نريدها .

« فيما بعد ، أتى بي هنري كورييل إلى مدرسة الكوادر ، التي بقيت بالنسبة لي أمراً لا يُنسى . كانت شيئاً يشبه ولادة جديدة . »

سعيد سليمان رفاعي ، المسمى بدر ، هو أيضاً طويل القامة وقوي ، نظارتان مع طارئين من القلنس ، شعر وشاربان متناسقان ، كنزة بطوق مقلوب لون بيج وسترة جلدية ضخمة ، مع هيئة بلشفي في صورة لأيبينال .

« ولدت عام 1919 في بلدة قرب زفتا . كان والدي ورث ربع فدان . كان فلاحاً لكنه ذهب للخدمة العسكرية . وفي تلك الفترة ، كان ذلك يعني الكارثة . كان شبان يشوهون انفسهم للتخلص من التجنيد الاجباري . وقد بقي خمس سنوات في السودان . غدا قنصاً من الدرجة الأولى . وفي الأخير انتقل إلى جهاز الشرطة كمدرّب على الرماية للنواطير الذين يجرسون الحقول ليلاً . كان يكسب ستة جنيهات في الشهر ؛ في حين كان الناطور يقبض جنيتهاً واحداً . رغم ذلك ، بقي دائماً بجانب الشعب ، مع حقد عميق تجاه الاقطاعيين . كان وطنياً لكنه كان حذراً من كل الأحزاب ، حتى من الوفد . وأثر في ذلك عليّ . »

« كنت الأكبر بين سبعة أولاد وكان من حظي أني تعلمت . ففي بلدتنا التي كانت تضم أربعة آلاف نسمة ، لم يكن ثمة غير ولدين أو ثلاثة يدخلون المدرسة كل عام . وكان الاختيار عديم الشفقة . فيما بعد ، درست خمس سنوات كي أصبح ميكانيكي سيارات . كان الانضباط قاسياً جداً . وكانوا ينغصون عيشنا . جرى صرفي مؤقتاً لأنني شاركت في مظاهرة لأجل الاستقلال . كانت الشرطة قد اطلقت النار ، وسقط قتلى . في التاسعة عشرة من عمري كنت قومياً مقتنعاً . وكنت أقرأ كثيراً - فيكتور هوغو والكسندر دوماس - أقرأ ليل نهار . وكان والدي يوبخني قائلاً : « اترك كتبك وتعال للأكل ! » لكن لم يكن بين كتبي أي كتاب سياسي ، ولا سبياً أي كتاب شيوعي . كان قد قيل لي دائماً أن الشيوعيين ضد الدين . وكان

أول كتاب سياسي قرأته دعاوة مناهضة للشيوعية . وقد اكتشفت فيه أن الشيوعيين صادروا أملاك الملاكين الكبار . وفكرت : « ينبغي الاحتفاظ بهذا ، الذي هو عدل ، ونبذ الجانب المناهض للدين » .

حصلت على شهادتي عام 1939 وطلبت من والدي أن أدخل مدرسة تكوّن ضباط بحرية تجارية . مدرسة خاصة ، تدفع أجراً . وقد دفع أهلي دم عروقهم ، في حين كانت تلك المدرسة نهباً واختلاساً . فالشهادة لم يكن لها أية قيمة . واليوم الذي اعترفت فيه بذلك لأبي المسكين كان أحد أسوأ ذكريات حياتي . قمت بمساع للعمل في الارسال على متن سفينة لكن الحرب اندلعت ووجدت نفسي وقد سدّت أمامي الأبواب من جديد .

« كان سلاح الجويطوع ، وقد تقدمت . وعدونا بأن نحصل على تكوين طيار أو مصور جوي . وقعت عقداً لخمس سنوات . وإذا بنا نجد انفسنا ميكانيكيين . غشونا ! خدعونا ! هذا هو ما قادني الى الشيوعية . الظلم غير المحتمل .

« في الأسبوع الأول ، اراد المدربون أن نتدرب على البنادق . فتركنا البنادق وعدنا الى تحت الخيام . حصل إضراب عن الطعام ، قمعوه جلدًا بالسياط .

« كنت في السرب بالقاهرة ، على متن غلاديا تور . شديد الغضب دائماً بسبب الظلم . كنت أحلم بالقنابل ، وبالاغتيالات . وكانت التنغيصات مستمرة . حين قال لي أحد الأصحاب أن ثمة منظمات تهتم بقلب النظام ، فقفزت في الهواء هاتفاً : « جد لي الوسيلة للتعرف إليها ! » وقد تمّ اتصالي الأول صدفة بفريق الخبز والحرية للشاعر انور كامل . وفيما بعد ، عرفت أن جورج حنين كان جزءاً منه . كان فريق مثقفين . وقد حددوا لي موعداً في الريف ، قرب الأهرام . تلاقينا حوالي اثني عشر شخصاً . وصل كامل . أراه من جديد مع خصلته السوداء الكبيرة التي كانت تنزل على عينه وسيجاره في فمه . حيانا وقال : « سوف نشد النشيد » . هكذا ، وسط الصحراء ، أنشدوا نشيداً يبدأ بـ « إلى الأمام ، يا رفاق ، الحياة هي النضال ! » كنت مندهشاً . ثم ألقى كامل خطاباً وهو يهز سيجاره . ووجدت الخطاب فارغاً .

« في المرة التالية ، كان الموعد في بيت . وجدت هناك ثلاثة فتيان من سلاح الجو ، وكامل أيضاً . ألقى فينا محاضرة حول المادية التاريخية ، لم أفهم منها شيئاً . لكن لا شيء ! والآخرين أيضاً . وقد انصرفت تمتعاً كلياً ، ومحبطاً . كنت مقتنعاً بأن لا أفيد في شيء . لم يحصل موعد ثالث لأنه تم توقيف كامل . لا شك أن التجمع تعرض للحل . في كل حال ، فقدت الاتصال . كان ذلك عام 1942 . كنت أحاول بلا انقطاع أن أجد كتباً تقدمية ، كتب

فلسفة . كنت أريد التوصل لأن افهم . لكن كان مستحيلاً العثور على هذه الكتب بالعربية . وكنت أحاول الاتصال . قال لي أحد الأصحاب : « هناك تجمع يلتقي في الزمالك » فذهبت الى هناك . يا له من قصر فخم . تجرأت بصعوبة على الدخول . كان هنالك حوالي عشرة أشخاص يتناقشون . تكلموا على العالم بأسره خلال ساعات دون الإشارة مرة واحدة الى مصر . فانقطعت عن المجيء .

« ثم جرى ارسال فرقتي الى السويس . كنت في حالة مخيفة . كان كل شيء يختلط ، القومية والظلم ، الازعاجات بصفتي مصرياً والتكيدات بصفتي ميكانيكياً . كانوا يصعبون حياتنا إلى حد أن زميلاً لي ميكانيكياً أصيب بالنورستانيا بالكامل . وقد رفض الضباط تركه يمضي . فاختبأ في مرأب الطائرات ورمى بنفسه في فرن المعادن . وقد نبهتنا رائحة اللحم المشوي . لم يكن باقياً غير قدميه ، وما تبقى كان كله رماداً . أنا أيضاً ، غالباً ما قلت في نفسي إنني سأنتحر . في لحظات أخرى ، كان بودي أن آخذ بندقية وأطلق النار . لا بل شكلنا مجموعة لتصفية هيئة أركان سلاح الجو دفعة واحدة . أنا متأكد أن الأمر كان أخذ منحى خطيراً لولا أن أحد الزملاء قال لي يوماً : « لدينا اتصال بشخص جيد جداً . كان هذا الشخص موسى كاظم ، مستخدماً في مكتبة . كان يعرف هنري كوريل . حدثنا عن جراح مصر الثلاثة : الفقر ، والجهل ، والمرض . اخذت انطباعاً للمرة الأولى بأني في قلب الواقع . كانوا يحدثوننا عن السياسة المتعلقة بحياتنا اليومية . فيما بعد ، أرسلني موسى كاظم إلى اجتماع التقيت فيه هنري كوريل . وكانت روزيت هناك أيضاً . ومصريون . فوجئت بأن أجد شخصاً يتكلم العربية بتلك الدرجة من السوء . كان يستخدم دائماً المؤنث بدل المذكر ، أو العكس ، وكان ذلك يدعو للابتسام . ورغم ذلك ، كان الشخص الوحيد في الاجتماع الذي يمكن فهم ما يقول . كان يعرض الأشياء ببساطة . وبوضوح . تولد لدي انطباع بأنه يقول ما أحس به دون معرفة التعبير عنه . وكنت تشعر به قريباً منك ، رأساً وقلباً . كنت تشعر بالإخلاص والجدية والانسانية .

« جرى اختياري لمدرسة الكوادر ، حيث توضح كل شيء »

*

**

بقيت مدرسة الكوادر التي اقيمت في تشرين الأول 1943 ، الفصل الأكثر حساساً وإثارة في حياة هنري كوريل الطويلة كمناضل . لن يستعيد ابداً شعوراً بالاكتمال كذلك الشعور .

سوف يشارك فيما بعد بأعمال ذات أهمية لا مجال لمقارنتها بذلك التجمع المتواضع لحوالي عشرين متدرجاً كان بعض المدرسين المرتجلين يحاولون أن يوصلوا اليهم أوليات الماركسية ، لكن أيّاً من مبادراته السياسية لم تعطه ، إلى ذلك الحد ، اليقين بأنه قام بعمل مفيد .

أقيمت المدرسة في مُلكية المنصورية ، من دون علم دانييل كورييل . كان في وسع هنري ، الذي كلفه والده بأن يدير تلك الملكية ، أن يذهب ويحييء دون إثارة الاشتباه . جرى اتخاذ تدابير صارمة للحفاظ على سرية المكان . فجيء بالمتدرجين بالسيارة ، ليلاً ، وأعينهم معصوبة . ولم يكن المحاضرون يصلون لاعطاء محاضراتهم الا بعد جولات طويلة عبر الريف من أجل إحباط أي اقتفآت محتملة للأثر . لكن خلال تحقيق لاحق على متن غلادياتور ، اعتقد بدر انه يتعرف إلى بيت مرتفع مألوف . حصل من الطيار على تحقيق على علو منخفض وتمكن من أن يميز أحد حراس الملكية ، من بين الأشباح رافعي الرأس . . .

كان المتدرجون يسكنون في البيت الكبير ، العزبة . ينامون على حصائر من قصب . وكان الطعام زاهداً . أما الدروس فكانت تبدأ عند بزوغ الشمس وتنتهي عند غروبها ، مع توقف واحد لأجل الغداء وبعض الاستراحات المكرسة لأناشيد ثورية . وقد تعلم المتدرجون ، الذين لم يكن أحد منهم يعرف لغة أجنبية ، تعلموا المارسييليز بالفرنسية ، لكن الحدث الكورسي كان التأدية الأولى للنشيد الأُمي باللغة العربية على أرض مصر : كان احد المحاضرين ، طاهر المصري ، قد نقله الى العربية . وبعد غروب الشمس كانت الأمسية تكررُ لنقاشات حرة بين المتدرجين ، ولكتابة تلخيصات للمحاضرات المعطاة منذ الصباح .

كان المحاضرون حوالي الستة أشخاص . وكان جو مatalون وداوود ناحوم يخرجون كهنري كورييل من الجالية اليهودية في القاهرة . وكان طاهر المصري وزكي هاشم وأحمد التوني يجيئون من البورجوازية المصرية . كانوا مكلفين بتلقين دروس وكانوا يدركون بوجه خاص مدى قصورهم . الا أنهم عرفوا منذ اليوم الأول انهم كسبوا الجولة .

كان الدرس الأول مخصصاً للآفات الثلاث للمجتمع المصري . قبل أسابيع ، كان هنري كورييل ألقى محاضرة حول معدل الوفيات في مصر ، وذلك في الجمعية الملكية للاقتصاد السياسي ، والاحصاء والتشريع . استطاع ، أمام حضور لامعين ، أن يرسم لوحة مأساوية بالاستناد إلى الاحصاءات الرسمية وحدها (بعد محاضراته ، كفت الحكومة عن نشر تلك الاحصاءات) . وفي العزبة ، لم يكتشف السامعون مأساة متجاهلة إرادياً إلى هذا الحد أو ذاك : كانوا يستمعون إلى وصف لطفولتهم في القرى التي كان سوء التغذية المزمن يعيث فيها فساداً ، ويفترسها المرض ، ويعميها الجهل ويخرسها . لكن المحاضرة ، التي اغتنت بمعطيات

جغرافية واقتصادية وسوسولوجية ، وتغذت بالأرقام ، كانت تجمع تنوع الأقدار الفردية لأجل تشخيص شامل . كانت تجعل السامع ينتقل من فسيفساء التجربة المعاشة الفردية إلى اللوحة الجدارية لشعب بكامله . كانت القرية مسقط الرأس حيث يستمر الأهل في انبعاث أنفسهم ، وحيث يبقى الأخوة والأخوات مسجونين لأنه ليس في متناولهم الحد الأدنى من الدراسة - هذه القرية ، كانت مصر .

كانت المحاضرات اللاحقة تتناول تطور المجتمعات والطبقات الاجتماعية . ثمة أيضاً ، كانت التجربة الفردية تجدد في التحليل العلمي الأكثر أولية مفجراً صاعقاً . كان الفقر يتمثل في المالك الاقطاعي المستولي على الأراضي الذي كان غالباً ما يشترط نصف المحصول كمزارعة . وكان الجهل يتمثل أيضاً بالمالك الاقطاعي الذي يمنع بناء مدارس جديدة . وكان المرض ناتج الوباءين الأولين ، لكن كذلك صنيع الاقطاعي غير المهتم بأن يستقر على أملاكه أطباء شباب يحملون أفكاراً جديدة . والمتدرجون الذين سبق أن غادروا الأرض إلى المصنع كانوا يعرفون أنهم لم يفعلوا أكثر من تغيير الاستغلال - والاستغلال الثاني كان بشراسة الاستغلال الأول ، مع الظرف المشدد المتمثل بأن صاحب المصنع غير المنظور لم يكن يغلف استغلاله بحُجب تراثٍ قديم جداً إلى حد أن الحياة والألم كانا قد أصبحا مترادفين بالنسبة للفلاح .

كان قد جرى تطهير الدرس حول المادية الديالكتيكية بعناية من كل تضمينات معادية للدين ؛ لكن بعد أن استمع المتدرجون إليه استنتجوا أن الله غير موجود ونظموا مساءً عيداً للاحتفال بالحدوث .

جرى تكريس الأيام الأخيرة من التدرج للمستقبل ، أي للاشتراكية . سوف يتيح استئصال الآفات المصرية الثلاث مثلما أتاح في الاتحاد السوفياتي القفزة الخيالية إلى الأمام التي حققها شعب انطلق مع ذلك من نقطة أقل بعداً . إصلاح زراعي ، مصادرة وسائل الانتاج الصناعية ، نشر الثقافة بفضل بناء آلاف المدارس ، التحسين الجذري للظروف الصحية عن طريق مضاعفة الأطباء والمستشفيات: ألم يكن كل ذلك بسيطاً، وبديهيّاً، وضرورياً؟ وممكناً.

تفرق المتدرجون وهم في حالة الحماس الشديد . قبل 15 يوماً ، كانوا قد أتوا مع تمردهم ضد الظلم . والآن ها هم يرحلون من جديد وقد تزودوا بأسلحة المعرفة . كانت التجربة «شبيهة بولادة جديدة» لم ينس أحد منهم أبداً الورع والصدقة والنشوة الفكرية في أيام المنصورية.

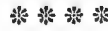
كان هنري كورييل واصدقاؤه في قمة السعادة . لقد سلّموا المشعل . بعد أن كانوا أولاد البورجوازية ، ومشاركين بهذه الصفة في الاستغلال الرأسمالي لكن مستفيدين أيضاً من امتياز حيالة المعرفة ، على الأقل عن طريق قراءة كتب اجنبية ، جعلوا من انفسهم أبدالاً

الثورة . كان رمزياً أن تتم أول مدرسة كوادر ثوريين مصريين في قلب الملكية الشاسعة لصاحب مصرف في القاهرة . كان لدى هنري كوريل وجوماتالون وداوود ناحوم اليقين بأنهم أطلقوا الرسالة أخيراً من فوق الجدار غير المرئي الذي يحيط بالغيتو الأوروبي .

ذلك أن المتدرجين كانوا مصر . كانوا الشعب ، حتى إذا كانت حيازة شهادة دروس بسيطة وممارسة عمل متخصص تجعلهم أصحاب امتيازات بالنسبة للجمهور . ميكانيكي سلاح الجو ، مثل فؤاد حبشي وبدر ، لكن أبعد ما يكونون عن الصفة العسكرية ، إلى حد أن تسميتهم كانت « عمال الجيش » ؛ عمال نسيج ؛ مستخدمين صغاراً في الإدارة . والأزهريين ، الذين ربما سيتيحون للرسالة الثورية أن تمضي إلى أعماق الأرياف . . . كان الأزهر ، أقدم جامعة قرآنية - ألف سنة - والأكثر مهابة في الإسلام ، يؤدي في القاهرة 25 ألف طالب آتين من أصغر القرى ، أرسلهم أهلهم أو شيخ القرية منذ طفولتهم ، يعيشون في حالة فقر مدقع ، فقراء بين الفقراء (توزع الشورباء مع الخبز مرة واحدة في اليوم) ، يتلقون مجاناً تعليماً إسلامياً لم يتطور أبداً منذ قرون لأنه كان مستنداً إلى الدين غير الملموس . وبالنسبة لثوريين ، كان ثمة في تناول اليد عجينة بشرية ذات غنى استثنائي إذا عرفوا أن يثبتوا بداهة أن الإسلام لا يتعارض في شيء مع الاشتراكية (هذا دون الكلام على الكثير من الشبان الواصلين إلى الأزهر طوعاً أو كرهاً وغير المهتمين بالدين) . لأن كل أزهري كان معداً للعودة إلى قريته ، في المئة ألف قرية التي يؤلف مجموعها مصر ، ثمة حيث سيكون دون دخول الكلام الثوري صعوبة ما بعدها صعوبة إذا لم يتم التبشير به من الداخل . ربما كان الأزهريون يحوزون مفتاح الريف المصري ، إذن مفتاح البلد .

من هؤلاء مبارك أبو فضل ، الذي التقيته سراً تقريباً في إحدى ضواحي القاهرة في شهر كانون الثاني 1982 . كنت أخرج من أحد تلك الفنادق ناطحة السحاب التي تمثل في القاهرة الغيتو الأوروبي الجديد والعمودي ؛ وكان يخرج من أحد معسكرات الاعتقال التي أنشأها السادات . شوارع من التراب الأحمر ، أولاد لا يحرصون ، ابنة متهمة قبل أن يتم إنجازها . واكتشاف هذا الرجل صغير القامة المرتدي بيجاما مضلعة ، صاحب البشرة السوداء القاتمة ، والذي يضع نظارتين مدخنتين لأن إحدى العينين ميتة والأخرى مريضة ، ذي الوجه المنهك الذي تزيل بسمه مشعة آثار انهاكه ، وذلك بعد اسبوع من التردد على الموميآت الفرعونية . كان يمثل مصر المناضلة . سبع وخمسون سنة ، من ضمنها أربع عشرة في السجن أو المعسكر . لقد انتهى بدر وفؤاد حبشي ، المناضلان الأسطوريان ، إلى إلقاء السلاح ، تاركين لأناس أكثر شباباً عبء القتال . أما مبارك أبو فضل فيواصل المعركة ، رابط الجأش ، مثيراً بإيمانه ، وبصلابته ، مشعاً بقوة مفعمة بالمرح . الموت وحده سوف يوقفه على الطريق الذي اختاره قبل

40) عاماً في نهاية محادثة طويلة مع هنري كورييل في السيارة المتوقفة في باب الفطور ، قرب الأزهر . مات هنري كورييل ؟ أجل ، لأن مبارك يتمم : « أنا لا أبكي . لا أبكي إلا لموت رفيق . لذا بكيت لموت هنري . » لكن هذا المناضل الشاب الآتي لينضم إلينا ، والمولود بعد أن غادر هنري مصر إلى الأبد ، والذي يعرف مع ذلك أن الكلام الراسخ رغم كل شيء قد أعطي للمرة الأولى في عزبة بالمنصورة ، هذا المناضل الشاب إنما يتكلم على كورييل حي .



في كتاب اندريه فونتان ، قصة الحرب الباردة ، الذي بات كلاسيكياً ، يقترح الكاتب تحديد تاريخ اندلاع الحرب الباردة في 4 نيسان 1944 ، قبل نهاية الحرب العالمية الثانية بأكثر من عام . لقد كتب : « في ذلك اليوم ، تمرد بحارة وحدات خمس من الاسطول الملكي اليوناني الراسي في ميناء الاسكندرية ، مطالبين بإعلان الجمهورية وبتشكيل حكومة جديدة⁽¹⁾ » .

كان ذلك الحدث الفريد يؤكد سيرورة بدأت منذ وقت بعيد . وهو سيطرح على هنري كورييل واصدقائه في ح م ت ومشكلة درامية .

فقبل ثماني سنوات ، في 4 آب 1936 ، كان ملك اليونان جورج الثاني قد أعطى الدكتاتورية للجنرال ميتاكساس . وقد أقام هذا الأخير ، الذي سرعان ما أعلن نفسه « رئيساً للحكومة مدى الحياة » ، نظاماً شبيهاً للغاية بنظامي هتلر وموسوليني : نقابات مدجّنة ، شبيبة مؤطرة على منوال الشبيبة الهتلرية ، مطاردة من دون شفقة للشيوعيين ، احتجاز السياسيين الوسطيين الليبراليين ونفيهم ، رقابة ، إرهاب بوليسي مع تعذيب معطى طابعاً مؤسسياً ، وإعدامات اعتباطية . في غضون أربع سنوات ، جرى إخضاع البلد . لكن ميتاكساس ، الفاشي المستقل ، رفض الانذار الذي أرسله موسوليني في 28 تشرين الأول 1940 . استطاع الجنود اليونانيون ، سيئو التسليح والقيادة ، والمتعرضون لخيانة طابور خامس كلي الحضور ، ان يهزموا الجيش الإيطالي شر هزيمة ، ثم أن يقاوموا بشجاعة تقدم الويهرماخت التي هرعت لنجدة الحليف الإيطالي المهزوم . لقد مات ميتاكساس في سريه في كانون الثاني 1941. كان قد خسر الحرب . وخلفه مصري في حين انكفأت الزمرة الملكية في فوضى تفوق الوصف الى القاهرة ، يصحبها مئات من أنصار ميتاكساس الهاربين من دون سلاح لكن مع حقائب ، ولقد انضم

(1) - اندريه فونتان ، قصة الحرب الباردة ، مكتبة فايار ، ص 232.

اليها الأسطول بكامله تقريباً وآلاف الجنود الذين افلتوا من الأسر بالخط والنط فوق ارخييل
الجزر الإيونية .

بقيت حكومة المنفى بين يدي انصار ميتاكساس . فإذا كانت الظروف تجبر على ارتداء
لباس الديمقراطية ، لم يكن وارداً لدى البلاط وفي الحلقات الوزارية غير إعادة « نظام الرابع من
آب » ، نظام ميتاكساس ، بعد انتهاء الحرب .

لقد نزلت اليونان أكثر من أي بلد محتل آخر ما عدا بولندا والاتحاد السوفياتي بالطبع .
كانت هناك مفرزة اعدام في كل ضيعة ؛ ومات ثلاثمئة ألف شخص جوعاً خلال شتاء 1941
وحده ؛ وازدحمت اثينا بأشباح يتضورون جوعاً في المعتقلات . ما من بلد محتل قاتل كاليونان .
في 24 شباط 1943 ، ورداً على القرار بالعمل الإجباري ، هاجمت الجماهير الأثينية الرشاشات
الألمانية بأيديها العزلاء ، وهي تنشيد النشيد الوطني . وفي الرابع من آذار ، نزل مئتا ألف
وطي - أي ربع سكان أثينا - الى الشارع ودفعوا مئات القتلى والجرحى ليستولوا على وزارة
العمل ، قاضين على عشرات الألمان ضرباً على الرأس أو خنقاً . ياله من شعب جدير باليونان
القديمة ، جعله ينتفض حقد مقدس ، شعب مجنون بالبطولة ! وفي السابع من آذار ، جرى
إلغاء العمل الاجباري تحت التهديد بانتفاضة معممة . وفي الجبال ، راحت المقاومة تنتظم
وتقيم العقبات في وجه قوات الاحتلال . كانت بقيادة شيوعية . وقد بدأت بصبر ، ورغم
خسائر هائلة ، سيرورة التحرير التي ستؤدي في آذار 1944 الى إعلان « حكومة الجبل » .

كانت قد تكونت فرقتان يونانيتان في مصر مؤلفتان من الناجين من حملة 40 - 1941 ومن
المتطوعين الآتين من الجماعات اليونانية في الشرق الأدنى . كانت الفرقة الأولى قد تصرفت
بصورة مدهشة في العلمين . لكن الجنود كانوا يستشيطنون غيظاً لاضطرابهم للقتال ضد
الجيش الفاشية تحت أوامر ضباط يونانيين فاشيين : كانت هيئة الأركان ميتاكسية . كانت
القاهرة ، عاصمة الدسائس ، العاجية بالاشاعات ، وملتقى العملاء ، والمرسلين الخاصين ،
والمبعوثين الرسميين أو شبه الرسميين ، كانت مجمعة أسطورياً للأصداء ، وكان أولئك الجنود
يعرفون المناورات الجارية لسرقة حرية الشعب اليوناني التي كسبها بدمه . كان الأميرال
ساكيلاريو ، الوزير السابق في أيام الدكتاتورية ، قائداً عاماً للأسطول اليوناني المنكفيء الى
الاسكندرية . وقد أرسل غواصاته لتجمع من القارة السياسيين والضباط الكبار المخلصين
للسلطة ، وراح الجنود يقرأون تصاريحهم الطنانة فيما كان المقاومون الحقيقيون يموتون بصمت
هناك في الجبل اليوناني . كان الطلاق جذرياً . ومن المؤكد ان منظمة شيوعية كانت تعمل
داخل الفرقتين لكن بدل من ان تنفخ على النار ، كانت تسعى لتقنية غضب الجنود ، عارفة ان
الزمرة الملكية والحكومة الانكليزية لم تكونا تنتظران غير حجة لتوجيه ضرباتهما . إلا أن

استفزازات الضباط الميتاكسين فجرت التمرد المتوجس منه - تمرداً بسيطاً من دون عنف لجنود حانقين اكثريتهم الساحقة ديمقراطية . وقد فرض الانكليز ، عديمو الشفقة ، على الفرقتين « مسيرة للموت » على امتداد ثلاثمائة كلم عبر الصحراء السورية . كان على المنتصرين في العلمين أن يدفعوا غالباً ثمن تعلقهم بالديمقراطية ، في طقس تتراوح فيه الحرارة بين 30 و 40 درجة مئوية . وعلى سبيل اللطافة لدى البريطانيين ، جرى إبلاغهم قبل الانطلاق ان كتبية انكليزية تعرضت للعقوبة نفسها لأنها شنقت قائدها ؛ ومن أصل سبعة رجل ، وصل فقط أربعون في المرحلة الأخيرة . . .

كانت مكتبة الرونبوان - التي لم يكن يتردد عليها غير القليل من المصريين الأصليين - أحد أماكن اللقاء المفضلة لدى الضباط والجنود التقدميين المنتمين للوحدات من مختلف الجنسيات المارة بمصر : البريطانية ، والنيوزلاندية ، والاسترالية ، والفرنسية ، والافريقية الجنوبية ، والهندية ، الخ . . . كانت المكتبة قد أصبحت هكذا المركز الرئيسي لعمل أممي بالغ الاتساع ، في اتجاه معسكرات الأسرى الألمانية والاطالية بوجه خاص . كانت تؤمن مراقبتهم وحدات يهودية من فلسطين أبقته خارج المعارك قيادة انكليزية قليلة الاهتمام باعطائها مناسبة للتمرس بالحرب . هؤلاء اليهود ، التقدميون عموماً ، كانوا يوزعون على أسراهم الكتب المناهضة للفاشية باللغتين الايطالية والالمانية الآتية من مكتبة الرونبوان ، ثم نشرة اخبار سياسية أعدتها ح م ت و وتمت ترجمتها الى الايطالية والالمانية . لا بل ان هنري كورييل وأصدقائه نظموا فرار أسرى ايطاليين كان عداؤهم للفاشية ثابتاً ، لكن الشرطة الانكليزية استعادت العديد منهم . وكان ريمون أغيون يكرس نفسه ، من جانبه ، لمساعدة اللاجئين اليوغسلافيين ، الذين كان 28 ألفاً منهم يعسكرون على ضفاف قناة السويس . كان الأمر يتعلق بوجه خاص بعائلات مقاومين يقاتلون مع تيتو . وقد جمع أغيون لحسابهم مبالغ ضخمة و أصدر لهم نشرة اخبار سياسية واجتماعية .

كانت العلاقات مع اليونانيين اكثر حماسة بكثير بفضل التجمع السكاني اليوناني المهم في القاهرة ، الذي تضخم بعد 4 آب 1936 بوصول ديمقراطيين طردهم ميتاكساس ، والذي كان يعيش في حالة تكافل طبيعي مع رجال الفرقتين .

جرى تقديم كل المساعدة المادية الممكنة للمنظمة اليونانية السرية : وضع مقرات تحت تصرفها ، طبع بيانات وصحف ، تنظيم لقاءات دعم . لكن لم يكن الجنود اليونانيون بحاجة لاقتناعهم بعدالة قضيتهم . كان مسؤولوهم ، الموضوعون في حالة الاضطراب للقتال ضد قيادة فاشية ضمن الجيوش الحليفة ، يبحثون بقلق عن التكتيك الذي يتيح التغلب على وضع

استراتيجي شائك . وضمن ظروف بهذا التعقيد ، كان الخط السليم يقارب حبلاً مشدوداً .
ألغى نبأ مثير كل الاستفهامات ، وأزال القلق : كان مارتى في القاهرة .

❖

❖❖

إنه اليوم شبه مستحيل أن تُدخل في الأذهان ما كان يمكن أن يمثله لمنتسب جديد الى الشيوعية ، عام 1943 ، شخص اندريه مارتى . ففيه كانت تتجسد الأسطورة والقدرة . فكثائر في البحر الأسود ، وقائد عام للمفارز الالمانية في أسبانيا ، وقيادي مرموق في الحزب الشيوعي الفرنسي ، وسكرتير للألمانية ، كان قدراً فريداً ساطعاً رفعته الى الأعلى المغامرة الجماعية للشيوعية . كان قد أقيم له تمثال من المرمر في احدى مدن الاتحاد السوفياتي .

في شهر تشرين الأول 1943 الذي لن يزول من الذاكرة لأنه سيبقى الشهر الذي أقيمت فيه أول مدرسة كوادز ، كانت روزيت كورييل تعمل ذات صباح في البعثة الفرنسية ، حين قالت لها احدى زميلاتهما ، العارفة بأرائها ، وهي تبسم ابتسامة عريضة : « هل سمعت بالنبأ ؟ اندريه مارتى بيننا ، وقد وصل هذا الصباح من موسكو » . بعد أن عادت روزيت من دهشتها ، ابلغت هنري الذي لم يصدق اذنيه . اندريه مارتى في القاهرة . . . واصلاً من موسكو . . . خارجاً عملياً من مكتب جوزف ستالين . . . كان ذلك فوق المتصور . (ابدى توغلياتي المرفه جداً والذكي للغاية كفه المفتوحة لرفيقة حياته ، وقال لها وهو ممتلىء ورعاً : « انظري الى هذه اليد : لقد صافحت يد ستالين ») . وفي قمة الفرح ، توسل هنري لروزيت ان تؤمن له لقاء مع مارتى . فحزمت أمرها وتقدمت الى الرجل العظيم وقالت له : « نحن شيوعيان ، زوجي وأنا . إذا كان ثمة مشكلة تعترضك ، فنحن تحت تصرفك » .

كان اندريه مارتى قد توقف في القاهرة كمحطة اجبارية لكل رحلة جوية بين موسكو وأوروبا الغربية : سواء كان الهدف النهائي الجزائر او لندن ، كانت الحرب تجبر على الدورة عبر البحر المتوسط . كان ذاهباً وزوجته الى الجزائر حيث استقرت اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني . وهي رحلة اشكالية من كل الجهات . فأولاً ، كان هو بالذات ، مارتى ، الذي يمضي ليقود في الجزائر التمثيل الشيوعي . وكان توريز طلب مراراً من مندوب ديغول في موسكو ترخيصاً قبلاً دائماً بالرفض : كان يجرح خلفه ادانته ، بسبب فراره عام 1939 ، مثلما يجرح المحكومون خلفهم كرة المحكومين . في كل حال ، فلأسباب غير معروفة ، كان ستالين يفضل ابقاءه تحت قبضته . لكنه كان يبقى الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي ، وكان يكره مارتى ويعرف كيف يستخدم ضده اي خطأ ناجم عن جهل . والحال ان الجزائر العاصمة كانت وكر

زنابير : (كتب ديغول فيما بعد واصفاً إياها بـ « نهر الوحل هذا ») . وفي تشرين الأول 1943 ، لم تكن قد لعبت اللعبة بين ديغول وجيرو . كان الحزب متردداً في وضع رهنه . كان شيوعيو الجزائر هم أيضاً منقسمين على انفسهم - وذلك احد آثار الآلام الطويلة المحتملة في معسكر فيشي للاعتقال . كانت المؤامرات والمناورات تتعاقب دون توقف . حتى كونت باريس كان يحوك الدسائس للعودة الى عرش فرنسا ! . . . والرجل الأكثر عناداً في العالم كان خالجه الهَمّ لو توجّب عليه الغطس في هذه الفوضى . كان ماري ذا حَذَرٍ مَرَضِي . ففي أسبانيا ، كان أمر باطلاق الرصاص ، في وقاحة قائمة ، على رجال ثبتت براءتهم في حين لم تبرد جثثهم بعد . في كل مكان ، وعلى الدوام ، كانت الشرطة والأجهزة الرأسمالية ناشطة ، آخذة في شباكها المناضلين غير المتيقظين ، في كل مكان ، ودائماً ، كان يمكن فيروس الخيانة ان يصيب الرفيق الأقل شُبُهَةً . من جهة اخرى ، كان ماري الصادق والشجاع يعيش في عالم سوداوي .

سوف ينبغيء التوقف في القاهرة فخاخاً لا تنتهي لهذه النفس المريضة . بدل ان يوافق على الفندق الذي اختارته البعثة الديغولية ، التي كان يتصور انها محشوة بعملاء الانتليجانس سرفيس ، قبل بعرض تلك الرفيقة الشابة ذات المظهر الشريف وأقام مع زوجته في الغرف الثلاث بالطابق الثالث عشر ، في حين انكفأ هنري وروزيت مؤقتاً الى فيلا الزمالك .

لن يتأخر ماري في الندم بسبب الضيافة المقدمة . وسوف يدفع هنري ثمن ذلك غالياً بعد عشر سنوات .

في ذلك الحين ، اعتبر المؤسس الشاب لـ ح م ت و نفسه محظوظاً جداً . كان في وسعه ان يتباحث كل يوم لمدة ساعات مع احد قادة الثورة العالمية . وبصورة عرضية (لكن ربما لم يكن ذلك عرضياً الى هذا الحد . . .) كان مجرد اختيار اندريه ماري ان يسكن عنده يعادل تنصيباً . كان للحركة المصرية للتحرر الوطني اخصامها . فلقد انشأ هيلل شوارتز ومارسيل اسرائيل ، وآخرون ايضاً ، منظماتهم الشيوعية الخاصة بهم . وفي السباق الى الأولوية كان هنري كورييل متقدماً خطوات سلفاً بفضل البركة التي منحها السكرتير السابق للأمم المتحدة .

اما الرفاق اليونانيون فلقد حمل اليهم القدر على طبق الرجل الأقدر على فهمهم ونصيحهم : كان احد ثوار البحر الأسود يعرف كيف يتعامل مع قيادة رجعية .

أبدى ماري الكثير من الممانعة قبل أن يقبل بسماع المسؤول الرئيسي للمنظمة الشيوعية السرية داخل الفرق العسكرية . وقد تمت المقابلة أخيراً في سيارة هنري كورييل الذي بقي ، طيلة الساعتين اللتين تطلبتهما اللقاء ، يدور في ضواحي القاهرة لأسباب بديهة تتعلق بالأمن . كان ماري واليوناني جالسين على المقعد الخلفي . وكان الأول يؤكد الحديث الطويل لليوناني

بعلامات التدمير ولا بد أنه كان يستشعر فخاً منصوباً له . لقد ارهقوه بالنصائح حول ضرورة الحذر قبل سفره من موسكو ، وكانت طبيعته بالذات تجعله على الاحتراز ، وها هو الآن متورط في القصة العجيبة لفرقتين يونانيتين صغيرتين مستعدتين للتصادم مع الجيش البريطاني في أوج نزاع عالمي . . . يا له من وضع صعب ! يمكن تخيل الهزة في معسكر الحلفاء لو شاع الخبر بأن اندريه مارتى ، في منتصف الطريق بين موسكو والجزائر ، دعم مشروعاً يتعلق موضوعياً بتثبيط همة القوات أمام العدو . . . حين طلب اليوناني النصيحة في النهاية ، اجابه مارتى : « يمكنكم أن تنشروا بأعداد كثيرة المقال الذي كتبته حول اسطول طولون . . . » وأخرج من جيبه نصاً يدين الاميرالات الفرنسيين الذين فضلوا ، خلال غزو الوهرماخت ما يسمونه المنطقة الحرة في لحظة الانزال الأميركي في أفريقيا الشمالية ، أن يغرقوا سفنهم بدل المقاومة أو الالتحاق بميناء حليف . لم تكن العلاقة مع المشكلة المطروحة بديية لكن المسؤول اليوناني لم يستطع ان يستخلص من رفيقه سامي المقام الا الوعد بأنه سيعرض الموضوع على من يهيمه الأمر . وقد غادر مارتى السيارة وهو يتنفس الصعداء بشكل ظاهر ؛ وفي اليوم التالي طار مع زوجته الى الجزائر . كان التوقف قد دام أربعة أيام .

لم يعنّف مضيفه لأنه ورطه في موضوع متفجر ، وقبل بطيب خاطر طرود التموين التي ارسلها آل كورييل اليه في الجزائر . لا بل لعبت الرونبوان دور محطة الابدال بين موسكو والجزائر من أجل اىصال الادبيات الماركسية الى الشيوعيين المقيمين في افريقيا الشمالية . الا ان كل ذلك لم يكن ذا دلالة مهمة .

لكن المشكلة اليونانية بقيت وتفاقت . كان البحارة والجنود يتمنون الذهاب للقتال في اليونان ، يبدأ بيد مع مقاتلي الجبال ، لتوجيه ضربة نهائية لقوات الاحتلال المتفككة بسبب الهزيمة الايطالية . الا أن قيادة الحلفاء كانت تهيم على العكس رحيلهم الى الجبهة الايطالية . ثم في آذار 1944 ، شكلت المقاومة ، بعد أن باتت مهيمنة على قطاعات واسعة محررة بالقوة ، « حكومة الجبل » التي حاز برنامجها المؤلف من ثلاث نقاط موافقة الشعب بكثافة . وكانت النقاط هي التالية : تنظيم النضال الوطني حتى النصر ؛ إدارة المناطق المحررة ؛ ضمان سيادة الشعب بعد وقف الحرب . ورغم الرقابة الصارمة التي فرضها الانكليز وصل الخبر إلى جنود الفرقتين وإلى بحارة الأسطول . وقد اقترحت لجنة تنسيق تضم مندوبين عن كل الوحدات مشروع قرار ، جرى التصويت عليه بأغلبية واسعة ، يطالب باستقالة حكومة المنفى في القاهرة وتكوين حكومة وحدة وطنية تضم مقاومين من الجبل . لم يكن في الطلب شيء مبالغ فيه . وسوف يتم الوصول في نهاية المطاف إلى صيغة الوحدة الوطنية . لكن بالنسبة لونسون تشرشل ، لم يكن وارداً معرفة ما إذا كان الجنود والبحارة محقين أو غير محقين . كان يعتبر أن

اليونان جزء لا يتجزأ من منطقة النفوذ البريطاني . وبعد سبعة أشهر ، سوف يعقد في موسكو صفقة مرتجلة مذهلة مع ستالين ، لتاجر سجاد شكسبيرى (مع الفرق أن السجاد كان أعمأ) ، حيث يحتفظ أحدهما باليونان ، ويضع الآخر في جيبه بلغاريا ورومانيا ، ويتفق الاثنان على نفوذ متساو لهما معاً في يوغسلافيا ، وفي رأس كل منهما نوايا مضمرة . وقد رفضت السفارة السوفياتية في القاهرة أن تستقبل وفداً من الجنود اليونانيين جاء يسلم نسخة عن القرار .

لم يكن تشرشل مستعداً لتقبل إملاء قوانين عليه في مصاده اليوناني الخاص ، حتى ولو كان ذلك بواسطة مقاتلين يونانيين ، أكانوا مقاومين في الجبال أو جنوداً نظاميين . لم يكن النظام الذي يحتفظ به للبلد يشبه في شيء « حكومة الجبل » . وكان يعرف أن يكون ثابتاً لا يتزعزع .

طوقت الدبابات البريطانية الفوج اليوناني الرابع المتوقف في القصاصين ونزعت سلاحه . وفي هليوبوليس ، تم أيضاً نزع سلاح فوج مدفعية ؛ وجرى وضع 280 جندياً يونانياً في معسكر احتجاز . فتحركت الجالية اليونانية . تعاقبت اللقائات والمظاهرات في القاهرة والاسكندرية بمبادرة من القياديين التقدميين ، ومن بينهم قياديو ح م ت و . ورد الانكليز بتوقيف خمسين مسؤولاً نقابياً . ثم جاء دور وحدة متوقفة في القاهرة فتم نزع سلاحها . وبما أن الضباط من انصار ميتاكساس ، أحسوا بالريح تهب لصالحهم ، فقد قاموا بعملية من شأنها إبعاد خصومهم الديمقراطيين عن كل مناصب القيادة . فردت المنظمة السرية بعنف . قام الضباط والجنود الجمهوريون في الفرقة الأولى - أبطال العلمين - بتوقيف العصاة . وانتقلت الحركة إلى الأسطول الراسي في الاسكندرية . رمى بحارة المدمرة بيندوس ضباطهم الميتاكسين في الماء ، أو أقفلوا عليهم في قعر السفينة . وحصل السيناريوذاته على متن أربع سفن حربية ، من بينها الطراد افيروف ، حيث تولى القيادة ضباط ديمقراطيون .

دخلت هيئة الاركان الانكليزية في مفاوضات (كانت تقدر المقاتلين اليونانيين لكن تشرشل لم يكن يترك لها حرية التصرف) ووعدت بارسال الفرقتين الى الجبهة الايطالية إذا جرى اطلاق سراح الضباط المسجونين فوراً . وحصل الاتفاق ، واخلي سبيل الميتاكسين . إلا أن هيئة الاركان في القاهرة اشترطت مجدداً النزاع الكامل لأسلحة الفرقتين ، إما بنتيجة سوء نية أو بناء على تعليمات من لندن . فأجابت المنظمة المتمردة : « سوف نحفظ بأسلحتنا ، فهي معدة لتحرير الوطن . لقد كللناها بالمجد في البانيا ومقدونيا وكريت والعلمين ، ولن نسلها . فليتم إلغاء الأمر ، وإرسالنا فوراً الى الجبهة الايطالية⁽¹⁾ . »

(1) أورد هذا الكلام دومينيك أود ، Les

Kapetanios, la guerre civile grecque de 1943 à 1949 مكتبة فايار ، ص 174 .

في 11 نيسان قامت وحدات بريطانية مدعّمة بالدبابات بتطويق الـ 4500 رجل من الفرقة الأولى . وقد اختارت هيئة الأركان لأجل هذا العمل الغورخا الهنود ، وهم فرقة محترفة يستحيل تفهمها للدراما اليونانية . إذا وُجهت لهم الأوامر باطلاق النار فهم يطلقون . وقد جرى عزل السفن المتمردة في مرسى الاسكندرية بواسطة نطاق صحي بحري . وأبرق تشرشل في 14 نيسان ما يلي : « قبل اللجوء لاستخدام السلاح ، ينبغي بالتأكيد ترك انعدام التموين يفعل فعله أولاً ، في المعسكر وفي الميناء » . هكذا جرى فرض حصار صارم . كان المتمردون محرومين من الماء والطعام ، وهو ما جعل تمردهم لا أمل فيه في مدى غير طويل .

كان القتال دائراً في ايطاليا ، وعلى الجبهة السوفياتية ، وفي الشرق الأقصى . ملايين الرجال يتواجهون في نزاع لم يسبق له مثيل من حيث العنف ، رهانه انتصار الفاشية أو هزيمتها . هل من الحق بمكان خرق الوحدة المقدسة لدعم معركة الديمقراطيين اليونانيين ، حتى وإن كانت عادلة ؟ وهل يجب ، بسبب المشكلة اليونانية ، تعريض النفس للخطر المخيف المتمثل برؤية جنود حلفاء يطلقون النار على جنود حلفاء آخرين ؟

ردت المنظمات الشيوعية المنافسة لح م ت و سلباً . وبين القريبيين إلى هنري كوربيل ، كان هناك عديدون رفضوا اتخاذ موقف خطير . قال ابن خاله ، ريمون اغيون : « كنت قد شاركت في مساعدة اليونانيين ، لا سيما عن طريق تنظيم حملات جمع للمال . لكنني انفصلت عن هنري في فترة التمرد . فبالنسبة لي ، كان السير مع العصاة انحرافاً يسارياً . كنا في حرب ضد هتلر وكان يجب كسب تلك الحرب . » وكان لمارسيل ماسيكا رد الفعل ذاته . كان رجل أعمال ذا نفوذ عظيم في القاهرة (كان يمثل في مصر شركة بوساك التي كانت تشتري كل عام قسماً من محصول القطن لأجل مصانع النسيج الخاصة بها) ، وقد غدا ماركسياً وقام مع هنري كوربيل بجولة محاضرات متلاحقة ، كاتباً في الفترة بين رحلتين مقالات لقاموس حول « الفكرة الماركسية عن الحرب » كان هنري هو المبادر اليه . « بدأت انفصل سياسياً عنه بصدد قصة اليونانيين هذه . ذات يوم ، اصطحبني إلى الصحراء كي يجعلني التقى جنوداً يونانيين كانوا يختفون هناك . كان يريد أن أساعدهم . وقد تكلمنا مع رئيسهم ، أو بالأحرى مسؤولهم . لم أكن أفهم شيئاً من هذه القصة . وقد قلت لهم : « انت تعملون ضد الحلفاء ، اذن ضد النصر . هذا مستحيل » . تناقشنا طوال ساعات ، لكنني فشلت في أن أزحزحهما ، أقصد هنري والشخص المشار اليه . كان يمكن هنري أن يبدي عناداً غير معقول . كنت أحبه كثيراً لكن الحقيقة انه كان ستالينياً . أعني : عقلاً ستالينياً . القناعة بأنه على حق . رفضه أن يتزحزح . باختصار كان اللقاء فاشلاً وانصرفت وأنا اتساءل لماذا جئت إلى هناك . اليوم أيضاً ، لا أفهم كيف استطاع أن يقحمني في هكذا قصة . »

إنه رد فعل يمكن فهمه وتقديره . بالنسبة لكثيرين ، كانت القضية فصلاً مزعجاً ، نوبة ناشزة في كونشرتو الحلفاء ، لكن بوجه خاص تطوراً ثانوياً كان من المضحك التعامل معه على أنه رهان سياسي حقيقي . من كان بوسعه أن يتوقع أن يكتب مراقب فطن كأندريه فونتان عن الحمام القسري لبعض الضباط الرجعيين في مياه الاسكندرية الوسخة انه يسجل بداية الحرب الباردة ، جاريماً في ذلك وراء الصحفي الأميركي جيمس بورنهام ، صاحب نظرية الحرب الباردة تلك ؟

كان هنري كورييل قد أخذ موقفاً عادلاً من الحدث . كان يسلم بأنه لو كان عصيان عدة آلاف من الجنود اليونانيين يخاطر ضمن ادنى الحدود في تأخير انتصار الحلفاء ، لكان ينبغي ترك الديمقراطيين المحكوم عليهم بالجوع والعطش لمصيرهم . لكن الحرب باتت في حكم المكسوبة (بعد أقل من شهرين ، سوف يثبت صحة التشخيص إنزال نورمانديا) . وما كان أمراً فوق التصور عام 1942 أو 1943 لم يعد كذلك في ربيع 1944 . بات ممكناً مذاك مساعدة الديمقراطيين في معركتهم العادلة . وبما أن ذلك كان ممكناً ، كان ينبغي للتضامن الأممي أن يخدم دون تحفظ قضية الرفاق اليونانيين .

لم يكن كورييل - وهو ما رآه رودنسون وكان مصيباً في رؤيته - صاحب ايديولوجيا أو نظريات . (آه ! كم من العقوق والظلم في هذه الجملة الغادرة ، الواردة أعلاه ، التي أخذ فيها على رودنسون أنه لم يتم اغتياله . . . لو كان لا بد لموت رفيق قتال أن يؤدي بذويه إلى خطاب القديس سوليبس لكانت مهمة كاتب السيرة اقتصرت على سرد سير القديسين . ومن لا يدري أن ماكسيم رودنسون كان خاطراً طوعاً بحياته كي ينقذ حياة هنري ؟) . لم يكن صاحب ايديولوجيا ولا حتى صاحب نظريات ، لكنه كان محلاً يمتلك وضوحاً رفيعاً . كان الأول بين اصدقائه الذي ادرك قوة الشعور الوطني في مصر . وهو الوحيد عملياً الذي ادرك الرهان الحقيقي للمأساة اليونانية في مصر . لقد برهن طيلة حياته عن قدرة خارقة على أن يميز ، تحت الانتفاخ الحداثي ، الخط السياسي الصحيح .

وكان رجل ممارسة .

※

※ ※

من دون ماء ، كان المتمردون بلا أمل . لكن الأسطول كان يملك احتياطياً وقد نجح رجال الفرقة الأولى ، المطوقون وسط الصحراء ، في أن يحولوا جزءاً من الماء العابر في قناة

ضخمة تمر على مقربة منهم وهي اساسية بالنسبة للجيش البريطاني . لقد تم حل مشكلة . لكن تبقى مشكلة الغذاء . وقد تحقق تموين البحارة المتمردين بواسطة بعض مراكب الصيد المتسللة ليلاً من بين ثغرات الحصار . إلا أن الفرقة الأولى كانت محاصرة بشكل أكثر إحكاماً . ومرة أخرى استخدم هنري كورييل الموارد العائلية . كانت ملكية المنصورية ، التي آوت مدرسة للكوادر ، قائمة على حدود الصحراء : وقد أصبحت مستودعاً للمؤن . كان هنري وحفنة من الأوفياء يسوقون سيارات خاصة أو شاحنات محملة بالمؤن وبصفائح الوقود ، ماضين الى مواهيد خطيرة وسط الصحراء مع الرفاق اليونانيين . كان يمكن أن تنتهي كل رحلة تحت نار الرشاشات البريطانية : فالغورخا كانوا يطلقون النار لدى أي حركة مشبوهة . وكان التعب الناجم عن تلك الجولات الليلية ينزل بثقله لا سيما أن النهارات كانت مكثرة لعمل دعاوي كثيف : طباعة صحف سرية ، وبيانات ، ودعوات إلى الرأي العام ، الخ . لم يقاوم هنري النقص في النوم إلا عن طريق أخذ كميات عالية من البنزيدرين ؛ وهو ما سيبقي أعصابه مهزوزة لفترة طويلة . وكانت روزيت ، التي لا تتعب ، تبرهن عن جرأة تقارب التهور .

جرى إشراك العسكريين التقدميين الذين كانوا يترددون على الرونبوان في العمل . ويتذكر الرقيب الانكليزي سام باردل ، الذي بات صديق هنرييت ، المستخدمة في المكتبة ، بعد لقائهما على الحدود الفلسطينية ، يتذكر رحلة ذات طابع كارثي الى الاسكندرية بهدف إيجاد اموال . كان ثمة احتياج بالغ الإلحاح الى خمسة آلاف جنيه . وكانت البنوك مقفلة بعد ظهر ذلك السبت . فجمعت المناضلات المحليات المال بأن رهنّ حلاهن . قام رقيب اميركي ، اسمه آل كوشلر ، كان طوعه باردل ، قام بعدة رحلات سرية سائقاً شاحنته لتسليم التموين : كان الغورخا يفتحون له الطريق تحت تأثير رباطة جأشه اليانكية . لكن ما الفائدة من ايراد أسماء معدّة لتغذية احشاء الدماغ الالكتروني الكبير في لانغلي (فرجينيا) ولتضخيم الملف المحتمل لأحفاد هؤلاء الناس الطيبين ؟ كان قد ولد في كوفانستري الضابط الانكليزي الذي نجح في إخفاء حولة من البيانات المعدّة لإلقائها على المتمردين حاضّة إياهم على الاستسلام . وبفضل مساعيه الحميدة ومطبعة هنري كورييل السرية ، ألقت الطائفة آلاف البيانات التي تحث المحاصرين على الصمود . . .

راحت الشرطة العسكرية تضاعف تحقيقاتها وتوقيفاتنا في القاهرة وفي الاسكندرية لتفكيك منظمة الدعم . وقد جرى تفتيش شقة آل كورييل مراراً .

فقد تشرشل صبره . كان الضباط الديمقراطيون في الطراد أفيروف قد أوصلوا الى هيئة الأركان في القاهرة الرسالة التالية : « سوف نصمد طالما لم تؤخذ مطالبنا بالاعتبار ، لكننا نتعهد بألا نستخدم اسلحتنا في أي من الأحوال » . فأبرق تشرشل الى الأميرال الانكليزي بما يلي :

« لا تترك أي وهم لدى ضابط الأفيروف : لن نبادله بالمثل بما يخص ما أعطاه من ضمانة بعدم استخدام سلاحه ضدنا . سوف نطلق النار على العصاة في كل مرة يكون ذلك ضرورياً » . أما الجنرال باجييه ، المسؤول عن حصار الفرقة الأولى ، فكانت مهمته محددة دون أدنى التباس : « سنكون مستعدين لاستخدام للقوة غير محدود ، لكننا سنتحاشى المجزرة اذا كان ذلك ممكناً »⁽¹⁾ . وقد بدأ الهجوم في ليل 23 نيسان على السفن المتمردة . وفي غضون دقائق سقط من بين المتمردين 12 قتيلًا و 30 جريحاً . ولورد هؤلاء على النار بنار مدافعهم الثقيلة لتعرض أسطول الحلفاء الراسي في المرسى للاحتراق الشامل . فالإفستوس ، وهي سفينة خفيفة ، كانت تحمل 39 طوربيداً . لقد فضلوا الاستسلام . وفي الغد ، ألقت الفرقة الأولى بدورها السلاح لتفادي إهراق الدم .

لكنهم لم يسقطوا جميعاً في الشبكة الانكليزية . فالأكثر حزمًا أو الأكثر تورطاً - عدة مئات - انسحبوا عبر طرقات الصحراء واختبأوا كيفما استطاعوا . وقد نظم هنري كورريل استعادتهم ، ثم توزيعهم على مخايء مضمونة في القاهرة والاسكندرية . وشتت الشرطة الانكليزية على السريين مطاردة لا هوادة فيها ، غير مترددة في أن تستعمل التعذيب الوحشي ضد من كانت تقبض عليهم كي تجبرهم على كشف التنظيم . وكانت إحدى طرق التعذيب المفضلة لديها ان تحيط رأس الاسير بحبل وتضغط الى الحد الأقصى : كان الألم فوق الاحتمال .

لا شك ان الزوجين كورريل ، المعروفين طبعاً لدى الشرطة السياسية المصرية ، كانا معتبرين ضمن ملفات الأجهزة البريطانية ، ضمن ذلك الطرف ، خصمين مهمين . ان الملف الذي سيتبع هنري كورريل حتى موته ، من عاصمة الى عاصمة ، قد تم فتحه في القاهرة في ربيع 1944.

تعرض لعدة حالات حرجة ساخنة . فذات يوم ، بدل ان يجد في الموعد المضروب معه الفارين المتوقعين ، وجد 17 رجلاً ينبغي نقلهم وتأمين النامة لهم . وقد حاله الحظ فأخفاهم عن الدوريات وعثر على المخايء الضرورية . وفي مرة ثانية ، كان ينبغيء مسؤولاً يونانياً في شقته الخاصة به - وكانت تلك مخالفة لقواعد الأمن فرضتها الضرورة إذ كانت المخايء المضمونة مزدحمة - فطوقت الشرطة العسكرية الانكليزية المبنى وبدأت تفتيشه بدقة ، طابقاً بعد طابق . كان الوضع يبدو يائساً . لكن الزوجين كورريل كانا وضعاً إحدى الغرف بتصرف رفيقة شابة ، هي روث غريش ، المنخرطة الى ابعد الحدود في دعم اليونانيين (كانت تحشو عربة طفلها بالبيانات وتقررها من تحت ذقن الشرطة) . كانت روث تستقبل في ذلك اليوم

(1) أورد هذا الكلام دومينيك أود ، المرجع المذكور ، ص 178.

صديقها وزوجها لاحقاً ، روبر براونينغ ، وكان استاذاً جامعياً انكليزياً قيل إنه يعرف عدداً كبيراً من اللغات الى حد أنه لم يعد يعرف عددها . كان الكولونيل براونينغ تقدماً وكان احد مسؤولي الارتباط في الانتليجانس سرفيس بالقاهرة مع المقاومة اليوغسلافية . وقد لبس ثيابه العسكرية واخذ المسؤول اليوناني من ذراعه وخرج معه من المبنى ، متلقياً تحية رجال الشرطة الذين وقفوا في وضع التأهب .

دامت المطاردة ستة اشهر طوال . كانت تثبت ارادة تشرشل شل المناضلين ، المحتمل ان يعارضوا خططه ، حتى آخر واحد منهم . لكنه كسب الجولة ، حتى إذا كان عدة عشرات من الفارين أفلتوا من شرطته . فعشرة آلاف جندي وبحار يوناني ، مهزومون ، ومنزوعو السلاح ، ومهانون ، كانوا ينتظرون نهاية الحرب في معسكرات اعتقال بريطانية في ليبيا والحبشة . لم يُسمح لهم بالعودة الى اليونان الا في نهاية عام 1945 ، وعلى دفعات . لقد انتهى الجيش الديمقراطي ، وهو لن يزعج استعادة الزمرة الملكية للسلطة . كان ذلك هو هدف العملية الوحيد .

وقد تُمّت رؤية ذلك بوضوح حين نظم تشرشل في لبنان ، في الشهر الذي تلا سحق التمرد مؤتمراً يضمّ مثلي حكومة المنفى ومبعوثين من قبل المقاومة الداخلية . ومن الغريب ان تكوين حكومة وحدة وطنية ، المطلب الأساسي للجنود الديمقراطيين ، لم يثر أي صعوبة مبدئية . وقد تمّ انتزاع إدانة صارمة للتمرد من المقاومين ، الذين تمّ التلاعب بهم بمهارة ، بحيث انضاف الى مرارة الهزيمة التي مني بها الجنود المسجونون شعورهم باليأس بسبب تخلي جماعتهم عنهم .

حين غادر مصر المسؤول الرئيسي عن الحركة ، قال له تري كوريل الذي كان قد خبأه طوال ستة اشهر : « لن ننسى أبداً ما فعلته لأجلنا . نحن لا نفتقر الى الإمكانيات في اليونان . وسنكون في المستقبل أقوى بكثير . لقد بات وضعك حرجاً . واذا تفاقم أرسل لنا اشارة : سوف نرسل اليك غواصة لإخلائك وجعلك في مأمن » .

كان الوعد مؤثراً لكن المستقبل مني بالفشل . .

إن المقاومة التقدمية ذات التوجه الشيوعي ، التي كانت تعرضت للهزيمة في مصر ، وللخديعة في لبنان ، كانت قد فازت مع ذلك في اليونان . فعلى غرار جارتها اليوغسلافية ، كانت قد حررت لوحدها التراب الوطني بأكمله ، قاتلة اكثر من عشرين ألف جندي الماني . كانت تتمتع بالدعم الكثيف من السكان ، ولم تكن السلطة على اطراف بنادقها ، بل في يدها .

كان ذلك من دون حساب تشرشل .

جرى استقبال الوحدات الانكليزية الأولى ، التي نزلت في ميناء البيره في تشرين الثاني 1944 ، جرى استقبالها في اثينا بالبهجة الشعبية . وقد وصلت الفرقة الهندية بدورها ، وكان ذلك فآلاً سيئاً . فحين تكون قوة ردع كافية موجودة تحت اوامر الجنرال سكوي ، يحصل الاستفزاز المتوقع ؛ اطلقت رشاشات غامضة النار على جمهور متظاهر ضد عودة سياسي النظام القديم ، فسقط 28 قتيلاً وأكثر من مئة جريح ، وكان لتشرشل ما يحتج به . ابرق الى سكوي يقول : « علينا ان نسيطر على أثينا . وسيكون ذلك امراً عظيماً لو استطعت ان تحققه من دون اراقة دماء ، لكن كذلك مع إراقة دماء ، اذا كان ذلك محتوماً . . . لا تردد في التصرف كما لو وجدت نفسك في مدينة محتلة اندلع فيها عصيان محلي » . وسوف يعلق على ذلك في مذكراته كاتباً ما يلي ؛ « هذه الأمور ينبغي ألا تحصل بصورة نصفية »⁽¹⁾ .

دامت المعارك 33 يوماً وسقط الدم اليوناني من جديد على بلاط الشوارع في اثينا . وعلى الجدران ، كانت نقوش تصبح : « لقد عاد الالمان » .
وبالتأكيد ، انتصر سكوي .

كتب اندريه فونتان : « نجاح قابل للنقاش اخلاقياً » . وهي ادانة قاسية ، بريشته . كانت مجزرة وقحة لا يبررها أي شيء ، ولا حتى التطهير الذي كان بدأ في ظل السيطرة الشيوعية والذي بدا قاسياً - وأحياناً وحشياً - بالقدر الذي كان يمكن توقعه في بلد خضع للديكتاتورية الفاشية خمس سنوات ، ثم للاحتلال النازي طيلة سنوات أربع . مجزرة مأساوية علماً أن التاريخ كما تتلم كتابته يمر بطمأنينة وهدوء ، بمكاسب وخسائر ، مثلما لا يقف موقفاً بالغ الصرامة من الاستعمار الفرنسي الذي اجهز على 30 ألفاً أو 40 ألفاً من الجزائريين في ولاية قسنطينة في 8 أيار 1945 ، يوم النصر . كل شيء هو مسألة تاريخ ، وربما أيضاً مسألة ريشة . تبقى بودابست 1956 في كل ذاكرة : من الذي لا يزال يعرف ان أثينا كانت في عام 1944 مكاناً لجرمة نكراء اقترفتها بدم بارد انكلترا ، « أم الديمقراطية » ؟

سوف يقول هنري كورييل فيما بعد : « شكلت القضية اليونانية بالنسبة الينا بلوغ النضج ، سن الرشد السياسي » . كانوا قد رأوا الامبريالية مكشوفة الوجه .

(1) اندريه فونتان ، مرجع مذكور ، ص 250.

الحركة المصرية للتحرر الوطني .

لكن كذلك الطليعة ، الفجر الجديد ، العصابة الماركسية ، القلعة ، الايسكرا ، نحو حزب شيوعي مصري ، تحرير الشعب ، نواة الحزب الشيوعي ، النجم الأحمر ، وحدة الشيوعيين ، الخ . ، وكل من هذه المنظمات تفرقت تكتلات جديدة على هوى الأزمات والانشقاقات المتواصلة التي كانت تهز العالم الصغير الشيوعي في القاهرة . لو ان بوفون Buffon* من عالم السياسة نجح في تصنيفها ، فلقد كان ثمة حاجة لواحد كشارلوك هولمز كي يكتشف تحت زهور المظاهر النواة الصلبة للحقيقة . كانت القلعة تدّعي ان لديها مئة ألف منتسب في حين لم تكن تضم اكثر من خمسين (ليس خمسين الف بل خمسين . لكن الزعيم نجح في جعل الخمسين الشجعان يظنون بأن الآخرين ينتظرون ساعة الصفر في اقصى درجات السرية) . وهاكم ظاهرة نادرة في السياسة : كان ثمة منظمة لم يزد عدد اعضائها عن منتسب واحد ، هو مؤسسها . كان الحزب الشيوعي لشعوب وادي النيل يضم تحت اسم مؤثر عدة عشرات من مستخدمي خزانة الدولة ، وكان معروفاً باسم الحزب الشيوعي لمصلحة الضرائب . واذا استثنينا هذه الشواذات الهامشية ، يمكن تقدير أن حوالي عشر منظمات تطلعت جدياً تقريباً لأن تغدو الحزب الشيوعي المصري - كان ذلك كثيراً - ، وان ثلاثاً فقط كان في وسعها ان تطمح الى ذلك - كان ذلك كثيراً ايضاً : وهي ح م ت و بقيادة هنري كورريل ، والايسكرا التي أسسها هيلل شوارتز ، وتحرير الشعب التي أسسها مارسيل اسراييل .

عام 1943 كان هيلل شوارتز في العشرين من عمره ، صغير القامة ، نحيلاً ، وذا وجه بالغ الجمال يشع بالذكاء . كان اهله من اصل روماني ، لكن ذوي ثقافة فرنسية ، وقد وجدوا أنفسهم محتجزين في مصر خلال رحلة سياحية بسبب الاعلان المفاجيء للحرب عام 1914. كان الوالد طبيباً ، وكان يكره رومانيا . وقد انخرط في الجيش الانكليزي ، ووصل الى رتبة مييجور ، واستقر في مصر في نهاية الحرب . كان واحداً من اولئك الرجال بالغني النضارة والمثيرين متاعب للعائلة : زير نساء ، ومقامراً ومبارزاً بالسيف . وفي الوقت ذاته طبيباً جيداً ، مع زبائن مرموقين من بينهم حتى العائلة الملكية المصرية . وكانت طفولة الفتى هيلل عادية في بيئته : بيت فخم مزدحم بالخدم ، سفرات سنوية الى فرنسا (كانت الإقامة تطول حين يرغب الوالد في ان يكون مطمئناً في القاهرة مع عشيقته له) ، احتقار للسكان الاصليين (تقول له الوالدة : « أنت وسخ كعري ») ، وكان الوالد ينظر الى المصريين كما لو كانوا في مرتبة ادنى من مرتبة البشر ، مع انه كان يدعي الانتهاء الى اليسار ، لا بل يعتبر نفسه شيوعياً) . وتكمن

* كاتب فرنسي في القرن الثامن عشر [1788-1707] (م) .

فرادة هيلل شوارتز بين منافسيه ورفاقه فيما بعد في أنه بحث في السياسة عن مخرج من صعوبات حميمة مرتبطة بتمرد تقليدي ضد العائلة : « بعد أن عادت أهلي ، كرهتهم . أدركت ان أبي رجل فظ ومتسلط ؛ وان أمي شيء بائس » . وقد اوصلته قراءاته وكتاب الفلسفة لكوفيليه الى الماركسية . وهو مسار نموذجي لثقافة اوروبي شاب . ينقصه الختم المصري الذي سيبقى مطبوعاً به كورييل واسرائيل الى الأبد : الاكتشاف الفيزيائي ، المثير ، لبؤس سحيق . وفي حين لم يكن الآخرين يتصوران للحظة واحدة ان يعملوا خارج مصر ، لم يقرر شوارتز ذلك إلا لأن الحرب احتجزته : « كنت ارى عملي السياسي في الخارج . فمصر لم تكن تهمني إطلاقاً . كنت اجد البلد بشعاً وكريهاً وكانت فرنسا المنارة الوحيدة . كنت احتفظ بذكرى خارقة عن إقاماتي في فرنسا ولم اكن اتطلع الا الى العودة اليها » .

لم يؤد لقاءه مع «موفد الكومنترن الى القاهرة» الغامض الا الى حوارات مملّة تافهة كان يحرفه عنها فخذاً غايي أغيون . لذا تحلى هيلل الشاب عن ارادته الحازمة ان يفعل شيئاً . وكان يائساً . وجدته القنصلية الاسبانية صغير السن فلم توافق على تطوعه في الفرق الأرمية ، وكانت احوال اهله تسوء . فالوالد كان يعزل بسبب ارتباطاته الصاخبة ومبارزات مضحكة . وقد ضجر زبائنه من معاملته إيهم ككلاب فتوقفوا عن التردد على عيادته . ولم يبق غير خدام واحد في المنزل . وكانت تحصل نزاعات بصدد المال . « لم تكن تلك هي الضائقة ، لكن لم تعد العائلة في حالة ازدهار » . كان على هيلل ان يعمل . وقد تم العثور له على وظيفة ناسخ في شركة دلمار الصيدلانية . لم تكن رداءة الفترة الأولى مهمة لأن عرابه كان مالكا للمخازن الكبرى سيكوريل : « تبدأ من اسفل السلم لكنك ستنتهي في اعلاه » . لم يكن يهيمه ذلك ، وكان في أقصى درجات الضجر . كانت إحدى مهماته ان يسأل عن طرق استعمال بعض الأدوية لدى حربيّ - طبّاع من الجنسية المصرية . وكان الرجل ودوداً . وكانا يتفاهمان عن طريق خليط من الفرنسية والانكليزية والعربية . وقد كان ذلك كافياً كي يفهم شوارتز رغبة محاوره في أن ينطلق في العمل النقابي . ثمّة حاجة لصحيفة ، فأين يمكن العثور على المال اللازم لذلك ؟ قرر شوارتز ان ذلك بسيط جداً : « سوف أضحّم الطلبات بخصوص النشرات الدعاوية وتدفع أنت ثمن الورق من الفرق » . وسوف يضع هيلل فوق ذلك كل اجره الشخصي تقريباً . (وقد شارك في المشروع شخص ثالث هرب هو الآخر من النقاشات الماركسية المملة ، لكن سرعان ما سيختفي ، لأنه كان يهودياً من الجنسية الانكليزية فجرت تعبته عام 1941).

وقد صدرت جريدة اليراع . وكانت اسبوعية تصدر باللغة العربية . « حسب معلوماتي ، اول جريدة عمالية تصدر في مصر » . كان الحرفي ، زكي ، وحفنة من النقابيين

يجررون المقالات . وهاكم هذا الاعتراف المتواضع والرمزي الى ابعد الحدود ، على لسان شوارتز راهناً : « لا يمكنني ان اقول ما كانت قيمة اليراع ، لأنني كنت عاجزاً عن قراءتها . كان زكي يترجم لي مقالاً من حين لآخر . لقينا بعض النجاح وتعرضت جريدتنا مراراً للمصادرة من جانب الشرطة . وقد كنا نعود الى الظهور تحت عنوان آخر . هكذا تشكلت نواة صغيرة من المناضلين العماليين ، انضاف اليهم عدة حرفيين مصريين عرّفني عليهم مارسيل اسرائيل . كان لدينا انطباع بأن شيئاً ما في طور الاقلاع » .

قطع رومل التجربة بأن اضطر هيلل شوارتز للانكفاء الى فلسطين . وحين عاد الى القاهرة بعد ثلاثة أشهر ، قرر هو واصدقاؤه اعطاء بنية لمجموعتهم بالتشكل في حزب سياسي ، وكان الاسم الذي تم اختياره هو « الشرارة » ، وكان يحيل بالبداية الى الايسكرا المشهورة الخاصة بلينين ، لكن الجميع سيستخدمون الكلمة الروسية عائدين بالضرر على عملية التمهيد .

كان الهدف هو الوصول الى حزب شيوعي مصري اصيل . وكان الشرط الأول بالنسبة لشوارتز واصدقاؤه هو تكوين كوادر سياسيين . ستكون الايسكرا إذن مشتل كوادر يتكونون في مدرسة النظرية والممارسة المزدوجة ، ويُعدّون لتقديم طليعة الثورة المصرية . وكان هدف هذا الطموح يفترض اختياراً صارماً للمرشحين للانتساب ، لن تكون الايسكرا احد نوادي النقاش الرائجة آنذاك حيث كان الشبان البورجوازيون القاطعون مع طبقتهم يأتون ليمارسوا طيشهم لسياسي . كان ينبغي ان يحصل كل مرشح على تركية مناضلين اثنين وان يتبع عدداً من الدروس التمهيدية . وبعد ان كان يمر في الامتحان ، ويحصل على عتاد ماركسي ، كان يتم منحه شرف الانتساب ، وضمّه الى خلية . كان الحزب يعمل بالطريقة الهرمية ، مع الفصل الأفقي بين الخلايا ، حيث لا يكون مبدئياً لكل منها (الخلية - الإبنة) اي اتصال الا مع الخلية - الأم في الدرجة الأعلى . وكانت لجنة مركزية تقود المجموع وتوزع المهام حسب القطاعات . إذا كان التكوين النظري الداخلي يشكل الجانب الأساسي من العمل ، فلايسكرا كانت تعد نفسها للتدخل في الحقل السياسي بواسطة جريدتها الأسبوعية الجماهير ، وكانت تُلقى في دار البحث العلمي محاضرات حول الموضوعات الأكثر تنوعاً يتابعها الطلاب المصريون بكثافة . وكانت النقاشات ذات مستوى اعلى بوضوح من مستوى المنتديات الدراسية المتنوعة او الحلقات التي تجتاز الترجمة الشائعة للماركسية . لقد انتزعت الايسكرا في الأخير الإشراف على رابطة قدامى تلامذة الليسيه الفرنسي في القاهرة ، حيث درس معظم مناضليها اللغات والآداب القديمة ، لكن هذا المكسب ، قليل الأهمية على المستوى السياسي ، عاد عليها بسخرية خصومها . كان هنري كورييل يردد ببسمته الحارة : « لا شك ان لهيلل قماشة قائد

عظيم ، لكن لرابطة الليسيه الفرنسي » .

من الغريب ان مارسيل اسراييل كان قد أُجِلَّ من الخطيئة الاصلية للانتماء الى البورجوازية . فالى اليوم لا يزال رفاقه القدامى يكبرون شظف حياته ويتكلمون عليه كما لو انه طفا من اعماق البروليتاريا المصرية . « كان عاملاً » . . واذا كان والده قد اضطر لبيع مصنعه للنسيج في ميت غمر ، على بعد ساعة ونصف من القاهرة ، وللاستقرار في بيت قائم في حيّ عربي (يا للمصيبة !) ، الا أن خلفاءه في المصنع تعاقدوا معه بصفة كادر ، وكان يحتفظ في القاهرة بشقة يسكن فيها مارسيل ، كما كان يقدم لهذا الأخير معاشه دون تردد . وكان لوالد مارسيل جدة تسهلّ للأخير نهايات شهوره بأن تضع في جيبه قطعاً من الجنيهات الاسترلينية الذهبية ، لكن جدات الوالد زائلات . وحين بات العمل ضرورياً للقيام بأوده ، اشتغل كأمين مخزن في مصنع يصنع أنابيب اسمنتية ، ثم اشتغل في بورصة القيم في القاهرة ؛ وهي اعمال غير مفعمة بالفرح ، بالتأكيد ، لكنها ليست قسمة معذبي الأرض . يبقى انه لم يخرج من قصر في الزمالك ، وان والده لم يكن لا محامي الملك ولا طبيباً وان قدره كان لا بد ان يبدو جديراً بالعطف بالنسبة لمعظم رفاقه . وكان يتميز عنهم بأنه يتكلم لغة البلد بطلاقة ، وهذا امر مهم ، يضاف الى ذلك شخصية غير عادية . ان الرجل الذي بلغ الآن السبعين من عمره ، لا يزال يحتفظ بحيوية لا مثيل لها ، وبدينامية مدمرة ، وبشهوة الى الحياة والعمل لا تشبع : في العشرين او الثلاثين من العمر ، كان لا بد ان ينتمي للنسبة اللاحمة اكثر مما لليلة المصعوقة .

كان .سكريبتراً للاتحاد الديمقراطي ، ثم ابتعد عنه بعد خلاف مع هنري كورييل : « كان هنري قد ادخل كل اصدقائه البورجوازيين الكبار وتحول الاتحاد الديمقراطي الى اتحاد ارسقراطي . كان مقرنا احد الامكنة الأكثر ترفاً في القاهرة . لم اكن ارى فائدة ذلك . كنت اعتقد ان الاتحاد يجب ان يكون حوض سمنك ، بما يتجاوز عمله لصالح المعسكر الديمقراطي . وكنت أريد ان اجلب اليه موظفين مصريين في سن الشباب ، ومثقفين وفقهاء . لكنني وجدت نفسي محاطاً بسيدات يرتدين الفرو . لذلك مضيت . كان ذلك عام 1939 . كنت اعرف بارون جيداً ، وكان استاذاً في الليسيه الفرنسي ، عضواً في الحزب الشيوعي الفرنسي ، ولديّ ما يخولني الاعتقاد بأنه كان على اتصال بميدويان ، مندوب الكومنترون الى الشرق الأوسط . وقد عرفني بارون على طاهر المصري ، الذي كان انتسب الى الحزب الشيوعي الفرنسي خلال دراسته في باريس . فقدمت اليه الرفاق العشرة الذين كنت عرفتهم على مبادئ الماركسية واسسنا في عام 1940 تحرير الشعب ، اول منظمة شيوعية سرية في مصر » .

كانت هناك جمعيتان شرعيتان تتيحان العمل تحت غطاء . كانت خبز وحرية تعمل في وسط عمالي (هذه هي المجموعة التي سيقفون فيها لبدن ، المتدرج لاحقاً في مدرسة هنري

كوريل للكوادر ، ان يستمع الى الشاعر انور كامل يركز بالماركسية في ظلال الأهرام) . أما الثقافة وأوقات الفراغ ، التي كانت تحركها جانيت اسرائيل ، فتوجهت الى المثقفين المصريين . «على امتداد عام ، لم أتوقف عملياً عن اعطاء دروس في الماركسية . وكانت النتائج مقنعة . كنا نكوّن المزيد من الكوادر . وعام 1941 ، كتبت أنا ورفيقان مصريان كراساً يعرض مطالب الطبقة العاملة . وقد كان رد فعل السلطة فوراً وشرساً ، حيث أُلقي بكامل المجموعة في السجن . وبقي الرفاق معتقلين طيلة شهرين ، اما انا فجرى نقلي الى معسكر اعتقال خاص بالفاشيين بسبب جواز سفري الايطالي . وانا احتفظ من حياة المعتقل بذكرى قائمة جداً . ففي كل مرة كان رومل يقترب ، كان حراسنا البريطانيون يهددوننا بالموت . وقد استحصلت بعثة جورج غورس الفرنسية على اطلاق سراحي ورحلت الى فلسطين ، حيث بقيت عاماً ونصف العام انا وزوجتي في أقصى درجات الاملاق . كنت أناضل داخل الحزب الشيوعي الفلسطيني محاضراً في الماركسية .

« لدى عودتي الى القاهرة ، في نهاية عام 43 ، استدعاني رئيس الشرطة السياسية المصرية . وقد اعطاني نصيحة أبوية بأن أتعتقل . ثم التقيت هنري مجدداً ، وكان لا يزال ساحراً وأخذاً ، مع قدرته الخارقة على الاستماع وفن بدء محادثته انطلاقاً من آخر جملة يقولها المحاور - كان مدعاة للغبطة ان يناقش المرء معه ، كنا نحس بأننا اذكىء . دعاني بـ « الرفيق القديم » وقال لي : « تعال الينا ، فمكانك في قيادة الحركة المصرية للتحرر الوطني (ح م و) » . وقد حدثت بذلك اصدقائي المصريين ، فنصحوني بدخول لجنة ح م و نيادية ، حضرت اجتماعين في شقة جوماتالون . كان البراد ممثلاً دائماً . والعامل الوحيد ، وكان ارمنياً ، كان يأكل بشراهة بحيث ينام . جميع الحاضرين كانوا من اصل اجنبي . ويبدو انه كان هناك لجنة قيادية اخرى تضم بعض المصريين . لم يبد لي كل ذلك جدياً ، وقد أعلمت اصدقائي بما رأيت . فنصحوني بالانسحاب واعدنا تكوين مجموعة تحرير الشعب . كنت الوحيد غير المصري . وكنت اعمل في القاعدة معطياً دروساً في الماركسية . لم يكن وارداً بالنسبة لي ان اطمح للعب أي دور قيادي . لم انس الدرس الذي اعطانيه ميدويان قبل الحرب : « اين هم المصريون ؟ » كان عليهم هم ان يمسكوا بدفة القيادة . لكن صحيح انه كانت لي مكانة خاصة تقريباً بسبب علاقتي الأمية . فأنا الذي أوّمن الاتصال بنقولا الشاوي ، القيادي الشيوعي اللبناني ، وبقية الحزب الشيوعي الفلسطيني .

« بقيت على علاقة ودية جداً مع هنري ، الذي كنت أراه باستمرار ، لكننا لم نكن نعمل على الخط ذاته » .

ثلاثة تماسيح في الخليج المصري . لماذا إنكار لعبة الطموح البشري ؟ كانوا على يقين بأن مصر تنتظر لينينها وكان كل واحد يقدم ترشيحه - على الأقل حتى الاستيلاء على قصر الشتاء . كانوا يعرفون ان اصلهم يجبرهم على الاعياء لكن هذا لم يكن يضايقهم . لم يكن طموحهم رديئاً . كانت الثورة تثير حماسهم ، في حين ان السلطة ستكون لآخرين . في منتصف القرن ، لم تكن لتراود أي شيوعي الفكرة الخرقاء التي مفادها انه يمكن الأصل الأجبي لأحد الرفاق ان ينتزع منه الصفة التي تخوله القيام بعمل ثوري في بلد من البلدان . فالأهمية كانت ترسل خبراءها على وجه السرعة الى النقاط الحارة للصراع الطبقي العالمي : بورودين الى الصين ، وفريد الى فرنسا ، والترالى اسبانيا . فلماذا لا يكون كورييل او شوارتز او اسرائيل في مصر ؟ لكن كان هناك اثنان زائدان .

ثلاثة يتامى للأمية . قد يكون من الظلم الكبير ان نتصورهم زعماء صغاراً واثقين من انفسهم ومتسلطين يتوقون للحكم دون شريك على الاقطاعة المصرية . لو ان ستالين لم يحل الكومنترن عام 1943 لأسباب ذات طابع دولي ، ربما كان تغير قدر مصر لأن التبعر المميت للقوى الشيوعية ما كان قُيَض له أن يحدث . ففي أي لحظة كان يمكن ان تنصّب فيها موسكو أياً من المنظمات المتخاصمة كان سيؤدي ذلك الى انضمام كل الاخريات اليها من دون تردد او تذر . وفي غياب منح هذا التنصيب من الأعلى ، جرى استجداؤه دون ملل من الأسفل ، لكن بصورة بالغة الصياح وانعدام التماسك بحيث انه لم يأت أبداً . كانت كل من المجموعات المتنافسة تستخدم اتصالاتها الدولية للحصول على الأقل على تجريد الأخريات من الأهلية . ولقد حصل عام 1942 ، إبان الانكفاء الاستراتيجي الذي فرضه رومل على فلسطين ، ان حاصرت الشلل المصرية الحزب الشيوعي الفلسطيني ، المسموع جداً في موسكو ؛ وإذا كان يصعب على اي منها ان تقدّم كشف حساب ايجابياً أو آفاقاً ملموسة ، فلقد كان اغتيال الشلل المنافسة اسهل . وسرعان ما تولد لدى القياديين الاجانب انطباع بأن الشيوعيين المصريين ليسوا غير حفنة من البورجوازيين الصغار او الكبار المنخرطين في معارك ديوك لا تغتفر تنتمي الى العمل السياسي المبتذل اكثر مما الى النضال الثوري .

كان التنصيب المنشود بكل ذلك الحماس يتوقف مذاك على الحزب الشيوعي الفرنسي . كانت القاعدة السائدة ان يتبع شيوعي بلد مستعمر الحزب الشيوعي في الدولة المستعمرة . هكذا فإن الحزب الشيوعي كان يوجّه عبر احد اجهزته المسمى مكتب المستعمرات - ونحن هنا لا نخترع - المنظمات الشيوعية في الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية ، التي لم يكن يضجر من الترداد على مسامعها ، وفقاً لتصور سياسي يعقوي ، ان انتصارها سيكون النتيجة المحتومة لانتصار الاشتراكية في فرنسا . كان ينبغي ان يكون الحزب الانكليزي هو « الأخ الأكبر » ،

الطبيعي للشيوخ المصريين ، بيد ان هذا الحزب بقي شيئاً صغيراً جداً ، وكان اشعاع فرنسا في مصر عظيماً (دون الكلام على القرب الجغرافي من لبنان وسوريا) لدرجة انه جرى اختيار الحزب الشيوعي الفرنسي ليوجه خطى الرفاق المصريين على طريق الثورة . شهدنا إذن ، منذ نهاية الحرب مساراً مثيراً لا سابق له في تاريخ الحركة الشيوعية العالمية : اتفقت مختلف المنظمات المصرية على ان يبحر على أول مركب متجه الى فرنسا - فيل دو لومير - وفد مؤلف من ممثلين عن كل شلة كي يستمع « الأخ الكبير » الى المرافعات وقرارات الاتهام ، ويصدر حكمه عن خبرة . كانت الرحلة كثيفة ، ينظر المندوبون بعضهم لبعض خلالها بغضب ؛ جاءت النتيجة خيبة لآمال . كان على رأس مكتب المستعمرات كل من اندريه ماري ، وليون فييكس ، وايلي مينيو - وكانوا رجالاً مقدودين من صخر ، مكونين في المدرسة الستالينية الصارمة ، غير حساسين تجاه العواطف المرفهة المصرية ، يحفزهم مبدئياً حذرهم حيال المنشقين عن البورجوازية الكبرى ، وعلى علمٍ فوق ذلك بالسوابق البائسة للحركة الشيوعية المصرية . وقد حرص مكتب المستعمرات على الوحدة وهو امر كان ينبغي فرضه . لكن كان ذلك يعني اجبار النفس على الاختيار . ولم يكن الاختيار سهلاً بين ابن صاحب المصرف في الزمالك وابن طبيب العائلة المالكة المصرية . حتى شخص كمارسيل اسرائيل كان يمثل بالنسبة لمارتي او مينيو بروليتارياً متأنقاً بعض الشيء . وكانت الخصومات بين الرجال قوية الى حد انها كانت تخفي الفروقات بين البرامج والخطوط السياسية التي كان يجب ان تقدم مقياس الاختيار الأكثر جدية .

بعد أربعين سنة ، وفي حين مرت محذلة التاريخ على الرجاء العظيم الذي حرّك شباب المحاربين القدامى ، لا تراهم يسهلون مهمة الباحث . ما زال المفى يحتفظ في مادة الفورمول الخاصة به جنين المعركة الجهيـض ، لم يحمـد زنجار الزمن بريق الخصومات ، وأولاد الستين عاماً يتذكرون بحماس المراهقين الانحرافات اليمينية او اليسارية لدى خصومهم المثيرين للراء . والصوت المغتال لهـنري كورريل لا ينقص الكونشرتو بفضل بعض الأشرطة المسجلة قبل موته مباشرة : فتحت تأثير غضب مجنون ، تتفجر لعنات عمرها نصف قرن وتندھش الأذن إذ تسمعه يمتدح بصورة ملحمية « الخط الصحيح ليونس » (كان يونس اسمه المستعار) . قد نبتم او نغتاظ لو ان هكذا روحاً قتالية لم تكن تشهد على اصابة التزام مطلق ، لا يُعكس ، لم ينحط لدى اي منهم الى التشككية الفاحشة المرتدة الى الماضي التي اعتاد عليها معاصروهم الأوروبيون .

والامر الأكثر صعوبة هو إعادة تكوين الترسـيمة الاشكالية للخطوط السياسية ، الاستراتيجية والتكتيكات : الترتيب القتالي للقوى السياسية المتواجـهة . بما ان وثائق

الأرشيفات غير موجودة ، ما عدا استثناءات نادرة ، فالأرجح ان هيلل شوارتز على حق حين يضع موضع الشك امكانية تأريخ للحركة الشيوعية المصرية مستند الى شهادات جزئية ومتحيزة . فالذاكرة تعيد تركيب الواقع بصورة ممتعة دون ان ينصدم حسن النية والصدق بسبب ذلك . هكذا إذ يتذكر هنري كوريل المعاهدة الجرمانية - السوفياتية ، يؤكد ان جورج بوانتيه كان يضع على قدم المساواة الأمم الديمقراطية والبلدان الفاشية ليخلص الى الطابع الامبريالي البحت للحرب ، وانه من جانبه كان يعارض ذلك . والصحيح ان كل الشهادات تؤكد العكس : فهنري الذي أيد المعاهدة تحت تأثير بوانتيه ابدى خلال اشهر حماس المهتدين حديثاً وكان يثير غيظ محيطه - لا سيما راوول - بالتعبير الصاخب عن استمئاعه في كل مرة تتمكن فيها غواصة نازية من إغراق سفينة شحن انكليزية ؛ بينما كان بوانتيه اظهر منذ البدء ادراكاً افضل . والحال ان الاحترام والصدقة العميقة من جانب هنري كوريل حيال معلمه في الشيوعية يستبعدان كل تلاعب واع بالوقائع ؛ كانت ثلاثة عقود فقط قد مرت . كما ان كوريل سوف يكتب قبل مصرعه بقليل انه كان مستعداً للالتحاق بمجموعة مارسيل اسرائيل ، التي ولد منها فيما بعد تحرير الشعب ، لولا أنه « احس بالهول » حين علم بارادته خوض كفاح حازم لصالح الإلحاد . لقد استنح هنري كوريل الفرصة لإبداء تقديره مرة اخرى لـ « ذلك المعهد الزائع لليسوعيين في الفجالة ، الذي احتفظ بذكرى طيبة عنه وأدين له بأنه طور في نفسي قيماً اخلاقية رفيعة وعلمي فلسفة - هي التومائية الجديدة - اعطتني اشتراط فهم للعالم شمولي حقاً عدت فوجدته في الماركسية » (كانت كلمته بمنحة لكن ريشته كانت ثقيلة) ، ليعود فيختم كلامه بصورة رشيدة : « في مصر ، البلد الذي كان الايمان يمدّ جذوره فيه عميقاً جداً ، كان النضال ضد الدين عملاً انتحارياً حقاً » . لكن مارسيل اسرائيل ، المتهم بغباوة راسخة ، يستشيط غيظاً واستنكاراً : « هذا جنون ! لم اكن رغم ذلك غيباً الى هذا الحد ! فليكن معلوماً لديك أني كنت أوقف دائماً محاضراتي في الماركسية - ولقد القيت المئات منها - كي يؤدي طلابي صلاتهم . كنت احب هنري ، لكن أمامك هنا مثل نموذجي ، الخ » .

لقد غادروا مصر مع واترلو* في جعبتهم ، لكنهم يتفقون على جعلك ترى في طرف خطهم السياسي الصحيح أوسترليتز** الظافرة التي حرّمهم منها « الرفيق القديم » الفلاني البليد .

كان مارسيل اسرائيل وتحرير الشعب يدعوان بحزم الى التمسير والى بلترة الحركة .

* إشارة إلى هزيمتهم ، نسبة إلى واترلو حيث انهزم نابليون (م)

** معركة أوسترليتز حقق نابليون انتصاراً ساحقاً فيها ، وهي هنا ترمز إلى النصر (م) .

والجميع متفقون على الاعتراف لهما بنسبة من المصريين البروليتاريين لم يكن لها مثيل في المنظمات الأخرى ، لكن إذا كانت نوعية النموذج النضالي ممتازة فلقد كانت كميته المحدودة تحُدُّ من نفوذه السياسي . لقد كانت تحرير الشعب تتمتع بصفاء تجربة مخبرية .

يعرف هيلل شوارتز ان منظمة الايسكرا التي كان يقودها كانت متَّهمة بتركيبها ذي الغالبية الأوروبية ، ومتعرضة للسخرية بسبب سمة بورجوازية كانت تسمها ، ومتعرضة للسخرية بسبب الأفضلية المعطاة للنظرية على الممارسة : لا يتوقف عن الكلام اليوم على ارادة التمصير لديه ، واختراقه للأوساط الشعبية وفعالية ممارسته النضالية .

كان هنري كوريل يعرف ان ح م ت و كانت متَّهمة بالانتهازية ، وبضعف تنظيمي تكويني وبنشاطية سياسية ، لذلك لم يكن هناك شبهة له لبيني استدلالياً (« 1943-1945: مرحلة رَجيّة حيث الحزب يشتغل على نفسه ، الخ ») حركةٌ تخترع طريقتهما في السير بأن تضع رجلاً أمام الأخرى .

سيكون من قبيل الغرور الطموح لاصدار حكم في حين امتنع مكتب المستعمرات هو نفسه عن ذلك . لكن مصر لم تتردد في الحسم ، وبسرعة .

✱

✱ ✱

يقال إن التاريخ لا يكرر نفسه : إنه يتلعثم مصرّتهم بالتزوير ، وهي ترى الحرب العالمية الثانية تكرر الانفجار المخيف ما بين عامي 1914 و 1918 ، فيما هي تضخمه . كتب جان وسيمون لاكوتور : « كان النزاع الأول جعل من مصر امة . اما حرب 1939-1945 فجعلت منها نوعاً من القوة العظمى ⁽¹⁾ » . كان وجود جيوش وأجهزة للحلفاء تناهز المليون رجل على أرضها يعطي دفعا قويا لاقتصادها في حين كان قطع الإتصالات مع اوروبا - يخلص صناعتها من كل منافسة جدية . ويورد الكاتبان لাকوتور ارقاما معبرة : « بين 1940 و 1943 ، ارتفعت الودائع في المصارف من 45 مليون جنيه الى 120 مليوناً . وزادت الشركات من امثال « شركة الفنادق المصرية Egyptian Hotels » الارباح المدفوعة للمساهمين فيها بنسبة ثلاثة اضعاف ما بين عامي 1940 و 1944 . وارتفع عدد اصحاب الملايين (ملايين الجنيهات) في الوقت ذاته من 50 الى 400 ، . و « شركة مصر للغزل والنسيج » التي كانت تدفع ارباحا بمقدار 11% عام 1938 ،

(1) مرجع مذكور ، ص 92 .

باتت تدفع 22% عام 1942 . . . وقد اشار السيد علي شمسى ، في شهر آذار 1942 ، في تقريره الى المصرف الوطني الذي كان رئيساً له ، إلى «الازدهار الناجم عن تدفق الرساميل الاجنبية إثر مشتريات القطن التي قامت بها بريطانيا وبفعل اتفاقات الجيوش المتحالفة» ، ووضح ان «ارباح الشركات الصناعية تضاعفت منذ الحرب» . واخيراً ، ففي نهاية الحرب كان لمصر في ذمة بريطانيا دين مقداره 300 مليون جنيه : تموين ، تعويضات ، اضرار حرب .»

في حين تضاعف عدد أصحاب الملايين من الجنيهات ثمانى مرات ، ارتفع مؤشر الاسعار من 131 الى 353 ؛ لم يعد صغار الفلاحين يستطيعون دفع الضرائب المفروضة عليهم ، ولم يعد الانتاج الوطني يغطي الحاجات الغذائية ، مع توقف استيراد الحنطة ووجود مليون شخص إضافي ينبغى اطعامهم - كل واحد منهم يأكل قدر ما يأكل خمسة مصريين - رغم انخفاض من المساحات المخصصة لزراعة القطن . «وقد اتهم اسماعيل صدقي قوات الحلفاء بـ «تجويع الشعب» ، وذلك من على منبر المجلس النيابي .» وفي كانون الثاني 1942 ، اعلن نائب وفدى الجريدة المصري : «عشية الثورة الفرنسية ، كان شعب باريس يصرخ : «نريد خبزاً!» وهذا ما فعله شعب القاهرة بمهاجمته قوافل القمح . . يمكن وصف حالة البلد بأنها ثورية .»

كان التصنيع المتسارع قد زاد بنسبة النصف تقريباً عدد العمال ودفع باتجاه المدن الكبرى جمهوراً من المقتلعين الذين باتوا يقيمون في الضواحي . بدأ الطوفان البشري يكتسح القاهرة ، التي سيخلص الى اغراقها .

كانت الحرب واحتلال النازيين لأوروبا قد جعلاً من مصر أخيراً لوحة دؤارة للسياسة الدولية . فالقاهرة ، التي باتت محطة اجبارية بين لندن والجزائر من جهة ، وموسكو من جهة أخرى ، كانت أحد المقامات الرفيعة لدبلوماسية الحلفاء . كانت الجامعة العربية ، التي تأسست في تشرين الاول 1944 بمبادرة انكليزية ، قد أقامت فيها مركزها الدائم ، مرتقية بالعاصمة المصرية إلى المرتبة الرمزية الرفيعة كعاصمة للعالم العربي . لقد خرجت بريطانيا من الحرب مكلفة بأعلى درجات المجد ، لكن مكسورة الظهر ، مفلسة ، منهاراً تحت ما كان شاعرها الامبراطوري يدعوه بصورة مضحكة «عبء الانسان الأبيض» - الامبراطورية .

لقد حصل انقلاب في موازين القوى الدولية ، وانحرفت في البلد هوة مخيفة بين المستفيدين من الحرب واولئك الذين كانت تجوعهم : كان التاريخ يدق ابواب مصر .

كانت ميزة هنري كورييل الفريدة أنه سمع دقاته . صحيح ان اذنه كانت وستبقى حساسة الى ابعد الحدود حيال النداء الى العمل . كان الداعون للانتظار يضايقونه اولاً لأن مزاجه عكس ذلك ، ثم لأن الخبرة علمته أن الوضع لا يغدو ناضجاً كفاية بالنسبة لبعض القادة

او المناضلين السياسيين إلا حين يذبل . لم يكن من نوع الرجال الذين يتوسلون للحدث كي يمر من جديد في تاريخ لاحق بحجة أنهم لم يصبحوا جاهزين تماماً . لكن اذا حدث له أن وقع في عدم الاحتراز وخلط بين العمل والنشاطية ، فلم يكن ذلك بالتأكيد في مصر .

إن حدسه العظيم ، الذي يكفي لوحده كي يرفعه لمرتبة رجال السياسة الكبار (ليسوا بالضرورة منظرين من طراز رفيع) يتمثل في أنه شعر مسبقاً بقوة ارادة التحرر الوطني . كان ذلك تَوَقُّع الحدت السياسي الاهم في النصف الثاني من القرن العشرين . ولقد كان بعد النظر هذا نادراً في الأربعينيات . لم يكن من حاجة لأن يكون المرء متبحراً في العلوم كي يقدر أن الكرة الارضية التي يهزها هزاً شديداً نزاع لا مثيل له سابقاً تلدفع نحو مستقبل مذهل . لكن من كان يتخيل ، حتى بين الشيوعيين وخصوصاً من بينهم ، أهل الأمة ، وهي كعكة فاكهة بالكريم من القرن التاسع عشر ، تجاهاها ماركس ولينين تقريباً ، ستعود بكل هذا الطبل والتزمير؟ كم كان عدد الذين أصغوا الى التعابير المذهلة لستالين ، الذي كان يخاطب ابناء شعبه ، فيما الهمهم ماختم أمام أسوار موسكو ، مسمىاً إياهم «الاخوة الروس» ، ومجدداً ذكرى جنرالات القيصر الذين هزموا نابوليون ؟ مَنْ من خبراء مكتب المستعمرات أخذ على محمل الجد فرضية أن بروتيتاريا الشعوب المستعبدة لن تتلقى التحرر الهياسي والاجتماعي من البلدين المجربتين للبروليتاريا «الأخت الكبرى» بل أن هذه الشعوب ، التي اتمتج فيها البورجوازية والبروليتاريا ، مع سقط المتاع الفولكلوري ، والاسطوري والباريخي والديني والثقافي في جعبة الظهر - تؤكد وجودها انطلاقاً من فروقاتها - سوف تندفع الى الحرب من أجل الارتقاء الى كرامة الأمة ؟ من كان يتوقع أن المعارك الكبرى في النصف الثاني من القرن لن تخوضها الفيالق المتكشفة للبروليتاريا الواعية والمنظمة المرتدية بزة الوفاة ، بل أفواج لهاذة بقدر ما هي هرطوقية ترتدي الزي الوطني البراق؟

كان شوارتز واسرائيل - وكل الآخرين - يسمعون هم ايضاً مصر تزجر في قيودها وتطالب بكرامتها الوطنية . فالجدار غير المرئي الذي كان يحيط باليهود الاوروبي لم يكن يخنق رشقات الرشاشات التي كانت تردى الوطنيين قتل في غبار الشوارع ، بين الفينة والاخرى وبصورة منتظمة . الا انهم كانوا يطبقون على الظاهرة طريقة حل الرموز الماركسية ويطرحون السؤال المناسب بصورة لا متناهية : «الاستقلال لأجل ماذا؟» (وتجيب الشعوب ، المعروفة ببساطتها : «لأجل الاستقلال» . كانوا يرون الغش في استبدال السيد الانكليزي بالمستغل المصري ، ويرفضون ان يخدموا كمشاة لدى البورجوازية المحلية الكبرى التي تخنط مصالحها منذ 50 سنة مع مصالح المحتل ، ويعلنون أنه لا يمكن حل الجبهة الطبقية ، تحت طائلة الخيانة ، في جبهة وطنية نجسة . كان هذا الموقف متماسكاً على الصعيد النظري وبدل على عقاب سليم ان ابعاد الحدود . لكن الممارسة سوف تثبت ان الجبهة الطبقية ستتهزم في كل مكان تجري فيه محاولات

إرسائها وأن نضالات التحرر الوطني التي ستخاض في القارات الثلاث سوف تسير الى النصر تحت راية جبهة وطنية تفرضها الارادة الشعبية. ينبغي العمل مع الشعب، الا إذا حللناه وانتخبنا شعباً آخر، حسبما يقول برخت. ولأن هنري كورييل فهم ذلك بنتيجة تحليل فكري، ولأنه شعر به من الاعماق بفعل سيورة تكافل مدهشة تجعل من يهودي لا وطن له احد اكبر مواطني العالم الثالث، ولأنه توقع أن تتدفق موجة المطالبة الوطنية العاتية، مزجة النقي والنجس، لكن عملاقة لا تُقاوم، وأن من الضروري امتطاءها أو الحكم على النفس بالبقاء على الرمل، لأجل كل ذلك سوف يصفه رفاقه ومنافسوه الشيوعيون بأنه «مجرم سافل باع نفسه للشرطة»، و«عميل فاشي»، و«كلب حراسة للرأسمالية» (وكلها عبارات كانت تميل، ضمن سياق تلك الفترة، للتعبير عن خلاف سياسي جدي).

في نهاية الحرب العالمية الثانية، ورغم الازدهار الاقتصادي المفاجيء، كانت البروليتاريا الصناعية المصرية تمثل 3% من السكان.

※

※ ※

في تشرين الاول 1944 ، كان فاروق قد أقال النحاس باشا بصورة جافة ، وكان الاخير رئيساً لحكومة وفدية فرضتها الدبابات البريطانية قبل عامين من ذلك التاريخ. ولقد بدا واضحاً ، إزاء الهدوء الكامل في الشارع ، إلى أي حد زال عطف الناس على حزب الوفد، وقد اختار الملك صدقي باشا، وكان رجلاً ماهراً وفظاً ذا اساليب حكم ديكتاتورية صريحة .

بدأ كل شيء عام 1945 بتبادل مذكرات غير مؤذية في الظاهر بين القاهرة ولندن. كانت الحرب انتهت لكن الجيش الانكليزي استمر في احتلاله للبلد، بما فيه المدن، وكان الطرف المصري يود توضيح بعض الجوانب الغامضة في «معاهدة الشرف والاستقلال» المشهورة لعام 1926 . كان السؤال المطروح، باللهجة الجانبية للتعايير الدبلوماسية، يتعلق بمستقبل البلد: هل كانت انكلترا مستعدة اخيراً للجلاء عنه، على الاقل لتجميع قواتها العسكرية في منطقة قناة السويس الاستراتيجية؟ وبما أن المفاوضات طالت، فقد تفاقم الغضب في الضواحي العمالية ولدى الطلاب ، سريعي الاشتعال. كان الجميع يتطلعون الى الوفد، متأكدين من أن حزب الاستقلال القديم سيلتقط فرصة إعادة الاعتبار لنفسه. كان له نفوذ بين الطلاب، الذين كانوا يشكلون جناحه اليساري ويلعبون دور رأس حربة له، وكانت العودة الى الصفوف محددة للسادس من تشرين الاول. وكانت كلمة واحدة من الوفد كافية لتنزل الجامعة الى الشارع.

طبعت ح م ت و عشرة آلاف بيان ووزعتها، وكان بعضها يتوجه الى «الجماهير» والبعض الآخر إلى «الجيش والشرطة». والمناضلون يحتفظون بذكرى حماسية لذلك التوزيع الكثيف: للمرة الاولى تخرج الحركة من السرية وتوقع على دعوة الى العمل.

بقي الوفد صامتاً. كانت العودة الى الجامعة شديدة الحرارة لكن من دون اي حادث. وقد شهدت ح م ت و أول انشقاق لها. فأحد الكوادر اقتنع بأن تحليل كوربيل حول «المد الثوري المحتوم» كشف خطأه، فمضى هو وأنصاره واسس الحزب الشيوعي لشعوب وادي النيل، الحزب الوحيد في العالم الذي تكوّن حصراً من مستخدمي مصلحة خزانة الدولة.

في 9 شباط 1946، خرج الطلاب بكثافة من جامعة القاهرة وهم يهتفون بشعارات معادية للبريطانيين. واتفقوا عند جسر عباس، مقابل الجامعة، على التوجه الى البرلمان وكان الجسر دواراً في ذلك الحين. فحشد رئيس الشرطة رجاله فوق جزيرة الروضة، في الطرف الآخر من الجسر. وكان جنرال انكليزي يُشرف على العمليات. حين وصل الطلاب الى الجسر، أعطى زكي الأوامر باطلاق النار، وأمر في الوقت نفسه بفتح الجسر الدوار تحت اقدام المتظاهرين. فسقط عشرات الطلاب في النيل. حسب الرواية الرسمية، عشرون غريقاً. وقد قدّر ريمون اسطمبولي، الذي شارك في المظاهرة، عددهم بضعف العدد المشار إليه. وجرح أكثر من مئة طالب. في المساء ذاته، أدخلت السفارة الجنرال الانكليزي في طائرة مسافرة الى لندن.

احترقت القاهرة. غداة المقتلة، انتخب الطلاب بحضور اساتذتهم لجنة تنفيذية من 115 عضواً تم تكليفها بتنظيم النضال. تأسست لجان قاعدية تلقائياً في المدارس الثانوية والفنية. وتحركت ضاحية شبرا الخيمة، بمصانعها الصغيرة للنسيج التي تعدّ بالمئات، والتي تمثل أقوى تركّز عمالي في البلد والأكثر قتالية، جارةً في إثرها المركز الصناعي في المحلة الكبرى. لدى الطلاب كما لدى العمال، كان الشيوعيون في الطليعة، وقد امتزجت كل المنظمات لشدة ما كان الحماس متوقداً، وكانوا روح اللجنة الوطنية للطلاب والعمال التي تأسست لتجمع مئات اللجان القاعدية وتمثلها، وإن كان يوجد فيها نقابيون تقدميون، ووفديون يساريون وإخوان مسلمون (هؤلاء لن يبقوا ضمنها). وكان أمين سر اللجنة الوطنية حسين الكاظم، المناضل في تحرير الشعب. كانت الاجتماعات تنعقد في الطابق الواقع تحت الارض في بورصة القيم بالقاهرة حيث انشأ مارسيل اسراييل خلية شيوعية، وفي مكتبة الرونبوان، وفي الصداقات الفرنسية. ووفقاً لاسراييل، «يمكن القول ان الشيوعيين كانوا على رأس الحركة بنسبة مئة بالمئة.» وهي ملاحظة تحظى للمرة الاولى بالاجماع.

دعت اللجنة السكان للتظاهر بكثافة في 21 شباط : «في ذلك اليوم، سوف يُظهر الشعب المصري لانكلترا والعالم انه مستعد لمعركة لن تنتهي الا بالاستقلال.» وقررت النقابات الاضراب العام. بالمقابل، راح صدقي يحشو القاهرة والمدن الكبرى بالجنود. سوف يكون ذلك امتحان القوة.

صباح 21 شباط، كان الاضراب يشل مصر بالكامل. وبعد الظهر، كانت المدن شبيهة بقلب يعود إلى الحياة، تخفق بالنبضة الصماء والثقيلة التي توقّعها خطى مئات الألوف من المتظاهرين. وفي القاهرة، كانت المواكب تتجه كلها نحو ساحة الاسماعيلية، حيث تنتصب ثكنات الاحتلال المشؤومة. وقد اطلقت النار الرشاشات الانكليزية الرابضة خلف الحواجز المشبكة. وتم احصاء ثلاثة قتلى ومئة وعشرين جريحاً.

أعلنت اللجنة الوطنية الرابع من آذار يوم حداد، وكان يوم دفن الوطنيين الثلاثة الذين سقطوا. وجرّت الاستجابة للدعوة. وسارت الاسكندرية في إثر القاهرة فنظمت مظاهرة جمعت كل سكانها تقريباً.

في 8 آذار، أعلن رئيس الوزراء أتلي في مجلس العموم إجلاء الجيش الانكليزي عن وادي النيل المصري. سوف تتركز القوات بعد هذا التاريخ في منطقة قناة السويس.

كانت الحركة الوطنية قد حققت نصراً. وكانت المشكلة بالنسبة لحكومة صدقي هي التصرف بحيث لا يؤدي هذا النصر الى ثورة. وكان ذلك بعيد المنال إلى حد أنه بعد مرور 35 عاماً كان هنالك مؤرخون ملتزمون يكتبون اطروحات تتأسف على الفرصة الضائعة. كان الوضع الاقتصادي والاجتماعي متفجراً. فالحرب انتهت وانتهت معها ارباحها الوفيرة، وجرى فتح البلد من جديد على المنافسة الدولية. ثم جاء الصرف الجماعي لخمسين الف عامل يشتغلون في مشاريع اصبحت غير قادرة على المنافسة، ولئتين وخمسين الف عامل آخرين، يلقبون بـ «عمال الحرب» لأنهم كانوا يشتغلون لجيوش الحلفاء. وارتفعت الاسعار ارتفاعاً جنونياً، وتعرض الفلاحون الصغار لصعوبات قاسية. وفي المدن، كان تحالف العمال والطلاب قد مُهر بالدم، شبكة متراصة من اللجان القاعدية تمتد عبر النسيج المدني: كان كل شيء يساهم في جعل عاصفة ثورية تهب على مصر.

كان صدقي باشا جريئاً فوافق على مقابلة اللجنة الوطنية للطلاب والعمال. ولم يجد المندوبون بالضبط ما يقولونه له، ما عدا التعبير عن الارادة الشعبية برؤية مصر تنال استقلالها الكامل. وكان ذلك من البديهيات. ان اللجنة التي ولدت عند جسر عباس، في الألم والنقمة، لم تكن تملك لا برنامجاً لأجل طويل ولا منظورات للمدى القصير.

كتب هنري كورييل بعد وقت طويل: «في ذلك الحين، يمكن القول إن الجماهير كانت مستعدة للاستمرار في اللحاق بنا. لكننا لم نكن نعرف إلى أين نقودها: كان انعدام الخبرة لدينا كاملاً. ولم نكن الوحيدين الذين أدركوا ذلك. فصدقي باشا وعاه تماماً... يمكن أن يؤخذ ذلك علينا لكن ينبغي تذكر أنه لم تكن لدينا غير ستة أشهر من التجربة في القيادة السياسية وأنا كنا إزاء وضع داخلي يمكن وصفه بالفوضى الكلية. لم تعد بنيتنا التنظيمية موجودة، فكل التقسيمات كانت قد طارت...» ويوضح في مكان آخر: «لم يكن عدد كوادرنا يبلغ العشرين والأقدم بينهم كان لهم أقل من ثلاث سنوات من النشاط داخل منظمة في سن الطفولة.»

وهو نقد ذاتي صارم يعطي الحق كما يبدو لهليل شوارتز ودعاة البناء التدريجي لحزب. مزود بكوادر جيدي التكوين: من جهة أخرى، كان هنري كورييل ورفاقه في ح م ت و الوحيدين الذين توقعوا منذ شهر تشرين الأول الموجة الشعبية التي ستندفق في شباط. وكانت التجربة قد أثبتت أن مناضلي اليسكر لم يكونوا آخر من ينتقلون للعمل، في الحمى العنيفة للحدث... خلال بضعة أسابيع، فكك صدقي باشا اللجنة الوطنية بأن دق اسفيناً بين العمال والطلاب غير الشيوعيين، وقطعها عن قاعدتها عن طريق قمع انتقائي، وأزال اللجان المحلية واحدة بعد الأخرى.

لكن للمرة الأولى منذ عام 1919، كان الشعب المصري قد قاتل بقيادة غير قيادة الوفد. كان حفنة من القادة وعدة مئات من المناضلين الشيوعيين قد قادوه إلى نصر مذهل ضد المحتل البريطاني. كان نجاح كهذا مستحصل عليه ضمن الفوضى يدعو لتصور ما قد يتيحاه تجميع كل القوى المنتسبة إلى الشيوعية. كانت مشكلة الوحدة مطروحة.



من بين كل الاتهامات بالخيانة الموجهة ضد هنري كورييل خلال حياته، كانت الوحيدة المستندة إلى أساس هي بلا شك تلك التي كان يردددها والده المسكين: «انت خائن طبقتك.» كان قد انتقل مع أسلحته وامتعته إلى المعسكر الآخر. وعديدون هم المنشقون عن البورجوازية لكن نادراً ما رأينا منهم من يجتازون الخط بهذا القدر من البساطة وحتى من دون القاء نظرة إلى الوراء.

هذه الطبيعة الساحقة كانت تعقد علاقاته بمحاوريه من الأصل ذاته. كانوا يجدون أن كورييل يُفْرِط في الأصالة البروليتارية. على كل حال، كان المسار الذي يقود من قصر صغير في الزمالك إلى الخطابة في مصانع شبرا يستحق نظرة متعالية إذا لم تكن نظرة ساخرة. كان في وسع مؤسس ح م ت، و الإشارة إلى أن الجانب المثير في الوضع لم يكن ليفوته، وذلك دون السقوط في

الكلمة المقرفة التي تلفظ بها نابوليون إذ قال: «حياتي رواية!»، وهي كلمة فتاة طائشة. لكن إذا كان هنري كورريل شديد المرح في حياته اليومية، إلا أنه لم يكن يملك حسّ الدعابة بتاتاً، لا سيما حين يتعلق الأمر بنفسه. لم يكن يخطر بباله أن يضطلع، ولو عبر السخرية، بواقعه العائلي: أصله وفصله، مصرف والده، دزينة الخدم، الأملاك الزراعية الكبرى. كان يفتبط فقط لأن كل ذلك موجود، إذ هو مناسب للعمل. فالمنصورية أفادت كمكان لمدرسة الكوادر وكمستودع مؤن لصالح الديمقراطيين اليونانيين، وقد شغل روث غريش في المصرف، حيث لم تهتم كثيراً بالشؤون المصرفية. ومكتبة الرونبوان، التي كانت موقعاً ماركسياً، لم تصمد إلا بفضل التمويل الرأسمالي، وسيارة السيتروين ذات الجاذب الأمامي، الأسرع من سيارات الشرطة المصرية، كانت تتيح التملص من تتبع الأثر. بحيث كان يمكن القول إن مساره الذاتي كان على نقیض الواقع. لم يكن يتصرف كمنشئ عن البورجوازية يقلب ضد طبقته الأصلية، وبابتسامة وقحة، التسهيلات المقدمة، بل كعميل دخل خلصة في جهاز العدو ويستخدم بلا احتشام الامكانات الموجودة أمامه. لم يفهم يوماً أي انزعاج يولده لدى الكثيرين موقف كان يبدو له بديهاً. ولشدة ما كان تحوله طبيعياً، لم يتصور حتى أن يتذكر البعض من أين أتى فيراودهم الشك في حقيقته أو في المظهر الذي يحاول الظهور به، حسب رأيهم، كما لم يتصور أن تؤدي الشخصية المزدوجة التي قد يُلَبِّسها إياها البعض، بخبث أو من دون خبث، إلى أن يفترضوا وجود لعبة مزدوجة لديه.

كان دائماً شديد الانزعاج والضيق حين يتواجد مع البورجوازيين الكبار التقدميين، والمثقفين المرموقين ورجال السلطة. فأحمد بن بلا، الذي كان يستقبله بصدقة في قصر الرئاسة الجزائري، كان يجد أمامه رجلاً متشنجاً، منكشاً، وكان التوتر من الشدة بحيث تبدو نهاية اللقاء كما لو كانت خلاصاً. مع أن بن بلا كان إنساناً طيباً، يسأل في نهاية جملة: «كم أنت بحاجة إليه؟»، ويبحث في الجرار الأيمن العميق لمكتبه، ثم يخرج منه رزماً مشدودة من الأوراق المالية يلفها كيفما اتفق بعدد من جريدة المجاهد. لم يكن ثمة ما يتوصل لملك عقدة هنري. وديدار روسانو، التي كانت تحضر معظم اللقاءات، كانت تخرج منها مريضة من شدة نرفزتها. كان يشله الوجع، فيصطحب معه هذا أو ذاك من أتباعه إلى مواعيده مع شخصيات مهمة ويطلع لدى الخروج بالخلاصة التالية، التي يتلفظ بها بنبرة الاستسلام: «لقد تركت لديه انطباعاً سيئاً للغاية».

على العكس من ذلك، ومنذ أيام مصر، كانت علاقاته بمناضلي القاعدة على أكمل قدر من التفاهم. كانوا أخصاءه: وكان منهم. وهو تكافل مدھش، يكمن على الأرجح، مثله مثل التضايق مع الآخرين، في قلب سر الانسان هنري كورريل. بأية آليّة إخفاء سيكولوجية، تلغي

حياته السابقة كما يجري محو تسجيل على شريط، كان في وسعه التصرف كما لو كان يخرج من كوخ في الضاحية أو من مسكن بائس في القرية؟ من اين كان يستمد الطمأنينة الى ان نظراتهم الملقة عليه لن ترى كذلك سليل الطبقة المكروهة؟

في عام 1982 ، التقيت محمد حسن جاد، الملقب ببوروك، في مقر حزب التجمع، المنظمة الوحيدة اليسارية التي سمح لها السادات بالعمل، وكان محمد حارساً للمقر. قصير القامة، نحيل، يلف نفسه بعدة صدریات متراكبة، ويضع نظارتين وكاسكيتاً مضحكة تغطي الاذنين. لا ينفك يدخن سيجارة وراء سيجارة رغم سرطان في الحنجرة (كان قد عاد لتوه من موسكو حيث اجريت له عملية، وحيث يدرس حفيده الاقتصاد والعلوم السياسية). ولد عام 1910 في القاهرة، وكان عامل نجارة، وعضواً في حزب الوفد، اصابته رصاصة انكليزية في ساقه اثناء مظاهرة في الثلاثينيات. وقد التحق بحزب م ت و عام 1943 بعد ثلاث اقامات في السجن (ستليها ثلاث اخرى، اي ما مجموعه 15 عاماً من الاعتقال): شقي قاهري حاضر الجواب وغير مبال كثيراً الى إبداء الاحترام: «حين علمت بموت هنري بكيت، ويحصل لي الى الآن أن أبكي وأنا أفكر فيه. فبصفتي عاملاً، غمر قلبي أكثر من اي كان. كان شخصاً يحب ويحترمك. وهذا يعني انه كان في وسعك الاعتماد عليه، حتى لتقريعه بعنف حين يكون غير متفق معك، لكنه كان يفعل ذلك كأخ. يجب ان تفهم لأن هذا مهم. ذات مرة، أعلن امير الاخوان المسلمين في حيي عن اجتماع عام. فقررت منع الاجتماع. تترسست في المقر مع كمية ضخمة من زجاجات المولوتوف. وقد وصل يونس قبل ساعة من الاجتماع - يونس كان الاسم المستعار لهنري. سأني: «ما الذي يجري». فأوضحت له ان القذر حاول في إحدى المرات أن يقتلني، وأني أريد الانتقام. فقال لي: «أنت لا يمكن أن تكون شيوعياً. تستطيع أن تجعل من نفسك إرهابياً كأى مجرم لا ابدولوجية لديه». «لماذا؟» - «نحن ندافع عن حرية الرأي. كيف يمكنك أن تريد منع الاخوان من التعبير عن رأيهم؟ أي فرق بينك وبين الرجعيين؟» - «إذن اتركهم يتكلمون؟» - «نعم، وتنظم فيما بعد اجتماعاً» للرد عليهم. «لا يمكن مقاتلة رأي عن طريق الارهاب» وفي مرة أخرى، نسيت موعداً معه لأنني كنت بصدد ننف ريش أحد الأغنياء بلعب الورق - لكن بمساعدة الحظ قليلاً، اذا كنت ترى ما الذي أعنيه. وقد شرحت الموضوع لهنري، فقال لي: «من المؤكد أنك غير قادر على أن تكون شيوعياً. فلقد ارتكبت ثلاثة أخطاء. أولاً: لقد نسيت الموعد. ثانياً: انت تلعب بالورق. ثالثاً: انت تسرق غريمك. انت عديم الشرف. انت منخرط في اهتراء النظام.» وقد هزني ذلك ووعدته ألا ألس الورق الى الأبد. فقال لي: «هذا غير كاف. اذهب الى

عند غريمك وارجع اليه المال مع الاعتذار . » وقد فعلت ذلك ، مع ان الشخص المشار اليه كان ثرياً . « يا له من حوار غريب بين ابن صاحب المصرف والنجار ، بين مستجد في النضال السياسي والمحارب القديم الذي يحمل في جسمه النذب الذي تركته رصاصة العدو . . .

في حين كان يبدو متصنعاً في علاقته بالكثيرين ، كان يستسلم في علاقته بالمناضلين لحالة من الثقة التامة ، مرتبطاً معهم بجو من المودة الحميمة ، عائشاً بالمعنى الأكمل للكلمة حياة الأخوة المطالب بها رسمياً ضمن الأحزاب ، وكان صادقاً في ابداء دهشته إزاء استغراب البعض لذلك ، لشدة ما كانت سعادة الوجود معاً تبدو له طبيعية . ويروون هذه الذكرى نقلاً عن الميكانيكي بدر : « عام 1946 ، وصلت اليه يوماً وقد ترضضت قدمي لكثرة ما تنقلت من موعد لموعد في ذلك اليوم ، فجلب وعاء صغيراً من الماء الحار ليغسل لي قدمي . » والرمز المسيحي هنا ينهكنا ويتسبب لنا بالضيق . لكن بداراً ، قليل التحسس للرموز ، لا سبب منها المتعلقة بالمسيح ، يتذكر فقط رجلاً كان قائداً سياسياً كبيراً وكان يهتم مع ذلك بحالة أصابع قدميه . وإذا كان صحيحاً أن هذا القيادي كان منظرًا ذا بساطة توراتية ، فلنكتب دون حياة زائف انه كان رجلاً ذا سخاء انجيلي (إذا كان الكثير من المسيحيين قد احبوا هذا الماركسي المقتنع ، فلأنهم كانوا يرونه يعيش يوماً بيوم وفقاً لانجيلهم) . وحين ترى مناضلين مصريين خارجين من عشرين عاماً من النضالات وعشر سنوات من الاعتقال يحدثونك وهم يكون عن رجل لم يعودوا يرونه منذ ثلاثين عاماً - ليس عن القائد السياسي ، بل عن الانسان - يجب الاقتناع بأنه عرف كيف يجعلهم يحبونه .

كان هنري كوريل في مصر المعتقل الوحيد الذي كان من الضروري تغيير سجنانه كل اسبوع : « لم يكن يعامل حارس سجنه كخصم ، بل على العكس . كان يستقبله مبتسماً ، ويسأله عن حاله وعن مشاكله . في اليوم الثاني أو الثالث ، كان الحارس يجد نفسه وهو يتحدث عن أولاده ومستقبلهم . وكان يتم الكلام عندئذ على المدرسة الابتدائية أو الثانوية ، أو الفنية ، الخ . تبعاً لطبع كل ولد ومؤهلاته . وكان السجنان يقول في نهاية المطاف : « هذا مستحيل ، فالشخص الذي أمامي صديق ، إنه الوحيد الذي يهتم بي حقاً » وفي نهاية اسبوع واحد ، كان يغدو وقد كسبه هنري كلياً لأفكاره ، وبات مستعداً لفعل أي شيء لأجله . »

※

※※

كان محمد شتي رجلاً يتبع قلبه .

ويحدد روجيه فايان تاريخ قراره أن يصبح شيوعياً باليوم الذي التقى فيه شتي . كان مؤلف كتاب Drôle de jeu يعرف غاي أغيون ، التي استقرت في باريس منذ نهاية الحرب ،

وطلب منها توصيات لأجل إقامة في القاهرة . « كان روجيه شخصاً غريباً عجيباً بعض الشيء وفكرت بأنه قد يعجبه هنري . » ، هذا ما قالته غايي أغيون ، ضاربة عصفورين بحجر واحد . وكان العصفور الثالث مودة صاعقة متبادلة . كان الرجلان يشتركان في كل شيء ، ولم يكونا يشبهان الواحد الآخر في أي شيء : وهذا هو الميدان الأشد خصباً لازدهار الصداقة . ولن تزول صداقتهما الا بالموت . ففايان كان يتعرف في كوريل على رومانسيته : وقدرته على الحماس ، والحاجة القاهرة إلى محيط من الأنوثة الشهوانية ؛ كان يعجب به ، متطلعاً هو نفسه لأن يصبح « بلشفيًا حقيقياً » ، لكن كاتباً في مذكراته : « اشترت اليوم معطفاً جلدياً سيكون رائعاً لصنع الثورة » ، لأنه تجاوز الخط وسلب العجز ما معه .

كان كوريل وأصدقاؤه يعرفون فايان عن طريق الشهرة ، وكانوا قد قرأوا كتبه ؛ لذا رضخوا سلفاً لرؤية « صبايا الايسكرا الجميلات » وقد بدّلن اتجاهه . لكن زيارة صاحبة شبرا الخيمة القاهرية كانت الحلقة الحاسمة من الرحلة . إن روجيه فايان ، الذهاب من كوخ لآخر ، والمكتشف بنؤساً يصعب تصوره ، شعر بالصدمة ذاتها التي تلقاها هنري كوريل سابقاً وهو يعتني بفلاحي والده . ثم حدث اللقاء مع المناضل شتي .

كان محمد شتي ، عامل النسيج ، يعيش ويشتغل في شبرا الخيمة ، حيث كان يتكدّس في ذلك الحين أكثر من مئة ألف نسمة . كان يجري استغلال اليد العاملة في عدة مئات من المصانع الصغيرة أو الورش الخاصة بالنسيج . وكانت كثرة المؤسسات تزعج تنظيم حركات مطلبية واسعة لكنها تحول بالمقابل دون القمع الفعّال للنشاط النقابي . وفي المحلة الكبرى ، وهي مركز آخر لصناعة النسيج حيث كانت اليد العاملة تتجمع في عدة مشاريع كبرى ، كان كل عامل عاصٍ يتعرض للصرف ويوضع اسمه على لائحة سوداء . وقد كانت شبرا تضم عدداً كبيراً من المستخدمين بحيث لا يمكن إقامة سد فعال من جانب أرباب العمل .

بين كانون الثاني 1945 وكانون الأول 1946 ، تمّ 226 اضراباً في شبرا . وكانت حركات متفاوتة من حيث الأهمية تصل أحياناً لتعبئة عشرة آلاف عامل ولشل الانتاج ، وتقف في الغالب ضمن حدود بعض المصانع القليلة التي يرفض أربابها أن يمنحوا العاملين فيها ما حصل عليه زملاؤهم في المصانع الأخرى . كانت شبرا البؤرة الثورية التي انطلقت منها في شباط 1946 الطوابير التي مضت لتتقدم الدعم لطلاب القاهرة . وجرياً على مثالها صوّت عمال المصانع الكبيرة في المحلة الكبرى ، في ايلول 1947 ، لصالح الاضراب مع احتلال المصانع . وقد قتلت الشرطة اربعة رجال وجرحت اربعين .

كان يقول هنري كوريل عن شتي ، قبل قليل من اغتياله : « أرى رجالاً يعاملون

كالأبطال ، وهم لم يقوموا بواحد في المئة مما قام به . « وإذا كانت كلمة « بطل » تعني شيئاً في العمل النقابي - السياسي ، فلقد كان محمد شتي بطل شبرا الخيمة في الواقع . كان خلافاً ، شجاعاً ، لا يعرف الملل ، وقد خلق مجالس المصانع ، وكانت نوعاً من السوفييتات التي تجمع في كل مؤسسة أكثر العناصر دينامية . ولما كان دائماً كثير الحركة ، فقد كان محبوب الورش ، الكبيرة والصغيرة ، ويحرض على الرد ، وينظم الهجوم . وكان دوره عظيماً في لجنة الطلاب والعمال . وهو قواد اضطرابات عام 1947 الكبرى ، فيما تنهشه الحمى الناجمة عن إصابته بالتيفوئيد ؛ كان عاملاً يمسك به من كتفيه لمساعدته على الوقوف ، فيما هو يخطب في الجماهير .

وقد دخل اللجنة المركزية لح م ت و . كتب هنري كورييل : « كان أحد معلمي . وكان يقول لي أحياناً : « لا يمكنني الرد على حججك ، لكنك على خطأ رغم ذلك . . . » وكان على حق . » وقد « صعد » معه الى اللجنة المركزية العديد من رفاقه العمال . وكانت القيادة تردّد شعار : « ينبغي شَبْرنة* الحزب . » وقد قدم هنري كورييل للعمال عروفاً حول كتاب الأجور والأسعار والأرباح ، الذي يكشف آلية استغلال العمال : « الذين كانوا يستمعون إليّ كانوا يفهمونه أفضل مني ، لأنهم كانوا يعيشونه . كان في وسعهم أن يحسبوا بدقة نسبة استغلالهم . وبالنسبة إليهم ، كان ما استمعوا إليه منيراً وضاءً حقاً ، وقد جاء التحاقهم بالحركة فوراً وحاسماً . »

كانت ح م ت و تستقطب بكثافة ، بعد أن ارتفع بها « المد الثوري » .

※

※ ※

لقد وَجَّهَ رئيس الوزراء صدقي ضربته لكنه أخطأ الهدف .

في 11 تموز 1946 ، أُلقت الشرطة القبض على مئة من « الشيوعيين » ، وكانت قد تزوّدت بلوائح وضعتها دوائر الداخلية منذ زمن بعيد . وفي اليوم ذاته ، جرى توقيف جرائد عن الصدور ، وأجبرت نواد سياسية على الاقفال ؛ وبعد أن أعلن صدقي باشا أن أمن الدولة في خطر ، اصدر بمرسوم اشتراعي تعديلات لقانون الجزاء المصري ، وكان هذا القانون شديد القمع حتى قبل تعديله .

تم إلقاء القبض على هنري كورييل صباحاً واقتيد إلى سجن محكمة الاستئناف بعد

* نسبة إلى مهامل شبرا الخيمة (م) .

تفتيش دقيق لمسكنه . وتعرضت فيلا الزمالك هي الأخرى لتفتيش بالغ الدقة لكن الخدم كانوا مدربين على كيفية التصرف في مثل تلك الأحداث : في حين كان رجال الشرطة يصعدون الأدراج المفضية الى الغرف ، كانت الرافعة تودع في أعماق المطبخ ، الذي انتهى تفتيشه . الوثائق الخطيرة . وقد جرى إغلاق مكتبة الرونبوان بعد ختمها بالشمع الأحمر .

لم تستبق النيابة العامة من المعتقلين في الحملة الكبرى غير عشرين من المشبوهين الذين جرى توجيه الاتهام اليهم فوراً . وقد عرف هنري كورييل ، النجم الذي لا جدال فيه للفريق المستبقى ، عرف بعد اكتشاف زملائه في الاعتقال ، ان الشرطة فشلت في ضربتها . فلقد كانوا « شيوعيين تاريخيين » ، تعرف القاهرة بكاملها آراءهم ؛ وكان الكثيرون منهم صحفيين أو كتاباً ، مثل كمال عبد الحليم . ومعظمهم لم يكن لديهم أي نشاط نضالي . هو بالذات جرى توقيفه بسبب شهرة التزامه السياسي وقدمه . أما المناضلون العماليون فلم يتم اعتقال أحد منهم . هكذا ظهرت صحة التكتيك الذي دعا هنري كورييل رفاقه للأخذ به : لأجل الافلات من القمع البوليسي ، يجب « النزول الى الجماهير » . كانت أجهزة صدقي باشا قد فشلت بصورة بديهة في أن تلاحق ح م ت و في انغراسه .

كما يحدث غالباً حين تدبر حكومة ما استفزازاً بوليسياً وتقرر ، مثلاً ، أن طيوراً مصيرها الذبح هي حمامات زاجلة مدربة على الالتحاق بموسكو بخفقة جناح ، فإن مناورة صدقي باشا غرقت في بحر من النفاق . وقد اثارت الصحافة المرتنهة بأوامر الحكم لغطاً كبيراً حول برقية تمّ العثور عليها في مسكن هنري كورييل ، وكانت صادرة عن باريس . في هذه البرقية ، تخبر واحدة اسمها سعاد الرملي انها وصلت وتطلب إعلامها عن صحة لينين . وقد جرى تفسير هذا النص الغريب على أنه برقية مكتوبة بالشفيرة ، تكشف وجود مؤامرة دولية . ووقف فتحي الرملي ، زوج سعاد ، الذي كانت البرقية مرسلة اليه . فاعترف بأنه نسيها عند صديقه كورييل . أما لينين المقصود فكان ابنه . وتذكر جوليت هارتمان ، التي التحقت بح م ت و منذ تأسيسها ، أنها استقبلت في باريس ، حيث استقرت منذ عام 1945 ، المسكينة سعاد الرملي ، التي انتدبتها الحركة الى المؤتمر العالمي للنساء : « على المستوى السياسي ، لم يكن لديها أي تكوين . ولقد كانت إقامتها كابوساً متواصلاً لأنها لم تكن تفكر بغير أولادها . كانت تبكي طيلة الوقت ، وكان عليّ مرافقتها باستمرار الى مركز الهاتف كي تتلفن أو ترسل برقيات . » وقد طلب من الزوج ، فتحي الرملي ، ان يوضح لماذا سمى ابنه لينين . فأجاب بشيء من المكر ، مذكراً بأن لينين كان أول زعيم سياسي يقدم عونه لبطل الاستقلال المصري ، سعد زغلول ، عام 1919 ؛ وأنه رد للمسلمين السوفيت حقوقهم الدينية والوطنية ؛ وكشف أخيراً للعالم الدبلوماسية السرية التي كان القيصر قد انخرط فيها ، بالاتفاق مع الغربيين ، لأجل

مجهزته تركيا . « هذا هو السبب الذي دفعني ، بصفتي شرقياً ، ومصرياً ، ومسلماً ، لتسمية ابني باسم لينين كتحية متواضعة لهذا الرجل العظيم . » كان الدفاع لا يُعلَى عليه . لذا لم يسأله أحد أن يبرر تسميته لابنه الأصغر باسم ستالين .

بما أنه جرى رفع هنري كوريل إلى مرتبة قائد اوركسترا « مؤامرة شيوعية كبرى » ، فلقد كان اسمه يتصدّر الصحف . كان « المليونير اليهودي الشيوعي » . وكانت صورته بالسروال القصير ، محدودباً ، هزياً ، تقدم تناقضاً مسلياً مع العناوين . وكان يساق الى التحقيق وسط جهاز يفرض الاحترام : ثمانية جنود يقومون بحراسته يتقدمهم ضابط . في البداية اعتصم كوريل بالصمت الذي يفرضه قانون سلوك الثوريين حين يقعون بين يدي العدو الطبقي ، وقد أدرك أن قاضي التحقيق كان يتمنى بوجه خاص تسويد الصفحات كي يتمكن من تقديم ملف . كانت جلسات التحقيق تتمثل بمونولوجات طويلة يفصل فيها المتهم بصورة مسهبة نقاطاً غامضة من الفلسفة الماركسية .

كان نظام سجن شحمة الاستئناف رحوماً . فمدير السجن كان والد أسمى البقلي ، رفيقة هنري منذ خمس سنوات . وكانت العائلة قد آوت كوريل عام 1942 حين كان طامحاً لتنظيم مقاومة النازية في القاهرة . وبفضل هذه الروابط القديمة والودية ، كانت زنزانته هي الأولى في تاريخ السجون المصرية التي جرى تطهيرها من حشرات بالدي . دي . تي .

لما كانت الاثارة قد نفست ، وبقيت ملفات الاتهام فارغة ، فقد منح القضاة بعد وقت قصير إطلاقات سبيل بكفالة . وكان زعيم « المؤامرة الشيوعية الكبرى » قبل الأخير بين من جرى إخلاء سبيلهم ، إذ أن الأخير كان تروتسكياً حمل نفسه قدر ما استطاع . فيها أنه كان في تلك الفترة التروتسكي الوحيد المعروف في مصر ، ساد تصور مفاده انه أراد التعويض من صغر العدد بالتضخم النشاطي . أما التهمة الرئيسية التي استبقيت ضد هنري كوريل فكانت انه « اقترف الجريمة المتمثلة بالدعوة الى المذهب الشيوعي ونشره . . . لأجل هذا الهدف ، أسس مكتبة ، واستورد الكتب والوثائق الواردة في محضر التحقيق ، وعرضها وباعها للجمهور . . . وانصرف لنشاطات تهيب التغيير بالقوة والعنف للمبادئ الأساسية للدستور والمجتمع ، وتجعل هذا التغيير ممكناً »

ولم تتراجع الشرطة السياسية . فبعد خمسة أشهر ، في 5 كانون الأول 1946 ، فاجأ فريق من المفتشين يرتدون الملابس المدنية كلاً من هنري كوريل وشحاتة هارون وبدر ورفيقين آخرين ، وكانوا جالسين حول طاولة في البيغ بن . وقد أمضوا جميعاً ، باستثناء بدر ، ليلتهم في مفوضية الشرطة بالكوزيكا . شعر شحاتة بأنه سيموت من البرد (يمكن ان تكون لبال

الشتاء قارسة في القاهرة) ولم تنقذه غير شفقة أحد الموقوفين الذي اعطاه غطاءه . وفي الغداة ، وبعد تفتيش دقيق لمساكن الموقوفين ، جرى ايداعهم سجن الأجانب .

تأثر المدير لهزال هنري فنصح به حرارة بأن يحشش قليلاً ليفتح شهيته : كان أكبر مهرّب في مصر ضيفه القسري ، وكان يتلقى كل يوم كرة ضخمة من المخدر يوزعها بالعدل بين الحراس والموقوفين معه (لم يكن هو يحشش اطلاقاً) . وقد رفض هنري العرض ، لكن شحاتة هارون الذي ثار فضوله تذوق المخدر للمرة الأولى . وفي المساء كان السجن يدوي بقهقهات متواصلة تدل على استهلاك زائد للحشيش .

كان بدر في خطر فلقد كان ميكانيكياً في سلاح الجو ، وتمّ توقيفه قبل عام بسبب نشاطات شيوعية . كان قد اطلق سراحه مؤقتاً لكن بانتظار صدور الحكم ، فارتأى رؤساؤه أن يحولوه إلى مكتب لوزارة الداخلية بهدف احتجازه مجاناً . كانت الشرطة السياسية قد افتقدت اليقظة إذن وسخرت الصحافة منها بسبب ذلك . هذا وقد سبق بدر إلى السجن العسكري فاستقبله المدير الذي قال له بصوت بارد جداً : « لقد جعلت من الجيش اضحوكة . ولدينا تعليمات بعدم السماح لك بالخروج حياً من هذا السجن . » كان يحضر اللقاء رئيس الحراس ياسين ، المشهور بقساوته ؛ وكان عملاقاً قادراً على قتل معتقل بضربات من قبضته . وقد عرف بدر أن الساعات القادمة ستكون صعبة . فحاول ، فيما قلبه منقبض من القلق الشديد ، أن يؤجل الاستحقاق عن طريق عرض أسباب التزامه السياسي وتفصيل برنامج الحركة المصرية للتححر الوطني . وقد أمر المدير بأخذه بعد أن ضجر من حديثه . فساقه ياسين الى مركز الحراسة . وقد تحلّى حوله الجلادون ، المتمرسون بالروتين ، تمهيداً لجلسة الملاكمة التقليدية . لكن أمام دهشة الجميع ، رفع رئيس الحراس ذراعه وصاح : « كلا ! لا أحد يلმسه ! » ثم أمسك السجن من كتفيه بمودة وقال له : « لقد استمعت اليك . لم أكن أعرف كل هذا . الحق معكم انتم الشيوعيين . أنا موافق على ما تريدونه . » وقد خرج بدر إذن حياً من السجن لكن المعتقل العسكري الذي أمضى فيه الأشهر الثلاثة اللاحقة كان امتحاناً قاسياً . فلقد كانوا يضربونه بصورة منهجية مرة في الأسبوع ، إلى أن يغمى عليه . وبعد يوم من العمل ، كان عليه أن يغسل ثيابه كمحكوم بالأشغال الشاقة ليرتديها من جديد مبللة تماماً : كانت كل ليلة عذاباً حقيقياً ، صراعاً دائماً كي لا يموت من البرد . وكانت تجري مناداة في الرابعة صباحاً ، أي في الوقت الذي تصبح فيه ثياب المسكين جافة فيشعر بنعاس رحيم . وقد خرج من شهوره الثلاثة في الأشغال الشاقة منهكاً بصورة تامة ، لكن حاملاً في جيبه لائحة طويلة بالسجناء والحراس الذين يودون الانتساب إلى ح م ت و .

عرف هنري كورييل في سجن الأجانب تجربة شبيهة بتجربة بدر مع رئيس الحراس ياسين . كان المعتقل الأكثر شهرة والأشد إثارة هو ابن بامبا ، « قاطع الطرق » المتهم بعشرة أعمال قتل تقريباً . وكان « قاطع الطرق » في الريف المصري يشبهون آنذاك مجرم الشرف الكورسيكي ورويين الغابات . فلقد كانوا يسلبون الملاكين الاقطاعيين حقائبهم ويقتلونهم ، وغالباً ما يوزعون على الفقراء جزءاً من مسلوباتهم ، مثيرين لدى الفلاحين رهبة يخالطها الاحترام ولا تنقصها المودة . أما العدالة فما كانت تتوصل للعثور على شاهد إثبات واحد بصدد عمل واحد من أعمال القتل التي ارتكبتها ابن بامبا . وكان هو الآخر عملاقاً يزن على الأقل ضعف وزن هنري كورييل . وقد جرى وضعه في زنزانة واحدة مع « المليونير اليهودي الشيوعي » ، ليس من دون نية مبيتة . تأمل ابن بامبا بذهول جسم كورييل شديد الهزال ، وصاح مندهشاً : « ماذا ! هذا هو زعيم الشيوعيين العظيم ؟ » وانفجر مطلقاً ضحكة مدوية . ثم دار حوار . فعرض هنري ، بصوت منقبض قليلاً ، مشروع ح م ت وللاصلاح الزراعي وضرورة اعادة توزيع الأراضي . وسوف يقول بعد وقت طويل إنه لم يحس طوال حياته بذلك القدر من قوة الاقتناع في الكلام السياسي ، الا ربما مع عمال شبرا . كان قاطع الطرق كارض يابسة منذ قرون اهتمرت عليها دفقة من المطر . حين سكث هنري ، نهض ابن بامبا ونادى الحراس وهو يصيح بصوت كالرعد : « لقد جاء المهدي ! » . فأنخذ تدبير يحول دون أن يرى الرجلان احدهما الآخر بعد ذلك . الا أن ابن بامبا الذي اخلي سبيله لعدم وجود اثباتات ، اتصل بفؤاد حبشي وناضل في صفوف الفلاحين .

يستحيل فهم شيء ، في تلك الفترة ، من حماس الشيبة الشيوعية ، ومن اتساع آمالهم ، ونشاطهم المحموم ، إذا لم يبق نصب اعيننا ألم شعب مثقل بالبؤس ، مرهق بالظلم ، كانت الكلمة الثورية تؤثر فيه كهزة أرضية وكان يتقبلها كوشي . في الفترة ذاتها ، كان جوزف هازان يجوب الأرياف ، بائعاً في النهار جرارات فورد سون للملاكين الكبار وخاطباً مساء في تجمعات الفلاحين . « أستخدم كلمة تنسيب ؟ كلا ، فهي غير مناسبة . كان يكفي اشعال عود كبريت ، ويلتهب كل شيء . كان عود الكبريت هو كلمة « عدالة » . كل الناس كانوا يريدون الانتساب ! » ولم تكن قابلية التأثير الخارقة تلك حكراً على الأكثر استلاباً . فأحد الشبان السودانيين ، وكان طالباً في القاهرة ، تلقى من استاذة الشيوعي ، عشية العطلة الصيفية نسخة من البيان الشيوعي . وقد أمضى يومين في القطار للعودة الى الخرطوم ، وفتح الكتاب على سبيل الفضول فيما كان يستلقي في سريره عند المساء . وفي صباح اليوم التالي ، وكان لم ينم طيلة الليل ، استقل القطار من جديد ، ليصل الى القاهرة بعد 48 ساعة ويهرع إلى أستاذه سائلاً إياه : « والآن ، ما العمل ؟ »

جرى ضم قضية بيغ بن إلى « المؤامرة الشيوعية الكبرى » ، وحصل هنري كورييل واصدقاؤه على اخلاء سبيل بكفالة . ولقد عادت العدالة المصرية ، المعروفة ببطئها الحكيم ، ففتحت الدعوى بعد عشرين عاماً ، وحوكم هنري كورييل اذن غيابياً . انتهت المحاكمة بإعلان براءة الجميع .

لكن صدقي باشا كان يلقي من صحففيه خدمة أفضل من خدمة قضاته . فالصحافة المرتنهة بأوامر الحكم كانت قد فرضت لدى الرأي العام صورة للـ « يهودي المليونير الشيوعي » ، وذلك بفعل العناوين الكبيرة في صدر الصفحة الأولى . وسوف يكون توظيف ذلك مجزياً .

※

※ ※

كان كل شيء يلتهب لكن السياسة الجيدة تُطبخ على الجمر . فجوزف هازان كان يشق في الأرياف أثراً ساطعاً ، لكن بما أنه لم يكن يقيض للشعلة من يواصل تغذيتها ، فلقد كانت تنطفئ و يعود الفلاحون الى استسلامهم المزمّن . كانت شبرا والمحلة تتفجران بانتظام ، لكن بُنيةً سياسية - نقابية مفرطة في سرعة العطب كانت تحول دون وضع استراتيجية في خدمة الحماس القتالي للطبقة العاملة . كانت الجامعة والأزهر يفتحان أفقاً واسعاً لكن الغليان الطلابي كان يبقى مستتاً ومنقسماً .

كان ينقص الكوادر . وهذا ما سلّم به هنري كورييل فيما بعد : « كان أحد أخطائنا الكبرى اننا لم ندرك إلا رويداً رويداً ان سيرورة تكوين الكوادر قد توقفت في حين أن التنامي السريع للتنظيم كان يتطلب ، على العكس ، تكوين عدد متزايد من الكوادر الجدد . كانت الحاجات الملحة متسارعة بحيث كان كل منتسب جديد يندفع الى العمل قبل أن يكون أُعد للقيام به بعناية » .

الا ان كورييل لم يكن ذلك « العفوي - النشاطي » الذي وصفه خصومه . كانت رؤيته تذهب إلى أبعد من المذّين القصير والمتوسط ؛ وهو لم يكن يهمل أسلحة العقيدة ، إذ هو الذي كان المبادر الى فتح أبواب مصر أمام الماركسية : ترجمة النصوص الأساسية الى العربية . كانت مكتبة الرونبون توزع مؤلفات بالفرنسية وبالانكليزية لا يفهمها الا الطلاب ، وكانت الشرطة المصرية حريصة على الا يجتاز الحدود أي كتاب مؤذ . مع استثناء واحد ، لكنه هائل : فالباشا كمال البنداري ، وكان من عائلة اقطاعية مهمة ، وسفيراً لمصر في موسكو اثناء الحرب ، تلقى

الالهام الماركسي ودفع باتجاه تعريب كتاب لينين الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية . وقد نشر الكتاب في القاهرة عام 1945 ، وكان يحمله اسم الباشا . والشيوعيون ، الذين ابتهجوا بالنعمة غير المتوقعة ، وفروا له حملة دعاوية كبيرة - « اقرأوا كتاب الباشا الأحمر ! » - لكن البنداري لم يواظب وكان عام 1945 قد مر وانقضى .

كان البيان الشيوعي قد صدر بالعربية ، لكن ترجمته السورية كانت تنفّر المناضلين المصريين ، فاهتم هنري بتكييفه مستعيناً بريمون اسطمبولي ، الدكتور الشاب في الاقتصاد السياسي من كلية الحقوق المصرية . ثم عرّب اسطمبولي ما العمل ؟ حاشياً نصه بهوامش توضيحية لآثاره القارئة . وتلت ذلك بوثيرة سريعة مبادئ اللينينية لستالين ، والاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية لانجلز ، والأجور والأسعار والأرباح (ماركس *) والديمقراطية الجديدة لماوتسي تونغ . أو ما مجموعه 13 كتاباً بغلاف أخضر نشرتها مكتبة المكشوش - ناشر وهمي - ، وكانت تشير الى طابع في بيروت في حين انها طبعت في مدينة مصرية صغيرة ، وخزنت في مخبأء مضمونة ، وتم توزيعها على امتداد البلد وحتى خارج الحدود . وليس من شيوعيين مصريين لم يتعرفوا إلى أوليات الماركسية بفضل « الكتب الخضراء » المشهورة التي اهتمت باصدارها ح م ت و .

ولقد جرى التصدي للمشكلة السودانية الصعبة بالروح الجدية ذاتها ، وباهتمام مشابه بالمدى البعيد .

من العتب تحديد السودان على انه الالزاس - اللورين بالنسبة الى مصر لكن التاريخ كان قد تبّل بالأهواء الواقع الجغرافي العصي على الالتفاف حوله . فالنيل يجتاز السودان قبل أن يروي مصر : أي رباط يضغط الشريان المغذي الوحيد قد يعني الموت ؛ وأي إفراط في التقاط مياهه يعني المجاعة . وبالتأكيد فإن الفراعنة لم يكونوا يتعرضون لمخاطر رؤية الشعوب الريفية في « بلاد الكوش » تنطلق في هكذا مشاريع : هذا لم يمنعهم من أن يدفعوا جيوشهم حتى حدود الشلالين الرابع والخامس . ولقد قام الالباني محمد علي ، المؤسس لسلالة ، باطلاق ابنه الأصغر اسماعيل على خطاهم . وقد فقد هذا حياته هناك ، إذ مات حرقاً في كوخه ، لكن السودان عاد الى السيطرة المصرية . وكانت قاسية وقائمة على النهب . عام 1881 أعلن رجل عن نفسه أنه المهدي ، وألبّ البلد ضد المحتل . وفي غضون أربع سنوات قضى جيش الدراويش على جميع الحاميات المصرية ، التي كان كثير منها بقيادة ضباط انكليز . كان جنود المهدي مقتنعين بأن الموت في المعركة يعني الدخول الفوري الى جنة الله . وقد صبر اللورد

* إضافة من العرب .

كيتشنر 13 عاماً قبل أن يقدر أن قواته كافية لمواجهة محاربي هذا الحماس . وكان ثلاثة أرباع جيشه من المصريين ؛ وكان يخدم في الوحدة الانكليزية ضابط شاب اسمه ونستون تشرشل حصل على امتياز المشاركة في آخر هجوم كبير للخيالة في التاريخ الحديث . هكذا فإن مصر المتمردة على السيطرة البريطانية قبلت أن تضع قواتها تحت القيادة المكروهة من أجل استعادة امتلاكها للسودان . . . وبالطبع فلقد خدعها السيد الانكليزي وأزاحها كلياً .

نختزل - دون شك إلى أبعد الحدود - منظراً معقداً بصورة استثنائية (كانت الصراعات القبلية لا تتوقف وكانت الطوائف الدينية تلعب دوراً ساحقاً) ، فنقول إن تيارين سياسيين كانا يتقاسمان السودان . الأول ، وكان مؤلفاً من عناصر تقدمية نسبياً ، كان يعتبر نفسه محباً لمصر كرهاً بالمحتل الانكليزي ، وكان يطالب بـ « وحدة وادي النيل تحت التاج المصري » . والثاني ، ذو المنحى الرجعي بالأحرى ، فكان ينادي باستقلال السودان ؛ وكانت لندن ، الميالة للتفريق من أجل أن تسود بشكل أفضل ، تدعمه بكل قواها .

مرة أخرى ، كان التاريخ يفرض على الشيوعيين المصريين خياراً سياسياً صعباً . فلقد كان الانحياز إلى « وحدة وادي النيل تحت التاج المصري » تحدياً للتطلع الحقيقي الى الاستقلال لدى الشعب السوداني . كيف التوفيق بين النضال من أجل تحرير مصر والهدف المنادى به المتمثل بابقاء السودان في قيود التبعية ؟ وعلى العكس ، فإن دعم حزب الاستقلال كان يعني تقديم العون للندن والرجعية السودانية والانفصال عن مجموع القوى السياسية المصرية ، المجمعة على المطالبة بـ « وحدة وادي النيل » .

كان هنري كوريليل يقول ، بتحرره الدائم من التعقيد ، إن اهتمامه بأهل السودان ناتج عن « المحبة العميقة » التي كان قد شعر بها حيال خدام لأهله ، من النوبة السودانية ، كان ابنه أحد رفاقه في اللعب . وكان معجباً بالتضامن السائد بين السودانيين الذين كانوا يأتون للدراسة أو العمل في القاهرة ، وبفعالية جمعيات تبادل المساعدة الخاصة بهم . كان أحد أولئك المهاجرين ، عبدو دهب ، الفقير كأيوب لكن الشاطر كثلاثة اشقياء من باريس ، كان قد غدا صديقاً له وفي الوقت ذاته أحد أفضل مناضلي ح م ت و . بفضل ، بدأت المنظمة تجتذب الى عضويتها طلاباً سودانيين ، وتشكلت خلايا متجانسة . وروى طالب يوماً هنري كوريليل انه خلال اجتماع لجمعية السودانية ، سأل ضابط مصري من أم سودانية ما هو موقف الشيوعيين حيال المشكلة . وكان الضابط يدعى محمد نجيب . فكتب كوريليل تقريراً طويلاً حدد الخط السياسي للشيوعيين المصريين بصدد السودان .

كان التحليل الذي لا مجال لمهاجمته على صعيد المبادئ ، يدل على مهارة سياسية

مرموقة . فكوريل كان يدعو إلى مقارنة للمشكلة على مرحلتين . ففي مرحلة أولى ، « نضال مشترك للشعبين ضد الاستعمار » . وما كان يمكن أياً من التيارين السودانيين إلا أن يوافق على هكذا شعار . والمرحلة الثانية : « حق الشعب السوداني في تقرير المصير بعد تحرره من نير الاستعمار » . كان ذلك احترام القاعدة التي لا تُمس لحق الشعوب في تقرير مصيرها دون الانضمام مع ذلك إلى التيار الاستقلالي المستند إلى لندن : لن يمارس تقريراً المصير إلا بعد الانتصار على الاستعمار وليس في كنفه .

تبدو هذه المقترحات اليوم معبرة عن رشاد أولي : لقد اثارت في تلك الفترة نقاشات محمومة لدى الشيوعيين المصريين كما لدى السودانيين ، وجلبت لصاحبها الاتهام بالتروتسكية من جانب أعضاء مرموقين في الحزب الشيوعي الانكليزي ، وبأنه عميل بريطاني من جانب منظمات سياسية مصرية . إلا أن ح م ت وتبنتها بعد نقاش طويل . ولن يتغير هذا الخط حتى استقلال السودان ، عام 1956 . وقد كتب محمد نجيب في مذكراته ، إن هذا كان موقفه ، لكن دون أن يذكر أصله . ولأن عبد الناصر أراد في وقت من الأوقات الابتعاد عن هذا الموقف ، فقد أراق الدم والدمع ، ولم يتمكن من الحيلولة دون استقلال السودان المحتوم .

وضع هنري كوريل نظريته موضع التطبيق ، فأسس الحركة السودانية للتحرر الوطني ح س ت و وزودها بجريدة اسبوعية ، أم درمان . وقد سمح نظام ذكي بإرساء تحالف وثيق بين ح م ت و ح س ت و ، التي سرعان ما غدت الحزب الشيوعي السوداني . كان في متناول المناضلين السودانيين العاملين أو الدارسين في القاهرة دخول المراتب التنظيمية في ح م ت و ، بما فيها اللجنة المركزية ، وكانوا يتدرجون فيها هكذا سياسياً . ولدى عودتهم إلى السودان ، كانوا يحتفظون بمسؤولياتهم التراتبية المكتسبة في القاهرة . وعلى العكس ، فكل مناضل أو قيادي قادم من السودان كان ينخرط في ح م ت و على المستوى الذي وصله في بلده . وبفضل التكوين المكتسب لدى رفاق أكثر تجربة ، ومستفيداً من البؤس التقني للشرطة السياسية في الخرطوم ، الأقل حذقاً بما لا يقاس من شرطة القاهرة ، ومتحرراً أخيراً من الصراعات الداخلية التي كانت تمزق الحركة الشيوعية المصرية ، عرف الحزب الشيوعي السوداني انطلاقاً سريعاً وحقق نجاحات عظيمة ، لا سيما في تنظيم الحركة النقابية . وبعد عدة مشاركات في الحكم ، لقي تاريخه خاتمة مؤقتة لكن أساسية على مشانق الديكتاتور النميري ، الذي شق عام 1971 ثلاثة من قياديه ، من بينهم امينه العام ، عبد الخالق محجوب ، تلميذ هنري كوريل وصديقه .

غالباً ما يخطئ البعض إذ يكتبون أن كوريل كان مؤسس الحزب الشيوعي المصري : لم

يكن غير مناضل تاريخي في الحركة الشيوعية المصرية . لكن كان ثمة حزب شيوعي سوداني ولا أحد غيره يمكنه أن يزعم أنه مؤسسه .

*

* *

كان ضباط الجيش المصري موضوع عمل صبور ومتكتم ولن يتأخر المستقبل في أن يثبت بطريقة باهرة انهم كانوا يمسون بجزء من مستقبل مصر . والاتصال الأول في هذا القطاع الحاسم تحقق بفضل ديدار روسانو .

ان ديدار ، المقدر لها أن تعيش خارج القاعدة ، بدأت بمراهقة مضطربة ، ساقطة عند الحاجة في ارتكاب الجنح الصغيرة . وقد كان لقاءها الأول مع هنري كورييل عام 1935 . كانت ديدار ، ابنة الأربعة عشر عاماً ، قد قررت الهرب إلى الولايات المتحدة مع رفيقة في الليسيه الفرنسي . استقلتا القطار إلى بنها ، على بعد 30 كم من القاهرة ، في مرحلة أولى من المغامرة ، في حين أن العائلتين ، اللتين رزحتا تحت ثقل اختفاء لا سابق له في الطائفة اليهودية ، اعتقدتا انهما ضحيتا الرقيق الأبيض وكانتا مقتنعتين بأن رسالتي الوداع ، اللتين حررتاهما ، كُتبتا تحت إكراه القوادين . وقد استعادتهما الشرطة بعد 48 ساعة من الاختفاء ، وجاءت بهما الى المفوضية المركزية في القاهرة ، حيث انتظرتا أهليهما بنوع من القلق . كانت صدمة والده ديدار - وكانت هذه الأخيرة تحبها حتى العبادة - من القوة بحيث سمرت نوبة في السرير ، وشلتها مؤقتاً . لذا جاءت اخت ديدار الكبرى لاسترجاعها ، يصحبها هنري كورييل الذي كان ييدي آنذاك إعجابه بها . وفي العربة المشدودة إلى حصان ، والمتحركة نحو المسكن العائلي ، رفعت ديدار المذعورة عينها نحو الشاب الطويل والنحيف ابن العشرين عاماً ، فتلفت في القلب ابتسامة هنري الوضاعة . كانت تلك الابتسامة تعبر عن التسلية (سبق أن سرت ديدار سروالاً قصيراً لأخيها وقصت شعرها على طريقة الفتيان كي لا تلفت الأنظار) وعن تواطؤ مثير للاطمئنان . هكذا ولدت بينها عاطفة كانت على التوالي عاطفة صداقة ، فرفقة ، فحب ، فموودة ، وسوف تنتهي بالصيحات الحيوانية التي ستسمع ديدار نفسها تطلقها على الهاتف ، في الجزائر ، بعد أن أعلمها جوزف هازان على الطرف الآخر من الخط ، في 4 أيار 1978 ، الساعة الثانية والنصف ، باغتيال هنري كورييل - بعد مرور 43 عاماً على البسمة بوجه الابنة الشاطرة في العربة القاهرية .

بعد طرد ديدار من الليسيه الفرنسي ، انقطعت عن الدراسة قبل البكالوريا ، ودخلت

المصرف الوطني الذي كان والدها أحد مديريه . كانت تضجر في المكتب ، لكنها تعوّض بحياة عاطفية ملأى باللامتوقع . التقت في التاسعة عشرة الضابط الوسيم عثمان ، فحدثت قطعة مثيرة بينها وبين عشيقها في تلك الفترة ، الذي أقنعها بابتلاع السم معاً . وانتهت القضية في المستشفى بطفح جلدي جدي أصابها ، ولم تعرف أبداً إذا كانت زجاجة العاشق تحتوي أيضاً على المادة المؤذية .

ليس ثابتاً إذا كانت أثارت غيظ عثمان حين كشفت له جهلها بوجود جيش مصري لأن الشاب كان يتحدر هو أيضاً من عائلة - يا للتعقيد اللامتناهي لهذا البلد القديم ! - كان أفرادها يعتبرون مصر مستعمرة : كان جده ، السيد الشركسي ، قد اقترن بشركسية رائعة في الثالثة عشرة من عمرها وكان ينتمي إلى الفئة المغلقة العثمانية السائدة في الريف . كان يعيش على متن حصان ، ومات على متن حصان ، في التسعين من عمره . وكان في وسع تعاليه حيال السكان الأصليين أن يلقي درساً لتعالى أي لورد انكليزي . ذات يوم وقد أجبر على الذهاب إلى المحكمة بخصوص أحد أملاكه الكثيرة ، ذهل وهو يسمع القاضي يكلمه بالعربية - وكان ذلك أمراً طبيعياً . لكن السيد النبيل كان يتكلم التركية ، لغة الفئة المغلقة الفاتحة . وقد استهول أن يسمع أحداً يؤنبه بلهجة السكان الأصليين فصب على القاضي سيلاً من الشتائم ورجع على أعقابيه .

كان شعر عثمان الأشقر من أمه الانكليزية . لقد ورث من جده كتفين عريضين رائعين ، وحركات نبيلة ، وتذوقاً لعلم الفروسية (أصبح بطلاً عسكرياً في مباريات الفروسية) لكنه لم يرث مالا . فالأملاك الكبرى تبخرت في الجيل الوسيط . وهو ما دفعه للانخراط في الجيش ، الذي كان إحدى المؤسسات الأقل هيبة في مصر . الكثيرون كانوا يقبلون بمهنة الضابط لأنهم لم يحصلوا في البكالوريا على مجموع من النقاط يفتح لهم باب الجامعة . وبلاستثناء المحتمل لسلاحى الطيران والفرسان ، كان ملاك الضباط آتياً بمعظمه من طبقة الفلاحين الصغار ومن فئة صغار الموظفين : من البورجوازية إذا شئنا ، لكن البورجوازية الصغيرة ، الأقرب إلى الشعب منها إلى الاقطاعيين . فكان الجيش المصري جيشاً شعبياً بالمعنى السياسي - الاجتماعي للكلمة . ولأن الغرب تجاهله ، ولأنه كَوَّن عن الضابط المصري صورة كاريكاتورية تخلط بينه وبين الانقلابي الفاشي الجديد في اميركا الجنوبية ، فسوف يحكم على نفسه بالآ يفهم شيئاً بصدد ثورة 1952.

كان مجمل الضباط يشعرون بحضور الجيش الانكليزي على أنه اذلال لا يُحتمل - ولقد رأينا إلى أي مواقف متطرفة يؤدي الحقد على المحتل بأناس من طينة أنور السادات . كان البعض يعتبرون ان البلد لن يصل إلى استقلاله الكامل إلا إذا خرج من تأخره الاقتصادي

والاجتماعي . وكان عثمان من هؤلاء . وسبق أن انشأ في وحدته ، ومبادرة شخصية منه ، صفوفاً لمحو الأمية لأجل المجندين الجدد . وإن التقاء ديدار ، التي اقترن بها في أول ايلول 1942 ، شجع دعوته التقدمية . كان في السادسة والعشرين ، وهي في الواحدة والعشرين بالضبط .

كانت ديدار ، المهتدية للماركسية عبر قراءة محاضرات سلمها إياها أحد أصدقائها الايطاليين ، رونييه فرفار ، قد انضمت في البدء ، بناء على نصائحه ، الى فريق دراسات يلعب دور غطاء للايسكرا . وكان كل منتسب محتمل يرى نفسه يخضع هكذا لتدرج اختباري تتراوح مدته بين ستة أشهر وسنة قبل قبول انتسابه . ووفقاً لقواعد الأمن ، كانت ديدار تجهل أنها الحلقة المعبر إلى الايسكرا وأنها « تحت المراقبة » ، وقد وجدت فيها مع ذلك صديقتها وزميلتها في العمل في المصرف الوطني ، بيرت ماتالون ، التي غدت قرينة هيلل شوارتز . وكانت الحلقة والنقاشات النظرية التي لا تنتهي قد بدأت تتبعها حين التقت ، بعد زواجها بقليل ، داود ناحوم ، صديق شقيقها . كان ناحوم أحد القادة الأكثر نشاطاً في ح م ت و . كان محاضراً في أول مدرسة كوادر ، وتعرض لمخاطر كبرى أثناء دعم الديمقراطيين اليونانيين . كان لا بد أن تثير حماس رجل مثله متعاطفة مع الشيوعية مقترنة بضابط تقدمي مصري . وقد أدخلها إلى ح م ت و .

استراحة قسرية : لقد جرى ارسال عثمان « الى الصحراء » لامضاء عقوبة ، لأن حملات نحو الأمية كانت تقلق رؤساءه . فرافقته ديدار إلى الحامية التعيسة في مرسى مطروح . وبعد عودتها إلى القاهرة في نهاية 1945 ، شاركت في أحداث كانون الثاني 1946 وفي مغامرة لجنة الطلاب والعمال القصيرة لكن المثيرة للنشوة . ثم سحبها هنري كوريل من العمل السياسي المكشوف - كانت تتكلم العربية بشكل سيء - ليلحقها بـ « عمل الضباط » الحاسم . كانت تؤمن الاتصال بين قيادة ح م ت و ومجموعة لا شكلية كان ينتمي إليها عثمان وسوف يخرج منها الأكثر دينامية بين الضباط الأحرار في ثورة 1952 . كان من بينهم فارس شاب اسمه خالد محيي الدين ، ابن عم زكريا محيي الدين ، الذي اقسم عام 1938 ، هو وجمال عبد الناصر وأنور السادات ، لدى خروجهم من المدرسة الحربية ، على تحرير مصر . كان مقدراً لابني العم محيي الدين أن يصبحوا ممثلين اساسيين على المسرح السياسي المصري .

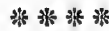
عمل تأمري ، كما كانوا يقولون في الكومنترن . كانت ديدار تعيش حياة زوجة ضابط شابة رياضية واجتماعية . كانت تتم الاتصالات في نادي الجزيرة الرياضي ، حيث تمارس التنس والاسكواش* والفروسية مع زوجها ، أو في نادي الضباط . وغالباً ما كان هنري

* لعبة شبيهة بكرة اليد والتنس (م) .

كوريل يلتقيها هناك ، لكن داوود ناحوم كان يقوم بالجزء الأساسي من أعمال الاتصال . « من الخطأ القول إنني كنت واسطة الاتصال الوحيدة مع الضباط الأحرار . كان لدى هنري عدة أوتار في قوسه باستمرار . هذا ما تؤكد مع ذلك ديدار . »

كان كوريل يعرف غريزياً ما يتطلبه العمل السري من حذر وصبر . لم يكن إضراباً في شبرا و « عمل الضباط » في المستوى ذاته وكانا يتطلبان استخدام وسائل مختلفة . وقد برع دائماً في حماية القطاعات الحساسة . كان الجيش في مصر القطاع الأكثر حساسية ، تحت رقابة الشرطتين العسكرية والسياسية ، يخترقه عملاء للقصر الملكي ، وتراقبه الأجهزة الانكليزية باستمرار . كما أن تذوقه للهجوم لم يكن يجعله ينسى ان معرفة جيدة للخصم ، ولقواه ومخططاته ، هي شرط تمهيدي لا غنى عنه قبل العمل . كان لديه حس الحصول على المعلومات . وحين أنبأه فؤاد حبشي ، وهو مرتبك قليلاً ، بأن أخاه ، الموظف في الشرطة مكلف بتنظيم لقاء مع كمال رياض أحد مدراء الشرطة السياسية ، طلب منه كوريل أن يقبل ، قائلاً له فقط : « اشتر لكن لا تبع » - وهو تعبير عربي معروف . ويقول حبشي : « علمني ذلك ان أرتبط دون خوف بكل الناس » . وفيما بعد ، جند وكيلاً للنيابة فكان يطلعه على مذكرات التوقيف . وكان لدى هنري كوريل بالذات مخبر غير معروف في هيئة أركان الشرطة . وكان احد طياري فاروق الشخصيين ينتمي سراً الى ح م ت و ، بحيث ان الطائرة الملكية كانت تفيد في تأمين الاتصالات على المستويين الوطني والدولي ، دون الكلام على رزم البيانات و « الكتب الخضراء » المخبأة تحت صناديق الشامبانيا والكافيار التي تشكل منها الحمولة في العادة . وكان مساعد لأحمد حسنين ، مدير الديوان الملكي ، يسلم نسخاً من التقارير المرسلة الى القصر بصدد النشاطات الشيوعية .

لم تتأخر ديدار روسانو في التقاء الرجل الذي سيعطي « عمل الضباط » دفعة حاسمة . كان أحمد حمروش ملازماً في سلاح المدفعية المضاد للطائرات ، واستاذاً في مدرسة المدفعية في القاهرة ، اكتشفته منظمة القلعة ، وانتقل الى الايسكرا .



لم تكن الايسكرا حصراً برج العاج الذي يحاول شباب متحذلقون الظهور فيه دكاترة في الماركسية : ظهر ذلك بوضوح حين تمت الوحدة أخيراً في شهر أيار 1947. والنتيجة الأكثر شؤماً للخصومات التي لا تنتهي بين قدامى الحركة الشيوعية المصرية انه لما كان كل واحد يعطي عن الآخر صورة كاريكاتورية فالحركة بكاملها هي التي بدت في الأخير مشوهة .

كان هيلل شوارتز على الأرجح الخاسر الرئيسي في لعبة قلب الدمى هذه . لقد تخلى عن المعركة السياسية عام 1953 في حين بقي هنري كورييل دائم النشاط حتى التضحية بحياته . ولا يمكن أن يكون المرء على حق ضد شهيد . لكن إحصاء الكورياليين الصامدين الذين كرسوا حياتهم للنضال يؤدي بنا إلى ملاحظة أن معظمهم جاؤوا من الايسكرا .

كانت الايسكرا تعرض نفسها للنقد . فنواتها المناضلة الأصلية ، المتحدرة من البورجوازية الكبرى الأجنبية ، كانت تتناوب لديها الحفلات الراقصة الخاصة والتأويل الماركسي ؛ كان يجري التهامس بحق حول أن الكثير من الفتيان يذهبون الى الايسكرا بسبب الصبايا اليهوديات الجميلات اللواتي يأتين ليتحررن من المحظورات الجنسية (كان شوارتز يلعب هذه الورقة عن سابق تصور وتصميم) . لم « تتشبرن* » الايسكرا ، وإذا كان تمصّرت فعن طريق دمج مثقفين من أهل البلد . أما اهتماماتها الأمنية ، مع بنية هرمية وفصل دقيق بين الخلايا ، فكانت تُرى فيها بوجه خاص ذريعة لرفض مخاطر العمل .

لكن الايسكرا أصدرت الجريدة الأسبوعية الجماهير ، التي لم يكن لتوزيعها مثيل على صعيد صحف أقصى اليسار (كان نظامها مصريةً بصورة نموذجية : لم يكن من حق جهازها الظهور لكن رئيس تحريرها كان ابن باشا كبير اهتدى الى الماركسية ؛ كان رئيس الشرطة السياسية يستدعيه غالباً ويواكبه باحترام الى باب مكتبه .) وكانت دار البحث العلمي تجمع المئات من المستمعين لمحاضرات من مستوى عال . وكانت جامعة عمالية تجتذب كل يوم العديد من العمال . . وأخيراً فإن مناضلي الايسكرا كانوا يتلقون تكويناً نظرياً أكثر كثافة مما في أي منظمة أخرى . لم يكن هيلل شوارتز رومانسياً . إذا كان البعض اعتبروه عصبوياً ، واعترف هو بأنه عنيف في النقاش السياسي ، وشرس في الأورثوذكسية ، فلقد كان لديه وعي حاد للطابع الانتقالي لنشاطاته في مصر ، وكان يعتبر أن المهمة التاريخية للمثقفين الأجانب تكمن في نشر المبادئ وتكوين الكوادر . ما كان ليخطر بباله أن ينظر الى نفسه على انه تلميذ لواحد كمحمد شتى او لشخص من مثل بدر ، وكان يرى فيها عنصرين ممتازين للتكوين . كان هنري كورييل يثير قشعريرته بمواقفه العاطفية العمالية التي كان يرى فيها نوعاً من الديماغوجية .

يبقى أن الايسكرا كانت تضم لدى الاندماج عدداً من المنتسبين أكبر من عدد اعضاء ح م ت و ، وحملت معها جهازاً دعاوياً وامكانات مالية تفوق من بعيد إمكانات ح م ت و . مثلت المالية الشهرية للمنظمة الجديدة ما مقداره 15 ضعفاً لمالية ح م ت و .

* نسبة إلى شبرا الخيمة (م) .

كان ذلك الاندماج زواجاً عقلانياً أكثر مما عاطفياً . دامت المفاوضات ستة أشهر . الجميع كانوا يشعرون بضرورة توحيد الحركات والتجمعات والمجموعات الصغيرة المتمية إلى وجود شيوعي أقل في البلد بحيث لا يمكنها أن تمارس ترف الانقسام . لكن العصبية كانت قد أحدثت في القلوب آثارها التخريبية المعتادة ، وكان كل واحد يصبر بأسنانه أمام فكرة الانضمام إلى الخصوم الممقوتين . كان لدى ألبر أرييه ، ابن السبعة عشر عاماً وعضو الايسكرا تعليمات برفض الحوار مع هنري كورييل حين يذهب ليرى ابنة عمه هنرييت في الرونيوان . . . وكان بدر شديد الغضب لاضطراره للعمل مع أناس مجتمع لديهم الكثير من الازدراء للعمال بحيث كانوا يفرضون عليهم ، وفقاً لاعتقاده ، فترة تجريبية أطول مرتين من تلك المفروضة على المثقفين .

بدأت السيورة باندماج الايسكرا وتجمع مارسيل اسرائيل ، تحرير الشعب . وقد فضلت أقلية من تحرير الشعب الانشقاق على الوحدة ، وتوحدت مع الفجر الجديد والعصبة الماركسية مشكلة معها جبهة من المتصلبين الذين راحوا يفضحون المنظمة الجديدة على أنها « فاشية ، وامبريالية ، وصهيونية » . ثم انضمت القلعة بأعضائها الوهميين المئة ألف وأعضائها الفعلين الخمسين (كان بينهم الملازم الثمين أحمد حمروش ، الذي كانت استمالاته تبرر لوحدها وجود القلعة) . والتحقّت مجموعة قاهرية صغيرة ومنظمة في الاسكندرية بالمجموع الجديد الذي اندمج أخيراً مع ح م ت و المتحلقة حول هنري كورييل .

جرت تسمية ناتج هذه التجميعات المتتالية بالحركة الديمقراطية للتحرير الوطني (ح د ت و) . وكانت التسمية ترمز إلى انتصار كورييل : باستثناء كلمة واحدة ، كان الاسم هو اسم منظمته الأصلية . حلت « الديمقراطية » محل « المصرية » لأن التمييز بدأ أمراً ناجزاً . أما إعادة تأكيد هدف التحرير الوطني فكان بالطبع جوهرياً بنظر قدامى ح م ت و . كما أن هيلل شوارتز رضى أيضاً بصدد نمط الإشارة إلى اللجنة المركزية الجديدة ، حيث كان متفقاً على أن تتمثل ح م ت و والايسكرا بالتساوي . كان يفضل انتخاب الأعضاء بالطريقة الديمقراطية ، إلا أن كورييل عارض ذلك بحجة السرية الضرورية وانتزع حق اختيار الزملاء . كانت الايسكرا تتمنى الاحتفاظ بمنبر حر في الجماهير لتعرض فيه أطروحاتها . وهنا أيضاً قُطِب كورييل حاجيين مندهشين متسائلين إذا كانت حركة شيوعية نادي نقاش ؟ وهكذا جرى التخلي عن المنبر . هل كان ذلك نتيجة ارادة المصالحة لدى هيلل شوارتز أو الدينامية المتفوقة وقوة الجذب لدى ح م ت و ؟ الحاصل أن الوحدة تمت وفقاً لشروط هنري كورييل . لا شك أن ذلك الانتصار كان باهظ الثمن .

لكن المناضلين كانوا سعداء . فباعتراف شوارتز بالذات كان مناضلو الايسكرا نافدي الصبر بسبب الطابع المدرسي جداً لتكوينهم النظري ؛ وكانوا يتحرقون للانتقال إلى العمل .

أما منا ضلوح م ت و ، الذين كانت المهام تتجاوزهم . باستمرار من حيث اتساعها ، فرأوا أنفسهم مزودين بإمكانات أكبر عشر مرات من طاقتهم على التدخل . فالاشتراكات التي كان يدفعها أجان ب الايسكرا ، المتحدرون من البورجوازية المزدهرة ، اتاحت مثلاً مضاعفة عدد المتفرغين .

قالت آيميه سيتون : « كنت اختنق في الايسكرا ، وما من شك في اني كنت تركت لولم تحدث الوحدة . كانت الحوجة تقطع اجنحتنا . وكنا ندور حول النفس بكسب عضو من هنا أو من هناك لكن لم يكن يمكن الاستمرار في اللمس إلى ما لا نهاية له بكلمة الحق . اعتقد انه بالنسبة لمعظمنا ، جرى استقبال الوحدة بحماس لأنها كانت تحمل إلينا ما يشبه الخلاص . لقد خرجنا أخيراً من البرج العاجي .

« كنت أنتمي الى فريق النساء . وكانت ح م ت و متأخرة جداً في هذا الميدان مقارنةً بالاييسكرا . كنا قد اشتغلنا جدياً على وضع المرأة انطلاقاً من القرآن ، الذي ليس معادياً للنسوية ، على عكس ما هو شائع : إن التأويل الذي يعطيه الرجال هو المعادي للنسوية . كنا قد وضعنا برنامجاً على مراحل ، مستعينات برفاق من مثل اينجي افلاطون ، وهو فنان - رسام مشهور جداً في أيامنا هذه . كانت المرحلة الأولى تتناول الحقوق العائلية . يجب ان تكون موافقة المرأة على الزواج ضرورية لانعقاده ، واعتبار التخليق بمجرد قرار من الرجل مستحيلاً . المرحلة الثانية : حق المرأة في الدراسة وفي اختيار مهنة . والثالثة تتعلق بالأهلية المدنية ، مع حق التصويت والانتخاب . وكانت هناك أيضاً مشكلة الأطفال الذين يبدأون العمل في الخامسة من العمر .

« في فترة الوحدة ، كنت اناضل في دار البحث العلمي حيث تعرفت على زوجي لاحقاً . كان يعمل لدى عمه ، حرّافاً متخصصاً في القطن ، وكان عضواً في اللجنة المركزية للايسكرا .

« حين استدعاني كورييل الى مكاتب والده ، ذهبت الى هناك بتحفظ ، عازمة على عدم السقوط في احابيله . وكنت سمعت الكثير من الروايات عنه في هذا الصدد ! وقد وجدته في البدء بالغ الذكاء وشديد الخبث لكنه اقنعني في النهاية ، وأثار حماسي ، مع منظور العمل الديمقراطي الجماهيري . كانت الفكرة المسيطرة لديه ، هي المسير وفقاً للمراحل ، كان يردد : « كيف نتحدث عن الثورة في حين لا يزال الجيش الانكليزي في مصر ؟ » .

« لقد بدّل النظام القديم تماماً . ففي الايسكرا ، كان يفترض أن تصعد المعلومات الى اللجنة المركزية ، لكن المؤكد هو ان الأوامر كانت تنزل منها ، فاستبدل هنري البنية العمودية ، الهرمية ببنية افقية . كان من الضروري تمثيل كل قطاعات العمل في اللجنة المركزية : كان

ذلك هو شرط عمل جماهيري حقيقي . فوجدت نفسي إذن في اللجنة المركزية لتمثيل النساء . وكان رفاق آخرون يمثلون فلاحى الجنوب ، أو الدلتا ، أو عمال شبرا الخيمة أو عمال حلوان ، الخ . بهذه الطريقة ، كانت اللجنة المركزية حقاً في مركز كل الاعمال . وكانت الاجتماعات مثيرة لأن كل واحد كان يقدم تقريراً عما يجري في قطاعه ، وعن المشاكل المطروحة ، وكنا نتناقش معاً في كل ذلك . كان هنري هناك ، صامتاً بصورة شبه دائمة . ومن حين لآخر ، كان يتفوه بجملته ، أو باقتراح . وكانت نظريته تقضي بأن يتعلم كل واحد من تجربته الخاصة ويجد طريقه . كان نقىض قائد متسلط . وكنت أجد لديه مقدرة عظيمة ، تلك المقدرة على وضعك في الطريق الصحيح وترك المبادرة بعد ذلك لك . لم اكن اشعر بأني مجرد منفذة ، كما الحال في الايسكرا . وبالطبع كانت كل النقاشات تتم بالعربية . وكان هنري وهيلل شوارتز وأنا ، اليهود المصريين الوحيديين في اللجنة المركزية .

« كان قفا الميدالية هو غياب الأمن . فالجميع كانوا على علم بكل شيء . كان رفاق الايسكرا ، المعتادون على قواعد امنية دقيقة للغاية ، في حالة هلع وهم يرون هذا الكشف العلني لنشاطات الحركة . كان يمكن ، مهما يكن ، افتراض ان الشرطة ليست عاطلة عن العمل وان اللجنة المركزية مخترقة . وقد جرت نقاشات محمومة . كان قدامى الايسكرا يندرون بالكارثة ، وكانوا على حق ، لكنني اعتقد الى الآن ان كورييل لم يكن على خطأ . فهذا العمل الجماهيري ما كان يمكن ان يتم بشكل آخر . بالطبع يمكن دائماً ان نقول ، بعد فوات الأوان ، انه كان من الأفضل اتخاذ المزيد من الاحتياطات الأمنية .

« تقدمنا إذن الى الامام . وقد تطور قطاع « النساء » كثيراً ، بالرغم من كل الصعوبات . وينبغي ان تعرف انه كان يجري في تلك الفترة إسقاط المصرية من حقوقها المدنية اذا هي حملت راية في مظاهرة . وبعد الوحدة ، اجتاحت القاهرة وباء الكوليرا . فتحرك كل الناس . وقد قمنا بجمع مبلغ كبير من المال وشكلنا مجموعات من المتطوعات اللواتي كن يذهبن الى الاحياء الشعبية بصحبة طلاب في الطب ، لتوزيع الصابون وتعليم الناس قواعد الصحة . في كل مكان ، كانوا يستقبلوننا بحفاوة ويقدمون لنا فنجان شاي . لا يجب تعظيم هذا النوع من العمل ، لكنني اعتقد اننا ساهمنا في دفع الناس الى الامام . واذا كانت النساء المصريات حصلن منذ عام 1952 على حق التصويت فأنا اعتقد انه كان لنا دور في ذلك » .

كان احد منظمي الحملة لمكافحة الكوليرا الدكتور شريف حتاته ، ابن الأربعة والعشرين عاماً ، والآتي هو ايضاً من الايسكرا . كان من عائلة اعيان اقطاعيين كبار - فجده امتلك في الماضي 350 فدانا ، وكانت جدته ابنة اخ لبطل الاستقلال ، سعد زغلول - لكن القسم الأكبر من الثروة جرى تبديده في نفقات باذخة ، وتوزع الباقي على ورثة كبيرى العدد . وقد عاد والد شريف الى مصر من انكلترا حيث تلقى تعليمه ، وحاز دبلوماً من كامبريدج ،

وكانت برفقته زوجة شابة من البورجوازية الصغيرة الانكليزية . وقد برع في عمله كموظف كبير ، وتتوج ذلك بالحصول على وظيفة وكيل وزارة . كانت العائلة تقطن في الزمالك ، لكن لم يكن عندها غير خادم واحد .

عاش شريف حتاتة حتى الجامعة دون ان يطرح اسئلة على نفسه . ولما كان « مثالياً » ، فقد فكر في البدء في أن يصبح « رجل دين » دون ان يعرف ما اذا كان سيختار الاسلام ، دين ابيه ، او المسيحية ، دين والدته . وأخيراً اختار الطب الذي فهمه على طريق الدكتور شوايتزر . وكطالب لامع ، كان الأول في فوجه عام 1946 . « لكنني لم اكن راضياً ، اذ اكتشفت اني لم اكن مصرياً كالآخرين . كنت أحس بنفسي مغزولاً ، ومستلباً . وقد غصت في السياسة لأعثر على انتهاء . كنت اريد الانضمام الى الآخرين » . وقد كشفت لنفسه ايام شباط 1946 المكثفة : « اكتشفت مصر ، البلد الذي كنت انتمي اليه نظرياً لكن الذي لم ألقه ابداً في المدرسة الدينية الانكليزية حيث كان والداي قد وضعاني . وقد أعطتني الاجتماعات والمظاهرات شعوراً بالاكتمال الشخصي . كنا نعيش في الحماس ، وكانت الحياة حارة . كانت هناك حياة رفاقية رائعة ، وقد دخلت الايسكرا بعد أن ترددت على دار البحث العلمي . بدت لي الوحدة شيئاً ممتازاً لأن ح م ت وكانت تجذب الأعضاء من شرائح اكثر شعبية بكثير من تلك التي كانت الايسكرا تستمد اعضاءها منها ، ولأنها كانت مرتبطة اكثر بالواقع . وقد التقيت هنري كوريل بصدد الحملة ضد الكوليرا . كان ذلك في شقة في شارع سليمان باشا . بدا لي الرجل غريباً في جانبه الجسدي وفي لباسه المضحك . فما من احد يلبس الشورت الالمارسة الرياضة . كما اني لم أحب جو البلاط الذي كان يسود حوله . كانت هنالك نساء يتوسلن اليه قائلات : « يجب ان تأكل ، يجب ان ترتاح » . وكان يجيب : « كلا ، بل يجب ان أعمل » . لكنه كان يمتلك ابتسامة لا يمكن مقاومتها . ثم كان يسأل ويصغي ويستعلم . اعطاني انطباع قوة ودينامية . كان رجلاً خارقاً ، وأعتقد اني موضوعي لأنه لم يكن عندنا يوماً ذرات متماسكة . واذا كان أثار المقت والكراهية فلأن القيايين الآخرين المتنافسين معه لم يكونوا يتحملون تفوقه .

« بعد الحملة ضد الكوليرا ، طلب مني أن أصبح متفرغاً . كنت طبيباً معاوناً في المستشفى ومن البديهي انه كان ينتظري نجاح مهني باهر . كان عليّ ان اتخذ قراراً خطيراً ، وأن أقوم بخيار صعب . لكنني لم أتردد طويلاً . فلقد كان هناك حماس عظيم ، ونفاد صبر لتغيير الحياة . . . ارسلونى الى الاسكندرية بمهمة تركيز بنية للمنظمة الجديدة هناك » .

لم يكن وحده في الذهاب . فلقد تم إرسال متفرغين الى كل مدن البلد ، مكلفين بالمهمة ذاتها : التوحيد ، والبناء والتنظيم . كان كل شيء يتحرك . وكانت جريدة الجماهير تبيع ما

بين الأربعين والخمسين ألف نسخة ، وهو امر مهم بالنسبة الى اليد . وقد تم الاندماج بين مكونات الأيسكراو ح م ت و دون مشاكل . كان ريمون اسطيمبولي ، ابن الثانية والعشرين ، مسؤولاً عن زاوية السياسة الخارجية .

في الأزهر ، كان مبارك عبدو فضل يضاعف عدد الخلايا في الكليات الثلاث ، اصول الدين ، والشريعة ، واللغة . وغرس الحركة الديمقراطية (ح د ت و) في المعهد الثانوي المهّد لهذه الكليات . وفي الجيش ، كان ضباط ونواب ضباط يعقدون اجتماعات مشتركة يُرى فيها ضباط الخيالة خالد محيي الدين وهو ينتظر كي يجلس أن يكون الميكانيكي بدر ، سكرتير الفرع ، قد أخذ مكانه على الطاولة . ولقد تمّ جمع المناضلين من أصل أجنبي في قطاع عُهد به الى مارسيل اسرائيل ؛ كانت الحركة تعمل على قاعدة الجنسية الأصلية للمناضلين : فنجد الفرع اليوناني ، مع ابن تاجر الاسفنج المشهور ياناساكاكيس ، والأرمني ، والايطالي ، وبوجه خاص اليهود . وكان عدد الطلاب المنتسبين كبيراً (سرعان ما تخطى الألف) بحيث فكرت القيادة بأن تخلق بنية مستقلة خاصة بهم . في أقل من عام زاد عدد اعضاء ح د ت و أربع مرات . وقد كانت هناك عاقبة واحدة ، لكنها بالغة الأهمية : انعدام التناسب المتزايد بين عدد الكوادر المجريين وعدد المنتسبين الذين ينبغي تكوينهم .

لقد جرى الحديث بصراحة عن الجوانب المضحكة الصغيرة في اولئك الشبان البورجوازيين الصغار الذين يندرون أنفسهم للثورة بحماس ساذج ، وعن العالم الذي يجري تغييره دون ملل في منصبة الغروبي ، والخدام الأميين المكلفين بإخراج النثر الماركسي تحت أنف رجال شرطة بروليتاريين ، والتوبيخات المُجَلّة لقادة الشرطة السياسية ، والآباء الباشاوات الذين يسيطون يد الحماية فوق اولادهم ، وسيارة السيتروان آخر موضّة التي تترك سيارات الشرطة الرديئة في أمكتتها . . ينبغي ان يقال الآن ان ما أنجزوه كبير جداً . فمع أنهم عديمو التجربة ، وعرومون من توجيهات أُمّية ، اصبحوا مناضلين مثاليين كان اعتر بهم أي حزب شيوعي يحظى بمباركة موسكو . أبدوا اخلاصاً وعناداً ، مكرسين ما بين 14 و 16 ساعة يومياً لتنظيمهم إذا كانوا متفرغين ، مقابل أجر بائس ، فيما يقدم الآخرون ليايهم وعظلمهم . وهاكم تفصيلاً سوف يبدو تافهاً لكن الخبراء في حياة النضال يعرفون قيمته الاختبارية : إنه مقدار الاشتراكات . لم يكن احد يقدم أقل من 10% من أجره ، وكان معظمهم يدفعون 15% ، ويصل كثيرون الى 25% ، وكان البعض يدفعون 50% وأكثر . وحين كان مناضلان يتزوجان ، كانت البائنة تقدّم بكاملها الى ح د ت و ؛ وكان ذلك يناهز أربعة آلاف أو خمسة آلاف استرلينية ، أي حوالي 20 الى 30 مليون سنتيم فرنسي . وقد أسس شخص اسمه ميشال مؤسسة لتجارة ورق ، فحقق في السنة الأولى ثلاثة آلاف جنيه بمثابة ارباح دفع منها الفين للحركة . ويوضح

جوزف هازان بدون هوادة ان المذكور « كان يُعتبر بخيلاً » .

لا شك انه لم يحصل في أي مكان أن وجدت الحركة العمالية هذا القدر من التعاون ، ومن هذه النوعية الجيدة ، لدى البورجوازية المناوئة . ما من بلد في العالم الثالث حفز هكذا اخلاصاً لدى اولاد الفئة المغلقة الأجنبية المتواطئة مع الاستعمار . ان الحركة الشيوعية المصرية فريدة على الأرجح ، سواء من حيث مثالية العمل أو من حيث التنوع العجيب لمكوناتها البشرية .

لقد صنعت ح د ت و الكثير لأنها كانت تنطلق من لا شيء ، لكن في أوج قوتها بقيت هامشية . كانت تقلق السلطة بسبب انغراسها الذي لاه جدال فيه ضمن الطبقة العاملة ، الا انها لم تكن منغوسة عملياً في الأرياف ، رغم التبشير الحماسي من جانب قدامى الأزهر ، في حين كان الاخوان المسلمون يجندون بكثافة لسبب بسيط هو أنه كان لكل قرية مسجدها . وفي الجيش ، بقي مناضلوها ، ضباطاً أو نواب ضباط ، أقلين في الحركة التحتية التي كانت تُعد لاسقاط النظام . وفي الجامعة ، كان الطلاب القوميون يفرضون أنفسهم . كانت ح د ت و تضم حوالي أربعة آلاف الى خمسة آلاف مناضل ، بينما كان عدد المتسبين الى الاخوان 250 ألفاً . وحتى بعد أن دب الضعف في الوفد ، بقي مسيطراً . عام 1947 ، لم يكن السؤال السياسي الكبير هو معرفة ما اذا كان نموح د ت و يشر ، ولو على المدى البعيد ، بانقلاب اجتماعي - ثورة - ، بل ايضاً وابدأ ما إذا كان الوفد سيعود الى السلطة او لن يعود .

✱

✱ ✱

• دامت الوحدة أقل من عام . والقلب ينحصر إزاء قصرها الزمني . فلو أنهم صمدوا عدة أشهر إضافية - خمسة أو ستة أشهر ، لا أكثر - كانت حصلت الهزيمة على يد الخصم بدل أن تنجم عن خلافاتهم المثيرة للراء . لكن كلا . فإن الضربة الآتية من السلطة لن تكون غير ضربة قاضية . كانوا قد دمروا أنفسهم بأنفسهم . وهذا أسوأ من أسوأ كارثة سياسية يولدها ظرف غير مناسب ، ميزان قوى يصعب الدفاع عنه . والكثيرون لن يقبض لهم النهوض من جديد ، شيوخ في عز الشباب يجتزون مذاك أحقادهم ، مستغرقين في المראה . الجميع سيحتفظون في قلوبهم بنُدب معركة جرت خسارتها قبل خوضها . والدعوى المفتوحة لن تفتأ تُسمم باستمرار الحركة الشيوعية المصرية .

لا يستطيع احد تفسير أصل الكارثة . فهنري كوريل ذاته ، الممثل الرئيسي في الدراما

ختم ملاحظاته المتسعة والمشوشة بهذه الجملة المذهلة : « لا أتذكر أشياء كثيرة بصدد مسار الأزمة » . الا ان هذه الأزمة سوف تلغي خمس سنوات من العمل النضالي وتدُمّر حلمه المصري . إن الكبت موجود في السياسة أيضاً .

لقد أحدث هيلل شوارتز الصدع الأول . ففي تشرين الثاني 1947 ، أعطت لجنة مركزية جديدة مختارة على أساس انتخاب الزملاء تسعة مقاعد لقدامى ح م ت و وخمسة لقدامى الايسكرا ، ومقعداً واحداً لتحرير الشعب . كان انتصار كوريل مطلقاً . فأصرّ الآتون من الايسكرا بأسنانهم ، وقبلوا باسم الوحدة ، لكنهم أطلقوا في الحال حملة ضد « الأساليب الارهابية للجنة المركزية الجديدة » . قدّم شوارتز تقريراً يفضح فيه « انحرافاً يمينياً ، والتبعية حيال البورجوازية ، واسترخاء غير مقبول في القواعد التنظيمية ، ونزعة عفوية غير مبدئية » . وكان النقاش الأساسي يدور مرة اخرى حول الاستراتيجية . رفض هنري كوريل التخلي عن خطه الرامي الى تجميع القوى الديمقراطية والوطنية ، وكان شوارتز يردّد أن الهدف هو الوصول الى خلق حزب شيوعي اصيل ، طليعة للبروليتاريا المصرية ، وأن ح د ت و ستضيق في مساومات مع البورجوازية القومية . وبما ان مؤسس الايسكرابات في وضع الأقلية ، فقد استقال من أمانة السر ومن اللجنة المركزية . وذهب مصريان ، قادمان من الايسكرا وعضوان في اللجنة المركزية ، أبعد أيضاً بأن أحدثا انشقاقاً حقيقياً وهاجما كوريل بعنف (أحدهما مات فيما بعد تحت التعذيب في معسكر اعتقال أيام عبد الناصر ، والآخر سينتهي وزيراً للصادات) . ويؤكد هيلل شوارتز أن الحدث فاجأه « كالرعد في سماء زرقاء » . وقد بذل جهده لتحاشي ما لا علاج له بأن اقترح تنظيم نقاش ديمقراطي واسع في داخل الحركة . فرفضت الأكثرية ذلك . وكان هنري كوريل يميل الى الاستبعاد الصريح لكل العناصر المعارضة . وقد انسحب مارسيل اسرايل بدوره ، صاحباً معه معظم قدامى تحرير الشعب . أما الآتون من الايسكرا فانقسموا الى ثلاث مجموعات متخاصمة ، لا يجمعها غير خلافها مع اكثرية ح د ت و ، في حين اختار عدد من الأفراد اللامعين ان يغنّوا خارج أي سرب . وفي غضون ستة أشهر ، كانت البلبل قد بلغت درجة لم يعد معها اي شخص قادراً على فك رموز مشكال* سياسي يتغير من اسبوع لاسبوع ، اذا لم يكن من يوم ليوم . كانت هناك قناعة واحدة : لقد انتهت الوحدة وباتت الحركة الشيوعية المصرية ، المقروضة بالأحقاد الداخلية ، أكثر تمزقاً منها في أي وقت مضى .

* Kulèidoscope آلة أنبوبية تحتوي على مرايا مركزة بحيث تتحرك الأشياء الصغيرة الملونة الموجودة معها في الأنبوب فتولد رسوماً مختلفة الأشكال والألوان (م) .

يعزو جوزف هازان الكارثة الى صعود القمع ؛ وكان كورييل قد كلفه بالمهمة القاسية المتمثلة بسد الثغوب . « لم تكن الانشقاقات تتم على قاعدة سياسية ولا حتى على قاعدة شخصية ، وهذا ما كان يجعل مناهضتها صعبة . وفي الواقع ، فإن التهديد بالقمع كان يدفع الكثيرين الى التوقيع ، والدخول في الظل . كان ذلك بالضبط عكس ما كان ينادي به هنري بعمله الديمقراطي الجماهيري . لقد طالب المعارضون بمؤتمر . لكن كيف كان يمكن لحركة سرية ان تخاطر بجمع مؤتمر ، لا سيما ان جماعة الايسكرا كانوا يريدون ان يكون من حق الانصار أيضاً حضوره ؟ كان ذلك متناقضاً . يبقى صحيحاً ان غياب النقاش كان يشجع الشك والاشتباه . وفي مناخ بهذه الصعوبة ، ليس ثمة ما يدهش في أن يتوصل مناضلون صادقون الى وصف هنري بـ « عميل الاستعمار » . . . »

وسوف يفسر هنري كورييل الكارثة بدوره بالقساوة المتنامية للمعركة السياسية . فبعد الازدهار الاقتصادي الذي افتعلته الحرب ، أضعفت التسيريحات الكثيفة الروح القتالية العمالية . والاضرابات ، التي كانت تتزايد صعوبة ، باتت أقل فأقل ظفراً . وقد أشار هو أيضاً الى تعزيز نشاط الشرطة . لكن كيف يمكن عزو انفجار حدة و الى القمع وحده في حين اعترف كورييل بالذات فيها بعد بما يلي : « لم نكتشف - لا بل لم نتوقع - هجمة الرجعية » ؟

وقد لاحظت ديدار روسانوما يلي : « كنا نتاج مجتمع بورجوازي ، وميزة هكذا مجتمع انه يولد النزعة الفردية » . وكان ذلك أيضاً هو الحكم اللاذع لمجمل الأحزاب الشيوعية الأجنبية ، التي اتعبتها الخصومات المصرية التي لا تنتهي . كان اندريه مارتى يردد امام من يريد الاستماع اليه : « مثقفون بورجوازيون صغار يزعمون انهم شيوعيون ويمضون وقتهم في التشائم . هذا غير جدّي » .

مع ما يتطلبه من حذر تعقيد المشكلة والقناعة بأن أي حكم على الأشخاص سيصدم حساسيات لا تزال حية ، فنحن لن نخفي واقع أن مسؤولية هنري كورييل عن الكارثة تبدو ، بعد أربعين عاماً ، أكيدة وكبيرة . كانت فدية النجاح . لقد أراد التمسير وحققه : ما الذي يدهش في أن يكون المصريون تمنوا في الأخير الاشراف التام على الحركة ؟ والحال انه إذا كان هنري كورييل وهيلل شوارتز وأيميه سيتون الأجانب الوحيديين في لجنة مركزية من 15 عضواً ، فلقد بقيت القيادة الفعلية بين يدي الثنائي كورييل - شوارتز ، ثم بين يدي كورييل وحده . تقول أيميه سيتون : « كان يجمع كل شيء وكان الوحيد الذي يملك كل المعطيات » . لا شك انه كان يمارس سلطته بدراسة تتناسب مع طبعه ، مزاولاً طريقة سقراطية تجعل الآخرين يخترعون القرارات التي هو مصمم على اتخاذها ، لكن الأقل ارتياباً بين رفاقه ما كان في وسعه الا أن يدرك انه عبر اللجنة المركزية وأمانة السر ، كان كورييل هو الذي يسحب الخيوط دائماً .

ولو انه اضطلع بصراحة بالوضع لكان هذا لقي القبول بشكل أفضل ، رغم المفارقة التي ينطوي عليها ذلك . كان تواضعه التفاخري ، وتصنعه البساطة النضالية يثيران الغيظ لدى أكثر من واحد . وكان أصدقاؤه يشيرون وهم يتنهدون الى تشبعه بالروح اليسوعية ، فيما كان الآخرون يهذون وهم يشتبهون بدسائس كبريتية .

لقد جعل الأمين العام الحالي لحزب التجمع ، رفعت السعيد ، جعل نفسه مؤرخاً لحركة شيوعية مصرية يعرفها تماماً لأنه ناضل فيها منذ الطفولة (كان في الخامسة عشرة من عمره ، عام 1948 ، وبات المناضل الشيوعي الوحيد الذي دخل معسكر الاعتقال وهو يلبس سروالاً قصيراً . . . وقد أمضى ما مجموعه 14 عاماً في المعتقل) . وهو يرى ان خطأ هنري كورييل يكمن في كونه لم يسلم الدفة الى غيره بعد المرحلة الحاسمة لاضطرابات شباط 1946 . لقد أنجز مهمته التاريخية . وكان خطه السياسي ينطلق من تقدير صحيح لارادة الاستقلال الوطني ، لكنه كان عليه ان يخلص الى النتيجة التي مفادها انه لا يمكن ان يقود أجنبي حركة شيوعية في بلد محتل .

وبالنسبة لمارسيل اسراييل ، كان على هنري كورييل ان يستقيل من مسؤولياته في لحظة الوحدة ، في كل حال : « لقد رفضت ، من جانبي ، الدخول في اللجنة المركزية . كنا أجنب ، وهو لم يرد أخذ ذلك بالاعتبار » . حتى بين المخلصين لهنري ، فان الكثيرين يسلمون بأن انسحابه كان مستحسنًا من الناحية النظرية ، وان كانوا يضيفون بأن ذلك كان صعب التصور من الناحية الانسانية ، ومجالاً للنقاش على المستوى السياسي :

كانت ح د ت و من صنع هنري كورييل ، وسواء كان اجنبياً او غير اجنبي ، فلقد كان يبقى القيادي الأكثر تجربة ، والأكثر بعد نظر ، والأقدر اخيراً على توجيه منظمة كانت لا تزال سريعة العطب .

هو بالذات انتظر وقتاً طويلاً قبل ان يسلم بما هو بديهي - وقد فعل ذلك رغماً عنه وهو يحس بنوع من السوداوية . فلقد كتب في خريف حياته : « كان العنصر الثاني في الوضع هو النضال ضد يونس (اسمه المستعار) . كانت الوحدة قد حملت الى الحركة مثقفين لامعين للغاية . هؤلاء كانوا يتطلعون للسيطرة على الحزب . وبوصفهم مثقفين ، كانوا شوفينيين بعض الشيء ولم يكونوا يرون لماذا لا يجب ان يكون التمسير كاملاً عن طريق تصفية يونس . . . لقد أطلقوا النضال إذن ضد يونس ، في البدء بصورة مشوشة قليلاً ، ثم بصورة أكثر فاكث حزمًا » .

كان الوضع بدون مخرج : فكورييل واسراييل وشوارتز كانوا قد طبعوا الحركة الشيوعية بطابعهم الى حد بعيد ، ومنذ زمن طويل جداً ، بحيث لم يكن امحاًؤهم أمراً قابلاً للتصور . لم

يكن الأمر يتعلق بوضع تراتبي في الحركة . فمارسيل اسراييل ، المناضل القاعدي ، ظل يؤثر في المنتسبين الذين كَوْنهم ماركسياً . وان استقالة هيلل شوارتز من أمانة السر ومن اللجنة المركزية لم تقلل من تأثيره في المناضلين الآتين من الايسكرا . وحتى حين اجبرت الحركة هنري كوريل على البقاء في مكتبته بالرونوبوان ، استمر يلهم قدامى ح م ت و .

إن أفضل برهان على أن العوامل الشخصية كانت تلعب دوراً حاسماً في الأزمة هو ان هذه اقتصر على قِدر الساحرات القاهري . فالاسكندرية ، ثاني مدينة في البلد ، سلمت من آثارها . حصلت فيها الوحدة دون صدامات ؛ وتخلصت دون ألم وبطريقة غير مباشرة من التشنجات التي عرفتها القاهرة . يقول ألفرد كوهين معترفاً : « لم نكن نفهم الشيء الكثير مما كان يحصل في القاهرة . كنا في البدء مجموعة صغيرة من الشيوعيين المكتفين بنشاطات ثقافية . ثم جاء هيلل شوارتز البنا واقترح علينا الاندماج بالاييسكرا . لا مشكلة . كنا خمسة عشر ، وكانوا اثنين : طالباً وإسكافياً ، مسؤولاً نقابياً عن اهل حرفته . خلقنا قطاعاً مصرياً سرعان ما تخطى القطاع الأجنبي ، وفتحنا جامعة شعبية ، وقدنا اضرابات طويلة جداً وقاسية جداً . ويبدو ان الايسكرا كانت معتبرة في القاهرة برجاً عاجياً مقطوعاً عن الواقع : لم يكن ذلك صحيحاً في الاسكندرية . ثم جاء هنري كوريل لرؤيتي . لم اكن اعرفه الا عبر الصحافة - « المليونير اليهودي الشيوعي » - وعبر الصور التي كان يبدو فيها لابساً هذا السروال القصير المضحك . أعطاني انطباعاً بأنه فتى واع وهادئ ومقنع . حدثني عن ضرورة توحيد الايسكرا وح م ت و . لا مشكلة . لا سيما أن ح م ت و كانت غير موجودة تقريباً في الاسكندرية . فيما بعد ، حصلت بعض الصعوبات لأنهم أرسلوا لنا متفرغين اثنين ليمسكا كل شيء . كان شريف حتاته ، الطبيب الشاب ، جيداً للغاية ، لكن الآخر ، الشاعر كمال عبد الحليم ، كان ذا عصبية خفيفة ، وكان يضايقنا كثيراً بتفتيشه دائماً عن مرآة يتأمل فيها نفسه فيما هو يكلمنا . كنت أقود القطاع المصري لأنني كنت اتكلم العربية قليلاً . فأقصوني لصالح احد المصريين . لا مشكلة . لم نكن على علاقة إطلاقاً بخصومات القاهرة . ولم نكن نشته حتى بالجدال المشهور بين استراتيجية الجبهة الوطنية والجبهة الطبقية . كل الانشقاقات حدثت لدينا كنتيجة لانشقاق القاهرة . كنا نشق بانضباط لكن دون ان نعرف لماذا . . . » .

في 15 أيار 1948 ، اندلعت أول حرب يهودية - عربية . فأعلنت الحكومة المصرية حالة الحصار وقبضت على مئات المناضلين الشيوعيين . في هذه المرة كانت اللوائح كاملة ، فجرى اعتقال معظم الكوادر . والحركة الشيوعية المصرية ، التي شلّتها الأزمات الداخلية ، وقطع رأسها البوليس ، كانت خارج المعركة .



لم يكن خلق دولة اسرائيل مشكلةً ، لا بالنسبة للشيوعيين ولا بالنسبة لمجمل الشعب المصري . كان مارسيل اسرائيل قد جهّز بعد الوحدة عصبة معادية للصهيونية مكلفة بالرد على حملات الدعاوة التي كانت تقوم بها المنظمات الصهيونية المسموح بها في القاهرة، لكن العصبة انطفت بعد عدة اسابيع دون ان تكون تمكنت من الاقلاع . ورفضت ح د ت و المشاركة في مظاهرات الأخوان المسلمين : لم يكن عداؤها للصهيونية يتوافق مع عدائهم للسامية . كانت الحركة قد أيدت انشاء دولة ثنائية القومية تضم اليهود والعرب في ظل سيادة واحدة . وقد انضمت في نهاية المطاف الى خطة التقسيم التي وضعتها الأمم المتحدة وأيدتها الدول الكبرى . كانت ح د ت و والحزب الشيوعي العراقي الحزبين الوحيدين في العالم العربي اللذين وافقا على وجود اسرائيل . هذا الخيار الذي سيسمح لهنري كورييل بأن يلعب حتى وفاته دوراً مهماً على صعيد مشكلات الشرق الأوسط ، لم يكن ناتجاً عن سبق إدراك سياسي خاص ، بل عن الموقف الذي اتخذته الاتحاد السوفياتي . كان اندريه غروميكو قد قدّم بذاته مشروع التقسيم . وليس من شك في أنه لو اختار الكرملين الموقف المعاكس لانحازت ح د ت و الى هذا الموقف .

إذا استثنينا الأخوان المسلمين وبعض المجموعات المتطرفة ، لم يكن الشعب المصري يهتم بالموضوع . والمؤرخون يقدمون فرضيات متنوعة ، لا بل متناقضة أحياناً ، حول الأسباب الفعلية للحرب . فبالنسبة للبعض - ولقدامى ح د ت و - اندفع الملك في المغامرة العسكرية تحت ضغط طبقة حاكمة مهتمة بأن تجد حجة لسحق الصعود المهدّد للحركة الشعبية . ويقال إن فاروق ذاته أراد استعادة هيبة شذختها صرخات الهزء التي استقبلت المرات الأخيرة لخروجه العلني . كان كل المراقبين يفضحون الدسائس الانكليزية . فبالنسبة للبعض ، كانت لندن تؤمن بانتصار سهل للجيش العربي قادر على ازالة اسرائيل المُعدّة لتصبح أداة لمنافسها الاميركيين في الشرق الأوسط . وبالنسبة لآخرين ، كانت انكلترا تتوقع النجاح الاسرائيلي وتتوج هكذا سياسية مؤيدة للصهيونية دشّنها وعد بلفور عام 1917 . في كل حال ، كان النزاع يحرف مصر عن مطالباتها بالسويس ويخلق في المنطقة بؤرة مناسبة للمناورات . لم يكن لدى الجماهير المصرية الكثير من المبررات كي تتحمس لحرب دوافعها بعيدة كل هذا البعد عن مصالحها .

إن أسلاك ح د ت و الهوائية سمحت لها بالتقاط الإشارات المنذرة بالنزاع . فريمون اسطمبولي الموظف في شركة نفط ، كان سكرتير الرئيس - المدير العام صدقي باشا ، وثيق الصلة بالملك ، ورئيس الوزراء اثناء اضطرابات شباط 1946 ، وصاحب القوانين المناهضة للشيوعية (كان مدير الشركة يهودياً ايطالياً يعمل لحساب الاستخبارات الصهيونية . . .) . وقد أمل صدقي باشا على سكرتيه الشاب رسالة تنصح فاروق بعدم الانخراط في المغامرة العسكرية . وهكذا تمت معرفة ان فكرة المعركة موجودة . وكانت المعلومات الآتية من القصر تؤكد احتمالها . وقد نقل أحد الانصار خبراً مفاده ان فاروق يتذمر من أنه مضطر للانخراط في

القتال تحت ضغط انكليزي لا يقاوم . فأصدرت ح د ت وعدداً خاصاً من الجماهير تشرح فيه قرار الأمم المتحدة . ولقد تمّ توقيف ابن الباشا المسؤول عن إصداره ، وأخلي سبيله في اليوم التالي ، لكن بدل التوبيخات المعتادة ، جرى تحذيره بصورة جافة : « هذا يكفي الآن . إننا نستعد للحرب . لم نعد نمزح » .

خَصَّصَت الأعداد التالية من الجريدة للنضال ضد الحرب . ويؤكد ريمون اسطمبولي ما يلي : « لم نبع يوماً ذلك القدر من النسخ . وقد فجّر الأخوان المسلمون قبلة أمام مقر الجريدة وفي مسكن هنري لكن الجماهير كانت تتبعنا . لم يُهاجم أي من موزعيننا ، ولا حتى اعترض أحد على مهمته » .

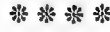
ويقول جوزف هازان : « بيعت مئات النسخ في الأحياء العمالية دون ان اتلقى ملاحظة واحدة . لم يكن الشعب يتمنى الحرب ولم يكن يرى ضرورتها لأنه كان ثمة حلّ دولي ، يؤيده الاتحاد السوفياتي والدول الكبرى » . من المؤكد ان مصر كانت البلد العربي الوحيد ، في عام 1948 ، الذي كان يستطيع فيه يهودي ان يورّع في الشارع صحيفة تنادي بوجود اسرائيل . وهازان لم يندهش لوجود هذا التسامح لشدة ما كان أمراً معتاداً . هو بالذات لم يكن وقع على العداء للسامية إلا في فرنسا ، في المدرسة الزراعية في غرينيون ، أثناء انتخاب الطلاب مكتب جمعيتهم . فحين انطرح التصويت على وظيفة امين الصندوق ، ارتفع صوت الجميع تقريباً : « اليهودي ! اليهودي ! » بات جوزف هازان هدفاً لكل الأنظار ، فذهل ، وفهم أنهم يقصدونه . فوجّه لكلمة قوية الى أنف أقرب جاره ، الأمر الذي أشاع حالة من الخرج .

لكن الحرب سوف تغرّ مصر ، التي هزمتها القوات المرتجلة لأمة وليد أقل حجماً من حيث عدد السكان بخمس عشرة مرة . وقد احتفظت باحتقارها للقصر الملكي الذي عرف الناس بعد الكارثة بقصوره وبالأرباح الفضائية التي حققها من تموينات عسكرية لم يجبر استخدامها . وقد انصبّ حقدهم على اليهود . كتب جان وسيمون لاكوتور ، المراسلان الصحفيان الدائمان : « للمرة الأولى في شوارع القاهرة ، سُمعت كلمة « يهود » مطلقة كتهديد أو كشتيمة . هذا الاستعداد النفسي سمح للشرطة بأن تتحجج بالنضال ضد الصهيونية لإشاعة ارهاب لم يعط مثلاً عنه نظام محمد محمود ولا نظام اسماعيل صدقي . كانت حرب فلسطين منطلقاً لمعسكرات الاعتقال المصرية ، ولممارسة التعذيب كوسيلة قمع واستعلام ، ولروح الوشاية المعتبرة عيباً مصرياً لكنها اتخذت آنذاك طابعاً استحواذياً . كان يختلط آنذاك بالفظاظة البوليسية التعصب العرقي ، والسادية كما لو ان وحدة الطريدة جمعت لفترة من الوقت رجال الشرطة المصريين ورجال الشرطة النازيين⁽¹⁾ » .

(1) المرجع المذكور ، ص 98 .

يقول ريمون اسطمبولي : « سقطت حرب فلسطين على رؤوسنا كهراوة . كانت تعني نهاية ما حلمنا به وبدأنا نحققه . كنا نعتبر أنفسنا مصريين ، حتى اذا كنا نسلّم بأن المصريين يعتبروننا أجنب . كان ذلك قد انتهى . لم نكن اجانب فقط ، بل يهوداً ، إذن اعداء ، طابوراً خامساً محتملاً . من منا كان يمكن ان يتوقع ذلك ؟ » .

لن ينهضوا أبداً بعد هذه الضربة النهائية التي أسقطهم التاريخ بها أرضاً .



نصبت الشرطة شبكتها وقبضت على الشيوعيين بغتة . وقد كتب هنري كورييل فيما بعد : « لا أتذكر أننا ناقشنا مرة واحدة ما قد يحصل في 15 أيار - الحرب ، وإعلان حالة الحصار . . . كان التدبير الوحيد المقرر هو « توجيه النصح » الى القياديين بأن يبدلوا مسكنهم . وبهذا النوع من « الاستعداد » ليس من المدهش ان تكون هجمة الرجعية قد نجحت » . وهو يُلقي مسؤولية ذلك على الصراعات الداخلية التي كانت تمزق اللجنة المركزية ، لكن معظم قدامى الايسكرا يأخذون على هنري كورييل انعدام أي فصل بين الخلايا وممارسة يومية متعارضة مع قواعد السرية الأكثر أولية . « كان يشير البلبلة في كل مكان ، بسبب هوس الاحتدام والحماس في أية لحظة . مثلاً ، اذا بدا له حادث غير متوقع مبرراً لإصدار بيان ، كان يرسل أحداً الى المطبعة السرية دون المرور بالهيئات العادية . كان يلزم حماية المطبعة بأي ثمن ، ولكنها سقطت منذ اليوم الأول للحملة » . حتى المخلصون لهنري يسلمون بأن مستوى الأمن كان قريباً من العدم لكنهم يلفتون النظر بحق الى ان عملاً ديمقراطياً جماهيرياً لا يتناسب إطلاقاً مع إجراءات أمنية صارمة . لا جدوى من المساجلة ، حتى إذا كانت محتومة في هكذا ظروف . لقد كان للشرطة رجلها في اللجنة المركزية ، ناهيك بالعملاء الذين سرّبهم الى القاعدة : كان ذلك كافياً لتفكيك منظمة أقل قابلية للانعطاب من ح د ت و .

لكن أياً من مخبري كورييل في الدوائر القريبة من السلطة لم يتعرض للملاحقة وبقي قطاع الجيش الحاسم سليماً في حين كان الهدف الأساسي للشرطة ، الأمر الذي يؤكد ان الأمن كان موجوداً حيث تختفي متطلبات العمل النضالي العلني .

بقي الملازم في المدفعية أحمد حمروش ، المسؤول عن عسكري ح د ت و ، بقي في عمله بالقاهرة . وقد انطلق بشجاعة في عمل دعاوي ضد الحرب . وبما أنه كانت تنقصه مطبعة ، نظم كتابة البيانات المعدة للتوزيع على الوحدات بخط اليد . وتجراً عثمان ، زوج ديدار

روسانو، على جمع الجنود في باحة بيته ليشرح لهم عدم جدوى الحرب . وقد تم نقله الى قيادة فوج من السودانيين غير المعيّنين كثيراً بالأحداث (سرحتهم القيادة قبل انتهاء المعارك) فدخل الى فلسطين وسط شتائم العرب الفلسطينيين الذين كانوا يصيحون : « حلّوا عنا . . . ! أنتم تريدون خراب بيوتنا ! » ومن نكد الحظ انه قاتل بشجاعة لكن أصيب بجرح في قفاه ، وهو ما يعرض ضابطاً محترفاً لمزحات مضجرة في قاعة الطعام .

كان بدر بطولياً . فلقد كان كولونيله قد حضّر الوحدة المجتمعة حول العلم كي تكون على مستوى الحدث وتضحي دون حساب في خدمة الوطن . وقد أنهى تحليقه الغنائي بسؤال غير خطير : « من ضد هذا الكلام ؟ » فتقدم بدر خطوة الى الأمام ، وتأهب ، ثم قال بشجاعة : « أنا » . وحذا حذوه ميكانيكيان آخران عضوان في ح د ت و . ولم تمرّ ثوان - بدت دهرأ للرفاق الثلاثة - حتى كانت الوحدة بكاملها تخطو خطوة الى الأمام .

كان هنري كورييل قد نجا من الحملة واختبأ في المعادي ، بضاحية القاهرة ، كما كان فعل عام 1942 تحت تهديد رومل . وكانت روزيت تراه كل يوم وتؤمن الاتصالات . ويعتقد رفاق هنري كورييل الى اليوم انه تعرض للتوقيف لأن ضابط شرطة ميّزه في السيارة التي كانت تسوقها روزيت إذ كان ماضياً الى موعد . لكن امرأته تروي قصة أخرى : « كنت قد ذهبت لجلبه من المعادي وكنا نجتاز ساحة الاسماعيلية . كانت سيارة شرطة خلفنا ، وكان هنري تعباً . فكل أصدقائه كانوا قد أوقفوا . قال لي : « كفاني تعرضاً للملاحقة . سوف أستسلم » . وقد طلب مني ان اتوقف . لم اكن افهم لكنه قال لي إنه يريد الانضمام لرفاقه في السجن ، وإن مكانه معهم . فأوقفت السيارة ، ونزل منها متجهاً نحو سيارة الشرطة ، التي أقلعت مجدداً ما أن استقر فيها . كنت يائسة . وقد ذهبت الى فيلا الزمالك لاعلام والديه ، اللذين اصيبا بالذعر . فهذه المرة ليس وارداً ترتيب الأمور بمخاطبة من الوالدة . لقد جرى اعلان حالة الحصار والقوانين العرفية . لم يكن معروفاً كيف يمكن ان ينتهي كل ذلك » .

كورتلين أو كافكا ؟

لم تكن ثكنة العباسية القديمة في القاهرة مخيفة الا بسبب قذارتها . كانت الشرطة قد كدست فيها عدة مئات من المناضلين اليهود الصهاينة والشيوعيين الذين تأخوا دون تعقيد لأنه تلا المشادات الجدية فيما بينهم الاتفاق على خطة تقسيم فلسطين . يقول ريمون اسطمبولي : « لم اكن خائفاً لأنني كنت أعرف حنان مصر . والواقع انه سرعان ما تعرضت السلطات لمشاكل . فباستمرار كان أمام الثكنة جمهور من الناس الذين كانوا يتظاهرون على الطريقة الشرقية ، أي أن العائلات كانت هناك ، في الأسفل ، مجهشة بالبكاء باتجاه الزوج والابن أو الأخ الذي كان يتحرك في النافذة . كانت هنالك بلبله مخيفة . وقد وصل هنري في اللحظة التي كان المسؤولون

يحكون فيها رأسهم بعنف ليجدوا حلاً . وجاء الحل متمثلاً بقاعدة هوكستيب الجوية الاميركية القائمة في الصحراء ، على بعد 15 كلم من القاهرة ، وكانت قد اخليت منذ نهاية الحرب . كان هنالك أربعة أو خمسة مبان قرميديّة ، مع سطوح من التول* ، محاطة بالأسلاك الشائكة » .

كان معسكراً . عام 1948 ، كانت هذه الكلمة ومضمونها يحيلان الى صورٍ عنيفة . لم يكن الحراس المصريون يرتبون شيئاً، مسترجعين اوشويتز وداشو** الى الذاكرة فيما هم يطلقون ضحكات دسمة . راحوا يعلنون بدون كلفة : « لن يخرج أحد منكم حياً ! سوف نبئدكم ! » كان الجو ينعطف بوضوح باتجاه كافكا*** . وإذا أردنا ان نكون أكثر ميلاً الى النثر نقول ان المكان كان مقيساً . في مرحلة أولى ، جرى تكديس ما بين عشرة موقوفين واثنى عشر في غرف معدة لاستقبال طيّار واحد . لكن الأقسى من كل شيء كان اكتشاف المراحض . فوفقاً للاستخدام على الطريقة الاميركية ، كانت تصطف من دون اي فصل فيما بينها بحيث كان ينبغي التبرّز على مرأى من الآخرين . لم يكن يمكن الحياء اليهودي - المصري ان يتوافق مع ذلك الاختلاط ، لذا فإن هنري كوريل كسب محبة الجميع حين مد أعطية بين المقاعد .

كان الجنود - الحراس متساعحين في نهاية المطاف واسترجعوا ذكرى اوشويتز دون التفكير بالايذاء ، لكن الفوج الذي كان يؤمّن المراقبة الخارجية للمعسكر سرعان ما أثار فضولاً مشوباً بالقلق . كان مؤلفاً من جنود فظّلين ذوي هيئة خشنة يتكلمون عربية غريبة . وكان بعض الموقوفين يؤكدون انهم يمنيون ؛ في حين كان آخرون يقولون ان الوحدة قادمة من العربية السعودية . وبعد أيام من وصول السجناء ، هاج الفوج وسُمِعت على الطائر كلمة « ثار » . لم يكن أحد يفهم شيئاً . وما انفك الهياج ينمو في الخارج ، والقلق في الداخل . ثم تسلح المحاربون وهم يزعمون واقتربوا من الأسلاك الشائكة . وفي قمة القلق الشديد ، دُهل الموقوفون وهم يرون قائد المعسكر وجنوده المصريين يهربون في الصحراء ، تاركين إياهم هكذا لجنون أولئك الغرباء الذين كانوا يريدون الانتقام من خصم مجهول . ويتذكر ريمون اسطيمبولي فيقول : « اعتقدنا حقاً ان ساعتنا قد أزفت . فصرخ هنري : « علينا ان ندافع عن أنفسنا ، فلنقم المتاريس ! » فكّدسنا الطاولات أمام الأبواب والشبابيك ، وحططنا الأسيرة لنصنع من العوارض الحديدية هراوات . وكان الآخرون ما يزالون يزعمون ، وقد بدأوا يتجاوزون الأسلاك الشائكة ويصطدمون بالنوافذ . وفجأة ، رن الهاتف في مكتب الكوماندان ، فقال

* صفائح من حديد أو فولاذ (م)

** معسكران أُنِيدا فيهما اليهود على ايدي النازيين (م)

*** روائي ثساوي صوّر قلق الانسان الحديث (1883-1924) [م]

هنري : « سوف أجيب » . وقد رافقته . كان المتكلم قائد شرطة القاهرة . فسأل : « من على الهاتف ؟ » - « هنري كوريل » . فاختنق صوت الآخر : « هنري كوريل ؟ هنري كوريل ؟ كيف هذا ؟ اين الكوماندان ؟ » . فصاح هنري : « الكوماندان ولي الأديار . وهنا فوج من العرب [!] يهاجمنا ، ونحن نستعد للدفاع عن أنفسنا . إن دفاعنا لا أمل منه لكني احذرکم بأن موتنا سيثقل ضميرکم وستؤدون حساباً عنه ! » - « دافعوا عن أنفسکم ! واصمدوا فأنا واصل مع تعزيزات ! » وقد جاءت التعزيزات وأنقذتنا . . . كان قد جرى نقل الفوج . وفيما بعد عرفنا أنهم علموا بالهزائم العربية في فلسطين وأنهم كانوا يريدون الانتقام منا . . . »

لحسن الحظ ان كورتلين حلَّ محلَّ كافكا . كان قائد المعسكر ، وهو ضابط برتبة مقدم ، حيوان في الشؤون العسكرية ، كان يتعهد عائلة كبيرة العدد ولا يقبض أكثر من معاش هزيل مقداره 35 جنيهًا في الشهر . وقد لعب ضده موقوفون صهيانية ، وكانوا أثرياء لكن يركبهم سوء حظ عنيد في البوكر ، فخسروا مبالغ كبيرة ، بحيث ان عنبرهم استفاد فحصل على الكثير من الحلوى . كان قد جرى توزيع السجناء على أساس فئات ثلاث : يهود شيوعيون ، يهود صهيانية ، وشيوعيون مصريون . وكانت تتجمع إذن في العنبر الأول شتى مكونات ح د ت و . إلا أن التوقيف لم يمحُ الفروق . فسرعان ما مُدَّت قماشة عبر العنبر ، جاءت لتجسد التضاد الصارم . لم يعد هذا التضاد قائماً على المستوى السياسي بل على أساس طريقة استخدام حياة الأسر . ففي حين كان البعض ينظر اليها على أنها فصل ملائم للراحة واستجماع النفس ، فينام الى الضحى ويحسن طعام المعتقل بفضل الرزم المرسلة من الأهل ، كان الكوريزيليون يتبعون البرنامج المتكشف جداً الذي وضعه هنري في الحال مستفيداً من الحيوية الشيطانية التي وفرها له الاعتقال ، هذا البرنامج الذي تتناوب فيه التمارين الرياضية والدروس النظرية . كانت وجبة الطعام ، البسيطة ، هي وجبة المعسكر ، وتتألف من الخبز والجبن والحلاوة المزوجة بالسمنسم . لكن تحسَّن الأكل بسرعة بفضل جوزف هازان .

بعد انطلاق مدو هازان ، تميَّز بنجاحه في غرينيون وبيدايات واعدة كمهندس زراعي ، تعرض لامتحان رهيب . ففي عمر الثانية والعشرين ، لم يحصل على العناية اللازمة بعد ان التهب زائدته ، فأصيب بالتهاب الصفاق . وقد اجريت له عملية في اللحظة الأخيرة ، فبقي بين الحياة والموت لمدة أشهر ، إذ فشل الأطباء في إزالة الالتهاب .

« أمضيت ليالي وليالي من الاحتضار وحراري 41 درجة . كنت أعرف انهم يعتبروني ميتاً . كنت أجلس في سريري ، متمسكاً بقضبان وقائلاً في سري : « لن تموت هذه الليلة . اصمد على الأقل حتى صباح الغد » . كنت قد دخلت المستشفى عام 1939 ، ولم أخرج منه إلا في بداية عام 1943 . » لقد انقذته صلابته الطبيعية . فلقد كان طويل القامة ، متيناً ، وكان أحـا .

أفضل لاعبي كرة السلة في القاهرة . لكنه غادر المستشفى وهو من الضعف بحيث لم يجد عملاً . لم تكن هناك شركة تقبل تحمّل مخاطر تشغيله . « عشت عالة على أبي عدة سنوات وقد جعلني ذلك أحقد على البطالة . غدوت النعجة الجرباء في العائلة . رحت أراهن على الخيل وأتاجر بها . كانت أخواتي الثلاث شيوعيات . وقد طلبت الانتساب فشرحوا لي أنني لست من النوع المرغوب فيه في الإيسكرا . أخيراً ، جاؤوا بحثاً عني قبل الوحدة مباشرة : كانت الإيسكرا تجمع ما في متناول يدها لتضخيم عدد أعضائها . لكنهم لم يجدوني مثقفاً كفاية وحولوني إلى ح م ت و . »

كان لقاءه الأول مع هنري كورييل مخيباً للآمال . إلا أنه تعلّم أن يقدره خلال العمل النضالي . ولقد انعقدت حقاً أواصر صداقتهما في هوكستيب ، هذه الصداقة التي صمدت مذاك . كانا يشكلان ثنائياً فعالاً لأنهما كانا يكملان أحدهما الآخر . فجوزف هازان كان يملك حساً عملياً وسهولة غريزية في التعامل مع الأشياء والكائنات . وفيما بعد ، سيكون الرجل القادر على تنظيم مؤتمر يضم فلسطينيين وإسرائيليين ، وهو أمر ليس بالسهل . في هوكستيب ، تولى مسؤولية تموين المعسكر . ذهب إلى المعتمد المصري وقال له دون لف أو دوران : « كم تكسب من إطعامنا ؟ » فأجابه الآخر بصورة طبيعية : « اصرف ثمانية واحتفظ باثنين . » فقال له هازان : « ممتاز . من الآن وصاعداً ، تستمر في أخذ الاثنين ، وتعطيني الثمانية . أنا اتكفل بكل شيء ، وأنت لا تعود بحاجة للعمل . » وبموجب هذا الاتفاق ، لم يتحسن فقط طعام المعسكر ، بل حقق هازان أرباحاً لبّت حاجات رفاق نجوا من حملة الاعتقالات واختفوا في العمل السري . كان المسؤول عن المطبخ في المعسكر صاحب مطعم يوناني ودوداً من السويس ، وهاوي راديو ، وصل إلى هوكستيب لأنه أراد تعلم العبرية ليقرأ التوراة في نصها الأصلي . كانت الشرطة تلقت وشاية بحقه ففتشت بيته ووجدت محطة إرسال ونصوصاً بالعبرية ، فاستنتجت أنه جاسوس إسرائيلي .

كان البريد السري الخاص بالمعتقلين يخرج من المعسكر بفضل سائق قائد المعسكر ، الذي كان يكسب منحة شهرية بهذه الطريقة . وقد حسّن هازان واسطمبولي وتلميذ قديم في البوليتكنيك الاتصالات بأن أمّنوا خطأً محوّلًا عن خط الهاتف الأساسي ، فأمكن هكذا سماع كل المخابرات مع سلطات القاهرة وحتى الاتصال عند الحاجة بواسطة الهاتف . كان المكلف بترتيب عمليات الفرار قد اتخذ التدابير الضرورية مع بعض الحراس . سيتم الخروج من المعسكر بدون صعوبة ، لكن المشكلة الحقيقية ستكون العثور على مخبأ في القاهرة والاسكندرية .

ثم عرف هنري أن روزيت تعرضت لاعتداء وتم توقيفها - دائماً هذا التناوب المؤلم للدراما والكوميديا .

كانت تريد تمرير ثياب لزوجها . وكان ضابط من المعسكر حدد لها موعداً في الصحراء كي تسلمه الرزمة . وفي اليوم المحدد ، عرفت روزيت ان المكان قد أعلن منطقة محظرة . فقررت عدم أخذ ذلك بالاعتبار . وكانت النتيجة أن أوقفها أحد الحراس . أودعت في حجرة صغيرة بحراسة جندي ، في حين ذهب من يستدعي أحد الضباط . في هذا الوقت هاجم الحارس روزيت وحاول اغتصابها . إلا أن صيحات الاستغاثة التي أطلقتها نبهت بعض الضباط الذين خلعوا الباب . وقد أوقف الجندي وحكمت عليه المحكمة العسكرية بالسجن ستة أشهر . لكن أبقيت روزيت هي الأخرى قيد التوقيف، وقد شرحوا لها أنه لا يمكن يهودية أن تتسبب بالحكم على جندي مسلم والبقاء دون عقاب . وبالنسبة المناضلة كانت قد تعرضت لمخاطر حقيقية ، لا سيما اثناء مساعدة الفرقة اليونانية المتمردة ، كان يعني ذلك السقوط بناء على سبب بالغ التفاهة .

جرى احتجازها في البدء في سجن الأجانب ، وكان فيلا نظيفة لا تشكو إلا من الازدحام . وقد انضمت روزيت إلى ثماني سجينات في غرفة مساحتها 12 م² . وكانت ثلاث من زميلاتها مناضلات شيوعيات (من بينهن من ستصبح زوجة ريمون اسطمبولي)؛ أما الأخريات فكان عميلات أصيلات للمخابرات الصهيونية .

بعد مرور أيام على ايداعها السجن ، فوجئت برؤية هنري يصل إلى السجن ذاته ، وكانت مفاجأة سعيدة .

*

**

أكدت هدنة أولى الهزيمة العربية في فلسطين . وكان الاسرائيليون حددوا كشرط لوقف الحرب إطلاق سراح كل اليهود المعتقلين . وقد طالب سجناء هوكستيب باحترام هذا البند في رسالة مفتوحة إلى رئيس الوزراء ؛ واستطراداً ، طالبوا بجمع جدي للاعتداءات المناهضة للسامية بواسطة القنابل ضد الجالية اليهودية في القاهرة ، هذه الاعتداءات التي كان الجمهور ينسبها إلى الاخوان المسلمين . وقد بدأ هنري كورييل وستة عشر من رفاقه إضراباً عن الطعام دعماً لهذين المطلبين .

سوف يكتشفون بعد خروجهم من المعسكر عدم عدالة المطلب الثاني . فالغالبية

الساحقة من يهود مصر لم يكونوا يحسون بأنهم معنيون بحرب فلسطين أكثر من الشعب المصري . (يضيف الزوجان لاکتوتور بحق ، في الوقت نفسه الذي يلاحظان فيه أن النزاع حقن أوردة البلد بـ « سم العنصرية » : « لا ينبغي مع ذلك تضخيم قوة الموجة التي اكتسحت مصر آنذاك ، وتحيل أنها بعنف اللاسامية الأوروبية . يمكن حتى أن نقول إن الشعب المصري برهن من جديد على نوع من التسامح حين لم يجعل الأقلية الاسرائيلية تعاني بصورة أقسى من انعكاسات حرب فلسطين^(١) . » والمعاملة الحسنة التي لقيها المعتقلون تؤكد صحة كلامهما .) وبالنسبة لليهود ، أكانوا من البورجوازية الكبرى المتأربة* أو من الجمهور البائس المتكدر في حارة اليهود ، فهم كانوا يشعرون بالحرب على أنها كارثة . وإذا استثنينا الأقلية الصهيونية ، لم يكن أحد يشعر بضرورة وجود دولة يهودية ، ولم يكن ثمة شعور بالحاجة لاناشد « العام القادم في أورشليم » ، إذ كان يكفي ركوب قطار العاشرة إلا ربعا للذهاب إلى هناك . إن الأكثر بُعداً نظراً بين يهود الشرق ، الذين هزتهم المحرقة بعنف لكنهم نجوا منها ، فهموا فوراً أن إرادة إخوتهم في الدين الأوروبيين الناجين من المجزرة أن يقيموا موطناً لهم كانت تدق نهاية الطوائف السفاردية التي عاشت منذ قرون بسلام في العالم العربي . هكذا سيكون الضحايا الأولى لخلق اسرائيل الفلسطينيين المطرودون من وطنهم ؛ أما الثانون فيسكونون اليهود الشرقيين المحكوم عليهم في مدى يقصر أو يطول بهجرة جديدة . ولقد لجأت الأجهزة السرية الصهيونية ، الواعية لقلة حماس يهود القاهرة أو بغداد للالتحاق باسرائيل ، إلى تسريع الحركة عن طريق حملة اعتداءات بالمتفجرات ، الهدف منها إقناع الأكثر تحفظاً باستحالة البقاء في البلدان العربية . أما إخوتهم في الدين ، الذين لم يشتبهوا بهكذا ماكيافلية ، فنسبوا الانفجارات إلى التعصب الاسلامي ، حتى مجيء اليوم الذي جرى فيه اكتشاف الحقيقة ، الأمر الذي أثار في اسرائيل فضيحة سياسية جديدة .

تسبب الاضراب عن الطعام بالآلام المعتادة ، لكنه أعطى المسجونين فرحاً غير متوقع : لقد نشرت البرافدا رسالتهم إلى رئيس الحكومة . كانت تلك هي المرة الأولى التي يشير فيها الاتحاد السوفياتي الى وجودهم . تلزم بداية لكل شيء . أما السلطات المصرية ، فأثر فيها الاضراب لا سيما أن كوريل نظمته كاختصاصي حقيقي . فبدل أن يرضخ لاغراء الاثارة عن طريق خرط كل المتطوعين دفعة واحدة في الاضراب ، مع ما يعنيه ذلك من خطر تنفيس العمل كلما تراجع من هم أكثر ضعفاً ، كان التكتيك يقضي ببدء الاضراب بحفنة من الرفاق - الأشد عزماً والأكثر مقاومة - على أن ينضم اليهم الآخرون وفقاً لمهل محددة سلفاً . هكذا وجدت

(١) مرجع مذكور ، ص 98 .

* نسبة إلى أوروبا (م) .

السلطات نفسها بمواجهة حركة تتوسع وتتعزيز بلا انقطاع . وإذ خشيت الحكومة ما هو أسوأ قررت عزل القياديين . هكذا جرى نقل هنري كورييل وجوماتلون وداوود ناحوم وأرمان سيتون على ظهر شاحنة (كان كورييل عاري الصدر لكن لا ينفك يرتدي شورتته المشهور) واقتيادهم إلى القاهرة . كان قد جرى وعدهم بتدبير مقابلة لهم مع وزير الداخلية ، لكن تم استبدال ذلك بتوزيعهم على مفوضيات مختلفة ، حيث ناموا في زنانات وسخة ، قبل أن يجري إرسالهم إلى سجن الأجانب .

كان مدير السجن رجلاً ممتازاً . وتقدر روزيت ، التي كان يشعر نحوها بالود ، أنه : « كان يتصرف ككبير خدم أكثر مما كسجنان . ففي كل يوم ، كان يأتي ليسألنا عن حاجتنا ورغباتنا . وكانت النظرات يرتجفن خوفاً لأنه كان يعطينا الحق دائماً إذا نحن شكونا . » ولقد احتفل هذا المدير الطيب بهنري ، الذي كان نزيلاً عنده في السنة السابقة ، وبذل كل ما في وسعه لارضاء الزوجين ، اللذين كان يتخلى لهما طوعاً عن مكتبه لأجل فترة من العلاقات الحميمة . وحين فاجأ هنري يقوم بغسل الصحون ، كان تأثره المتشكك تأثر مدير فندق كبير يجد زبوناً أميرياً وهو يغسل الأواني في المطابخ . . . واللمسة المثيرة الملازمة لمرور هنري كورييل على السجن قدمها ثلاثة المان فارون من الفرقة الأجنبية كانوا قد غطسوا في السويس من المركب الذي كان ينقلهم إلى الهند الصينية . لقد هدى هنري هؤلاء النازيين القدامى إلى الشيوعية ، وفي كل صباح ، كانوا يدورون في ساحة السجن بخطى موقّعة ، خلف علم أحمر ، وهم ينشدون النشيد الأهمي بالألمانية . وقد تولى أحدهم ، وهو من قدامى مظلي الصاعقة ، إعطاء رفاقه الجدد دروساً مفيدة في معارك الالتحام . ولم يكن هناك مثيل لأرمان سيتون في الغطس من فوق طاولتين موضوعتين جنباً إلى جنب وتلقيّ نفسه دَحْرَجَةً .

ثم أعيد القادة الأربعة إلى هوكستيب . كان ذلك نصراً . وقد احتفل بهم المعتقلون في عيد انتهى نهاية سيئة : أمر قائد المعسكر ، المتضايق ، الجنود بأن يوسعوا المعتقلين لكاماً . ومن الغريب أن الأمر لم يُطبّق إلا على المعتقلين المصريين . وقد شهد رفاقهم الاجانب التأديب ولديهم الشعور المحيط بأنهم في غيتو أوروبي حتى داخل معسكر الاعتقال .

أصبحت روزيت بالسل فانتقلت إلى مصبح حلوان على بعد عشرين كيلومتراً من القاهرة . وقد فصل شرطي بالبزة النظامية لمراقبتها . وسوف يمضيان عامين معاً في المصح . « كان مكاناً مترقاً للغاية : فلدينا جنيّة كبيرة معتنى بها بصورة ممتازة ، وغرف مريحة وصالون رائع . كنت أمضي أيامي بالتطريز ، وسماع الموسيقى وقراءة الروايات الفرنسية - بالزك ، ستاندال ، زولا ، موريّاك ، جيد . وكان من حقي استقبال زوار : أبي وأمي ، وأهل زوجي ، وأصدقائي . الشيء الوحيد الذي لم يكن في وسعي هو الخروج . »

توفي والد زوجها في شهر تشرين الثاني 1948 . كان يائساً . هذا الرجل الذي سوف يلُمح المشهورون لاحقاً بهنري إلى انه ربما كان « غواصة » شيوعية تقوم بأعمال سرية لكن مثمرة مع الاتحاد السوفياتي ، لم يتحمل فرار ابنه البكر راوول ، ولا خيانة ابنه الأصغر . ولقد شكل احتجاز هنري في هوكستيب الضربة القاضية بالنسبة إليه . ووفقاً للمقربين جداً ، فهو قد رفض أن يفعل أي شيء لصالح السجين ، وحتى أن يذهب لرؤيته ؛ إلا أن روث غريش تتذكر أنها رافقت الرجل العجوز إلى هوكستيب وإلى سجن الأجانب . لكن أصدقاء العائلة مجمعون على القول : « مات من الحزن » . لا شك أن التزام هنري السياسي لعب دوره ، لكن أبعد من هذا الإحباط الخاص ، كان دانييل كورييل من الذكاء بحيث فهم أن حرب فلسطين قلبت الصفحة الأخيرة لوجود اليهود في مصر على امتداد قرون . كانت فرنسا وطنه المختار عاطفياً وثقافياً ، إلا أن جذوره كانت في مصر ، وكانت العربية لغته الأم وهو لم يتصور يوماً أن يترك ضفاف النيل ، مهد طفولته . مات من دون آلام جسدية . وقد أجرت زفيراً فيلا الزمالك لسفارة أجنبية وأقامت في نزل عائلي بانتظار عودة هنري .

رفض إطلاق سراحه وسراح رفاقه . فمصر رفعت تدابير الحجز ، تنفيذاً لبنود الهدنة . فأخلي سبيل السجناء الصهاينة ومضوا إلى اسرائيل . أما هنري كورييل فأعلن للسلطات أنه هو وأصدقائه لا يريدون أن يدينوا بحريتهم لهزيمة مصر . لن يغادروا العسكر إلا بقرار من القاهرة وليس بموجب أمر من تل أبيب . وكان الموقف قابلاً للدفاع عنه ، من الناحية السياسية . وهو يندرج في خط التماهي الوطني الذي دافع عنه كورييل منذ دخوله عالم السياسة . إذا كان اليهود الشيوعيون يريدون الحفاظ على امكانية عمل في البلد ، عليهم أن يتمايزوا عن اسرائيل مهما يكن الثمن . لكن السيف كان قد سبق العذل ، مثلما لن يتأخر المستقبل في إثبات ذلك ، وسيأسف هنري كورييل طيلة حياته بسبب خطأ في الحساب عبّر عن نفسه في ثمانية أشهر اضافية من الاعتقال : « أنا مسؤول عن ذلك بفعل الدونكيشوتية . كانت تلك حماقة لا أزال أحس بالندم بسببها . » لقد وجدت السلطات موقفه ملائماً للغاية ، فأبقت قيد الاعتقال كل اليهود الشيوعيين الذين كانت تعرف انهم ، خلافاً للصهاينة ، لن يغادروا البلد فور إطلاق سراحهم ، بل سيستأنفون نشاطاتهم المزعجة .

جاء دور الأخوان المسلمين ليخلقوا المشاكل . لقد أثارت الهزيمة العربية سخطهم فأثاروا اضطرابات كانت ذروتها اغتيال رئيس الوزراء المصري ، الأمر الذي أدى إلى قمعهم . أوقف المئات منهم ، وانضم قسم من هؤلاء إلى الشيوعيين في هوكستيب . يقول ريمون اسطمبولي : « قال لنا هنري إن ¹ . فرصة رائعة للاتصال بهم ، وإقامة علاقات بين إنسان وإنسان . لم تكن شديدي الحرارة . لا بل خفنا على حياة هنري حين ذهب ليتحدث معهم للمرة الأولى .

حصلت الاتصالات الأولى على قاعدة مادية . أعطيناهم صورة عن تجربتنا : تنظيف المراحيض (عين هنري « ديكتاتوراً عسكرياً » للسهر على نظافتهم) ، تقديم الماء الحار ، التفرغ الحاصل على هاتف قائد المعسكر والتنصت على مخابراته ، الفبركة الجارية لجهاز استقبال . وقد اصغوا إلينا . لا شك أنه كان بيننا فرق كبير على مستوى الذهنية ، لكنهم تأثروا . وعلى سبيل الشكر ، دعونا إلى حفلة تحشيش كبرى - كان قائد المعسكر هو الذي يقدم الحشيش . وقد اذهلهم رفضنا . لم يكونوا يفهمون . فشرح لهم هنري أن هذه مسألة مبدأ : لا يمكن أن يخاطر المناضل بأن يجد نفسه في حالة نقص . فأجابه زعيم الأخوان : « اصنع إلي ، لقد مررت بكل سجون مصر . وقد حصل أن افتقدت الخبز لكني وجدت الحشيش دائماً . »

« جرت الأسمية بدوننا لكن الحوار كان قد بدأ . كان أحد رفاقنا شيخاً أزهرياً اهتدى إلى الشيوعية . وكان هنري طلب منه أن يتخصص في البحث عن الأسس الجماعية في الاسلام . في البدء ، كان الاسلام دين قبائل بدوية يمر بقاؤها على قيد الحياة بالحياة الجماعية . وكان قد بدأ للتو كتاباً بعنوان التراث الثوري في الاسلام . وبفضله تمكنا من الدخول في نقاشات على أعلى مستوى اسلامي مع الاخوان . أعطيناهم دروساً في أصل الملكية العقارية في مصر (جرى تنظيمها وفقاً للنموذج الفرنسي لعام 1875) ، وحول نظام الري في الدلتا ، الخ . ولقد هزهم حقاً كل ما كنا نعلمهم إياه ، إلى حد أن مسؤوليهم بدأوا يريدون التباعد لحماية رعيته من العدوى . هذا كان هنري . كان تأثيره الأدبي عظيماً ، في كل الأوساط ، وكان لديه حس للحوار لم أعرفه لدى أي شخص آخر . بفضله ، عشنا في المعسكر علاقات أخوة خارقة . لن أنسى أبداً تلك الأعياد الليلية التي كانت تنظمها لجنة أوقات الفراغ . كنا نحبي سهرات طويلة تحت النجوم . فيعزف اليونانيون على الغيتار . ونتكلم نحن . كان هناك بيننا شيوعيون إيطاليون يقصون علينا قصص المقاومة ضد الفاشية . وكان الصهيونيون يشرحون الكيبوتزات - أدرك الكثير من المسلمين أن الاسرائيليين شعب كالشعوب الأخرى ، مع صراع طبقات وشرائع تقدمية . كان هنالك بيننا تواصل رائع . « ستان من حياة المعسكر - لا بل المعسكرات : سيعرفون 14 مكان اعتقال على التوالي ، وسيكون ذلك أكثر الأشياء إيلاًماً لأن الخوف من المجهول يطارد السجين . ففي كل مرة ، كان ينبغي التخلي عن العادات المكتسبة ، والتكيفات المستحصل عليها نتيجة نضال شاق ، وسبرغور الإدارة الجديدة ، وإعادة بناء شبكة الاتصالات بالخارج . (في عيون موسى ، في صحراء سيناء ، وصلتهم المعلومات الأولى بفضل رسائل زوجة شحاتة هارون . كانت مكتوبة بالفرنسية واضطر المحامي لقراءتها بالعربية أمام قائد المعسكر ، بطريقة « الرقابة الشفهية » . فشحاتة ، شهرزاد عصرنا ، كان يخترع فقرات شهوانية تمتع الضابط ، بحيث سارت المراسلة على قدم وساق .

سنتان لم تكونا بالتأكيد حياة في الجحيم ، بفضل ما يسميه ريمون اسطمبولي « الحنان المصري » . فانتهاك النظم والتسهيلات المقدمة للمعتقلين لا يمكن عزوها بشكل أساسي إلى روح الارتزاق عند المسؤولين ، حتى وإن كانت موجودة ، بل إلى انعدام العداء لدى الحراس حيال سجنائهم . لقد مرت سنتان من الحرمان من الحرية ، ومن الحرمان الجنسي ، ومن عدم وجود وسائل الراحة ، ومن قساوة المناخ - كان المعسكر الأخير على ضفاف البحر الأحمر حيث الحرارة الشديدة ؛ سنتان من النضالات المتواصلة ، التي تتخللها ضربات عن الطعام بالغة القسوة لا سيما أن سلطات القاهرة ، التي روضتها العادة ، باتت مذاك تنتظر الأسبوع الرابع لتنظر بهدوء في المطالب .

لقد احتفظ الجميع بذكرى مفعمة بالحنين من تلك الفترة الطويلة من حياة السجن . كانت فترة تأمل سياسي مكثف ، واغتناء شخصي بحيث أن معظم السجناء خرجوا وقد لحق بهم التغيير ؛ وكانت بوجه خاص فترة إخاء ، كانوا يدينون به هنري كورييل : كان روح تألفهم ووحدهم . لقد جرى الحديث عن الأخطاء المحتملة للقائد السياسي ، ونقاط ضعفه ، والازعاج الشديد الذي كان يمكن أن يثيره . لكن إذا التزمنا بدقة بكشف الحساب هذا ، نتعرض لمخاطر التعقيم على اشعاع الرجل . يستحيل علينا أن نفهم أي شيء في حياته إذا نسينا أن خصومه السياسيين بالذات (لا نتكلمن على أعدائه : لقد حققوا عليه دون أن يعرفوه) كانوا يميزون بين الانسان والقائد . فهليل شوارتز ، الذي كان قد تشاجر معه بقساوة ، كان من بين الذين واكبوا نعشه إلى الدير لاشاز* : « كنت مضروباً على رأسي . لا شك أنه كان يجمعنا تاريخ مشترك ، وأن هذا التاريخ توقف هنا . لكن يجب معرفة كوننا بقينا دائماً صديقين ، حتى إذا كنا عارضنا أحداً الآخر على الدوام . حتى وفاة هنري ، كنت أعرف أن في وسعي طلب خدمة منه ، والاعتماد عليه لحل مشكلة شخصية أو عائلية . كنا نعرف ذلك جميعاً . لقد كان هكذا . » لا قرار اتهام واحد ضده ، ولا خطاب تقريع وهجاء واحد ، الا ويتوقف للاعتراف بتأثر بأن كورييل المقيت ، الذي أجهضت الثورة المصرية بسببه في حين كانت في متناول اليد (وهذا التأكيد مُرفقٌ بالقسم) ، عرف أن يجد في ظرف خاص صعب البادرة الاخوية والكلمات المعزية . هل كان رجل شبكة سرية ؟ سوف يحاول المشهرون به لاحقاً أن يثبتوا هذه الصورة عنه . والواقع أنه فشل في مصر وفي فرنسا في فرض نفسه في الميدان السياسي المؤسسي : كانت الشروط التاريخية تعاكسه . وحتى لو كانت ملائمة فربما كانت شخصيته حالت دون أن يصبح رجل سياسة بالمعنى الكلاسيكي للكلمة . كان مكوّناً للجماعات الضيقة ، المتلاحمة إلى أبعد الحدود ، التي لا يتوقف كل مناضل فيها عن أن يكون

* مقبرة ترنسية في باريس (م)

شخصاً . ووفقاً لحكم أصدقائه الشيوعيين ، لم يكن رجل الأنفاق ، بل مسيحيً سراديب الموق . كان المعسكر يمثل بالنسبة إليه المكان المختار حيث لا يكون النجاح المشترك ممكناً إلا لقاء انتصار كل واحد على ذاته . ولم يكن في وسع المناضل الاستمرار فيه طويلاً إلا إذا اجتهد الانسان في أن يكون في أحسن حالاته .

ثم تفتت الجماعة ؛ كانت الحكومة تقترح على اليهود الشيوعيين اطلاق سراحهم بشرط الرحيل النهائي عن مصر . وما فائدة العناد في حين كانت المشكلة الاسرائيلية - العربية ، المعدّة لتكون بالغة الطول ، تحول بينهم وبين عمل نضالي كبير ؟ كان هنري كورييل بالذات يعترف بأن يهود مصر الشيوعيين أنجزوا دورهم التاريخي . وقد اجتاز الرفاق البوابة واحداً بعد الآخر ، وعلى كتف كل واحد منهم صرة ثيابه ، في حين كان المستفيدون من التأجيل ينشدون النشيد الأمي و *ce n'est qu'un au revoir* * . كانت التعليمات تقضي بالذهاب إلى أحد الكيبوتزات والنضال داخل الحزب الشيوعي الاسرائيلي . وقد تصرف البعض بموجها ، لكن معظم الخارجين من المعتقل التقوا مجدداً في فرنسا - « فرنسا الناعمة » حسب تعبير هنري الساخر .

وقد بقي ثلاثة : هو بالذات ، وجوماتالون ، وشحاتة هارون . وُضعوا مع الشيوعيين المصريين الذين لم يكن يرتسم بالنسبة إليهم أي أفق إطلاقٍ لحريتهم . لكن كان يمكن انتخابات كانون الثاني 1950 أن تعيد الوفد إلى السلطة . فأرسل المحتجزون آلاف الرسائل من المعسكر تدعو للتصويت لصالح الحزب القومي القديم . وقد انتصر الوفد . إلا أن الأمور بقيت على حالها بالنسبة للسجناء . لزمّت تظاهرات شعبية ، متواضعة من حيث حجمها لكن عنيدة ، كي تتجرأ الحكومة الجديدة فتعكس ارادة الملك فاروق بالابقاء على الشيوعيين داخل السجون .

اجتاز الثلاثة الذين لا يُقَهَرُونَ ورفاقهم بوابة المعسكر بدورهم .

※

※ ※

كانت روزيت قد شفيت منذ وقت طويل من اصابتها بالسل ، وخرجت من المصح - السجن في 6 أيار 1950 ، ومعها الشرطي المكلف بحراستها منذ عامين . وقد عادت الى

* ليس هذا أكثر من إلى الملتقى (م)

القاهرة فوجدت نفسها لوحدها ، وأصدقاءها مشتتين ، الأمر الذي حداها على العودة برضاها الى المصح حيث باتت لها عاداتها . وقد حصلت على الموافقة . يا مصر الوديدة . . .

كان اجتماع شملها مع هنري محيراً . فبدل السجن الزائف الذي كانت تستعد لتحضنه ، اكتشفت رجلاً قوياً مرتفع المعنويات ، وقد صلبته التمارين الرياضية ، ومنحته شمس البحر الأحمر اللون البرونزي ؛ لم تكن رأت زوجها يوماً في مثل ذلك الشكل . وقد استعادا مسكنهما الذي كان وُضع تحت الحراسة ، وغطس هنري من جديد في حياة النضال .

كانت ح د ت و ممزقة شرّ تمزيق ؛ فأصدقاءه اليهود رحلوا إلى فرنسا ؛ وخدّرت صدمة القمع العديد من المناضلين المخلى سبيلهم . وكان هنري توقع كل ذلك ، هو القاتل في المعسكر : «من السهل أن يبقى المرء ثورياً هنا لأننا معاً . لكن لدى الخروج ستبدأ المشاكل ، حين يصبح كل واحد لوحده . »

كان قد وضع استراتيجية . فلتحرير المناضلين من الخوف الذي يشلّهم ، كانت خطته تقضي بإعادة تنظيم النشاط انطلاقاً من مشروع تقديمي عريض . كان نداء ستوكهولم ضد القنبلة الذرية يحرك العالم ، وقد جعل حركة السلام تبصر النور . لم يكن في وسع حكومة الوفد أن تقمع منظمة سلمية تطوّع مئات الألوف من الأعضاء في كل البلدان . إن فرعاً مصرياً لحركة السلام سوف يُعيد تعبئة الشيوعيين المصريين ويجعل الشرائح التقدمية تنضم إليهم ؛ واستطراداً سوف يُخرجهم ذلك من عزلتهم الدولية ويقدم لهم الاعتراف الذي غالباً ما طالبوا به ولم يحصلوا عليه يوماً من المعسكر الاشتراكي .

كانت الحسابات صحيحة ، ما عدا أنه إذا كانت السلطة بدت في الواقع عاجزة عن إخماد النجاح الفوري للحملة من أجل نداء ستوكهولم فلقد أثبتت قدرتها على التخلص من المحرض .

كان الثمن باهظاً ، وإذا كانت السلطة قبلت بأن تدفعه فلأنها كانت تقوّم تقوياً عالياً مقدرة هنري كوريل على الايذاء . لقد كانت مصر تتمتع بسمعة تستحقها ، هي أنها دولة قانون لا ترسخ أجهزتها القضائية أمام السلطة أكثر من حال مثيلاتها في فرنسا أو إيطاليا أو أقل إلا أن إرادة فاروق الخلاص من كوريل أجبرت قضائه على التواءات لا تتناسب مع سمعتهم وكرامتهم .

كان قد صودر منه جواز سفره المصري عام 1942 خلال أول توقيف له . وكان أقام دعوى لاستعادته ، الأمر الذي كان يستتبع الاعتراف بجنسيته المصرية . وكانت المحكمة قضت بعدم صلاحيتها ، لكن محكمة الاستئناف اعطته الحق ، لا بل حكمت له بعطل

وضرر . وحين راجعت السلطة محكمة التمييز عام 1950 ، عمدت هذه إلى كسر حكم محكمة الاستئناف وأعلنت بطلان اكتساب الجنسية المصرية عام 1934 بحجة أن كوريل لم يتخل بصراحة عن الجنسية الإيطالية . كان ذلك قلباً للاجتهاد رأساً على عقب ، يعيد النظر بتجنيس آلاف الإيطاليين الذين اختاروا مصر بعد إلغاء نظام الامتيازات . فضلاً عن ذلك ، كان القانون الإيطالي يعلن أوتوماتيكياً فقدان أي إيطالي جنسيته بمجرد أن يصبح مواطناً أجنبياً . كان يدافع عن هنري ثلاثة من أفضل محامي القاهرة ، من بينهم وزير سابق ، عضو في لجنة الوفد القيادية . وقد اعتذر أحد مستشاري محكمة النقض لهم : كان ضغط القصر الملكي لا يُقاوم .

ما أن صدر الحكم الجائر ، حتى تمّ توقيف هنري كوريل ، وكان ذلك في 25 تموز 1950 « بهدف طرده بوصفه أجنبياً خطراً على الأمن العام » . وإذ وصل الخبر إلى شحاتة هارون هرع إلى مديرية الشرطة . « وجدت هنري هناك . كانت على وجهه ابتسامته البلهاء إلى حد ما ، التي ترسم لديه في الأيام الصعبة . قال قائد الشرطة السياسية ابراهيم إمام إنهم سينقلونه إلى سجن الأجانب . وقد رافقته ، وتعانقنا ، ولم أره من جديد إلا في فرنسا ، بعد عدة سنوات . »

كان قائد الشرطة قد حذر كوريل بقوله : « إما أن نطردك أو أن نقتلك . » وحين رد السجين بأن حكومة النحاس باشا الوفدية ليست كالحكومات السابقة ، أجاب ابراهيم إمام مبتسماً : « لكن الشرطة لا تتغير » .

في 15 آب 1950 ، اجتمع مجلس شورى الدولة ، بعد أن احتكم إليه محامو هنري ، وذلك لإصدار حكم بصدد قرار الطرد . وقد اكتشف القضاة عندئذ أنه ليس ثمة قرار طرد ، بحيث أن مشكلة إلغائه غير مطروحة . في 24 آب ، جرى نقل السجين إلى سجن بور سعيد بواسطة قطار خاص وتحت حراسة مشددة ؛ وكان طبعاً قد بدأ اضرباً عن الطعام . وإذ جرى ابلاغ روزيت بالأمر ، بواسطة أحد رجال الشرطة ، سافرت إلى بور سعيد ومعها حقيقتان ؛ فلم تحصل على إذن برؤية هنري لكنها تمكنت من تمرير الحقيقتين إليه . وصباح السادس والعشرين من آب ، شهدت تسفيره القسري على متن السفينة سوريانتو ، وكانت سفينة إيطالية تابعة لشركة لورو . كان الرصيف يعج بعملاء المخابرات ، وأسطول صغير من زوارق الشرطة يقوم بأعمال الدورية في الميناء .

كان الذي جرى عملاً من أعمال الاكراه . لم يكن هناك أي قرار شرعي يبرر الطرد ، وقد تم ابتزاز تأشيرة مرور من قنصل إيطاليا في بور سعيد ، إلى . . . إسرائيل . . . والحال أن

مصر كانت تنكر وجود اسرائيل ، ومجرد كون قائد الشرطة كتب الكلمة على طلب التأشيرة كان يشكل جريمة خطيرة جداً . وكان قبطان السورياتو ، الذي هزّته جِدَّة راكمه الاجباري ، واقتنع بعد تفحص الورقة بأن الاجراءات لم تكن تخلو من الشوائب ، كان قد بدأ يرفض نقل هنري على متن سفينه . فتلقى تهديداً بحظر موافاة مصر على سفن شركة لورو . وحين علمت قيادته بالأمر ، أمرته بالرضوخ . فتم الاقفال على السجين في إحدى الغرف ، وأقلعت سورياتو ، تخفها زوارق الشرطة إلى خارج الميناء .

حين توقفت السفينة في مارسيليا ، أفلت هنري من المراقبة وهرع إلى مقر الفدرالية الشيوعية لمنطقة بوش - دو - رون ، حيث روى قصته . فوجدها المتفرغون مريية ، وأمره بالرحيل . فعاد إلى السورياتو . وفي جنوى صعدت الشرطة إلى السفينة وطلبت منه النزول ، فرفض ؛ لكن دركيين شديدي البأس انتزعه من حجرته . ووسط عدد كبير من الصحفيين المتجمعين على رصيف الميناء ، تعرف إلى ريمون اسطمبولي وزوجته ، اللذين كانت روزيت قد أعلمتهما بما حصل . وقد نزل سلم السفينة ، محاطاً برجال الدرك ، بينما كان المصورون يلتقطون له الصور .

كان في السابعة والثلاثين ، وهولن يرى مصر مرة أخرى .

بدأت حينئذ السنوات الحزينة .

كان يرفض من حيث المبدأ الاستقرار في اسرائيل لأن السلطة أرادت إجباره على هذا . وهو لم يكن يرغب إطلاقاً في ذلك .

كانت إيطاليا تفتح له ذراعيها ، حتى ولو كان استقبال السلطات المحلية الودي مبنياً على إساءتي فهم . لقد اعتقدت في البدء انه يهودي مضطهد ، إذ كانت روزيت قد طلبت تدخل أقارب نافذين من الطائفة الاسرائيلية في روما لصالحه : هكذا تسلم على الفور إذناً بالاقامة المؤقتة . ثم إن قائداً اسطورياً للمقاومة ضد الفاشية ، مسؤولاً عن الشبيبة الشيوعية الإيطالية ، وسقط اثناء المعارك ، كان اسمه اوجينيوكوريل ؛ ففكرت السلطات المذكورة بأن هنري من أقاربه . كان ذلك صحيحاً بلا ريب ، لكن بالعودة على الأقل إلى القرن الثامن عشر . . . وحاصل الأمر أن القانون الايطالي كان يلحظ إعادة المواطنة لأي شخص يرجع من الخارج ويتمكن من إثبات أنه من أصل ايطالي . كانت ستة أشهر من الاقامة كافية للحصول على ذلك .

لكنه كان يرفض بشراسة اقتطاعه من جسم مصر . وقد فشلت في زحزحته المواعظ الأكثر إلحاحاً . لم يكن ذلك عناداً ، رفضاً للرضوخ للتعسف : كل ما في الأمر أنه لم يكن

يتصور لنفسه مستقبلاً خارج البلد الذي كان ينتمي إليه مرتين : لأنه ولد فيه ثم لأنه اختاره في السنة العشرين من حياته . إن هنري كورييل الذي كان يتم النظر إليه في القاهرة على أنه أجنبي ، وكان يقبل بذلك ، اكتشف في الاقتلاع الجسدي استحالة أن يكون غير مصري . كان المنفى يمّصره .

كُلف محاميه القاهريين أن يقوموا بإجراءات لدى مجلس شورى الدولة لالغاء طرده . وكانت الدعوى طويلة وكلفته ثروة ، ليخسرها في الأخير . وقد أُسّر له أحد المدافعين عنه أنه علم بأن مرسومًا ملكيًا كان سيصدر ، في حال ربح الدعوى ، يمنعه من العودة إلى مصر .

استقر في روما ، رافضاً ضيافة آل اسطمبولي وناحوم المقيمين آنذاك في ميلانو . كان يريد العمل . وقد رافقه ريمون اسطمبولي إلى مقر الحزب الشيوعي الايطالي ، شارع الحوانيت المظلمة . وقد بدا الاسم مزعجاً بالنسبة لهنري . ودهش أيضاً بسبب المبنى الضخم - قصر كبير وقديم على الطريقة الايطالية - وبسبب الباب الضخم المسّور الذي يحرسه رجال حراسة دقيقة . وتمتم هنري : « لكننا أمام قلعة ! . . . » وبعد أن اجتاز الزائران عدة أماكن تدقيق ، جرى توجيههما نحو الفرع الخارجي ، حيث استقبلهما المسؤول عن مصر ، الرفيق ريناتو مييلي . وقد كان لقاء مزعجاً للغاية . فمييلي ، اللاجئ المناهض للفاشية ، كان قد عاش في القاهرة حيث كان يقصر نشاطه السياسي على الجالية الايطالية ، مثله مثل معظم رفاقه المنفيين ؛ ووفقاً لاسطمبولي ، ليس من دون بعض الازدراء للسكان الأصليين ، والاستخفاف الأكيد باليهود المصريين الذين كانوا يحاولون إدخال الماركسية إلى البلد . كان قد غادر مصر في نهاية الحرب ، بحيث انه لم يعايش خروج الشيوعيين من صالوناتهم البورجوازية ، واندماجهم بالشعب المصري في الشوارع المدمّاة في شباط 1946 ، وتأسيس ح د ت و وتمصير الحركة التدريجي . يلاحظ اسطمبولي ما يلي : « للحال شعرنا بنفور عظيم . لم يكن التيار يمر فيها بيننا . فنحن لم نكن نهمه اطلاقاً . مع أنه ربما كان بحاجة لضبط ساعته من جديد ، حيث أن مصر تغيرت كثيراً منذ رحيله . كان هناك فشل تام . » ولدى الخروج ، اكتفى هنري بملاحظة انه من الواضح أن الرفيق مييلي لم يكن في المكان المناسب له في الوظائف التي يشغلها .

هاكم هذا المثل التافه على الحثالة الصحفية التي صُبت على هنري كورييل إلى حد تعقيد الأحداث الأكثر بساطة في حياته : فبعد اغتياله بشهر ، في 4 حزيران 1978 ، كتبت الأسبوعية الايطالية ، الاكسبريسو ، أن توغلياتي ، زعيم الحزب الشيوعي الايطالي ، كُلف ريناتو مييلي باللقاء كورييل ، الذي « طرده عبد الناصر » للتو ، من أجل معرفة ما الذي يريده : « لم يتم اللقاء في مكان سري ، بل في مقهى بساحة كافور . وسرعان ما طلب كورييل المال والسلاح من الحزب الشيوعي الايطالي لتنظيم عملية مسلحة ضد عبد الناصر . بعد ذلك أمر توغلياتي

مييلي بوقف أي اتصال ، قائلاً : « أعتقد أن كوريل هذا عميل استفزازي » O Tempora! O mores! إن الملك فاروق هو الذي طرد هنري كوريل ، وحين استقبله مييلي في شارع الحوانيت المظلمة ، لم يكن جمال عبد الناصر أكثر من كولونيل صغير مغمور لا يستطيع حتى الاختصاصي في شؤون مصر في الحزب الشيوعي الايطالي أن يتكهن بمصيره . وهولن يستولي على السلطة إلا بعد عامين ، في عام 1952 ، وكان هنري قد غادر إيطاليا في ذلك الحين منذ سنة ؛ وقد استقبل المنفي ثورة الكولونيلات بحماس ، ولم يكن في وسعه إذن أن يتمنى إطاحتها عن طريق « عملية مسلحة » . وإن ثلاثة اتصالات بالهاتف كانت سمحت لمحرر الإيكسبريسو - الاسبوعية اليسارية - بأن يوفر على نفسه قصة تنطوي على خطأ جسيم في كل سطر من سطورها . لكن ذلك كان يستوجب التخلي عن صورة مجزية أكثر لكوريل متأمر وعرك لانقلابات مسلحة عبر العالم : هذه الصورة بالذات التي حاول أسوأ المشهرين به أن يوحوا بصحتها .

عاد المنفي ثلاث مرات إلى مكتب ريناتو مييلي ليسلمه ملاحظات حول الوضع في مصر . ولقد وجد الباب مقفلاً في زيارته الرابعة . لم يكن الحزب الشيوعي الايطالي بحاجة إلى تحليلات قائد ح د ت و .

كان قد نزل عند سيدة مسكينة تربي طفلها لوحدها . وكانت تكرر أمام الزائرين أن نزليها قديس علماني ويساهم في هذا التقديس بنمط حياة متقشف . كل مساء ، كان هنري ينصب سرير المعسكر في غرفة الطعام . وهو لم يكن يستطيع الدخول إلى الحمام الا في ساعة محددة ، ولم يكن يتصرف حتى بطاولة يشتغل عليها . وكان الطعام هزلاً إلى حد أنه أصيب بالمرض . وكان في وسعه أن يعيش حياة رخيئة لأن روزيت كانت ترسل إليه مبلغاً كافياً في كل شهر . لكن كان يقتطع عشرين ألف لير لأغراضه المعيشية ويعيد إرسال الباقي إلى الرفاق المصريين . وحين اكتشفت روزيت إلى أين تمضي حوالاتها المالية استاءت منه كثيراً .

كان يقضي وقته في القراءة وكتابة تحليلات ومقالات بقي معظمها في جراته . وقد عزم على اصدار نشرة ، هو وريمون اسطمبولي وداوود ناحوم . كانت الرحلة من ميلانو إلى روما تستمر عدة ساعات وكان على صديقيه أن يكسبا معيشتها . وقد انصرف لدراسة اللغة الروسية . كانت الوحدة تتكثف حوله . قال فيما بعد : « لقد عشت في عزلة شبه تامة ، بعد أن تركني العالم بأسره . لكنني لا آسف على تلك الفترة . فتلك هي الفترة الوحيدة التي توفر لي فيها وقت لأفكر » . وفي الحقيقة أنه كان يعاني بقساوة من نبذ الحزب الشيوعي الايطالي له . فبالإضافة للظلم الواقع عليه شخصياً ، كان يرى فيه نفي الحركة الشيوعية المصرية ، وعمل رفاقه وتضحياتهم . حتى إذا لم يكن معسكر هو كستيب أو شويتز أو داشو ، فلقد كانوا قد

خرجوا جميعاً من سنتين من حياة المعسكر . كان الخصم قد اخذهم كفايةً على محمل الجد إذ عرّضهم لتلك المحنة ، لكن يبدو انها لم تكن تعني شيئاً بالنسبة للرفاق الايطاليين . لم تكن مصر تم أحداً . لم تكن بالنسبة للحزب الشيوعي الايطالي غير الميدان المقفل للخصومة الاستعمارية بين انكلترا والولايات المتحدة . كان مييلي قد ابتسم حين أكد له كورييل أن الجماهير المصرية ، في انكبابها التام على العمل السياسي ، سوف تحدّد بنفسها مستقبل البلد . كان الجهل عميق الغور ، حتى أن المسؤول الشيوعي في ميلانو عن السياسة الخارجية سأل ريمون اسطمبولي إذا لم يكن سكان القاهرة يخافون التماسيح .

في هذه الصحراء السياسية والعاطفية ، كانت كل زيارة من شخص مصري إليه واحة . وقد جاءت ديدار روسانو وروث غريش لترياه في منتصف الصيف . تقول ديدار : « لقد اكتشفته حقاً في تلك المناسبة ؛ فبالنسبة لي ، أنا المعتادة سابقاً على الضباط الأقوياء ، كان المثقف المنحرف المزاج ، والنحيف . كلا ، على الاطلاق ! لقد اصططحها لزيارة روما من الصباح إلى المساء - كان قد بات يعرف كل الآثار ، وتاريخها ، الخ . كنا منهكتين تماماً ، أنا وروث ، نتوقف عند كل نبع لنبرد قدمينا المغطاتين بالنفخات . . . وكان يضايقنا لتتابع المسير : فثمة شيء آخر ينبغي أن نراه . كانت لديه طاقة خارقة . لقد جعلنا نكتشف جمالات الدين - وقد شعرنا بالذهول إلى حد ما . . . كان ينبغي الاستماع إليه وهو يصبح أمام الكنائس : « هل تدركان ما كانت تعنيه بالنسبة لبنائها ؟ »

كانت هناك زائرة مثابرة أخرى هي ايليزابيت فاين - لم يأت زوجها روجيه ، المصطاف لدى كورزيوما لا بارتى ، في كابري ، إلى روما إلا في نهاية الصيف . وهي تقول : « أدين له ببعض أجهل ساعات حياتي . كان يستقبلني في قاعة صغيرة جداً ومظلمة تضيئها ابتسامته الساطعة . جعلني أقرأ ماو ، وهوشي مين ، وعدداً كبيراً من الكتاب الثوريين . وفيما بعد ، كنا نتحدث عنهم من جديد . لم ألتقي يوماً أحداً يعرف أن يشرح الأشياء بتلك الطريقة الممتازة ، وأن يجعلك تتقدم دون أن يتصرف على طريقة الأستاذ . وكان يتكلم دائماً على مصر . كانت مصر هاجسه . . . »

ثم التحقت به روزيت . كانت صحتها سيئة . وقد تطلبت إصابةً بسبل جوفي عملية جراحية ، فحصلت على فيزا لمدة ثلاثة اشهر . تناقشا في مستقبلهما على امتداد امسيات بكاملها . كان وضع هنري الإداري قد تفاقم . فلقد جرى اكتشاف أن يهوديته لم تكن السبب الرئيسي لطرده وأن قرابته مع اوجينيو كورييل كانت إشكالية على الاقل ، وقد قوسل إليه آل اسطمبولي وآل ناحوم بأن يستفيد من الامكانية المتوفرة لديه لاستعادة الجنسية الايطالية . ويشرح ريمون اسطمبولي الامور كالتالي : « في تلك الفترة ، كانت ايطاليا تعادلاً ثلاثمئة الف رجل في العام : لم

يكن هناك من عمل ، وكانت السلطة تشجع على السفر. ضمن هذا السياق، كانت إمكانية استعادة الجنسية الإيطالية فرصة خارقة. أنا بالذات، المحروم من المواطنة، كنت أكافح كالمجنون للاستحصال على تجنيسي. كان ينبغي إثبات أنك تقدم للبلد مواصفات ثقافية او تجارية - شيئاً ما إيجابياً. لم تكن السلطات الإيطالية تفهم لماذا يتشامخ هنري. نحن بالذات كان يثير غيظنا. كنت أكرر على مسمعه: «هنالك مساومات في كل مكان. اذا كنت تريد أن يكون لك نشاط طبيعي، وفعال، عليك الحصول على الجنسية الإيطالية!» إلا أنه كان مستحيلاً. بقي محذقاً بمصر، واضعاً آماله في تلك الدعوى لدى مجلس شورى الدولة، الخاسرة سلفاً. كان علينا فوق ذلك أن نكسب معيشتنا، وقد وجدنا أنه يفرق في المازوشية. سوف ينتظر داوود ناحوم تجنيسه 25 عاماً، وعلى امتداد ربع القرن هذا، سوف يمضي ساعة في مراكز الشرطة الإيطالية في كل مرة يعود فيها من رحلة الى الخارج.

ثم توقفت السلطات فجأة عن مضايقة كوريل كي يأخذ قراره ووضعت تحت الرقابة. كان ملف كوريل قد وصل الى روما كما في كل العواصم الغربية. وكان قائد الشرطة المصرية قد قال وهو يتسم لهنري كوريل، الذي احتج على طرده: «لا تتعب، فنحن نحظى بدعم الانتلجنس سرفيس.» كانت اجهزة المخابرات الانكليزية تعرف كوريل منذ دخوله عالم السياسة ولم تتركه منذ عمله لصالح الديمقراطيين اليونانيين. كان يمكن شرطة اوروية ألا تهتم بمحرض غامض طرده من مصر فاروق الضخم، المعتبر عالمياً طاغية منفراً. إلا انها كانت مضطرة للاهتمام برجل يعتبره الانكليز خطراً. في 25 حزيران 1950 اندلعت الحرب الكورية، وهي نقطة حاسمة في المواجهة بين الشرق والغرب التي كان الفصل اليوناني شكل بدايتها. انتقلت الحرب الباردة دفعة واحدة الى درجة الغليان. وللمرة الاولى منذ عام 1945، سوف يتواجه الحلفاء القدامى في الحرب الصليبية الكبرى المناهضة للفاشية، على الارض وسلاحهم بيديهم. وكان العالم بأسره يعيش حالة القلق من كارثة نووية. وقد بلغت مطاردة الساحرات أوجها على جانبي الستار الحديدي. وفي روما، لم يكن المناخ لصالح الرفق حيال أناس يشبهون هنري كوريل.

وفي باريس ايضاً، لم يكن المناخ افضل. فروجيه فيبو، مدير جهاز الـ DST، سوف يفرض الإقامة الجبرية في كورسيكا على ريمون أغيون، مؤسس المجلة الشيوعية الشرق الاوسط، ونصيرها. وسوف يمر أغيون فيما بعد على ايطاليا («وجدت فيها شيوعيين احبهم») ولن يعود الى فرنسا الا بعد مرور عامين، في ظل حكومة مانديس فرانس، حيث ان الديغولي لويس فالون تدخل لصالحه لدى وزير العدل، فرانسوا ميتران.

بالنسبة لهنري، الذي اقنعتة روزيت بضرورة ان يجد قاعدة على الاقل مؤقتة ينسحب

إليها، كان يفضل فرنسا على أي من البلدان. وقد توجه الزوجان المبعدان بالنداء إلى قدامى المبعدين الديغوليين الذين كانوا قد ساعداهم في أيام الصداقات الفرنسية. جرى الاستماع لهذا النداء، لكن لم يفد أي مسعى في تليين موقف السلطة. ونقل الاصدقاء، الأسفون، الجملة التي تلفظ بها فييو: «إذا دخلا فرنسا، سوف أجتجزهما في الصحراء». حتى روزيت، التي كانت حالتها الصحية تتطلب عناية استثنائية، جرى الامتناع عن اعطائها تأشيرة فرنسية. ونجحت المصالح المختصة بأنها لو أصيبت بنوبة قلبية في باريس، سيكون من الصعب حرمان زوجها من الالتحاق بها إلى هناك.

كانت الملزمة تضيق .

بعد انصرام الأشهر الثلاثة، ركبت روزيت الطائرة عائدة إلى القاهرة. وقد رافقها هنري إلى مطار فوميشينو ثم رجع إلى بيته، ليعود من جديد وفي الحال إلى فوميشينو: فلقد منعت زوجته من النزول في القاهرة، واعدت بالقوة إلى الطائرة، التي أقلتها من جديد إلى روما. وهناك رفضت السلطات الإيطالية السماح لها بالنزول. وقد خضع هنري لإغراء أن يدفع الوضع إلى حدود العبث، لكن لم يكن بإمكان روزيت الاستمرار في الذهاب والمجيء بطائرات ليس الضغط مكيفاً فيها، إذ إن قلبها غير قادر على المقاومة. ورفض الحزب الشيوعي الإيطالي التدخل. فانتزع بيترو نيني، القيادي الاشتراكي، ترخيصاً بالإقامة المؤقتة، لكن السلطات الإيطالية كانت عازمة هذه المرة على الحسم. بما أن المنفي كان مصراً منذ عام على رفض الجنسية المعروضة عليه، ترك له الخيار بين الطرد إلى إسرائيل والاحتجاز الإداري. وحين أثار هنري وضع روزيت الصحي، أجاب موظف الكويستورا: «ليس لدينا شيء ضدها. غادر إيطاليا، وسوف نمنحها حق اللجوء». - لكن إلى أين تريد أن أمضي من دون جواز سفر؟ ما من بلد يسمح لي بالدخول. . . - هذه مشكلتك. تدبر أمرك!»

استحصلت روزيت على جواز سفر الوالدة المتوفاة حديثاً لأصدقاء إيطاليين، وكان جواز سفر نمساوياً. وقد زورته بصورة فظة إلى حد أن الغش كان واضحاً منذ النظرة الأولى. اجتاز هنري الحدود السويسرية على قدميه. كانت ديدار روسانو تنتظره في لوزان، ولم تتمالك نفسها من الضحك حين رآته يصل وفي يده عصا، مرتدياً معطفاً وقبعة أسودين: كانت تلك هي الصورة التي يكوّنها عن بورجوازي نمساوي. وقد ذهب للحال إلى القنصلية الإيطالية، وفقاً للاتفاق المعقود مع الكويستورا، من أجل التأكد من رحيله عن إيطاليا. وبعد أن اطمأن إلى مستقبل روزيت، استقل مركباً إلى فرنسا في الجهة الأخرى من البحيرة. وكانت ترافقه ديدار، التي سبقتها مقدمة نفسها لرقابة الشرطة، علماً أن جوازات السفر المصرية كانت موضوع انتباه خاص. لم يقيم الشرطي حتى يفتح جواز سفر هنري النمساوي. ولا ركباً القطار

الى باريس وقرعا باب جوزف هازان .

استدعيت روزيت ، من جهتها ، الى الكويستورا ، حيث قيل لها : «لقد اجتاز زوجك الحدود بسهولة محيرة ، وهذا برهان على انه رجل خطير . نحن آسفون جداً ، لكن لا يمكننا السماح لك بالبقاء في ايطاليا .» وبعد ثلاثة أسابيع ، دخلت سرّاً بدورها الى فرنسا .

❖

❖ ❖

بناءً على قرار جماعي ، كان جوزف هازان الأول الذي يخرج من المعسكر ويأتي الى فرنسا بفضل جواز السفر الفرنسي الذي يدين به لجد قديم مر بالجزائر . وكانت مهمته تقضي بتبنيه الرأي العام التقدمي إلى مصير المحتجزين المصريين ، وبلعب دور مفرزة استطلاع لكامل الجماعة .

وصل ومعه مئتا جنيه مصري أقرضه إياها والده . وقد أسكنه عنده أحد أبناء عمه ، وللحال انتسب إلى الحزب الشيوعي الفرنسي وبدأ يبحث عن عمل . وقد عمل في البدء كشافاً لتعاونية حرفيين وتجار تابعة للحزب ، ليستقيل بعد عدة أشهر ويؤسس شركة مع ارمان سيتون ورفيق آخر وصل من مصر . لقد اسسوا الباتكس ، وهي شركة استيراد وتصدير متخصصة في الورق والنسيج . وكان النجاح فوراً .

كانت هئية الحزب الشيوعي الفرنسي عظيمة - شبه اسطورية ، الا أن الواقع كان مخيباً للآمال . كان هازان ينهض في الخامسة صباحاً ليبيع جريدة لومانيته - ديمانش في الشارع ، وقد اثارت دهشته النسبة التي كان يدفعها المناضلون كاشترار حزبي ، وهي نسبة ضئيلة جداً مقارنة بالقواعد المصرية . فمن اصل اجره الشهري الذي كان يبلغ 75 ألف فرنك قديم في الباتكس ، لم يكن يحتفظ بأكثر من 15 ألف فرنك لحاجاته الشخصية ، والباقي كان يذهب الى الرفاق المصريين . ومن الـ 990 ألف فرنك قديم كأرباح عادت بها العملية الاولى للشركة ، اقتطع ثمانية آلاف فرنك ليقدّم دراجة لابن أخيه ودفع الباقي لصندوق الحركة . أما العادات الفرنسية فكانت مختلفة . يقول روبير إيدي ، الخارج من سجن الاسكندرية : «أذهلني مستوى المناضلين في فرنسا . لقد درسنا الماركسية خلال خمس سنوات ولم يكن ذلك يتناسب إطلاقاً مع ممارستنا . قلت في نفسي اني سأكون نائباً على الأقل ! وسرعان ما أصبحت أمين سر خلية ثم أمين سر قسم .» أما هيلل شوارتز فلم يتبع زوجته الى الحزب الشيوعي الفرنسي : «كانت العادات غير مفهومة بالنسبة لي . فمثلاً بعد نهاية عرض لفيلم سوفياتي رديء ، مرّ أحدهم في القاعة وسأل : «من الذي لا يحمل بطاقة حزبية؟» كما لو كان يعرض البوطة بالشوكولا . وقد وجدت ذلك

مثيراً للغضب. ففي مصر، لم يكن يمكن دخول التنظيم كما يدخل المرء مطحنة. وكان هنالك أيضاً موضوع الاشتراكات. فعندنا، كان المناضلون يدفعون كل ما معهم، وكنت أنا ادفع كامل راتبي لأنني كنت أعيش مع اهلي. أما في فرنسا فكان الواقع أبعد ما يكون عن ذلك.»

بعد يومين من وصول هنري كورييل، رافقه جوزف هازان إلى مقر مكتب المستعمرات، 19، شارع سان جورج. ومثلما حدث في روما، اجتاز الزائران عدداً من نقاط المراقبة قبل إدخالهما إلى عند المسؤولين، مينيوتيفين. كانا يجلسان وراء مكتبتين متقابلتين يبعدان 15 متراً أحدهما عن الآخر، مع موقد كبير لتدفئة القاعة. وحين أبلغ تيفين أندريه مارتي بالأمر، طلب رؤية مضيفه الآتي من القاهرة. وقد استقبله بحرارة واقترح عليه أن يطلب اللجوء إلى الاتحاد السوفياتي أو تشيكوسلوفاكيا. فشكره هنري لكنه رفض الاقتراح. كانت الحرب الباردة تقسم العالم قسمين، وكانت إقامته خلف الستار الحديدي تحرمه من أية إمكانية للفعل في مصر. لم يصبر مارتي وسوّى فوراً مشكلة إيواء المتخفي مذاك هنري كورييل. وقد استقبله زوجان في مسكنهما بالضاحية، وكانا مناضلين موثوقين.

بقي عندهما ثلاثة أيام. فلقد كانا يتصوران التخفي على أنه مثل أيام الاحتلال النازي. أما هنري الذي لم يكن يشعر بأن غيستابو تطارده، فهرع إلى عند هازان ورجاه أن يجد حلاً. كان هازان يسكن في ستوديو بالغ الصغر، وقد رتب مكاناً لسرير إضافي. لكن حين وصلت روزيت بدورها من إيطاليا، اضطرت للانتقال من فندق إلى فندق، مغيرة إقامتها كل اسبوع للافلات من رقابة الشرطة. وقد انتهى الانفصال والتجوال بقاء راوول كورييل، الموجود آنذاك في مهمة عالم آثار في أفغانستان، ممرضة فرنسية تابعة للصليب الأحمر. وقد أعطاه رسائل إلى أخيه وزوجة أخيه. فتعاطفت المرأة الشابة مع المنفيين، وحين عرفت بعدم شرعية وضعهما، عرضت عليهما أن تؤجرهما غرفة في مسكنها. كان هذا في شارع فرساي، في بناية كشيبة في آخر الحوش الثاني. وقد فكّا حقائبهما، إلا أن روزيت كانت تكره الحي، بينما لم يكن هنري حتى يراه.

عاشا كما لو أنهما لم يغادرا مصر أبداً، فعلاقاتهما لم تكن تخرج من دائرة المصريين. لم يكن هنري يولي أي اهتمام للسياسة الفرنسية، وكان يبقى صامتاً حين يعمد اصدقاؤه المنحرفون في الحزب الشيوعي الفرنسي إلى مناقشة قضايا الساعة بالكثير من الحماس. وهو لم يدخل مقر الحزب مرة ثانية، مكتفياً بتسليم جوزف هازان التقارير العديدة التي كان يوحى بها إليه الوضع في مصر. كان يريد متواصل يعلمه بتطور هذا الوضع، كما كان هو بالذات يغدق على رفاقه المصريين الملاحظات والتحليل. وكانت روزيت تؤمن المسار العلمي للاتصالات، الأمر الذي لم يكن بسبعطاً. وبما أن هنري لم يكن يكتب بالعربية، كانت تدق على الآلة الكاتبة،

بالفرنسية، مخطوطاته من أجل تصنيفها في الارشيفات، ثم تكتبها من جديد بالخبر السري ترسلها لرفيق في القاهرة يقوم بتعريبها. وانسجاماً مع القاعدة النضالية التي نقلها معها من القاهرة (واحترمها هنري حتى مصرعه)، لم يكونا يمنحان نفسيهما فترة استراحة إلا بعد ظهر لاحد، وذلك لرؤية رفاقها في المنفى والحديث مرة اخرى ودائماً عن مصر.

كانت مصر تدخل في ثورة.

كان شيوعيان أول الخارجين من مبنى في القاهرة انتهى فيه اجتماع سري. وكانت شاحنات للشرطة واقفة في الشارع. ففوات النظام كانت تستعد للتدخل. تشاور الرفيقان بالنظرات ودون أن ينبسا بكلمة، عادا الى المبنى مع أنه كان لا يزال ثمة وقت للفرار. لقد فضلا التعرض للاعتقال مع الآخرين على أن يتعرضا لشبهة الخيانة. والحادثة تبرز درجة التلف التي أصابت الحركة الشيوعية الممزقة بالانقسامات، والمتسلطة عليها الشكوك.

كانت حركة السلام قد عرفت مع ذلك نجاحاً لا جدال فيه. فقد جرى الاستحصال على 12 ألف توقيع خلال شهرين لصالح نداء ستوكهولم، من بينها توقيعات معظم اعضاء مجلس شورى الدولة. باتت المنظمة، التي رأسها، «الباشا الأحمر» المهيب والمثير للإعجاب، كامل البنداري، يُحسب لها حساب على المسرح السياسي، ونجحت كما توقع هنري كورييل في إعادة تعبئة مناضلين وأنصار كان القمع ثبُط معنوياتهم.

كان الأكثر تصميمياً يحاولون إعادة بناء الجهاز السري. فألبر أرييه، ابن الثمانية عشر عاماً، كان قد نجا من حملة الاعتقالات الكبرى في ايار 1948. وكان مكلفاً بأرشيفات ح د ت و ووثائقها. وقد أدى فصل صارم الى حماية هذا القطاع الذي كان اكتشاف الشرطة له سيترك ذيولاً خطيرة، فيما لو حصل. وقد انضم فيما بعد إلى مجموعة من الطلاب والمثقفين القريبين إلى مارسيل اسراييل والمعارضين بعنف لهنري كورييل. «كلفوني بقضايا الطباعة وتوزيع البيانات. وكانت كل تلك المرحلة خطيرة لأنه كان ثمة مطاردة حقيقية لكل من لهم سيما اليهود. وكانت الشرطة تلاحق الطبّاعين بوجه خاص. فجرى اكتشاف نشاطي، وجاءت الشرطة الى البيت لتوقيفي. إلا اني لم أكن موجوداً. وقد تعانق مسؤول الشرطة مع والدي بحرارة، إذ كانا صديقين من ايام الطفولة! قال الشرطي: «نظف البيت، أما أنا فلم أر ولم أعرف، وسوف أوقف الملاحقة.» وبالفعل، لم يعد هناك ما يثير قلقي. عام 1950، أنهيت إجازة الحقوق، وانطرحت مشكلة الرحيل. كان الجميع يسافرون الى اوروبا. وقد قررت البقاء ومواصلة النضال.»

كان الاستثناء. فلقد فرغت الحركة الشيوعية من الاجانب وبات المصريون يسكنون الدفة
أي كل مكان. إلا أن حركة الانشقاقات التي لا تتوقف لم تحف سرعتها. وذلك برهان اكيد على
أن «معركة القادة» بين كورييل وشوارتز واسرائيل لم تكن السبب الوحيد للانقسام. فالأبناء
المؤسسون الثلاثة كانوا قد اجتازوا البحر المتوسط، لكن الشيوعيين المصريين كانوا يتوزعون
باستمرار بين ح د ت و، ونواة الحزب الشيوعي، ونحو حزب شيوعي مصري، وطلیعة
العمال، والفجر الجديد، والنجم الاحمر، ووحدة الشيوعيين...

عام 1950 ظهر تكوين جديد تعمّد باسم بالغ البساطة «الحزب الشيوعي المصري». كان
عرايه المكتب الكولونيالي للحزب الشيوعي الفرنسي. وكان يقوده شابان يعدان بمستقبل باهر:
فؤاد مرسى واسماعيل صبري عبدالله.



كان المصريون في فرنسا قد حذروني من اسماعيل: «ألد خصوم هنري!» واندهشت
روزيت: «تريد أن ترى اسماعيل حقاً؟ كان يكره هنري. لن تسمع منه غير كلمات
الكراهية». لم يغفروا له تأسيسه وجوده السياسي على الملاحظة التي أبداهها ريمون أغيون: «كان
يبدو من الحكمة بمكان الاعتراف بمنظمة يقودها شخص اسمه اسماعيل صبري عبدالله، على
انها الحزب المصري، بدل الاعتراف بمنظمة يقودها شخص اسمه هنري كورييل.»

ولد عام 1924 لكنه يبدو كما لو كان بلغ بالضبط الخمسين من العمر. ولقد كان مؤسس
الحزب الشيوعي المصري تخطى تجربة الاعتقال الثانية حين استقبلني في مسكنه المشرف على
النيل، بعد ستة أشهر من مصرع انور السادات. صحيح أن معتقل السادات كان بالنسبة
اليه أقل قساوة من سجن عبد الناصر للأشغال الشاقة حيث عانى من اعمال تعذيب غيفة.
واسماعيل صبري عبدالله، الأسمر الوسيم طويل القامة ذو الضحكة المدوية، الذي يمسك بيد
فم سجائر وباليد الأخرى كأس ويسكي، يوزع من الفكاهة أكثر مما يوزع الحقد ويحميه ذكاؤه
البديهي من العواطف الحزبية المبتذلة. وهو يشترك مع هنري كورييل في الفتنة على الأقل، حتى
إن كانت فتنته شيطانية في حين كانت فتنة الآخر ملائكية. قال: «كان هنري رجلاً مرموقاً،
وكانت له مثل عليا تفرض الاحترام، لكنه كان محكوماً عليه، بفعل أصله وبفعل السياق، أن
يبقى على سطح الواقع المصري، دون أي حظ لديه في أن يعدل هذا الواقع أو حتى أن يؤثر
فيه. فلتنخيل شخصاً ككورييل يترشح هنا للانتخابات»

إنها لغرائب مصر: فهذا المتعصب للأرض اقترن بمصرية من البورجوازية الكبرى كان أهلها يتكلمون الفرنسية ليميزوا انفسهم عن «العرب»، وهو المستفيد من خدمات ممرضة سويسرية تتكلم الفرنسية ومربية انكليزية، لا يتكلم إلى اليوم غير عربية مختصرة ويكاد يعرف قراءة سورتين من القرآن . . .

أصله من الصعيد الذي بين من خرجوا منه الفرعون المهرطوقي أخناتون وقنلة السادات. ولقد ولد اسماعيل صبري عبدالله لأب نجا من كوسمبوليتية الطبقات العليا: لم يخرج من مصر أبداً، وقد تغذى بثقافة عربية - إسلامية، كان يستثمر 120 فداناً⁽¹⁾ لكن أفلس تقريباً بنتيجة أزمة 1929 وهبوط اسعار القطن. إلا أن اسماعيل ذهب مع ذلك الى القاهرة ليتابع دراسته وناضل في صفوف الوفد منذ عام 1937 : كان عمره آنذاك 13 عاماً. تسجل في الجامعة عام 1942، وتردد على دار البحث العلمي التابع للايسكرا، وعلى حلقة دراسات - الثقافة الجديدة - كان يشرف عليها جاكو-ديكومب وريمون أغيون. وقد أصبح عضواً في اللجنة التنفيذية للطلاب اثناء مظاهرات شباط 1946 ، واستدعاه هنري كورييل بعد ذلك بقليل.

«كان ذلك إذن في أيار أو حزيران 1946 ، وقد حصلت للتو على إجازة الحقوق. كنت تجاوزت مرحلة النزعة القومية الصرفة. فمند طفولتي، تحسست بؤس الفلاحين. كان يُستأجر الحمار لقاء مبلغ يزيد عن ذلك الذي يتم دفعه لقاء عمل انسان. وكنت رأيت على أرضنا بالذات الاستغلال الطبقي الشرس وصدمني ذلك كثيراً. ثم تلقيت مبادئ الماركسية، ليس في كتب ح د ت و الخضراء بل في مكتبة لينين الصغيرة*، التي كانت تباع كراريس انكليزية صغيرة يشترها جنود مونتنغميري. لم انتسب لأي تجمع لكن مشاعري كانت مع الناس المتجمعين حول جاكو-ديكومب وأغيون.

«استدعاني كورييل إلى الصداقات الفرنسية. لم يرق لي كثيراً بسرواله القصير وحذاءه المسير. فهو يعطي انطباعاً مسرحياً حين نعرف عائلته! . . . كلمني بالعربية. وكان يجيد التكلم بها، فتأثرت للجهد الذي بذله من اجل ذلك. امتدحني كثيراً بالطبع - فتلك كانت التقنية الخاصة به: «لديك دور عظيم تلعبه في هذا البلد، رجل بثقافتك وذكاكك، الخ». وقد اعطاني اسس اللينيئية لستالين قائلاً لي: «ادرسه. وسوف نتكلم بصده من جديد بعد عودتك من العطلة». اغاظني كثيراً بلهجة الأستاذ التي خاطبني بها.

(1) خمسة فدادين تساوي هكتارين .

* Little Lenin L (م)

« رأيتُه إذن من جديد لدى عودتي ، وكان ذلك أيضاً في الصداقات ، وقد أبلغته بحصولي على منحة لمتابعة دراستي في فرنسا ؛ فنصحتني بالاتصال بجولييت علوان . وفي باريس ، أقيمت عند كونتة عجوز أطلعتني على خفايا حي سان جرمان . ولقد كانت سنواتي الخمس في فرنسا مكثفة جداً وممتلئة للغاية ، لكنني أنهيت مع ذلك دراستي للدكتوراه في الاقتصاد مع درجة جيد جداً وتهنئة المشرفين . كما أنني اتصلت بجولييت علوان ، وكانت حبيبة قديمة لهنري . كانت قد جمعت حولها كوسمو بوليتيين آتين من مصر كانوا يتقربون من أصحاب المنح الشباب بهدف تنسيبهم . وكان المنشئون يتأطرون في ما يسمى بـ تجمع مصريي باريس (ت م ب) . وكان التجمع قريباً جداً من ح ش ف دون علاقة عضوية به . ثم اندلعت حرب فلسطين وتدفق على باريس وعلى التجمع سيل من اليهود الذين كان معظمهم قد تخلوا عن جنسيتهم المصرية . وأتذكرك بالذات قمت بالثورة الصغيرة التي لم يساعدني هنري كورييل أبداً بسببها : طرحت على الحزب الشيوعي الفرنسي مشكلة هؤلاء الناس الذين لم يكونوا مصريين ولم تكن لديهم أية نية للعودة إلى مصر . وقد اعطاني ح ش ف الحق وقرر أن عليهم التحول إلى مناضلين فرنسيين .

« وعدت أنا بالذات إلى مصر عام 1951 ، قبل وصول كورييل إلى باريس مباشرة . وقد أذهلتنني انقسامات الحركة الشيوعية . كان معظم قادة الشُّلُل يعيشون في عالم مجرد ؛ فالماركسية كانت بالنسبة إليهم نوعاً من التعليم الديني . أما أتباع كورييل فلم يكونوا يهتمون بغير السياسة اليومية من دون تحليل أساسي . وكانت المفارقة بين شجاعة المناضلين البسطاء والخصومات المدرسية لدى القادة مدعاة للشعور بالفضيحة . أي تبذيرا وأي حُرْفٍ مخجل للعمل النضالي ! وقد ثبَّتني ذلك في المشروع الذي تحدثت بصدده في باريس مع أصدقائي المصريين والرفاق الفرنسيين . كان ينبغي إعطاء انطلاقة جديدة للحركة الشيوعية . ليس القيام بانشقاق جديد بل الانطلاق مجدداً من الصفر . خلق الحزب الشيوعي المصري ، بكل بساطة . وخلقته انطلاقاً من دراسة أساسية للصراع الطبقي في مصر . هذه الدراسة كانت في متناولنا بفضل فؤاد مرسي . فقبله ، لم يقم أحد بها . »

ولد فؤاد مرسي عام 1925 في الاسكندرية ، وكان قد ناضل في تجمع الطليعة فيما هو يواصل دراسة الحقوق . ولما كان طالباً لامعاً ، وتخرج من الجامعة بتفوق ، فقد حصل هو الآخر على منحة ليعود في باريس دكتوراه في الاقتصاد السياسي . وخلافاً لاسماعيل صبري عبدالله ، لم يتردد على الأشخاص القديرين في مكتب المستعمرات ، مكتفياً بالنضال القاعدي في خلية شيوعية بالحي اللاتيني . « عدت إلى مصر عام 1949 وأقنعني ما رأيته بضرورة الخلاص من ذلك التعدد في المنظمات ، التي كانت كل منها ترفع شعاراً جذاباً إلى هذا الحد أو ذاك .

وبالاتفاق مع اسماعيل ، وعبره مع الحزب الشيوعي الفرنسي ، أسست الحزب الشيوعي المصري . على أية قاعدة ؟ كان كورييل يريد تحقيق وحدة القوى الديمقراطية . وقد كان على حق لو أن الهدف المطلوب تحديده كان يقتصر على التحرر الوطني ، وكانت رؤيته في الواقع قومية صرفة ، لكن ألم يكن من الضروري أن نميز ضمن السكان الشرائح المستعدة للتعاون مع الاستعمار ؟ كانت مساهمتي المتواضعة تتمثل في اكتشاف بقايا الاقطاع في المجتمع المصري ، الذي كان الممثل النموذجي له هو الملك . ثمة كان يكمن الخصم أيضاً - الخصم الطبقي . ما الفائدة في القتال لأجل استقلال من حيث المبدأ إذا بقينا خاضعين للاستعمار الاقتصادي ؟ »

كانت الايسكرا قالت ذلك من قبل .

*

**

كان الشعب المصري ، قليل الاهتمام بالتحاليل الأساسية ، يتعب بصورة متزايدة ليطرد من أرضه آخر المحتلين الانكليز. وفي 8 تشرين الأول 1951 ، لمّع رئيس الوزراء ، النحاس باشا ، صورة الوفد من جديد بإلغائه « معاهدة الشرف والاستقلال » التي وقعها بذاته في عام 1936 . وفي الحقيقة أن انكلترا لم تحترمها يوماً . كانت تمنحها الحق في حراسة القناة بواسطة عشرة آلاف رجل ، بينما كان لديها عام 1951 أكثر من 25 ألفاً . وكان يحق لطايرها أن يحلقوا في كامل أجواء مصر ، ومن البديهي أن الطيارين المصريين العسكريين لم يكونوا يتمتعون بالحق المقابل بأن يحلقوا في أجواء المملكة المتحدة الذي أقر لهم به عام 1936 بروح فكاهة شديدة البرودة .

بدأت « معركة القناة » في الأسبوع الذي تلا الالغاء . هذه المعركة التي عظمها الصحافة المصرية معطية إياها أبعاداً ملحمة ، ومجدها الرأي العام ، كانت تتلخص بأعمال عصابات تتغذى بغارات منتظمة ، واعتداءات ، وعمليات خطف لعسكريين معزولين . من الجهة البريطانية ، نخبه الجيش الانكليزي . ومن الجهة المصرية ، رجال كوماندوس مرتجلون ، بتسليح غريب ، كانت حكومة النحاس باشا تطاردهم دون حماس . كان الصحفي الشيوعي بيير كورتاد ، المراسل الخاص لصحيفة لومانيته - ديمانش ، لدى « الأنصار المصريين » ، وصل وفي رأسه أفكار بسيطة . وقد وجد صعوبة كبرى في فهم وضع مصري خاص جداً كان يختلط فيه ، في حالة فوضى خيفة لكن لأجل هدف مشترك هو طرد الاحتلال ، رجال الكوماندوس الفعالون للأخوان المسلمين ، ومجموعات الهجوم التي نظمها

حزب القمصان الخضر الفاشي ، ومجموعات القتال الشيوعية ، بالإضافة لكل من كانوا يطلقون النار دون أن يكونوا متسبين لأي حزب - وكانت تقدم الجزء الأساسي من الأسلحة المنظمة السرية للضباط الأحرار . يقول روبي غرونسبان عن تلك الفترة ، التي كان أثناءها في العشرين من عمره ، طالباً ، وعضواً في ح د ت و : « كانت فترة مجنونة . ذات يوم ، كنت أزور صديقاً على متن سفينة حرب مصرية . حين عرف قائدها أنني شيوعي ، قال لي : « هاك ، خذ هذه » . كانت بندقية رشاشة من طراز فيكرز . وقد تقلدتها وحملتها معي إلى البيت بصورة مظففة . وكاد والدي يطير فرحاً . كنا نتجول جميعاً حاملين مسدسات وقنابل . . . فالحركة الشعبية كانت تحملنا . كان « هناك موج هائل من الانتسابات بحيث فاض ذلك كلياً عن امكانات الاستيعاب لدينا . نجحنا في تنظيم مظاهرات ضمت مليون شخص في القاهرة ونصف مليون في الاسكندرية . . .

هاكم هذه المفارقة أيضاً : إن الحركة الشيوعية التي أضعفتها الشلل المتكاثرة ومزقتها ، لم تكن يوماً على ذلك القدر من النفوذ منذ الأيام العظيمة في شباط 1946 ، الا في ذلك العام 1951 . . . ومثلما كان المناضل الموقوف يجهل إذا كان سيسقط من كورتلين ألى كافكا ، فإن المؤرخ ، يتأرجح بين بانيول وميشليه من أجل تذكر تاريخ حركة متميعة وكلية الحضور . ماذا كانت الحركة الشيوعية المصرية غير كوكبة بائسة من الشلل التي تكسحها الخصومات ، إذا ما قارناها بالحزب الشيوعي الفرنسي العملاق ، بمنظمتها المزيّنة جيداً ، وآلاف المتفرغين لديه ، وسيوره النقابية لنقل الحركة ، وصحافته الوطنية والاقليمية ، وشركاته التابعة ، وقدرته المالية ، والمقترعين له الذين كانوا يمثلون آنذاك ربع الجمهورية الفرنسي الناحب ؟ لكن من من الاثنين كان يدفع بالتاريخ إلى الأمام ، في سنوات ما بعد الحرب تلك ، حين كان العالم يستأنف تحرّكه بعد الهزة الكبرى ؟

مثلما حدث عام 1946 ، كان يحرك الجماهير المصرية ، المصرة على اعطاء الحق لكورييل ضد الدكاترة في الاقتصاد ، مطلب الاستقلال الوطني . كان الملك يلقي التشنيع ، والاحتقار بسبب نزواته الطائشة ، وقد فقد الاعتبار منذ كشفت صحافة شجاعة مسؤولية القصر عن الهزيمة العسكرية في فلسطين . وكان الوضع الاجتماعي متوتراً بمقدار ما كان عام 1947 . وللمرة الأولى منذ عقود ، كان الريف المصري يرتجف ، وقد اكتسحت أربع انتفاضات فلاحية أملاك الاقطاعيين الكبار ، ومن بينهم فاروق بالذات . وأودى القمع بحياة عشرة أشخاص . لكن الوجود الانكليزي في منطقة القناة هو الذي كان يقذف بالجماهير مرة أخرى ودائماً إلى شوارع القاهرة والاسكندرية . كتب الشاهدان الثمينان ، الزوجان لاکوتور : « كانت « المسألة الوطنية » تنطرح على الجميع كعذاب جماعي . ان احتلال القوات الأجنبية للأرض ، مهما يكن

محدوداً ، كان إهانة ومصدراً دائماً للاستنكار⁽¹⁾ .

لقد أبرزت الممارسة صحة نظريات كورييل التي كانت ترى أن في وسع الدينامية التي تخلقها المطالبة الوطنية أن تدفع بالحركة الشعبية إلى أبعد بكثير من هدفها الأساسي . كتب الزوجان لاكوتور ، مسترجعين نفوذ الحركة الشيوعية في الأشهر الأخيرة من عام 1951 : « كانت قد نجحت في الإمساك بدفة الموجة القومية التي كانت تجتاح مصر وفي إعطائها تلويحاً ثورياً ، وذلك بمهارة مذهلة . في حين كان الوفد والإخوان يتفوقان تفوقاً عظيماً من حيث ضخامة العدد ، كان المناضلون الشيوعيون ، قد نجحوا في تحويل هذه القوى للسير في خط الحزب . كانوا يجعلون من الحشود الزاحفة لإعلان حقدها على الانكليز وزُمر القصر جماهير متماسكة تطالب بالسلم ، وبالصداقة مع الاتحاد السوفياتي ، ورفض « المعاهدات الحربية » . كانت تجري تقنية هياج شعبي في عمل ثوري⁽²⁾ » هكذا فإن حركة السلام ، التي كانت تضم عشرات الألوف من المتسبين المنظمين في لجان منطقية تغطي كل البلد ، كانت تقود مظاهرات هائلة ضد القنبلة الذرية وضد النزعة إلى الحرب ، في الوقت نفسه الذي تنادي فيه بالكفاح المسلح لطرد آخر المحتلين من البلد ، وهو ما لم تكن تنقصه السخرية من جانب حركة سلام ، وفقاً لملاحظة هنري كورييل . وأبعد بكثير من عام 1951 المحموم ، سوف يلاحظ الزوجان لاكوتور « التأثير الهائل للدعابة الشيوعية في وادي النيل - وهو تأثير لا يتناسب بتاتاً مع الحجم الهزيل للحركات الماركسية المحلية⁽³⁾ » .

لكن حين يلاحظ المؤرخ الماركسي الشاب محمود حسين بصرامته المعهودة حيال أسلافه : « عام 1951 ، وفي حين كانت الموجة المعادية للاستعمار تنطلق من جديد ضد الاحتلال البريطاني ، لم يعرف الشيوعيون كيف يخلقون قواعد شعبية للكفاح المسلح في المناطق الفلاحية ويربطون الكفاح المعادي للاستعمار بالكفاح الثوري لأجل الاستيلاء على السلطة⁽⁴⁾ » ، لا بد من ملاحظة أنه على حق . ما عدا أننا إذا أخذنا بالاعتبار تلك الفترة والواقع الذي كان قائماً خلالها فإن أيّاً من أكثر النقاد صرامة حيال « النزعة السياسية المغامرة » لدى هنري كورييل وأصدقائه ما كان نسب اليهم ، مهما يكن ، نية خلق « قواعد شعبية للكفاح المسلح » في ريف مصري يكاد يخرج آنذاك من خدره الدهري ، ولا سيما نية أخذ السلطة بالاستناد لقوى بالغة الضلالة . . .

(1) مرجع مذكور ، ص 247 .

(2) مرجع مذكور ، ص 100 .

(3) مرجع مذكور ، ص 200 .

(4) محمود حسين ، مصر ، صراع الطبقات والتحرر الوطني ، دار ماسبيرو ، ص 56 . (محمود حسين هو في الواقع

الاسم المستعار الجماعي الذي اختاره مؤلفان شيوعيان مصريان)

كانت « معركة القناة » تتمتع لوحدها الطاقة القتالية المتوفرة . كانت تخضب بالدم الصحف المصرية ؛ وكانت إذاعة القاهرة تسترجع دون تردد صورة فردان وستالينغراد . وقد اورد بيير كورتاد في ريبورتاجه وتحت تأثير جو البطولة المحيط ، رقماً يصل إلى ثلاثمئة قتيل انكليزي ، في حين كان العدد أقل في الواقع عشر مرات . لقد ازدهرت الحذقة . الا انه في 19 كانون الثاني 1952 ، قام رجال كوماندوس مصريون بهجوم في وضح النهار ، وبجراحة نادرة ، على الحامية الانكليزية في التل الكبير . وقد قامر الجنرال أرسكين ، القائد العام البريطاني ، بكل شيء . كان يحتاج منذ وقت طويل ضد سلبية الشرطة المساعدة ، البولوك نظام ، التي كان يقضي واجبها مبدئياً بشل مقاتلي حرب العصابات ، في حين كان أفراد منها ينضمون طوعاً لإيهم لأجل القيام بعمليات ليلية . كانوا يعسكرون في ثكنتين وسط مدينة الاسماعيلية ، الواقعة تحت الاحتلال البريطاني . وقد عمد ارسكين ، في 25 كانون الثاني الساعة السابعة صباحاً إلى تطويق الثكنتين بواسطة دباباته وتوجيه انذار لكولونيل البولوك نظام معطياً إياه ساعتين لتسليم السلاح .

ما كان يمكن أية حكومة مصرية أن تصمد لو جرى الرضوخ . لذا أمر وزير الداخلية برفض الانذار .

إذا كانت « معركة القناة » غير جدية في الغالب ، الا أن الشجاعة المصرية قد افصححت عن نفسها في 25 كانون الثاني . كانت الأسلحة الوحيدة التي بحوزة الثمائية بولوك نظام بنادق قديمة وخمسين خرطوشة مع كل شرطي . وحين استسلموا ، بعد نفاذ ذخيرتهم ، كان قد سقط أكثر من خمسين قتيلاً ، وأكثر من مئة جريح بين صفوفهم .

في اليوم التالي ، كانت القاهرة كتلة من النار والدم .

كانت الفترة الصباحية قد جمعت حشوداً ضخمة يختلط فيها البورجوازيون والعمال والعسكريون والموظفون والطلاب ورجال الشرطة والمناضلون من كل الأحزاب . وبعد الظهر ، قامت مجموعات منظمة جيداً بتحويل المظاهرة الوطنية إلى فتنة معادية للأجانب وعنصرية . اكتسح الحريق المطاعم ، وعلب الليل ، والمحلات والكنائس اليهودية والسينمات والنوادي البريطانية ، ومقهى غروي المشهور ، وفندق شيفردس الوقور ، ومراكز الشركات الأوروبية : تم تدمير أكثر من أربعمئة مبنى . وكانت فرق مثيري الحرائق تقطع أنابيب رجال الأطفال . وفي العديد من الحالات ، كانت النار تلتهم منكودين يحاولون الهرب من المباني المحترقة .

بعد مرور ثلاثين عاماً ، ليس في وسع أحد أن يحدد بدقة المسؤولين عن ذلك الكابوس .

هل كانوا عملاء للقصر الملكي ؟ متطرفين مسلمين ؟ قمصاناً خضراء فاشيين ؟ ليس ثمة دليل حاسم . إن المؤرخ محمود حسين لا يريد أن يرى في الحريق غير « التعبير » عن « حاجة أصيلة لدى الجماهير المحرومة موجهة بشكل أساسي ، وبأشكال متنوعة ، ضد أعداء الشعب⁽¹⁾ » . كان ثمة بدون ريب انفجار معاد للأجانب واردة إحراق الأمكنة التي ترمز الى الترف الغربي الذي كان اهانة دائمة لبؤس البروليتاريا الرثة المدنية . لكن كيف يمكن ألا نأخذ بالحسبان شهادات من جانب العديد من المراقبين تصف فرقاً متجانسة تدخلت في حينه واستخدمت مثلاً متفجرات حارقة ؟ . . .

شيء وحيد أكيد ، هو أن فاروق لم يتدخل . ففي ذلك اليوم ، كان يوم لستمئة ضابط على شرف ولي العهد . ورغم الحاح وزير الداخلية ، رفض الاستعانة بالجيش على امتداد ما بعد الظهر ولم يعط الضوء الأخضر الا بعد انفجار الإضطرابات وتطورها . كان في وسع الملك الضخم ، الذي طالما تردد على كل كازينوهات أوروبا ، أن يعتبر نفسه في مساء 26 كانون الثاني ، اللاعب المنتصر في حفلة البوكر التي بدأت في اليوم السابق عند الفجر . كان الانكليزي أرسكين قد افتتحها بانذاره بهدف مرجح هو خلق اضطرابات خطيرة لتبرير احتلال جديد للبلد . وقد زادت الحكومة الوفدية الرهان إذ قبلت بالمجزرة بحق البولوك نظام ، الذين سوف يجعل الرأي العام العالمي منهم شهداء الاستقلال المصري . أما فاروق فذهب كل ما على الطاولة بأن تخلص من الوفد ، مقيلاً حكومته العاجزة عن حفظ النظام ، وذلك قبل أن تنطفئ آخر بؤر التوتر .

بادر علي ماهر ، رئيس الوزراء الجديد ، إلى شل الحزب الوطني الكبير بمهارة ، وسجن الشيوعيين ، وإنهاء « حرب القناة » . واستتب النظام الانكليزي - الفاروقي .

بعد ستة أشهر ، في 23 تموز 1952 ، استولى الضباط الأحرار على السلطة ووضعوا في قيادتهم اللواء محمد نجيب ، الذي جرح ثلاث مرات في فلسطين .

※

※ ※

في 2 آب ، امتدح راديو بوخارست « الحركة المنبثقة من الشعب التي ضربت الاقطاع وقوى الحرب المصرية » . لقد وضعت رومانيا ، بذلك ، نوطتها الفريدة في الكونشرتو الاشتراكي . إلا أن ما بثته إذاعة بوخارست توقف عند هذا الحد .

(1) المرجع ذاته ، ص 53 .

أما الدايلى ووركر ، جريدة الحزب الشيوعي الانكليزي اليومية ، فأيدت انقلاب الضباط الأحرار . وقد نشر ادريس كوكس ، مسؤول الحزب عن القضايا الدولية ، تحليلاً داعماً للنظام المصري الجديد في المجلة الشيوعية الشهرية نيوز اند فيوز .

في الشهر التالي ، نشر بالم دوت في المجلة ذاتها مقالاً يتناقض مع مقال ادريس كوكس ، يصف فيه نظام محمد نجيب بأنه ديكتاتورية عسكرية تقليدية ، يجب أن يقاتلها كل الديمقراطيين .

هذا الانعطاف غير المجيد أعاد الحزب الشيوعي الانكليزي الصغير إلى الأورثوذكسية التي كان ابتعد عنها بدون حذر ، أما السبب فهو اتخاذ المعسكر الاشتراكي موقفاً ضد الانقلاب . وقد قاد الحزب الفرنسي الهجوم : « ديكتاتورية عسكرية » ، « زمرة عسكرية تستعد لارساء نظام فاشي سافر كخطوة نحو انضمام مصر إلى المعاهدة العسكرية للشرق الأوسط » ، « تفوح من تصريحاتهم الروائح الكريهة للفاشية » . وفي رسالة جدارة ملفنة للنظر بعنوان : « الحزب الشيوعي الفرنسي ومصر ، 1950-1956 » ، ابرزت ماري - دومينيك غريش المقالات والتصريحات المعبرة عن ارادة ح.ش.ف. الواعية للخلط بين السلطة المصرية الجديدة والنازية . ولم يكن ثمة ما هو أسوأ ، بعد ست سنوات من نهاية الحرب العالمية الثانية ، بالنسبة لرأي عام كان لا يزال تحت صدمة الفظاظات الهتلرية . تجد نفسك أمام الاعلان المذهل بأن شاخت ، وزير المال السابق للرايخ الثالث (لكن الذي تمت تبرئته في محاكمات نورامبرغ) هو « ضيف الشرف » لدى اللواء نجيب . أو أيضاً أن « الـ STO سوف يُفرض لمدة عام على كل الشباب المصريين » . وفي لومانيته ، كانت كاريكاتورات ميتلبرغ العنيفة تضع كاسكيتات هتلرية نموذجية على رؤوس الضباط الأحرار مقطبي الوجوه .

وما عدا استثناء واحداً ، فإن كل أحزاب الحركة الشيوعية المصرية ، وتجمعاتها وشللها ، اتخذت موقفاً ضد السلطة الجديدة . وقد تميز الحزب الشيوعي المصري بقيادة اسماعيل صبري عبدالله وفؤاد مرسي بعنفه الشديد ، لكن الادانة كانت إجماعية ، ومن دون فروق .

أما الاستثناء الوحيد فكان ح د ت و .

في حين اكتسح الجيش القاهرة ، قام بدر ، الأمين العام للحركة ، بإبلاغ هنري كورييل في باريس بأنه يتابع تطور الوضع بانتباه . فزجر كورييل : « ليس المطلوب متابعة الوضع ، يجب النزول إلى الشارع مع الجيش ! » وقد فعل بعض المناضلين ذلك دون انتظار التعليمات واختلطوا بالجنود على العربات المصفحة التي كانت تقوم بالدورية في شوارع القاهرة . حدث الانقلاب في ليل 22-23 تموز . ومنذ فجر 23 تموز ، أصدرت ح د ت و بيان دعم للجيش

قامت بتوزيعه . ولم تكذب الأيام التالية هذا الالتحاق العفوي . وفي منتصف آب ، صدر في نشرة الدراسات والمعلومات حول مصر والسودان - وكانت نشرة متواضعة لحدتو تطبع في باريس - مقال طويل ينضج منه أسلوب هنري كوزيل . وقد حلل فيه « كتلة الجيش - الشعب » وبين الدعم الكثيف الذي قدمته للضباط الأحرار كل شرائح الشعب المصري ، من طلاب الأزهر إلى الجسم التعليمي ، ومن البورجوازية الصغيرة إلى الجماهير العمالية في شبرا الخيمة . لاحظ أن الشارع يبدي حماسه اليومي للنظام الجديد . وقد خلصت ح د ت و إلى القول : « لم تحصل « مؤامرة امبريالية » يوماً على هذا القدر من الدعم الشعبي ، إن الجماهير الشعبية لا يمكن أن تكون مخدوعة إلى هذا الحد » .

لكن ح د ت و كانت مخدوعة بالضرورة لأن الحزب الشيوعي الفرنسي ، « الحزب الشقيق الكبير » ، ومجموع المعسكر الاشتراكي وكل المنظمات الشيوعية الأخرى في مصر ، ألصقت تهمة الفاشية بثورة الكولونيالات . إن ح د ت و ، أو « كوزيل وشركاه » حسب تعبير الحزب الشيوعي المصري لاسماعيل صبري عبدالله ، وضعت نفسها خارج الحركة الشيوعية العالمية .

الا أن مأساةً وحادثاً جاءت لتبررا في الظاهر اللعنة المنصبة على ح د ت و .

حدثت المأساة في 12 آب في مصنع نسج بكفر الدوار ، على بعد عشرين كم عن الاسكندرية . ولا شك انها كانت نتيجة استفزاز مدروس جيداً : منذ العاشر من آب ، حذرت النقابات المصرية المنتسبين اليها من دسائس عملاء القصر الملكي ، بعد أن جرى تنبيهها . وقد أدت مطالبة كلاسيكية بزيادة الأجور إلى إطلاق « غوريالات » الادارة النار على العمال . فعمد هؤلاء الأخيرون إلى إحراق عدة مباني ، فأطلقت الشرطة النار وقتل أحد العمال . ثم تدخل الجيش في فجر 13 آب ، مسقطاً ثمانية قتلى وعشرين جريحاً ، وأتبع ذلك باعتقالات جماعية . وقد جرى تحويل قائدتي التحرك العمالي منذ صباح اليوم التالي إلى محكمة عرفية قضت بإعدامهما . فهتفا لدى سماعهما بالحكم : « لقد سرنا وراء محمد نجيب ، عاشت الثورة ! » أما الحكم فتلى في ساحة المصنع أمام العمال المتجمعين . وقد دافع عبد الناصر ، وعبد الحكيم عامر وخالد محيي الدين ، من بين الضباط في السلطة ، عن العفو بحماس . إلا أنهم بقوا أقلية ، وهكذا جرى إعدام المحكوم عليهما . و« الثورة البيضاء » ، أي غير العنيفة ، التي مجدها صانعوها ، تخضبت بالدم ، وبالدم العمالي تحديداً . ألم يكن ذلك تأكيداً للطابع الرجعي الشرس للسلطة الجديدة القائمة في القاهرة ؟

أما الحادثة فتسبب بها روجيه فايان . كانت النشرة الفرنسية ، الدافع عن السلام ، التابعة للشيوعيين ، قد ارسلته في الأيام الأولى من شهر آب ليقوم بتحقيق في مصر . وبالطبع

كان فايان التقى هنري كورييل قبل رحيله ليحصل منه على عناوين يكون مفيداً للاتصال بها عند وصوله . وقد استقبله في القاهرة الشاعر كمال عبد الحليم ، الذي غدا أحد قادة حركة السلام ، فجرى اللقاء القبض عليهما معاً في إحدى قرى الدلتا . وبعد نقل الرجلين إلى القاهرة ، أخلي سبيلهما بسرعة ، لكن النبا ترك أثراً عميقاً (نشرته البرافدا) وأثار احتجاجات عنيفة . ألم يكن نظام يلقي في زنازينه كاتباً فرنسياً تقدماً كبيراً يكشف عن وجهه الحقيقي ؟

جرى الاحتفال في باريس بفايان كناج من الفاشية ؛ وقد روى هو مغامرته بالغنائية التي كان مفعماً بها في تلك الفترة ، لكن الجميع فهموا بسرعة أنه وقع ضحية حادث طارئ : فوصول شخصين لامعين مثل كمال ومثله إلى قرية مصرية كان لا بد أن يستنفر الموظفين الصغار المكلفين بحفظ الأمن في الأرياف . كانت القضية على مستوى ناطور الحقول لا على مستوى الكولونيالات - خدم الأمبريالية . لا سيما أن الكاتب رسم لوحة غير متوقعة للوضع المصري . فالسكان كانوا يدعمون الفريق الحاكم بكثافة ، ذلك أنهم شعروا بالانقلاب كثورة . كان لا بد للتساؤلات حول المستقبل - ولم تكن قليلة - أن تأخذ بالحسبان واقع أن صفحة من التاريخ قد طويت ، وأن الشعب المصري بكل طبقاته هو الذي طواها ، وليس حفنة من الضباط الانقلابيين .

ابرزت الصحافة الشيوعية ريبورتاج روجيه فايان بصورة محدودة . أما الكتاب الذي كتبه في قلب الأحداث ، بعنوان *Choses Vues en Egypte* * ، فقد أثلف حريقاً منككاً القسم الأكبر من أعداده المسحوبة لدى ناشره الشيوعي ، بحيث بقي المؤلف سرياً . ووفقاً لما تقوله ايليزابيت فايان ، فإن سوء الحظ بادٍ للعيان لأن النار تفادت الكتب الأخرى ولم تهاجم غير نسخ الكتاب الخاص بزوجها .

لكن الحزب الشيوعي الفرنسي لم يضطغن على المؤلف بسبب شططه في الحكم فلقد كانت صداقته حيال هنري كورييل معروفة ، ومن البديهي أن يكون وقع تحت التأثير المشؤوم لزعيم ح د ت و .

لكن سرعان ما سيأتي الوقت الذي سيتنزع فيه رسامو لومانيته كاسكيت جمال عبد الناصر ذات الشكل النازي ليطوقوا جبينه بأكاليل الغار التقدمية في حين ستمتدح العديد من الافتتاحيات شجاعة الحكومة المصرية وبعد نظرها السياسي . أما فؤاد مرسي واسماعيل صبري عبدالله فسيغدوان كلاهما وزيرين لعبد الناصر ؛ وسوف يحتفظ اسماعيل بالوزارة في ظل السادات .



* أشياء رأيتها في مصر (م) .

كان فؤاد مرسي متكوماً في مقعده ، هو الذي يتناقض جسمه الثقيل المربع مع روعة صالونه البديع للغاية : خنزير بري في علبة جواهر . وقد راح يقول : « أجل ! كان كوريل على حق ، وكنا مخطئين . لكن لماذا كان محقاً ؟ لماذا ساير الضباط الأحرار ؟ لأنه كان له رجاله بينهم . كان له أحمد فؤاد ، وأحمد حمروش ، ويوسف صديق ، وخالد محيي الدين ، وحتى عبد الناصر إلى حد ما . لقد قال في نفسه : « بما أنهم مشاركون في الأمر ، فهذا يناسبنا » . وأنا أسمي ذلك انتهازية . وكنت أقول هذا في تلك الفترة » . وحين غامرنا في الإيجاء لمرسي بأن تفسيره مختصر قليلاً ، قال تلك الكلمة الفخمة ، المرفقة بحركة امبراطورية : « ثمة من يصنعون التاريخ ، وأولئك الذين يكتبونه . ولا يهمني إطلاقاً أن أكتبه » . ويبقى محاوره صامتاً ، فهو لم يحلم أبداً بصنع التاريخ وليس متأكداً جداً من معرفة كتابته . . .

أما اسماعيل صبري عبدالله فذكي كما كان دائماً : « لقد ارتكبنا أخطاء . وقعنا في الانحراف اليساري والعصبوية . وكرّد فعل على الوضع الذي وجدناه ، رفضنا أن ننسب غير المصريين ، لا بل كان لدينا تحفظ أكيد في تنسيب نساء . وكنا نرى أن درجة تطور البلد تبرر هذا التحفظ . فالخصم كان يقرن الشيوعية بالاحلاد والحرية الجنسية . كانت الستالينية سائدة ، ولم تكن بريئين منها . وكان تحليلنا للطبقات يبخس البورجوازية الصغيرة دورها الكامن . والحال أنها تتحرك في البلدان المتخلفة أكثر بكثير مما تفعل البروليتاريا . يبقى اننا نجحنا في بناء منظمة صلبة ، تحميها تدابير أمنية صارمة - الأمر الذي تميّز عن الحماقات السابقة . كان فؤاد مرسي أميناً عاماً ، وكان اسمه الحزبي خالداً . خلال ثمانية أعوام كانت الشرطة السياسية تجهل من هو خالد . وقد جرى توقيف أربعة قياديين ، أنا أحدهم ، واتهامهم بأنهم خالد . وعلى الصعيد السياسي ، كان لدينا برنامج من إحدى عشرة نقطة لقي صدى عظيماً ، بما فيه لدى الضباط الأحرار . كان يتضمن إعلان الجمهورية ، وإجراء اصلاح زراعي وتأمين الاحتكارات ، ومن بينها قناة السويس .

« لكن المأساة الكبرى للحركة الشيوعية المصرية كانت عجزنا عن القيام بتحليل معمق للتركيب الطبقي للجيش المصري ولعلاقاته بالمجتمع المصري . كنا عاجزين عن أن نفهم أن في وسع عسكريين أن يلعبوا دوراً إيجابياً ، تقديمياً . ولقد وقعنا في ذلك ضحايا زيف الشيوعيين الغربيين الذين يشتهون بكل ما هو عسكري . وكان باقياً علينا أن نتعلم أن دروب الثورة ليست الدروب ذاتها في أوروبا وفي العالم الثالث . هكذا تعاملنا مع الضباط الأحرار بتشكك . وينبغي الاعتراف بأن قضية كفر الدوار لعبت دوراً كبيراً في ذلك . فأننا لا أوّمن بالثورات ، التي تشق عمالها . لكن عبد الناصر كان قد صوّت ضد الاعداد ، وكذلك خالد محيي الدين . وكنا نجهل ذلك ، أما اليوم فنرى بوضوح أنه لم يكن ينبغي أن نجعل من شق العمال

منطلقاً للطبيعة مع النظام . كان ينبغي أن نكون قوة اقتراح وتأثير . وكان من الضروري التفكير بأن المثل الأعلى الاشتراكي لم يعد حكراً على الماركسيين ، واستخلاص النتائج مما كنا نرده حول عدم وجود طريق تطور رأسمالي في العالم الثالث . كان يمكن أن نتوقع ، عن طريق الربط بين هاتين العبارتين ، إمكانية وجود اشتراكيين غير ماركسيين . يمكن أن يكون للبورجوازية الصغيرة في العالم الثالث مثل أعلى اشتراكي . وكان يجب أن نفهم أن الضباط الأحرار كانوا بورجوازيين صغاراً مع الكثير من التشوش في أفكارهم . كانوا يبحثون عن طريقهم ، ولقد كان علينا أن نساعدهم بدل مناهضتهم .

« صحيح أن كورييل كان على حق ، لكن هل كان ذلك لأسباب جيدة ؟ كان يقول على الضباط الأحرار الأعضاء في ح د ت و أو القرييين إليها . كانوا أقلية كما أثبتت الأحداث فيما بعد . فلقد كانت عبقرية عبد الناصر تكمن في جمعه حوله الضباط من كل الاتجاهات ، من الإخوان المسلمين وصولاً إلى الشيوعيين ، وفي جمعهم حول أصغر قاسم مشترك : إطاحة الملك ، ورحيل الانكليز . فما بعد ذلك ، كانت تبدأ الالتباسات . كان لا بد أن تنفجر نزاعات داخلية ، ولقد أثبتت أن غالبية أعضاء مجلس الثورة لم تكن إلى اليسار . وهو امر أخطأ كورييل بصده » .

من المؤكد أن هذا التفسير مقتضب بعض الشيء . فهنري كورييل وأصدقاؤه لم يختاروا تأييد الانقلاب لأنهم اكتشفوا فجأة في جريدتهم المفضلة أسماء عدة ضباط أحرار أعضاء في ح د ت و أو متعاطفين معها . وإذا كانوا قد فهموا على الفور الطبيعة الثورية لأحداث القاهرة ، فلأنهم قاموا بهذا « التحليل المعمق للتركيب الطبقي للجيش المصري » ، الذي يأسف اسماعيل صبري عبدالله لأن جماعته كانوا يفتقدونه . ذلك أن كورييل « الأجنبي » ، كورييل « الكوسموبوليتي » ، الذي خرج بالشورت والحذاء المسير من قصره في الزمالك ، كان يعرف جيشه المصري أفضل مما يعرفه أي من منافسيه الشيوعيين ، لسبب بسيط هو أنه كان يلتقي منذ قرابة عشر سنوات نواب ضباط وضباطاً تقديميين . لم يكن يمكن الآخرين أن يجهلوا الوضع الاجتماعي البائس للجيش (تتذكر امرأة اسماعيل صبري عبدالله الفضيحة التي أثارها ثلاث صديقات لها ، من بنات البورجوازية الكبرى ، وقعن في حب ثلاثة ضباط : « الوقوع في حب ابن فلاح ! ») لكنهم كانوا يعتبرون كل من يرتدي الزي العسكري رجلاً بطبيعته وماله . وهاكم التحليل الطبقي الذي كان ينقص الدكاترة الماركسيين في الاقتصاد : « لا يشكل ملاك الضباط المصريين فئة مغلقة كما في بعض بلدان اميركا الجنوبية أو تركيا . فمعظم الضباط يأتون من البورجوازية الصغيرة الدنيا . يحصلون على أجر بائس ؛ ويعانون في كل لحظة ، عبر والدهم واخوتهم وأهلهم ، من أنواع البؤس والمطالب الخاصة بأصحاب

الدكاكين ، والموظفين ، وصغار القضاة ، وباختصار كل الطبقة الدنيا من الشعب المصري .
ليس هناك من سد منيع بين جسم الضباط وضباط الصف الذين يشكلون هيكل الجيش : لقد كانوا ضحايا الاهانات ذاتها من جانب المدربين الانكليز في فترة غير بعيدة . ويتنمي الجنود إلى أكثر الشرائح فقراً لأنه يكفي دفع أربعين جنيهاً للحصول على إعفاء من الخدمة العسكرية . ثم إن ورش الجيش التي كان يعمل فيها إبان الحرب عشرات الألوف من الناس ، هي التي باتت تقدم مذاك للطبقة العاملة المصرية أفضل مناضليها النقابيين والسياسيين . ليس الجيش المصري منفصلاً إذن عن الأمة ، ولا هو عاجز عن التعبير عن التطلعات الشعبية والدفاع عنها » . هذه السطور كتبها روجيه فايان لدى عودته من مصر ، وهو دكتور في الفجور وليس في الاقتصاد لم يكن يعرف أزقة القاهرة جيداً ، لكن هنري كورييل أنار رؤيته السياسية ووجهه ريشته (1) .

فلنتذكر الجملة الواخزة التي تفوه بها صف الضباط الميكانيكي بدر : « لو أن هنري وُلِد لأب مصري ، لكانت تغيرت خارطة الشرق الأوسط . . . »

كانت ح د ت و قد فعلت أكثر وأفضل من وضع بيادقها بين الضباط الأحرار . كانت حركتهم بالطبع مستقلة ، والتاريخ هو الذي حدد مراحل تقدمها : اليمين الرومانسية بتحرير الوطن التي أفسمها ثلاثة تلاميذ ضباط في العشرين من العمر ، هم جمال عبدالناصر ، وزكريا محيي الدين ، ومحمد أنور السادات ؛ إذلال 4 شباط 1942 ، حين انحنى فاروق أمام الدبابات الانكليزية ؛ حرب فلسطين ، حيث تصرّف المتآمرون بشجاعة (تلقى عبد الناصر رصاصة قرب قلبه) لكن التي انتهت بهزيمة ؛ « حرب القناة » وحريق القاهرة ؛ تطهير الجيش الذي بدأته شرطة فاروق السرية ، والذي دفع المتآمرين للانتقال إلى العمل عام 1952 في حين كانوا حددوا عام 1954 كموعده حاسم . لكن إذا لم يكن لح د ت و سيطرة على سرعة الحركة ، فإن فعلها السياسي كان قد ساهم إلى حد بعيد في تطویرها ضمن منحى تقدمي . إن اسماعيل صبري عبدالله على حق ، فلقد كان الضباط بورجوازيين صغاراً لديهم « الكثير من التشوش في الأفكار » . فكلهم ، وعبد الناصر في مقدمتهم ، كانوا قد تذبذبوا بين الإخوان المسلمين والقمصان الخضر مروراً بالجناح اليميني للوفد . والجميع اقتربوا من الارهاب . وكان دور ح د ت و التاريخي تسييس حركة انبثقت من الحماس القومي (التسييس بالمعنى الأفضل للكلمة) . ولقد قام بهذا الدور خالد محيي الدين ويوسف صديق وأحمد حمروش - وهم ضباط كبار أعضاء في ح د ت و أو قرييون جداً منها - وقاضٍ ماركسي ، هو أحمد فؤاد ، انضم إلى

(1) روجيه فايان ، Choses vues en Egypte ، Boroboudour مطبوعات غاليمار ، ص 165 .

فريق المتآمرين وكان عضواً هو الآخر في ح د ت و (إن فؤاد هذا هو الذي كان ينبّه هنري كوريل إلى مذكرات الجلب الصادرة بحق المناضلين) . كانت قراءات مستفيضة وتجربة نضالية تعطيهم نفوذاً لا جدال فيه لدى اندادهم . هكذا كان خالد محيي الدين يحرر كل بيانات الضباط الأحرار ، وكانت تسحبها مطابع ح د ت و السرية . وكانت تصل إلى مقر الحزب الشيوعي الفرنسي نسخة عن كل بيان بإيعاز من هنري كوريل . ولو أن متفرغي مكتب المستعمرات أولوها الاهتمام الملائم ، فربما كانوا تحسّسوا بعض المطالب (الاصلاح الزراعي ، العدالة الاجتماعية ، ديمقراطية التعليم) التي نادراً ما رفعها انقلابيون فاشيون .

أخيراً فإن رجال ح د ت و لم يكتفوا بدور المنظرين لحركة الضباط ، بل كان فعلهم على الأرض حاسماً . ففي ليل 22-23 تموز ، كان خالد محيي الدين ويوسف صديق أول من خطوا خطواتها بإخراج فوجها من الثكنة .

فجر 23 تموز ، وفي حين كانت مستشاريات العالم أجمع وأجهزته السرية ، الواقعة تحت المفاجأة ، تتساءل بشكل محموم حول شخصية المتصرين على فاروق ، كان في وسع هنري كوريل ورفاقه في ح د ت و أن يعللوا النفس بآمال عظام . لم يكن للفريق الحاكم وجه أي الهول بالنسبة إليهم ، ومن المرجح أن الأمين العام لمنظمتهم كان المسؤول السياسي المصري الوحيد الذي جرى إنباؤه بقرب وقوع الانقلاب . ولا شك أن الفوز لم يكن مضموناً سلفاً لأن حركة انضباط الأحرار لم تكن متجانسة إطلاقاً . لكن المستقبل كان مفتوحاً . وكان الشيوعيون يملكون أوراقاً أساسية مع صديق ، ومحيي الدين وحروش وفؤاد . حتى جمال عبد الناصر بالذات كان مشاركاً إليه على بطاقات كوريل على أنه « عنصر متعاطف ، ينبغي تنسيبه » ، وسوف يصبح صديقه صلاح سالم شبيوعياً فيما بعد .

لكن لا يمكن اللعب مع فاشيين . كان الحزب الشيوعي الانكليزي صفقاً للانقلاب تبعاً للمعلومات التي قدمها هنري كوريل ، الذي بقي على علاقة وثيقة ببعض الضباط البريطانيين التقدميين أو الشيوعيين الذين التقاهم في القاهرة خلال الحرب . لكن هذا الحزب الانكليزي بذل موقفه بصورة فظة حين قرّر عرافو المعسكر الاشتراكي ان النظام الجديد ذو طبيعة ديكتاتورية . ووصل الأمر بح د ت و ، التي انحنت للعاصفة ، إلى حد الشك بتحليلها . يقول جوزف هازان : « كان ح.ش.ف. الحزب الشقيق الكبير الذي لا يمكن أن يخطيء . وبعد شهرين على وصول الضباط الأحرار إلى السلطة ، بدأت نشرة هنري كوريل نقدها الذاتي : « نحن مستعدون للاعتذار بصدد بعض الصياغات التي جرى اعتبارها مؤسفة ، كما لطلب الرأفة من قرائنا . فهذه النشرة تصدر بهمة مناضلين ينطوي تكوينهم ، لا سيما في هذا الميدان ، على ثغرات جديّة . . لذا فنحن متأكدون من أن الديمقراطيين الذين يمنحوننا شرف

قراءة كتاباتنا ويعرفون الصعوبات التي نعاني منها سوف يقدرّون جهودنا أكثر مما يتوقعون عند نقاط ضعفنا . فليكونوا على قناعة بأننا سنبدل قصارى جهدنا لتخطي هذا الضعف .

لكن هذا التواضع سيدوغير مُجيد : سوف تبقى ح د ت و ، « نصيرة الديكتاتورية الفاشية » ، مستبعدة عن الحركة الشيوعية المصرية . أما هنري كورييل ، فسوف يتولى « الحزب الشقيق الكبير الذي لا يمكن أن يخطئ » تصفيته السياسية .

لم تُثر قضية بخصوص كورييل ، بل أثّرت قضية بصدد ماري . كان كورييل إحدى الحجارة التي تم التقاطها لأجل رجم ماري ، وبضرب ماري ، كان كورييل يتحطم . وهذه هي إحدى الطرق لاصابة عصفورين بحجر واحد . ولقد كان لدى الحزب الشيوعي الفرنسي في الخمسينيات خبراء في الموضوع مكوّنون على أيدي ماهرة .

في 21 تشرين الثاني 1952 ، ظهر مقال في لومانيتيه بعنوان « الحزب والنشاط التكتلي للرفيقين ماري وتيون » . وقد ذكرت إحدى الفقرات بالتخصيص ما يلي : « اضطر اندريه ماري للاعتراف بكل هذه الوقائع امام لجنة التحقيق ، مثلما اضطر للاعتراف بأنه أقام اتصالاً بزوجين مصريين مشبوهين تعرّف اليهما خلال مروره بالقاهرة عام 1943 . والحال ان هذين المصريين مرتبطان بأحد اقربائهما ، وهو تروتسكي متهم بأنه كان « مخبراً » خلال العمل السري » .

كان ذلك تكشيفاً للجبن والخطأ والافتراء في قليل من السطور . جرى الامتناع بجبن عن تسمية الزوجين كورييل في حين ان التاريخ والمكان كانا يشيران اليهما بالنسبة لكل من لديهم اطلاع أولي . لكن إغفال الاسماء ، حتى الشفاف ، سوف يسمح لاي مينيو ، مسؤول مكتب المستعمرات ، بأن يتظاهر بالدهشة حين جاءه المصريون ، وعلى رأسهم هازان ، طالبين ايضاحات : « لا أفهم يا رفاق ، فكيف بوسعكم التأكيد بأن الأمر يتعلق بالزوجين كورييل ؟ » .

وكان الخطأ والافتراء يطولان « القريب » ، الغُفل هو ايضاً ، الذي كان الزوجان المشبوهان « مرتبطين » به . ويتعلق الأمر بأندريه فايل - كورييل ، المحامي في باريس ، الذي كانت امه ليوني أخت دانييل كورييل . غدا اندريه فايل - كورييل هكذا أول ابن عمه يجرى استخدامه ضد هنري ؛ ولن يكون الأخير .

كان فايل - كوريل مناضلاً اشتراكياً ، انضم قبل الحرب الى اتجاه مارسو بيفير ، ولم يكن يوماً تروتسكياً . لكن لم يكن يمكن تصور قرار اتهام ستاليني من دون الصاق تهمة التروتسكية ، كنوع من اللبس الفنية الأخيرة . وفي الخمسينيات ، كانت الصيغة المكرسة هي « الرعاع التروتسكيون » . الا أن المحرر العُفْل للأومانيته اعتقد ان في وسعه عدم ايراد الموصوف التحقيري لأن التروتسكي متهم ، والحالة هذه ، بأنه كان « مسلماً »* خلال المقاومة ، وهو ما يحيل بصورة نافعة الى الصيغة المكرسة في الثلاثينيات : « هتلري - تروتسكي » .

لبعض العائلات عبقريتها الخاصة . وأقل ما يمكن قوله عن الزوجين كوريل انه ليست لديها عبقرية البساطة . ومن المؤكد انه من المبالغة بمكان القول بأن المسافة الأقصر بين نقطة وأخرى تمر لديهما دائماً بسرداب ، لأنه لا شيء عن سابق تصور وتصميم . لإنهما في المسرحية المعقدة مثل سمكة في قفّة الصيد ؛ والقفّة لا تخطئها أبداً . هذا قدر محتم .

كان اندريه فايل - كوريل احد اوائل مقاومي فرنسا الحرة . انتقل من دنكرك الى انكترا مع الوحدة البريطانية التي كان ملحقاً بها كضابط ارتباط ، والتحق بديغول في اللحظات الأولى ، وهو ما عاد عليه بفراة أن تصدر محكمة عسكرية فيشية ، تعمل في معسكر أروا بارك ، على مرأى من السلطات الانكليزية ، حكماً فورياً عليه بالسجن لمدة شهر . . . في اعقاب ذلك بدّل المحكوم عليه موقفه دون حشمة واستقلّ المركب الذي اعاد الى فرنسا من كانوا يفضلون بيتان على ديغول . كانت تلك حيلة . ففايل - كوريل كُلف بتنظيم المقاومة الديغولية . لكن لأجل المزيد من إرباك مغامرة لم تبدأ ببساطة ، كان قد جندته رئيس ديوان ديغول ، الملازم أول هيثيه دو بوالامبير ، الذي لم يكن هذا دوره ، بحيث ان الكولونيل باسي ، المسؤول عن الأجهزة الديغولية ، كتب في مذكراته لاحقاً : « أبرق لي مراسل من فرنسا قائلاً ان واحداً باسم فايل - كوريل يزعم انه يعمل لفرنسا الحرة ، فأجبت بحسن نية بأن ما يزعمه باطل ، وهو ما قد يكون سبباً للمسكين ذيولاً جدية⁽¹⁾ » . كان القضاء والقدر الكورييلي يواصل المسير .

كعميل سري مرتجل ، قام اندريه فايل - كوريل بعدة اتصالات وارتكب اعمالاً يشوبها انعدام الحذر على غرار رفاقه في المهمة : فالمقاومة بحد ذاتها كانت من قبيل عدم الحذر ؛ إذ ان التحري لاكتشاف مقاومين لاحقين وتجنيدهم كان يجبر المرء على الاصطياد في ماء عكر . وقد

* donneur ، أي الذي يسلم أحداً للعدو (المعرب)

(1) الكولونيل باسي ، مذكرات ، مطبوعات راوول سولار .

وقع في الفخ بسبب سمكة قرش بأسم غافوله في احتراف الخيانة تاريخ استثنائي ، حيث قدّم للمشائق النازية عشرات الضحايا . وإذ كانت الغستابو تفتش في مكتب المحاماة الخاص به ، عثرت على رزمة رسائل /موضوعة على مكتبه . وكان المرسل هو اوتو أبيتز ، سفير ألمانيا في باريس ، الذي يرفع الكلفة في حديثه مع صديقه القديم اندريه . ولقد اوقف فايل - كوريل في شارع دي سومي .

كان قد التقى أبيتز قبل احد عشر عاماً ، عام 1930 ، في نزل للشبيبة في غوريه - نوار حيث كان ينعقد لقاء فرنسي - الماني . كان أبيتز آنذاك داعية نشيطاً للسلام وقد قامت صداقة أصيلة بين الرجلين خلال زواجهما في الغابات ، واستمرت بعد انضمام أبيتز الى النازية ، لأن فايل - كوريل حضر الألعاب الأولمبية في برلين ، عام 1936 ، بناء لدعوته . ثم انقطعت علاقاتهما ، لكن في تشرين الثاني 1940 ، شاعت الصدفه ان يلتقي في صالة شاي باريسية سفير ألمانيا والعميل السري لفرنسا الحرة . وكان يصحب فايل - كوريل زميله ليون - موريس نوردمان ، الذي سيقع هو الآخر ضحية غافو إبان تفكيك شبكة متحف الانسان ، ويسقط بالرصاص في مون فاليريان . وقد كان سرور فايل - كوريل عظيماً بسبب هذا اللقاء المفاجيء . كان قد حاول إعادة الصلة مع أبيتز منذ عودته من انكلترا ، لكن سفير ألمانيا ترك رسالة ، ومخابرة هاتفية ، وتدخل شخص ثالث ، دون جواب . وقد تداول الرجلان بالوضع خلال ثلاثة أرباع الساعة ، والتقيا مجدداً بعد ثمانية ايام في المكان ذاته لأجل جولة افق جديدة .

يتحدث هنري نوغير ، مؤلف كتاب عظيم الأهمية في خمسة اجزاء ، بعنوان تاريخ المقاومة ، عن هذه اللقاءات بريشة الكولونيل نوغير ، القائد المقاوم الذي لم يحاور العدو يوماً إلا بالرصاص : « لم تكن تلزم الارادة فقط ، بل القدرة أيضاً على فعل ذلك فيزيائياً . والحال انه لا يبدو أن فايل - كوريل ، إذ التقى هكذا أبيتز مرتين ، شعر بالتغلب على أي نوع من الاشتمزاز ، في خدمة المصلحة العليا لمهمة لم تكن تتطلب اطلاقاً البحث عن اتصالات من هذا النوع⁽¹⁾ . . . » يا له من رد فعل مدهش ! فأبي عميل سري - وهل كان فايل - كوريل شيئاً آخر ؟ - كان اجتاز باريس حَجَلاً لأجل محادثة مع سفير ألمانيا ؛ ومن كان تردد في تناول الشاي مع ادولف هتلر بحجة ان هذا يثير نفوره ، كان استحق الاحالة امام المحكمة العرفية ، او على الأقل النقل ضمن الادارة او سلاح المطاردة الجوي . ان العميل السري الذي يستحق هذا الاسم ، بدل ان يشعر بالاشتمزاز ، يحس على العكس بحنان عظيم تجاه العدو اللدود الذي هو بصدد الاحتيال عليه ، وتدميره فيما هو يدغدغه . لكن هذه قصة اخرى . . .

(1) هنري نوغير ، تاريخ المقاومة ، منشورات روبر لافون ، الجزء الأول ، ص 345 .

لم يكن وارداً تعذيب صديق أبيتز ، فكيف تعليقه على المشنقة حيث سينتهي المعتقلون معه ، ضحايا الخائن غافو مثله . عرض النقيب (في الإس.إس.إس. *) دورينغ على فايل - كوريل ان يطلق سراحه لقاء قبوله بأن يعطيه معلومات عن الأوساط الفيشية : « أريد ان أكُون فكرة موضوعية عن الجو الذي يسود فيها ، كما أود ان تقرأ كل صحف فيشي وتقتطع منها كل ما يخص العلاقات الفرنسية - الألمانية . هل تعتقد ان في وسعك القيام بذلك ؟ هذا مضحك . فصحافة فيشي تصل الى باريس وليست الاستخبارات الألمانية بحاجة لشخص كفايل - كوريل كي يفرز مضمونها . لذا يلاحظ هنري نوغير بفطنة الشيء التالي : « في غياب اية شهادة اخرى ، يلزمنا بما يخص تهديد « المهمة » المقترحة على فايل - كوريل اعتماد الرواية التي يقدمها لنا هذا . حتى اذا كانت تبدو غير قابلة كثيراً للتصديق⁽¹⁾ » . وهو على حق . لكنه لا يلاحظ الى اي حد كان دورينغ غير مهتم بفايل - كوريل : فأبيتز هو الذي كان يثير حماسه . كان سفير ألمانيا يمارس سياسة مختلفة عن سياسة الاس . اس . ، وفي حالة تصادم شديد معهم . وعام 1941 ، كان لا يزال الإس . إس . بعيدين عن الهيمنة التي سيبلغونها عام 1944 ؛ وفي باريس بوجه خاص ، كان يمكن دبلوماسياً او جنرالاً أن يقف في وجههم بقوة . والحال ان أبيتز وضع نفسه في الحالة الكريهة المتمثلة بانكشاف صحبته القديمة مع يهودي يشتغل لصالح الاستخبارات الديغولية ، كان يسرّ اليه بتحليلاته السياسية حول فنجان شاي . إن محاكمة لفايل - كوريل (كان الألمان لا يزالون يستخدمون في تلك الفترة الجهاز القضائي ، مع مناقشات امام المحكمة العسكرية ، ولجوء للمحاميين ، الخ) كان لا بد ان تكون بالغة الازعاج بالنسبة لسفير ألمانيا . لذا تقرر الا تكون هناك دعوى . لكن دورينغ اعطى سجينه كل الوقت الضروري لكتابة « بروتوكول » عن علاقاته منذ عشر سنوات مع اوتو أبيتز . سوف يغذي الملف ارشيفات الاس . اس . ، لاجراء ما يلزم . وهكذا أمكن فايل - كوريل أن ينسحب . واذا كان « سلّم » أحداً ، فقد سلّم أبيتز .

انتقل الى المنطقة المحتلة ، واستعاد مع بعض المقاومين صلات غير حذرة بتاتاً ، لكن أياً منها لم يكن لها ذيول سيئة . وقد بحث بصورة يائسة عن طريقة للعودة الى انكلترا ، وانتهى الى العثور عليها في كانون الأول 1941 ، فاجتاز البيرينيه (آه ! بفضل شبكة تروتسكية اسبانية . . .) وبلغ لندن دون مشاكل . وحين تمت مفاوضاته بعد التحرير بصدد موقفه وهو بين ايدي الألمان ، طالب بتشكيل هيئة محلفين مثل امامها حاملاً رسالة من الجنرال ديغول يؤكد له فيها تقديره وثقته . وهكذا تمت تبرئته من كل شبهة .

* تشكيلات من الشرطة في ألمانيا النازية ، غدت عام 1940 وحدات عسكرية حقيقية تحت اسم Waffen S.S. ، أو الاس . اس . (المغرب) .

(1) مرجع مذكور ، ص 347 .

بعد ثماني سنوات ، نبش ح ش ف القضية . وصف فايل - كوريل بالـ « مسلم » .
وحتى إن كان فايل - كوريل خائناً فلماذا يجب أن يتأثر ابن خاله في مصر بسبب ذلك ؟ إلا أن هذا
السؤال لن ينطرح . ينبغي توسيع سمعة فايل - كوريل للوصول الى كوريل وضرب ماري بطريقة
غير مباشرة . يالها من فترة قاسية .

في الخامس من كانون الأول 1952 ، بعد 15 يوماً على صدور مقال لومانيتيه ، قام ليون
موفيه ، عضو المكتب السياسي ، باستعادة الموضوع بإسهاب امام اللجنة المركزية . وفي فقرة
بعنوان « العلاقات المشبوهة » ، يوجه تقريره الاتهام التالي : « إننا نعرف ان اندريه ماري كان
على صلة بعناصر مشبوهة التقاها في مصر وفي الجزائر وفي أمكنة أخرى . . . لقد احتفظ أندريه
ماري بصلات ، وارتباطات ، و « صداقات » مع مشبوهين أو أعداء معلنين » .

احتج ماري - ليس ضد الشبهة بصدد كوريل بل ضد النتائج التي تترتب على ذلك
بالنسبة اليه : « لقد كتبوا في لومانيتيه : « أقام اندريه ماري في الجزائر وفي باريس علاقات مع
مصريين قريين لحائن » . لكن أمانة السر تعرف مع ذلك انه في عامي 1943-1944 كان
كوريل وامراته يديران في القاهرة المكتبة الوحيدة التي تتلقى من الاتحاد السوفياتي كل الكتب
الصادرة باللغات الأجنبية ، وبناء على طلبنا ، كانا يزودانا بها [في الجزائر] . ان أمانة السر
تعرف تماماً انه لدى وصول كوريل الى باريس ، قبل حوالي عام ، استقبلته في مكنتي بالمبنى
رقم 44 ، في حضور فايكس ، المسؤول عن الفريق في جمعية الاتحاد الفرنسي . وهي تعرف
تماماً أي بعد أن اصغيت الى معلوماته ، رفضت ان اعطي ادنى توجيه ، إذ ليس من حق أي
شيوعي فرنسي ان يقدم لشيوعي مصري نصائح بصدد بلده .

« تعرف أمانة السر تماماً أي لم أر كوريل بعد ذلك بتاتاً . وتعرف أمانة السر تماماً اني
دبرت ثلاث مرات لقاءات لزوجة كوريل في المدينة ، بناء لطلبها ، لتلقي معلومات منها بصدد
مصر ، جرى نقلها في الحال الى الفريق الشيوعي في جمعية الاتحاد الفرنسي .

« مذ اعلمني فايكس بقرابة كوريل الى الشخص المعني ، قطعت أية علاقة معه . لكن
فريق الاتحاد الفرنسي رأى الزوجين كوريل بانتظام عشرات المرات . وهذا مثل من بين عشرين
على تشويه الوقائع لافقاد اندريه ماري حظوته » .

هذه المرافعة البائسة من جانب رجل في وضع بالغ الحرج تخلط الحقيقة بالكذب .
فصحيح ان ماري لم ير هنري كوريل غير مرة واحدة منذ وصول الأخير الى فرنسا وأنه لم يُسمح
لزوجيت حتى بدخول مقرات الحزب . لكن ليس صحيحاً ان الفريق الشيوعي في جمعية الاتحاد
الفرنسي استقبل الزوجين كوريل « عشرات المرات » . فكل الاتصالات مع المراجع الشيوعية

كانت تتم بواسطة جوزف هازان . وإذا كان مارتي يقدم هذه الحقيقة - المضادة ، فلأن رئيس الفريق الشيوعي في الاتحاد الفرنسي هوليون فايكس ، مساعده سابقاً في العلاقات الدولية ، الذي انتقل الى معسكر خصومه ؛ وكوفء فيما بعد بمركز عضو احتياطي في المكتب السياسي . ان مارتي يبذل جهده إذن لتوريط ليون فايكس باتهامه بأنه كانت له اتصالات متتابة مع الزوجين كورييل . ولشئ عابرين الى أن مارتي المأخوذ بحالته الشخصية ، لم يتردد في « تسليم » الزوجين كورييل . لقد كانا متخفيين ، وها هي ذي الشرطة ، المنتبهة طبعاً لتطورات قضية مارتي ، تأخذ علماً بوجودهما في فرنسا . . .

ثم إن الرتب الدنيا أخذت على عاتقها ، بانصياع ، ما اتخذته الرتب العليا من قرارات مشينة ، هذه القرارات التي اخذت طريقها الى القاعدة ، وذلك وفقاً للطريقة الستالينية الكلاسيكية . هكذا فإن جوزف هازان ، الذي التقى في احد شوارع باريس احد انسابه الآتي مثله من القاهرة ، فوجيء به ينتقل الى الرصيف الآخر تحاشياً لإلقاء التحية عليه . ثم عاد هذا الأخير الى الوراء وتمتم بشكل مثير للثناء : « اصغ إليّ ، أفضل ان اقطع علاقتي بك » . ويقول هازان : « كان هذا الرجل ، مع ذلك ، رجلاً شريفاً » . هذا الرجل الشريف ، الذي نهشته الآلية الستالينية العنيدة ، سلم الحزب الشيوعي الفرنسي تقريراً يتهم فيه هنري كورييل بأنه استضاف في بيته في القاهرة مسؤولاً رفيعاً في المخابرات البريطانية . وفي الخمسينيات ، كانت « الصلة » بجهاز سري امبريالي هي جريمة الجرائم : لقد جرى فيما بعد شنق سلانسكي وراجك والآخرين في الشرق بهذه التهمة . ولقد كان تقرير ابن العم يتسم بالخبث البشع (وكان على علم بذلك) لأن رجل المخابرات المشار اليه كان الكولونيل روبرت براونينغ ، الجامعي المميز الذي دفعته آراؤه التقدمية للاتصال بالمقاومة اليوغسلافية التيتوية ؛ وقد انضم الى الحزب الشيوعي الانكليزي في نهاية الحرب (ولا يزال عضواً فيه لحظة كتابة هذه السطور) ، بحيث ان التقرير يأخذ على هنري كورييل صداقة مع احد أفضل ما ضمته الحركة الشيوعية البريطانية . . . لكن التقرير يغفل هذا الانضمام . كما انه يمتنع عن الاشارة الى أن روبرت براونينغ عرّض نفسه في القاهرة لخطر الاحالة امام المحكمة العرفية حين اخرج من شقة هنري كورييل المطوّقة فاراً يونانياً من الجيش كانت الشرطة الانكليزية تطارده . .

أليس جوزف دوميتير هو الذي كان يقول : « لا أدري ما في قلب مجرم لكني أعرف ما الذي في قلب رجل شريف : إنه لأمر مخيف » . . .

✱

✱ ✱

إن وضع « زوجين مصريين مشبوهين » موضع الإتهام في فرنسا ، لم يُثر بالتأكيد بأس

بيلانكور ، وأبقى أعضاء اللجنة المركزية على الأرجح جامدين كالرخام . كانت أهميته شبه معدومة في محضر الاتهام الذي جرى وضعه بحق مارتى ، الذي تعرض في الأخير لتهمة إطلاع الشرطة على أسرار الحزب . ولا بد أنه بدا غريباً ، إذا لم يكن غير مفهوم ، بالنسبة للاختصاصيين بالذات . فمن كان يعرف ان اندريه مارتى توقف لوقت قصير في القاهرة عام 1943م ؟ ومن كان يتذكر الغليان الخاطف الذي أثارته قبل سنوات قضية فايل - كوريل ؟

في مصر ، كان لمقال لومانيثيه وقع القنبلة . لم يكن ينطوي على الغاز بالنسبة لأي كان لأنه لا احد نسي ، في اوساط الشيوعيين ، توقف مارتى المفاجيء ، مارتى الذي نزل من السماء الاشتراكية كمسيح أحمر ، والهيبة التي اكتسبها كوريل لمجرد انه استضافه . هكذا فان قائد ح د ت و ، الوحيد الذي دعم انقلاب 23 تموز ، والذي هاجته الحركة الشيوعية بالاجماع لهذا السبب ، يتعرض لتشهير « الحزب الشقيق الكبير » به كعنصر « مشبوه » ، وهو ما كان يشير في لغة تلك الفترة الى عنصر مرتبط بالشرطة . كان ذلك حكماً سياسياً بالاعدام ، كانت هيبة الحزب الشيوعي الفرنسي عظيمة الى حد أن أحداً - خارج حلقة المقررين جداً من كوريل - لم يكن يستطيع التشكيك بالحكم الذي تلفظ به الوحي الالهي . كان مؤدى الصدمة الماكيافلية التي أعدها خبراء ح ش ف إزاحة احد المضايقين ، أصحاب المواقف الهرطوقية ، من الطريق .

اندفعت المنظمات المنافسة لح د ت و في الحملة ضده . وكانت عضوة الحزب الشيوعي المصري بقيادة اسماعيل صبري عبد الله فعالة بوجه خاص ، لكن الشتائم جاءت من كل الجهات . جرى وصف كوريل بـ « الجاسوس العالمي من طراز تروتسكي » ، و « الأفعى » و « المجرم من النوع الديء » . واهتزت ح د ت و بالذات حتى أعماق اعماقها ، فعمد مناضلون صادقون ، اشتغلوا مع هنري كوريل منذ سنوات ، الى جحده بين ليلة وضحاها . وانفجرت القيادة ، إذ رفض بعض المسؤولين البقاء في منظمة أسسها وقادها خائن . والباقي لم يستطيعوا إلا أن يطردوا كوريل من كل الهيئات « بانتظار أن يقدم ح ش ف التوضيحات المطلوبة منه » . أما الأكثر اخلاصاً فظلوا يلتقون الملقى عليه الحرّم خلال سفراتهم الى باريس ، لكن خيفة ومع الامتناع عن ذكر أي شيء عن زياراتهم أمام رفاقهم .

لَطَّخَ الخزي الذي رُمي به هنري كوريل حتى يهود مصر ذوي الجنسية الفرنسية ، أو الذين حصلوا عليها ، ممن التحقوا بالحزب الشيوعي الفرنسي . يقول روبر إيدي ، أمين سر احد الفروع : « تم اتخاذ القرار بسحب بطاقات الانتساب من « المصريين » جميعاً . قيل لنا ان ثمة حاجة للتحقق من سيرة كل واحد وأن علينا إبداء التفهم . فرفضنا . كان الأسلوب مهيناً وغير قابل للاحتمال . ذهبت للاحتجاج في مقر الحزب . فشرح لي عضو في اللجنة المركزية ان

للقرار طابعاً مؤقتاً . واحتج بالنظام . ولقد كانت خليتنا رائعة (تم حلها فيما بعد لأسباب أخرى) : رفض الرفاق إعادة بطاقتنا محتجين بأننا لسنا جواسيس . لأن الأمر وصل الى ذاك الحد : يكفي ان يكون المرء مرمصراً حتى يُشتبه به بأنه من رجال الشرطة » .

لقد جرى تسجيل الحُرْم ، الذي أُلقي في باريس ، في عواصم العالم الشيوعي ، وذلك لوقت طويل . فبعد سنوات ، طلب شيوعي مصري كان يزور برلين الشرقية الاتصال هاتفياً بجوزف هازان ؛ فأمن له رفاقه الألمان المخابرة بعد وقت من التردد ، قائلين له : « أنت تعرف أن لديه مشاكل مع الحزب الشيوعي الفرنسي » ؟ وفي عام 1950 ، هرب محمد الجندي ، وكان مناضلاً شيوعياً شاباً ، من معسكر الاعتقال ، وبلغ فرنسا ثم لجأ الى بودابست بمساعدة ح ش ف . وقد عمل في الاتحاد العالمي للشبيبة الديمقراطية ، حيث مثل شبيبة ح د ت و . وبعد الانقلاب وقضية ماري ، بات وضعه غير قابل للتحمل واضطر للاستقالة . كان يتراسل باستمرار مع هنري كورييل . (« تلك هي الفترة التي كان له خلالها أكبر قدر من التأثير عليّ » . كانت كل واحدة من رسائله درساً في السياسة ») . وقد رفض الشيوعي الفرنسي جاك دوني ، مسؤول الاتحاد العالمي ، ان يسلم الرسائل بعد اتهام كورييل . كان ذلك موتاً سياسياً .

ضاعف المخلصون في صفوف المصريين مساعيهم لدى مكتب المستعمرات ، لكن دون جدوى . وكان مكسيم رودنسون ، عضو ح ش ف ، والخبير في شؤون الشرق الأوسط ، قد قاس مدى تأثير الاتهام على الشيوعيين المصريين : « كان لديهم احترام عميق للحزب الشيوعي الفرنسي - لكنه لم يكن يبادلهم الاحترام بالاحترام . كان حزباً كبيراً » معصوماً عن الخطأ » . وقد ذهبت لرؤية مكتب المستعمرات لأقول لهم : « أصغوا إليّ . لقد كان لمقالكم دوي عظيم . إذا كان لديكم وثائق تثبت ان هذا الرجل خائن ، قدموها . . . وإلا ، اكتبوا كلمة صغيرة تقولون فيها شيئاً ما وتتحاشون بذلك الخصومات التي هناك » . وأعتقد أنه قيل لي : « سوف نفكر » ، أو شيء من هذا القبيل ، وأنه بناء على إلحاحي كي احصل على جواب ، قال لي عضوفي مكتب المستعمرات في احد الأيام : « كان للحزب أسبابه » ⁽¹⁾ .

لم يثقل الحزبان الشيوعيان اللبناني والاسرائيلي اي جواب عن طلبهما الحصول على توضيحات . وقد ذهب الأمين العام للحزب الشيوعي السوداني ، عبد الخالق محجوب ، تلميذ هنري كورييل ، ذهب بنفسه الى مقر ح ش ف للحصول على توضيح ، لكنه عاد بخفي حنين .

(1) مقابلة أجرتها ماري دومينيك غريش لاجل أطروحة الجدارة الخاصة بها .

عام 1971 ، قام رفاق مارتي القدامى بتبرئة ذكراء من الاتهامات الكاذبة بالخيانة البوليسية .
الا انه استحال على اصدقاء هنري كورييل ان يستحصلوا على تبرئته رسمياً من الشبهات ،
التي رُمي بها . وخلال عشر سنوات ، سوف تعرف الحياة المضطربة باستمرار للحركة
الشيوعية المصرية ثابتةً واحدة على الأقل : إبقاء كورييل ، « الذي لم تتم تسوية وضعه » ، على
حدة .

لم يجتز مرة واحدة بعد ذلك باب مركز من مراكز ش ف . وقد دفعته نشاطاته اللاحقة
الى ان يلتقي مرتين مسؤولين شيوعيين فرنسيين ، وهما لقاآن خاطفان ، ملائمان لاعادة
الاعتبار ، لكنهما لم يؤديا الى اي شيء . وبعد عشرين سنة ، وفي حين لم تعد المساجلة التي
افتتحها الانقلاب المصري غير موضوع للاطروحة الجامعية ، وبات الاكثر ستالينية بين
الشيوعيين يرسلون تهدة حزينة وهم يتذكرون قضية مارتي ، بقي اسم كورييل من
المحرّمات .

في 11 أيار 1978 ، يوم الدفن ، ميّز أصدقاء المحرّم في الموكب الجنائزي ممثلين اثنين
للحزب الشيوعي الفرنسي ، من بينهما نائب . فعرفوا عندئذ أن هنري لم يعد مشبوهاً .

*

* *

ليس الحقْد من شيمي ، لكن كان بودي ان استطيع الحقْد على ايلي مينيو .

بعد عدة مواعيد ألغاهها بنفسه في اللحظة الأخيرة ، استقبلني في مقر معهد الأبحاث
الماركسية ، بولفار بلانكي . جلسنا على طرفي طاولة طويلة جداً موضوعة في آخر قاعة
المحاضرات . هذه المواجهة المتوحدة في مكان مخطط له أن يكون للقاء جمعيات حاشدة كانت
غربية بعض الشيء . كان صوتانا يدويان كما في مغارة . لكنه كان الحزب الذي لا يحصى عدد
أعضائه ، المكرر على الدوام ، وكان الى جانبي كل اولئك الذين كانوا يكرهونه لأنه أياس
الرجل الذي سبق أن أحبوه ، غير مرئيين لكن حاضرين . من النادر التمكن من تسمية الشقاء
بالنسبة لهنري كورييل ، تسمّى الشقاء ايلي مينيو .

رجل عجوز في الرابعة والسبعين يسحق المرض هيكله الكبير الذي سبق ان هزّه معسكر
داشو . لقد دخل في المساء ذاته العيادة . كان محموماً ، شارد النظر ، يقلّب بعناية أكداش
الوثائق التي تترس خلفها : مجلات مُصَفَّرَة اختفت منذ عقود ، تقارير ذات تجليدات مخلعة ،

صحف قديمة متلاشية . لم يكن رجلاً في وضعة المتهم (لا يشعر قائد شيوعي أنه قابل للمثول إلا أمام محكمة أنداده) بل ربما طالباً ثانوياً قديماً على عتبة امتحان شفهي دقيق . وهذا مشرف جداً . كان بوجه خاص رجلاً متضيقاً للغاية . نظر الي وتنهّد : « انت شاب . . . » لم يعد هذا صحيحاً لكنه كان يريد ان يقول : « أنت شاب جداً لأنك عشت تلك الفترة . كيف عساك تفهم ؟ » .

لحياته ألوان صورة لإيبنال . ولد في تورين عام 1929 في عائلة تضم ستة أولاد . كان الوالد إسكافياً ، يعيش وذويه حياة بؤس شديدة . وكان يود ابلي ان يصبح مدرّساً ، لكن اهله كانوا شديدي الفقر بحيث لم يكونوا قادرين على دفعه الى الدراسة . فشغلوه خادماً لدى احد الأطباء . وردّ على ذلك بالتمرد . وفي الرابعة عشرة بدأ يتدرب على النجارة . وقد تعلق به احد العمال ، واهتم برعايته . سوف يغدو حرفياً جيداً للغاية . وفي السادسة عشرة والنصف ، مضى مع نجار عربات ، يكبره بعشرة اعوام ، كان يجوب فرنسا . وقد توقف في تور حيث اشتغل عامّاً متابعاً دروساً مسائية في الرسم . ثم بدأ رحلته حول فرنسا ، حيث امضى 30 شهراً في التجوال . وقد توقف لدى « الأمهات » اللواتي كن يدرن نزلاً عائلياً يرفع شعار الصّحْب* : « معرفة وأخوة » . وصل الى باريس عام 1929 ، قادماً على رجله من ليون ، وأنتج « رائحته » : درجاً الى الطابق العاشر . أدى خدمته العسكرية عام 1930 ثم عاد الى باريس . وفي الخامسة عشرة من عمره كان في حالة تمرد ، وفي السابعة عشرة فوضوياً نقابياً . وقد اصطدم برجال الدرك الممتطين احصنتهم خلال المظاهرات احتجاجاً على إعداد ساكو وفانزيتي . وعام 1934 ، كان في الطليعة اثناء الصدمات الدموية في باريس بين الروابط الفاشية ومناضلي اليسار . وفي 10 شباط 1934 ، في مساء يوم رهيب من المشاجرات (عدة قتلى في كليشي) ، انضم الى الحزب الشيوعي . كانت مقالات لومائيتيه ، التي قرعت جرس الإنذار ضد صعود النازية ، قد سحبت من صفوف الحركة الفوضوية . وقد تسرّع عمله إثر مشاجرة مع رب العمل ، الذي استاء لرؤيته يترك المشغل كلما حصلت مظاهرة ، وسافر الى الجزائر مع ثلاثة اصحاب . كانوا يسعون وراء الشمس وفرح الحياة على عفاف البحر المتوسط ؛ وقد وجدوا على رصيف الميناء في الجزائر العاصمة جمهرة من العرب الصغار رثي الثياب المتسولين قطعة من العملة . « قلت في نفسي : يا الله ، هذه ليست فرنسا ! » وبقيت تلك الصدمة الكبرى في حياتي . صورة ظلت محفورة في نفسي . وقد اهتمت بالعالم الثالث انطلاقاً من ذلك » .

* compagnons du tour de france ، أصحاب يقومون بالتجوال في مختلف أنحاء فرنسا (المغرب) .

عادته الحرب الى فرنسا فتم إلحاقه بالبحرية في لوريان ، حيث راح يبي طائرات من ورق تُستخدم للرماية التدريبية عليها . وكان من حظه انه لم يتم اكتشاف حقيقته كمناضل سياسي : لقد ضيَّع الجيش ملفه . . . وقع في الأسر عام 1940 ، واعد الى الوطن بعد ذلك بعام ، وفقاً لاتفاقات هتلر - بيتان القاضية بإطلاق سراح كل رجال البحرية . وقد مضى الى أحد مراكز المقاومة في كوريز . وفي آب 1943 ، حين أوقف ، كان يقود القنّاصة والأنصار في 17 محافظة .

إنها مسيرة مثالية .

في اللحظة التي وُقِعَ فيها بطاقة انتسابه إلى ح ش ف ، انتصب الصاحب الفوضوي للرحلة حول فرنسا، جاف الحلق، وسأل امين سر الخلية: «هل سأبقى طليقاً؟».

هاجم في العمق، ببرودة القوات القديمة، قائلاً: «لقد اقترف كورييل خطأ جسيماً: فلحظة وصوله الى فرنسا، لم يسع للاتصال بالحزب. حين يستقر في باريس قيادي في منظمة تنتسب الى الشيوعية، ويبقى هكذا على حدة، عن سابق تصور وتصميم، كيف تريد ألا تنطرح الاستفهامات بصدده؟» وقد راح يصغي، بشجاعة، الى رواية الزيارة التي قام بها هنري كورييل الى 19 ، شارع سان - جورج، بعد مرور يومين على وصوله الى باريس، واستقبال مكتب المستعمرات له (وكان مينيوي في ذلك المكتب) ومقابلته مع مارتى، واقامته عند مناضلين شيوعيين موثوقين. «على أي عنوان؟» - مناضلين؟ لا ادري . . . - «عجباً! بودي ان اعرف العنوان، بهدف التحقق من صحة الموضوع، لأنى لا اخفي عليك ان كل هذا يدهشني جداً» . إنه مذهش.

«مقال لومانيتيه؟ أجل، لقد سمعت بهذه القصة. هل انت متأكد من أن هذا ليس اختراعاً؟ قبل أن آتي الى هنا ، تطلعت الى مجموعة لوما(*) في تلك الفترة، فلم اجد شيئاً من ذلك. هذه نقطة يجب توضيحها.» وتحت وطأة الحيرة، قلت انه يمكن اعتبار وجود المقال ثابتاً. «هل هو بحوزتك؟» - «لا والله!، لم أكن اعتقد ان من الضروري حمله اليك!» وإذ رحت أتلوه عن ظهر قلب، رد قائلاً: «عجباً! في كل حال، لا بد أنه ظهر ضمن سياق معين. يجب التحقق من ذلك؟».

وماذا عن طلبات التوضيح من جانب الحزبين الشيوعيين اللبناني والاسرائيلي؟ شطب السؤال بحركة من يده. وماذا عن المسعى الشخصي لعبد الخالق محجوب، الامين العام

* اختصار لومانيتيه . (م)

للحزب الشيوعي السوداني؟ راح يسخر بصراحة: «أبدأ! أبدأ! كل هذه ترهات!» اما محبوب المسكين فلن يقول العكس، ذلك انهم شنفوه في الخرطوم.

عبثاً جرى الاستعلام، وقراءة روايات الرحالة في الستالينية، وتوقع الاسوأ: يبقى هامش جميل للمفاجأة. لم يكن الرجل في احسن احواله... في الخمسينيات، لا بد أن القاضي مينيو كان برع في محكمة التفتيش.

بعد كل ذلك، كان نوع من الخشونة التي تقارب الفظاظاة من عادات مكتب المستعمرات، بحيث ليس على المحاور أن يستاء إذا جرى اتهامه باختراع مناضلين غير موجودين او مقال في لومانيته لم يُنشر أبداً. كان ذلك هو الاسلوب الفظ لاندرية مارتى. كان محارب شيوعي قديم متقاعد في كانتوني النورماندي يستعيد قبل أيام نادرة حصلت بالضبط عام 1952. كان مارتى يضع اللمسات الاخيرة على تنظيم مظاهرة في الشارع، وهو ميدان كان يتقنه اكثر مما يتقن العلاقات الدولية. وكان شاب شيوعي يصغي الى التعليمات فأجاب بصورة آلية: «أوكي» فرفع مارتى نظره تحت تصميم مدينة باريس، وهو في حالة الغضب الشديد، وتفحص المجموعة الصغيرة الصغيرة التي كانت تحيط به سائلاً: «من قال ذلك؟» رفع الجاني يده. فانفجر مارتى: «مطرودا!» وفي الواقع، جرى طرد المسكين بسبب خيانة لغوية طبقية. ويتذكر أحد المصريين القدامى، وكان مع ذلك مقرباً جداً من مكتب المستعمرات، يتذكر ببعض الضيق المعاملة التي عامل بها باربيه، مساعد مينيو، سوداً غدا بعضهم رؤساء دول: «كان تاجر عبيد حقاً. كان يزعم فيهم كما لو كانوا حمقى بالكامل.» ويروي مناضل دخل فيها بعد في جو هنري كورييل أن قيادياً شيوعياً من جزر الانتيل، رفيع الشأن، كان قد استدعي الى باريس ووقع مريضاً، فعامله مكتب المستعمرات معاملة من السوء بحيث مزق بطاقته. والمصريون، الذين لم تكن الخصومات الايديولوجية تلغي لديهم لطفاً غريزياً، كانت تلك الفظاظاة تخنقهم. فالدكتور شريف حتاته، المعتدل جداً في احكامه، يحتفظ بذكرى مرة عن اتصالاته بمسؤولي مكتب المستعمرات: «كانوا محترسين، وهذا أمر يمكن فهمه. لكن لم يكن بالامكان فهم احتقارهم. كنا امامهم كموظفين صغار امام مديرهم. بالرغم من كل شيء، وبالرغم من كل نقاط ضعفنا وتقصيرنا، كنا مناضلين يحاولون فعل شيء ما. ونبينا الطيبة على الاقل كانت تستحق بعض التقدير. لقد عاملونا بفظاظاة. وكانوا عديمي التهذيب حقاً. حين حضر هيلل شوارتز بدوره الى مقر اللجنة المركزية ليلتقي سادة مكتب المستعمرات، عاد الحارس الشرس، بعد ان أخبر بقدمه، بالجواب التالي: «لا يريدون استقبالك. امض من هنا!» كان شوارتز خارجاً من ثلاثة أعوام سجن ومعسكر اعتقال.

هاكم إذن ايلى مينيو وقد تعرض بدوره لمحاكمة خبيثة، هو الذي قاد محاكمات مثيرة

للاشمئزاز. لم يكن شيء أو أحد يجبره على القبول بالدخول في حوار. ليس له صيت ثرثار وهو لم يضرب يوماً في الطرق بهدف الاستكشاف: من يعرفه، باستثناء بعض الاختصاصيين؟ بعد أن أحيل إلى التقاعد، تترس خلف ذاكرته المديدة. لا أحد يضمن الوصول إليه، لا سيما من دون المفتاح السحري المتمثل ببطاقة الحزب. ومع ذلك فهو هناك، كريماً وسعيء النية، مبلبلاً بفعل ارادة طيبة تحت الشراسة البليدة للإنكارات. يود أن يفهمه الآخرون، إذا لم نقل أن يبرر نفسه. هذا مستحيل. المشكلة مطروحة بشكل سيء. يسألونه عن الأسباب المبررة للظلم اللاحق بهنري كورييل، والإنسان كورييل لم يكن يوماً بالحسبان. فالناس ليست لهم أهمية.

استعاد كمسؤول سياسي المشكلات التي طرحها الموضوع المصري المعقد: «كان ذلك بالغ الصعوبة، حوالي عشر منظمات تنسب نفسها إلى الشيوعية وكل منها تطالب بحصر الصفة بها. وفي حالة من هذا النوع، كانت القاعدة عندنا دائماً ألا نتدخل. لم يكن وارداً في أي من الأحوال أن نحاي واحدة من المجموعات، حين كان هذا أو ذاك من هؤلاء الرفاق يمر في باريس، كنا نستقبله، ونصغي إليه، ونكتفي بالدعوة إلى الوحدة.»

كان في وسعه أن يضيف أن الشيوعيين الفرنسيين النادرين الذين يذهبون إلى مصر كانوا يتزودون بالتعليمات ذاتها القاضية بالاحتباس. وصل جاك - فرانسوا رولان إلى القاهرة عام 1947، في حين كانت تجري المفاوضات المهيئة لتوحيد دت و- الإيسكرا: كان يحمل تعليمات بالحث على الوحدة دون التدخل في خصومات الشلل. وبعد ذلك بسبع سنوات، دعي ماكسيم رودنسون للالتزام بالاحتباس ذاته: «ذهبت إلى مصر لقضاء شهرين، وقد دفعت إلى CNRS كلفة رحلتي لأقوم بتحقيق حول السحر. وقبل السفر، طلبت الحصول على توجيهات من الحزب، أي من مينيو. وبعد أن فكر أعضاء مكتب المستعمرات، قالوا لي: «لا تقل شيئاً، ولا تلتزم بشيء». وكان بودهم ألا أتصل بأي من الشيوعيين المصريين: «فما ستقوله سوف يفسرونه على أنه آت من ح ش ف، ونحن لا نريد أن يظهر أننا نشجع إحدى المجموعات، الأفضل أن تلتزم الصمت». كانت العلاقات مع المنظمات المصرية تنطبع بالحدس التام. «هذه القاعدة لم يتم خرقها إلا لصالح فؤاد مرسي واسماعيل صبري عبد الله: كانا مصريين من النخبة تكوينا في باريس وفقاً لقواعد السراي، وقد أصبحا بلا جدال ربيبي مكتب المستعمرات وإيلي مينيو، دون أن يتوصلا مع ذلك لجعل حزبيها الشيوعي المصري القطب الوحيد في الحركة الشيوعية.

أما بصدد الخطأ التاريخي في التقدير الذي جرى ارتكابه بخصوص انقلاب 23 تموز، فمينيو لا ينكره بل يعتبره أمراً طبيعياً: «كان ذلك وضعاً معقداً جداً» مصر! مصر! هل تعتقد على سبيل الصدفة أننا كنا نعيش وأعينا مثبته على مصر؟ لم تكن بالتأكيد في المقام الأول

من اهتماماتنا ! كانت لدينا مسؤوليات بوجه خاص حيال شعوبنا المستعمرة . وحين يكون المرء بعيداً يجب أن يكون حذراً . إن غير المسؤولين هم الذين يندفعون . ونحن لم نكتشف إلا بعد ربح من الزمن من كان أولئك العسكريون الذين استولوا على السلطة في القاهرة . . . »

مارتي ، فايكس ، مينيو : ثالث « كولونيالي » يجسد « الأخ الشقيق الكبير المعصوم عن الخطأ » . مارتي ، المحدود كبغلة ، والذي سوف يشير قرار إعادة الاعتبار له ، بحس أكيد بالتورية ، إلى « انه لم يكن معداً ، دون ريب ، ليشغل مراكز المسؤولية السياسية التي شغلها » ؛ وفايكس ، الذي كان يعرف المغرب جيداً لكن لم يكن يعرف باقي العالم العربي إلا عن طريق السماع ؛ ومينيو ، الذي لم يأت إلى مصر الا بعد وفاة عبد الناصر . . . هنالك الكثيرون من أصدقاء هنري كورييل الذين يدينون اذانة صارمة مسؤول مكتب المستعمرات ؛ أما الآخرون فيقولون : « مينيو ؟ ربما ليس شخصاً سيئاً ، وهو مناضل صادق بالتأكيد ، الا انه لم يكن يعرف كوعه من بوعه . كان كارثياً بسبب الجهل » .

هل يكفي الجهل بحركة الضباط الأحرار لتفسير الخطأ في تأويل انقلابهم ؟ ينبغي أن نهمس في اذن الطالب الثانوي مينيو ، من أجل وضعه على الطريق : « ألم تلعب معاهدة الشرق الأوسط دورها ؟ » فتتوقد عيناه ويرفع ذراعيه إلى السماء : « بالتأكيد ! كانت هنالك المعاهدة ! وكل شيء كان يدعو للتفكير بأنه عبر ايصال عسكريين الى السلطة ، كان الانكليز والاميريكيون يستهدفون ادخال مصر في معاهدة الشرق الأوسط التي كانت تشكل امتداداً للحلف الأطلسي ! هذا هو السبب في اننا تصرفنا بالشكل الذي تصرفنا به . . . »

من أجل إرجاع اشكال السلوك الستالينية إلى فتنة شبه شيطانية ، كما يفعل الناجون بالذات ، يكفي طمس الديكور التاريخي والغاء الحكمة : لا يعود في المسرح غير مهرجين لا كرامة لهم يتلفظون بتحريمات شاذة حين لا تكون لهم القدرة على الاحتجاج أو القتل .

على امتداد تلك السنوات الجليدية ، كان الديكور الأوروبي حقل أنقاض مادية وأخلاقية تملاء بشرية خرجت مسلوخة حية من أهوال لا سابق لها . إن التوتر اليومي كان كامناً في هذا السؤال المخيف ببساطته : هل ستقع الحرب العالمية الثالثة في الغد ؟ لقد عبأ النضال لأجل السلام الشيوعيين الغربيين . وهو لا يبرر الانحرافات الجائرة ، إنه يفسرها . إذا كان هذا العدد الكبير من المناضلين ذوي النوعية الانسانية النادرة قد قبلوا بما لا يمكن القبول به ، فلأنهم كانوا يعتقدون أنه يستمد مشروعيته من الالتزام السامي بحماية العالم من الكارثة النووية . وإذا كان النضال لأجل السلام مماثل لديهم مع الدفاع عن الاتحاد السوفياتي ، فتلك بداهة . سيقول التاريخ انهم لم يخطئوا دائماً ، فلقد طالت السنوات التي كانت واشنطن واقعة فيها تحت إغراء تفوقها الساحق في السلاح النووي .

كان عام 1952 أحد أعوام القلق الشديد تلك . فالولايات المتحدة ، الواقعة فريسيه؛ الفيروس المكارثي ، بدت مستعدة لخوض حرب وقائية . وقد أثارَت المجلة الكبرى كوليرز Collier's انفعالاً عالمياً حين نشرت ، تحت عنوان « الحرب العالمية الثالثة كما رأيتموها » التحقيق الخيالي بصدد هجوم نووي على موسكو . هذا التحقيق الذي نُشر في تشرين الأول 1951 ، أعلن ببرودة أن الحرب الذرية ستندلع في 10 أيار 1952 الساعة الواحدة و 58 دقيقة . . . كان القادة الأميركيون يطوقون الاتحاد السوفياتي بشبكة كثيفة من القواعد العسكرية ويسرعون توقيع أحلاف يسمونها بالدفاعية : الأطلسي في أوروبا ، والأنزوس في أوقيانيا ، وفيما بعد الأوتاز في جنوب شرقي آسيا . وكانت ج. د. أ. (جامعة الدفاع الأوروبي) في حالة مخاض متسارع ؛ كانت ستتيح ولادة جيش أوروبي مندمج يضم الفرق الألمانية الغربية . وفي فرنسا ، كان شهر أيار 1952 مطبوعاً بمظاهرات عنيفة للشيوعيين . في 28 منه ، أدى وصول الجنرال الأميركي ريدجواي إلى نزول عشرات الألوف من المتظاهرين إلى الشوارع . وكانت الصدامات هي أعنف ما شوهد منذ شباط 1934 . أطلقت الشرطة النار ، وجرى توقيف عدة قياديين شيوعيين ، من بينهم جاك دوكلو ، ضحية « مؤامرة الحمامات » البشعة . كانت الهستيريا المعادية للشيوعية في الذروة في كل مكان . وسوف يتذكر كاتب الحوليات بير دوران ذلك الزمن بإعطاء فصوله العناوين التالية : « السلام في خطر شديد » ، « حرب وقائية ؟ » « أشد النذر سواداً » ، « زمن نهاية العالم » ، « نحو المباراة الكبرى ؟ »⁽¹⁾ .

ضمن هذا الشفق الرؤياوي انفجر انقلاب الضباط الأحرار . والحال انه قبل تسعة أشهر ، في تشرين الأول 1951 ، كانت الدول الكبرى الغربية اقترحت على مصر فاروق ان تصبح عضواً مؤسساً في « قيادة للشرق الأوسط » معدة للاندماج في نظام الاحلاف المعادية للسوفييات . إلا أن « حرب القناة » والتقلبات الداخلية وضعت المشروع في حالة الرقاد ، لكن كيف السبيل إلى عدم الاعتقاد بأن الضباط الذين استولوا على السلطة لن يوقفوه وسط الطبل والزمر ؟ ليسوا معروفين - وهذه هي الغلطة التي لا تغتفر - وكل واحد يماثل بينهم وبين الضباط الانقلابيين في أميركا الجنوبية . كان هنالك اعتقاد بأن المخابرات الغربية تمسك خيوطهم . هكذا إذ كان ماكسيم رودنسون يشرح لايلى مينيوكيف أن الوضع المصري الخاص يستلزم أخذه بالحسبان ، اجابه الأخير : « هل سبق أن رأيت في الشرق الأدنى أو في الشرق الأوسط شيئاً لا تقف وراءه دسائس الأميركيين أو الانكليز ؟ اذا لم يكونوا دمي بين يدي المخابرات المركزية ، فهم يبقون عسكريين . ومن ذا الذي رأى يوماً عسكريين يقاومون اغراء قيادة ذات سطوة ومصدر لتوريدات عجيبة ؟ سوف يتذكر روجيه فايان ذاته « الطائرات الجميلة النفثة »

(1) بيردوران ، عشرون سنة ، حوليات 1945-1965 ، المنشورات الاجتماعية .

الأميركية المغربية جداً بالنسبة للضباط الأحرار . . .

في وضع يشهد أقصى التوتر ، وفي حين كان يمكن الحرب النووية أن تندلع بين اليوم والآخر ، حدد موقف المعسكر الاشتراكي والشيوعيين الغربيين اليقين وحده برؤية النظام الجديد ينخرط في الحرب الصليبية المعادية للاتحاد السوفياتي ، كانت اللازمة في كل مقالات لومانيته : « زمرة عسكرية تستعد لإرساء نظام فاشي صرف ، بمثابة إعداد لانضمام مصر إلى المعاهدة العسكرية للشرق الأوسط » (23 آب 1952) ؛ « يتأكد بصورة أكثر فأكثر وضوحاً أن قيام الديكتاتورية العسكرية يهدف إلى تسهيل مشاركة مصر في حلف عدواني في الشرق الأوسط » (9 أيلول 1952) ، الخ . « لم نكن نعيش وأعينا مثبتة على مصر » . كان إيلي مينيو على حق : لم تكن مصر غير قطعة في البازل* العالمي . وإذا قيس التحليل الدقيق لحركة الضباط الأحرار الذي اقترحت ح د ت و بمقياس الرؤى الجيو- استراتيجية التي كانت تطارد القادة الشيوعيين ، فهو يبدو تافهاً . من جهة أخرى ، كانت موسكو قد حزمت أمرها وحسنت الموضوع : « في ليل 23 تموز ، استولى على السلطة فريق من الضباط الرجعيين بقيادة اللواء نجيب ، على صلة وثيقة بالولايات المتحدة » . ما كان يمكن أي تفسير آخر أن يأتي إلا من معسكر الامبريالية وأنصار الحرب . كان صوت هنري كورييل الناشز يستوجب الحنق ، وقد جرى خنقه .

أما مصر فرفضت الانضمام إلى معاهدة الشرق الأوسط .

الحياة كلها حنان .

في خريف عام 1976 ، قرع ألان غريش ، ابن الثامنة والعشرين ، باب أصدقاء باريسيين . فقالوا له : « عجباً ! لقد مر والدك للتو » . فابتسم . هذا مستحيل . « بلى بلى ! كان هنري هنا قبل عشر دقائق » . هنري كورييل .

إنه صورته الحية . لو انه ألصق على جواز سفره صورة لهنري في الثلاثين من عمره ، لما كان انتبه الشرطي الأكثر يقظة .

تم أول لقاء يتذكره في جنيف عام 1958 . بالنسبة لألان ، ابن العشر ، كان هنري الرجل الذي أمّن له اشتراكاً في فايان Vaillant ، المجلة التي سبقت Pif بزمان .

كان كشف بنوته الحقيقية أمراً هزّه بعمق . فوالده الشرعي كان قد احبه كثيراً بحيث لم

* لعبة معقدة مؤلفة من قطع كثيرة ينبغي جمعها بالشكل المناسب (م)

يكن وارداً أن يحلم بآباء خياليين ، كما يفعل الكثير من الأولاد الشرعيين . أما هنري فلم يشغل مكاناً فارغاً : ففي حين كان قد بات لألان ولَّد ، كان هنري أباً آخر هبط من السماء .

لم يترك القتلة لهما أكثر من عامين ليعيشا علاقتهما الجديدة . قال هنري لألان : « عشت لحظات صعبة ، فساعدتني أنت على المقاومة . كان عندي ابن ، وكان عليّ أن أكون جديراً به ، وأكون قُدوة بالنسبة إليه » .

إن متاع آلان كورييلٌ بصورة نموذجية : جدارة في الرياضيات ، وديبلوم بالعربية من معهد اللغات الشرقية ، ودكتوراه في العلوم السياسية ، مع اطروحة مخصصة للفلسطينيين .

من الناحية الانسانية ، يتماهى مع هنري إلى حد أن جريمة الرابع من أيار 1978 لم تعد بهذا الاكتمال .

حين فُكر إيلي مينيو أخيراً في التقاعد ، كان آلان غريش هو الشخص الذي تم تعيينه للحلول محله . وقد سرَّ هنري بمعرفة ذلك قبل أن يموت . وسوف يكتشف إيلي مينيولدى قراءته هذه السطور أنه سلَّم سلطاته لابن هنري كورييل .
الحياة حلوة .



ربما كان ما جرى الامتناع عن كسبه تاريخياً . فجوزف هازان يقدر انه « لو جرى تبني تحليل كورييل ، لو أن مجمل الحركة الشيوعية المصرية اتخذت الموقف ذاته الذي اتخذته ح د ت و ، لبات لدينا في مصر كاستروية ناصرية . كان قدر الشرق الأوسط تغيرً بالكامل » .

لا شك أن الاضرار كانت عظيمة . فالضباط الأحرار الذين تم الحكم عليهم حتى قبل أن يكونوا تمكّنوا من التعبير عن انفسهم ، انتقلوا بسرعة من الدهول إلى مرارة يمكن فهمها . لم يكونوا يشكلون فريقاً متجانساً . وإن تنوع الآراء وتباين المشاريع السياسية ، بالاضافة إلى التنافس المعتاد بين الطموحات الشخصية الذي كان ينفخ على نار ذينك التنوع والتباين ، سرعان ما كانت ستصدّع الكتلة العسكرية . لكنهم كانوا قبل كل شيء وطنيين تحركهم ارادة الاجهاز على ملكية فاسدة ومتواطئة مع المحتل الأجنبي . وحين حصل جمال عبد الناصر على جلاء آخر جندي انكليزي ، بات أول مصري يحكم مصر حرة منذ الفرعون بسميتيك الثالث ، الذي هزمه ملك الفرس عام 525 قبل المسيح . والرجال الذين وضعوا حداً لخمسة وعشرين قرناً من الاحتلال والرضوخ لسلالات أجنبية ما كان في وسعهم أن يقبلوا بالخلط بينهم

وبين ضباط انقلابيين مبتدئين في « جمهوريات الموز » . كان يكفهم أن يجتازوا الأحياء الشعبية من دون حراسة وسط البهجة العامة كي يقدروا الاتهامات بـ « الديكتاتورية الفاشية » حق قدرها .

أصاب الطعنات أكثر ما أصابت عبد الناصر ، الأكثر بروزاً على المستوى السياسي . لقد أذهله عنف الهجمات الشيوعية قبل أن يثير سخطه . « كان شديد الاستياء » ، يقول خالد محيي الدين ، رأس حربته الانقلاب ، ورئيس التجمع الوحدوي اليوم ، الحزب اليساري الوحيد المرخص له في مصر . « لم يكن جمال يفهم لماذا يصفنا الشيوعيون بالفاشييين في حين كنا نعمل منذ زمن طويل مع ح د ت و . كنت أتولى بنفسى العلاقة بين الضباط الأحرار و ح د ت و . وقد كانت النتيجة إرباك الضباط التقدميين وتسليم أوراق مهمة لأولئك ، الذين كانوا إلى اليمين . كانت آرائى معروفة . فكيف يمكن الدفاع عنهم وكسب الانضمام اليهم في حين كانت الصحافة الشيوعية في العالم بأسره تشتت كل صباح ؟ سرعان ما خسرنا مواقع في مجلس الثورة . وهكذا اضطررنا للقيام بردود فعل متطرفة سهّلت تصفيتنا » .

خرج الكولونيل صديق بصورة مدوية بعد مرور ستة أشهر على الانقلاب ، وكان عضواً في ح د ت و . وجرى توقيف أحمد حمروش ، المناضل منذ عام 1947 ، في كانون الثاني 1953 . وقد سبق بعد خمسين يوماً من السجن إلى مكتب عبد الناصر . وهو يقول اليوم : « كان المقصود إرهاب العسكريين الشيوعيين . لقد أدى توقيفى إلى حل الفرع الذي كان يجمع داخل ح د ت و ضباطاً ورتباء وعمالاً في مصانع الأسلحة . لم يعد عبد الناصر يتحمل مهاجمته كما كان يحصل . كان قد بدأ يعجز عن فهم أي شيء من ذلك . أنا بالذات كنت على موعد مع هنري كورييل في مارسيليا في 25 تموز . وكنت اشتريت بطاقة السفر ، وحزمت حقائبي . وقد التقيت عبد الناصر في 22 منه ، وأبلغني أنه تم تسبيق الانقلاب بحيث يحدث في الليلة التالية . لقد سرنا يداً بيد ، وفجأة انهار علينا ذلك السيل من الشتائم . . . »

أما خالد محيي الدين ، فما يسميه اليوم « رد فعل مفرطاً » تمثل في لعب ورقة محمد نجيب ضد عبد الناصر واحتجاز هذا الأخير - إلى حد ما - في ثكنة الخيالة الخاصة به خلال ليلة لا تُنسى شهدت المنتصر لاحقاً ينهار بصورة عصبية كما لن يحدث له الا عام 1967 ، في نهاية حرب الستة أيام الكارثية . وبعد إزاحة نجيب ، غفر عبد الناصر لرفيقه القديم إهانة لا تتم إزالتها في مكان آخر إلا بالدم ؛ وقد تخلص خالد محيي الدين من الورطة بنفي مؤقت في سويسرا . .

أما مصير المناضلين فكان قاسياً . يقول جوزف هازان : « لقد كلّف مينيو الشيوعيين المصريين عشرة آلاف سنة سجن » . والأمر يتعلق هذه المرة بملاحظة وليس بتقويم افتراض

لكاستروية ناصرية . ولا شك أن المسؤولية المعزوة إلى ايلى مينييو وحده تقع على هيئات أعلى منه . لكن الواقع ماثل هنا : إن ألف شيوعي ، كانت تطاردهم شرطة عبد الناصر ويتعرضون بالمناسبة للتعذيب الوحشي (توفي العديد منهم تحت التعذيب) ، أمضوا عشر سنوات في معسكرات اعتقال لم يكن من علاقة بين النظام الذي ساد فيها وذلك الذي سبق أن ساد في معسكر هوكستيب .

*

* *

عمد هنري كورييل ، اليائس لكن المنضبط ، إلى تطبيق الخط . فمطابع ح د ت و السرية أصدرت كالمطابع الأخرى ندأت إلى الشعب تندد بديكتاتورية الكولونيالات الفاشية . وذهب مناضلوها حتى إلى باندونغ ، عام 1955 ، ليوزعوا على المؤتمرين الآتين من العالم الثالث بيانات معادية للناصرية بعنف : لم يكن في وسعهم أن يتوقعوا أن يشكل مؤتمر باندونغ نقطة التحول في تقدير العالم الشيوعي للنظام المصري . هذا الانعطاف الجذري سيؤدي إلى المشهد العجيب لمعتقلين شيوعيين يكتبون عرائض دعم حماسية للسلطة التي تنكل بهم ، فيما الاصفاد تكبل اقدامهم وتبدو على ظهورهم المخططة آثار الندوب التي تركتها ضربات السياط . . .

وقد مضى هنري كورييل في التضحية إلى حد أنه خلق في باريس جبهة وطنية للمعارضة . إلا انه لم يستطع أن يجمع أكثر من خمسة منتسبين من بينهم أحد انصار الملكية . فعبرت ديدار روسانو عن استيائها بالقول : « هذه مزحة حقيقية ! » ونهد هنري : « وكيف تعتقدن أن الأمور تبدأ ؟ . . . »

امراتان أضاءتا تلك الليالي الحالكة .

بقيت ديدار ، ابنة الثلاثين وأم الولدين ، مخلصاً للمراهقة المغامرة المندفعة نحو أميركا اسطورية . كان زواجها بعثمان الجميل قد تفكك . فهي كانت تتناقض كثيراً مع صورة الزوجة المسلمة التقليدية ، وكانت عائلة الضباط تستشيط غيظاً بسبب عملها النضالي . أما عثمان فكان يعتبر أمراً ممتازاً أن يكون المرء تقديمياً ، لكنه كان يقدر أن تقدميته كافية عن الاثنين . عام 1951 ، سافرت إلى أوروبا مع ولديها ، وبعد أن قضت أسبوعاً في روما مع هنري كورييل ، التقت شريف حتاتة في باريس .

كان شريف قد مرّ قبل أشهر ، وسافر مع محمد الجندبي ، وهو فار آخر كان عثمان وديدار خبّاه في بيتهم ، لحين تمكن من الابحار سراً على متن سفينة شحن فرنسية ، ثم مضى ليعمل في بودابست في الاتحاد العالمي للشبيبة . وقد وقعت ديدار في حب الطبيب الشاب المنفي (ومن لم يكن ليقع في حبه ؟ فبعد ثلاثين عاماً ، لا يزال شريف أحد الرجال الأكثر فتنة الذين

يمكن التفاوضهم : سحر حنون وذكاء نادر) . تركته لفترة قصيرة لتسهّل اجتياز هنري الحدود الفرنسية - السويسرية ، ثم خلافاً لنصيحة هذا الأخير (« لا تستعجلي الأمور ! لا تمضي بها إلى نهاياتها ! ») ، كتبت لعثمان رسالة بالحبر السري لتعلمه بنكد حظه : « كان ذلك هو الشرف » . حين عادت إلى القاهرة ، حصلت على الطلاق حياً ثم انغمست مجدداً وبحماس في حياة النضال . وبرباطة جأش مدهشة ، خططت لفرار مسؤولين في ح د ت و ، أحدهما محمد شتي ، القيادي المشهور في ضاحية شبرا الخيمة العمالية ، وضمنت تنفيذ هذا الفرار . وكانت تلك مناسبة لأعنف مشهد مع زوجها السابق الذي بقي رقيقاً لها : كان عثمان يعتبر أن عملاً خطراً من الناحية المادية هو امتياز للرجال ؛ وقد وصفها بـ « الضرّاطة » .

كان شريف ضجراً في باريس . لقد كان سيء التندر ، ومزوداً بجواز سفر يفتق تزويره العين ، فأبحر سراً إلى مصر وناضل في الدلتا . وكانت ديدار تلتحق به كلما أمكنها ذلك . لكن مسؤولياتها كأم والأخلاق الثورية وقفت حائلة . إن عثمان الذي خاطر بحياته أكثر من مرة لأجل نجاح الضباط الأحرار ، لم يكن يفهم شيئاً بخصوص النضال لأجل السلطة الذي كان دائراً داخل المجلس الثوري . ولقد ضجر سريعاً ، ثم أصيب بالقرف ، ليُعين فيما بعد ملحقاً عسكرياً في سفارة مصر بموسكو . وقد عرض على ديدار أن تسافر معه لضمان حياة عائلية منسجمة لابنتيهما . أما الرفاق في ح د ت و فارتأوا أنه ليس في وسع مناضلة مسؤولة أن تتهرّب ، وأن شريفاً ، عضو المكتب السياسي ، لطُخ صورة الثوري إذ « خطف » زوجة رفيق . وهكذا تزوجت ديدار بعثمان من جديد ، وطارت معه إلى موسكو . وبعد رحيلها بثلاثة أيام ، اقتحمت الشرطة السياسية شقة والدتها ، حيث كانت تسكن . كانت ح د ت و قد وزعت في الذكرى الأولى للانقلاب هجوماً عنيفاً على الضباط في السلطة . وكانت الوثيقة ، الحاملة عنوان « عام أسود » تأسف للدعم المقدم بدون حذر لانقلاب « دفعت ثمنه الأمبريالية الاميركية » . وقد أصيب رجال الشرطة بدهشة حقيقية حين علموا إلى أين طار العصفور ، لكن زوجة عثمان ، الضابط الحر ، كانت حصينة لأئمس .

وقد انتقموا لأنفسهم على شخص شريف حتاته ، الذي وقع في الاعتقال قبل أيام من سفر ديدار ووُضع في السجن الانفرادي . أكد له رجال الشرطة أن ديدار هي التي سلّمتهم إياه ، وكانت المظاهر تشهد لصالحهم : « هل تعتقد أننا كنا تركناها تسافر إلى موسكو ولم تعطنا رهنًا ؟ كنت أنت الثمن المدفوع لقاء جواز سفرها الدبلوماسي . » وقد بقي شريف تحت التعذيب لمدة شهرين ، وكان يعاد بين جلستين إلى زنزانه وهو مقيد اليدين والرجلين ، ويقضي حاجته تحته ؛ وقد صارع الجنون باذلاً جهده كي يتذكر أغاني ايف مونتان التي سمعها مع ديدار في مسرح الايتوال ، والتي اشترى اسطوانتها . كان يرفض تصديق رواية الخيانة ، وثابر على

ذلك حتى حين اجتهد رفيق له صادق كي يقنعه بها . لكن الشك ، مهما يكن عابراً ، كان
أسوأ من التعذيب .

أثار الاتحاد السوفياتي حماس ديدار ، لكن موسكو كانت تضجرتها كثيراً ، إذ كانت
تخلخص بالنسبة إليها بالطوقوس الاجتماعية للغيثو الدبلوماسي . لم تكن العودة إلى عثمان
نجاحاً باهراً ، لا سيما أن تقديره للاشتراكية بقي متحفظاً ، لا بل كان يزعم حتى انه يلتقي
شيوعيين سوفياتاً ينتقدون ذكرى ستالين المتوفى قبل عام . فتصيح ديدار في وجهه : « أنت لا
ترى غير مجانين ! » كانت قد بكّت لدى وفاة ستالين . وجاءت نوبات الربو لابتها الصغرى
تتشكل أكثر من حجة للانفصال : كان من الضروري حقاً أن تغير الطفلة مناخاً . وقد افلتت
ديدار حقائبها وهي منشحة الصدر .

وضعت بنتها في مدرسة داخلية في فانس ، واستقرت في باريس في أيار 1954 للعمل
هناك مع هنري كورييل .

كانت أياماً طويلة مضجرة تقضيها في كتابة تحليلات ، وتقارير ، وفي دفع بيانات
وكراسات للطباعة . اجتماعات للمصريين . إحساس بالمرارة لأن ح د ت و كانت على حق
في تموز 1952 ضد مجمل الحركة الشيوعية العالمية . قلق لرؤية هذه الأخيرة بالذات تنعطف
بصورة كاملة وتضفي على النظام الناصري كل الفضائل الاشتراكية التي لم يكن يملكها ، الى
حد أن كورييل وأصدقاءه باتوا يتعرضون للنقد لافتقادهم الحماس . قلق ضمني لدى ملاحظة
أن الهوة تتوسع بين جماعة الداخل وجماعة الخارج ، وأن المنفيين - قصة قديمة - باتوا أقل فأقل
قدرة على إيجاد لغة مشتركة مع المناضلين الباقين في البلد . وعذاب دائم بسبب الألف رفيق
المحتجزين في معسكرات الاعتقال .

كانت أياماً لا تُنسى بالنسبة لديدار . فلقد اكتشفت شخصاً كان مجهولاً بالنسبة إليها .
كان هنري يلقي لها على امتداد ساعات شعراً لفيلكتور هوغو وآراغون ، شاعريه المفضلين .
وكان يغني بصوته المبحوح الأغنيات الثلاث التي يعرفها . كان يجعلها تقرأ ويعلق معها على
قراآتها . تقول ديدار : « أعتقد أنه ما كان أمكنه الاهتمام بامرأة أكبر سناً منه لأنه ما كان
حصل لإسهام من جانبه . كان بحاجة إلى عجيبة يشتغلها » .

وصلت جويس بلو في كانون الأول 1953 . كانت في الواحدة والعشرين من عمرها ،
شعراء وجميلة ، ولم تكن خبيثة آنذاك . ومع انها كانت من عائلة متواضعة فقد تبعت المسار
الكلاسيكي لشابة يهودية قاهرية ، ما عدا انها انتقلت من مدرسة الاخوات الفرنسية إلى دير
انكليزي حيث درست أربع سنوات . كانت قد التحقت بالايسكرام عام 1947 في نهاية

محاضرات سياسية كان يعطيها يوم السبت أساتذة ماركسيون في اليسيه الفرنسي . وقد حملوا اليها بوجه خاص كشفهم عدم وجود الله ، وهو الأمر الذي تلقته باهتزاز عميق على طريقة كلوديل . احتجزها أهلها خلال حرب فلسطين ، وحدثت بعدئذ من نشاطاتها السياسية ، بالاتفاق مع خطيها ، قاصرة إياها على سماع إذاعة موسكو : « كنا نستمع لبرامجها باللغة الفرنسية ، تقول ديدار ، كما لو كنا نحضر قداساً » . ولما كانت تعمل على الآلة الكاتبة المخترلة في مؤسسة استيراد وتصدير ، فلقد كان أجراها الهزيل يؤمن كيفما اتفق معيشتها ومعيشة أهلها في حدود الكفاف . وكانت تشعر بالكثير من الاحباط لأنها لم تذهب إلى الجامعة ، وتعلم بأن تصبح غنية . وقد قال لها خطيها في باريس : « سوف تلتقين شخصاً عظيماً الأهمية ينبغي ألا تتحدثي عنه لأحد . إنه هنري كورييل » . فهتفت جويس : « ماذا ؟ الصهيوني ؟ » فصفعها خطيها ، وهجمت هي عليه ، فسقط أرضاً . عند ذلك ، دخل كورييل إلى الغرفة ، وبعد أن استعلم عن الأمر ، قابل نعت « الصهيوني » دون انفعال ولفت النظر إلى أنه لا يبرر بأي من الأحوال ضرب فتاة في مقتبل العمر . في اليوم التالي ، التقى جويس في مقهى قريب من الأوديون . وقد وجدته مؤثراً بقامته الطويلة كيوم الجوع ، وقميصه الرياضي الرث ، وسعاله المثير للراء ، لكن في الأخير كان سيداً عجوزاً في الأربعين من عمره . سألتها لماذا هي شيوعية ، فأجابت : « لأنني لا أحب الحرب » وهو ما كان اجاب به آنذاك الكثير من الشيوعيين . فقال كورييل مؤيداً : « جواب ممتاز » ثم اقترح عليها القيام بنزهة ومضى بها الى نهر السين المحبوب . وقد حصلت جويس على شرح تاريخي بصدد شارعي بوشي ومازارين ، وشرح مفصل لجسر الفنون وزيارة بصحبة دليل لمتحف اللوفر : لقد أعجبته . سألتها هنري تحت ابراج نوتردام إذا كانت تقبل أن تؤمن الاتصال ، لدى عودتها الى مصر ، بين الشيوعيين المنفيين وشيوعبي الداخل .

أبحرت من مرسيليا في كانون الثاني 1954 على متن سفينة يونانية كانت الدرجة الثالثة فيها رخيصة . وكانت علبة الشوكولا التي كُلفت بتسليمها لرفيق في القاهرة تحتوي على تقارير وتحليلات وبيانات مدقوقة على حرير الستنسل ، موضوعة تحت قطع الحلوى . في منتصف الطريق ، سلمها موظف الارسال في السفينة برقية تأمرها بأكل الشوكولاتة . وقد وجدت اللفة رائعة لكنها لم تكن تحب الشوكولاتة ، وسلمت العلبة للمرسله إليه كما لو أن شيئاً لم يحدث . وقد ابلغوها فيما بعد أن تحذيراً جدياً كان يدعو لتوقع الأسوأ . وكانت عبارة « كلي الشوكولاتة » تعني بالطبع : « إرمي العلبة في البحر » . فهتفت : « بشرفي ، لم أفهم ! » وقد وبخها هنري كورييل بقساوة ، لكن براءة بتلك الندرة لم تحبطه . كان على حق فجويس كانت قابلة للكمال .

وقد أثبتت ذلك في غضون أسابيع ، حيث نظمت بصورة ممتازة نظاماً جديداً للاتصال وغمرت فريق باريس بنهر من التقارير المكتوبة بالحبر السري . وأرسلوا لها خطيبها على وجه السرعة ، بمثابة تعزيز وعون . فنزل إلى الياسة وهو يقول برصانة : « من الآن وصاعداً ، أنا أفكر وأنت تعملين » . فتخاصما ، وحسمت الشرطة الخلاف بتوقيفها . جرى إرسال الخطيب إلى المعسكر (حيث سيفكر خلال سنوات ثمان) ، بينما زُجَّ بجويس في سجن القلعة .

تقول جويس : « لقد التقيت مصر للمرة الأولى في السجن . لم أكن أتكلم العربية ولا كنت أعاشر مسلمين . اكتشفت ما يمكن أن يكون البؤس بالتكلم مع مساجين عاديين . كان ذلك أمراً لا يُصدَّق » . وقد اكتشفت أيضاً ما كان يسميه الأكبر منها : « الحنان المصري » : « كان المدير يحار كيف يمكن أن يسرُّني . وحين أصبت باليرقان ، جاء يلزمني في غرفة التمريض . وكان الطبيب رائعاً . كنت أشعر بأني محاطة بالتقدير والود »

لكن الأيام تبدلت . حتى إذا لم تكن السجينة تشعر بذلك ، فلقد كان الموت يجول حول زينانتها . كان قد جرى اكتشاف شبكة تجسس اسرائيلية حقيقية في القاهرة . وقد انتحر قناثدها ، وجرى فيما بعد شق اثنين من أعضائها . وعبد الناصر الذي كان يضرب في كل الاتجاهات ، كان قد ساق إلى المشنقة ستة إخوان مسلمين ، معتمرين قلنسوة حمراء ، ومرتدين قمصان نوم سوداء ، حفاة ، ومقيدي اليدين ، أدينوا في نهاية محاكمة مثيرة للرناء . وفي باريس ، كان المصريون يرتحفون خوفاً على جويس . لم يكن في وسعهم أن يعرفوا أن الشابة ، فيما هي ذاهبة إلى عند الرفاق ، حذرها البواب من وجود الشرطة ، فعادت سريعاً إلى بيتها وأتلفت كل الوثائق الخطرة ، بحيث بقي ملفها فارغاً . وقد أرسلوا المحامي جاك ميرسييه للدفاع عنها . فاستقبلته بدهشة وإعجاب : « لا يمكنك تصور الهيبة التي كانت تمتلكها بفرنسا . فالفرنسي كان إلهاً ، وها هم يرسلون إليّ محامياً باريسياً كبيراً ، أنا عاملة الستينودكتيلو الصغيرة ! وكان جميلاً ، جميلاً ! . . . كنت مذهولة . أدخل أصابعه عبر قضبان الحديد ولمست يده : كان ذلك رائعاً » . (يا لجناك المسكين ، لقد مات في السنة الماضية ، ولو عرف أن طلعتة الجميلة المخددة أثرت في نفس السجينة الصغيرة لكان ذلك سره . شخص رائع ، حسب تعبير جويس . كان في السابق مظلماً في قوات فرنسا الحرة ، ثم محامياً صدامياً ، مستعداً على الدوام لأن يمضي ويتراجع أمام واحدة من تلك المحاكم - المسالخ التي لم يكن يتوقع المدافع أن يحصل لدى خروجه من جلساتها على مقابل غير لينة في القفا ، لا بل رصاصة غفلة في الظهر . كان ديغولياً يسارياً ، أي واحداً يتأكد المرء من أنه سيتواجد معه يوماً وراء المتراس ذاته . كان يكره الهدوء السطحي . وحين كان يطلب مني أن أمر بمكتبه ، كنت أجده يشحُم مسدسه الضخم ، الكولت 45 ، وكانت تلك طريقة في الإشارة إلى أنه لا يزال على استعداد للهجوم .

كان ذلك الجانب الشقي فيه . وفي القاهرة ، استضافه الزوجان لاكوتور ، المراسلان الصحفيان ؛ وفي النهاية تشارك مع الأستاذ هنري نوغير ، القاضي المتغطرس لابن العمه فايل - كوريل : العالم صغير .)

جرى اطلاق سراح جويس بسبب الافتقار للاثباتات ، وهو أمر يشرف العدالة المصرية . ساقوها إلى إحدى مفوضيات الشرطة كي تنتظر فيها قرار الطرد . كانت الحجرة تعج ببنات وردان . وبما أن ذلك أزعجها ، فقد حصلت على الأذن بالعودة إلى سجن القلعة . وقد استقبلها المدير بالبسمة المفروغ منها المدير فندق كبير يعي تفوق مؤسسته على المؤسسات المنافسة . بعد ذلك بفترة قصيرة ، أوصلتها الشرطة إلى سفينة متجهة إلى فرنسا . وقد جاء جوزف هازان يستقبلها في محطة ليون . أما هنري كوريل فرفع ذراعيه إلى السماء بدل أن يفتحها لها ، وتأملها غير مصدق وتتم ، وجهه متشجج : « لكن ما الذي حصل ؟ هذا مستحيل ! » إن جويس ، التي كانت تتختم نفسها بالطيبات ، ولا سيما بساندويشات الموز التي طالما أحببتها بشغف ، زاد وزنها خمسة عشر كلغ . والحال أن المصريين كانوا قد خططوا لتقديمها إلى الصحافة الفرنسية على انها الشهادة الحية على العذاب الشديد الذي يعاني منه السجناء السياسيون في مصر . لقد فشل المشروع .

سألها هنري : « ما تنوين فعله ؟ » كان النضال أمراً بديهاً . وكانت جويس تتمنى دراسة الكيمياء ، وترى نفسها قادرة على أن تكون يوماً كماري كوري . فقال مرشدها : « هذا يستلزم وقتاً طويلاً . يجب أن تجدي عملاً نصف دوام ، وتتعلمي العربية ، وتناضلي في ما يبقى من الوقت » . كان اليوم العادي بالنسبة إليه يتألف من 16 إلى 18 ساعة نشاطات مهنية ونضالية . هكذا دخلت جويس حياة مجنونة ، ومثيرة للشغف لكن منهكة ، سوف تقطعها رصاصات القتلة بعد 23 عاماً . ستخرج حائزة دبلوماً من مدرسة اللغات الشرقية في باريس ، وتحصل من بروكسيل على دبلوم في اللسنية بالفارسية والكردية ، وتعود إلى باريس لأجل حلقة دراسات ثالثة . أول مرة تلفظ هنري كوريل أمامها بكلمة « كردي » ، كانت تجهل ما يعنيه ذلك . وعاملة الستينودكتيلو الصغيرة القاهرية تُعلم اليوم الكردية في مدرسة اللغات الشرقية وتُعدّ بين الاختصاصيين العالميين النادرين في أمة يجري حجبها . وقد طُردت شقيقتها سارة من مصر عام 1960 . كانت مصابة بداء السكري ، في الدرجة الأخيرة ، وقد وضعوها في الطائرة كي تمضي وتموت في فرنسا . كان عمرها 25 عاماً . وقد نصحتها هنري بالانصراف إلى الدراسة . فحصلت على إجازة بالكيمياء ، ثم على الجدارة ، وأخيراً على دكتوراه دولة . والأكثر إثارة للعجب أن هنري كوريل رافقها بدقة في دراستها ، مساعداً إياها حتى في كتابة أطروحة الدكتوراه الخاصة بها : وهي رشاقة فكرية مذهلة أبداها أيضاً راوول كوريل الذي

كُرس ، في السبعين من عمره ، تقاعده النصفى كعالم آثار لدراسة البيوكيمياء . . . وديدار روسانو ، الحائزة شهادة بروفية مصرية حلقة أولى (BEPC) ، سوف تحصل على دكتوراه دولة في التاريخ بعد دخولها اللغات الشرقية .

صحيح أن نوعاً من الورع كان يحيط بكورييل . لم يكن يثير فقط حنق خصومه . لكن إذا كان القريبون منه يؤمنون به إلى هذا الحد ، فلأنهم تلقوا منه الكثير الكثير . كانوا يناضلون معاً لتغيير الحياة ؛ وفي الطريق ، كان يغير حياتهم . كم من المناضلين تركوا حزبهم ، ربما دون أسف على الوقت المضى به ، لكن مع الشعور بأنهم أفقروا شخصيتهم ، وبددوا فرصاً عائلية أو مهنية ، ويُسوا في ذاتهم كل ما لم يكن مفيداً للحياة النضالية ؟ أما هنري كورييل فلم يكن يفهم النضال السياسي على أنه بَضْعُ (أو تشويه) . كان يصر على انه لا يمكن أن يعطي المرء الآخرين إلا ما يملكه . وكان تفتح شخصية المناضل مفيداً للثورة . كان قدر أكبر من الثقافة يجعله أكثر فعالية . تقول جويس بصورة مضحكة : « لقد دَفَعْنَا جميعاً إلى الدراسة » . وطويلة هي لائحة اللواتي والذين اكتشفوا ، بفضلهم ، أن لديهم طاقات كامنة لم يكن أحد يشبهه بوجودها . والقاعدة الوحيدة كانت أن النضالية لأجل الغير لا ينبغي أن تتأثر سلباً بالاهتمامات الشخصية بإغناء الذات . لقد استحسنت ديدار روسانو ، التي لم تكن حتى حائزة البكالوريا ، على « عطلة نضالية » لمدة شهرين من أجل أن تهيء امتحان الدخول للغات الشرقية وتنجح فيه . وقد كرست نفسها لذلك ، قرب انتهائها في فانس . وفي كل يوم كانت تتلقى رسالة من هنري تحفز طاقتها . واجتازت جويس المرحلة الجامعية في زوبعة من النشاطات السياسية التي كانت كافية لانهاك أكثر من واحدة . تقول ديدار : « كان يريد أن نتقدم دائماً ، ونكسب الكمال . وكان ذلك منهكاً » . والكثيرون سوف يتخلون عنه مضيقين على القطيعة حجباً أيديولوجية أو سياسية : كانوا مرهقين فقط ، تستنفدهم الطاقة الهائلة المنبثقة من ذلك الرجل سريع العطب ، غير قادرين على الاستجابة أكثر لضربات المستحثة . تقول جويس التي كانت تشعر نحوه بشغف كلي ، لا ظلال فيه : « عشت في قلق ألا أكون جيدة كفاية ، ألا أفعل ما فيه الكفاية . وحين قتلوه ، كانت تلك بالنسبة لي نهاية توتر لكل اللحظات » .

✱

✱ ✱

بعد مرور ثلاثة عقود ، يبدو الغضب المجنون الذي أثاره تأميم القناة عام 1956 غير مفهوم . كان رأي الحقوقيين أن قرار الحكومة المصرية فيه شيء من الفروسية ، لكنهم لاحظوا

أن استغلال القناة المائية كان سيعود إلى مصر عام 1968 وفقاً لاتفاقات 1854 و 1856 ، وأن عبد الناصر عرض تعويضاً عادلاً على أصحاب أسهم الشركة . كانت حرية العبور مضمونة لكل السفن ، باستثناء السفن الاسرائيلية (لم تحرم بريطانيا العظمى نفسها خلال الحربين العالميتين من حظر القناة على السفن الالمانية) . كان يمكن الوصول بسهولة إلى اتفاق مقبول لو لم يأخذ الهوى كل شيء في طريقه .

لقد لجأ عبد الناصر إلى التأميم كي ينتقم من إهانة غربية . فبعد أن كان الأميركيون وعدوه بالقروض الضرورية لبناء سد أسوان ، حجبوها عنه ضمن شروط تنطوي على الازدلال . كان ذلك يعني التلاعب بصورة خطيرة بأعصاب أمة متعطشة إلى الكرامة لأنها تعرضت للاهانة مدة طويلة من الزمن . ولقد وجدت الجماهير المصرية الهائجة الرد رائعاً . سوف تفيد القناة ، رمز الامبريالية الأجنبية ، في تمويل إقامة سد على النيل ، الذي هو مصر .

كان الجنترلمانات المحافظون الموجودون في السلطة في لندن يصفون حسابات قديمة جداً . فلا يمكن الاتيان باليونيون جاك إلى عشرين إقليماً في عشر سنوات دون الشعور بحكة هجوم انتقامي . كانت القناة ، الطريق السابقة المقدسة للامبراطورية ، المكان الصالح لتوجيه صفة إلىها . ولمزيد من الوضوح ، كانت لندن قد عانت من نكسات متتالية في الشرق الأوسط (من بينها فشل حلف بغداد) وكانت تلقي مسؤولية ذلك على القادة المصريين . فبالنسبة لايدن ، رئيس الوزراء ، كانت العودة إلى الوضع السابق تمر بإزاحة عبد الناصر . لكن المحافظين كانوا الوحيدين الذين أرادوا القتال . فالمعارضة العمالية ، والصحافة والقسم الأكبر من الرأي العام اعتبروا العملية « غير أخلاقية ومجنونة » .

كانت فرنسا تأمل أن تريح في القاهرة حرباً تخسرها في الجزائر . و« التمرد » كان مستمراً منذ عامين ولم يكن أحد يرى نهايته . ولم يغير إرسال الفرقة العسكرية إلى الجزائر شيئاً : كانت المطرقة الآلية الحربية تعرض نفسها للسخرية لأنها تعجز عن إصابة الذبابة المتمردة . والحرب تتسخ كلما حدثت الاعتدالات الارهابية ، وأعمال الانتقام العمياء ، وأعمال التعذيب . وفي كانون الثاني 1956 ، أدى وصول الاشتراكيين إلى السلطة ، - وكان تم انتخابهم بناء على وعد بإعادة السلام - إلى مضاعفة الجهد العسكري . لا شك إن مبعوثين غير رسميين كجورج غورس ، ممثل فرنسا الحرة سابقاً في مصر ، كانوا يحاولون بدء الحوار مع القادة الجزائريين ، لكن انصار امتحان القوة كانوا متفوقين إلى حد بعيد على القائلين بحل متفاوض عليه . كانت فرنسا مصابة بالعصاب ، ناثرة بسبب عجزها ، تفتش عن حارفي لاجباطاتها . وقد كان عبد الناصر كبش فداها . كان يدعم حرب الاستقلال بصراحة ، وكانت الحكومة الجزائرية المؤقتة قد اقامت مراكزها في القاهرة . . وكانت البحرية الفرنسية فتشت للتو أتوس 2 ، سفينة القرصنة

التي كانت تنقل لحساب « المتمردين » سبعين طناً من الأسلحة المشحونة من الاسكندرية . وفي 22 تشرين الأول ، ألهم الطبقة السياسية والرأي العام إلقاء القبض الأحق على بن بلا وأربعة قياديين جزائريين آخرين ، الذين جرى خطفهم فيما هم على متن طائرة مراكشية اعترضتها المطاردات الفرنسية في الجو . كان ممسوكاً بالطرف المناسب ، ويكفي توجيه الضربة من أجل الكسب . وقد أدى تأميم القناة إلى الارتفاع باستنكار ممزوج لدى الكثيرين بالابتهاج إلى الدروة . كانت مصر ، القاعدة الخلفية لـ « التمرد » ودعامته الفضلى على الصعيد الدبلوماسي ، على وشك أن تعاني من ضربات السلاح الفرنسي . وكانت حُطِّب هستيرية تلقى من على منابر مجلس النواب ، واصفة عبد الناصر بـ « هتلر الجديد » وبـ « العدو العام رقم واحد » و « الرجل الذي ينبغي تصفيته » . . . وفي حين كانت مؤتمرات سرية تخطط لعملية مشتركة فرنسية - بريطانية بالتنسيق مع هجوم اسرائيلي ، كان الرأي العام ، المستثار لأقصى الدرجات ، يتهيأ لتنفيذ حكم الاعدام .

إن النمو المتصاعد للهلوسة الجماعية أروعب المنفيين المصريين . كان مسقط الرأس والوطن المختار مرتبطين بصورة وثيقة إلى حد أن الاضطراب للاختيار بين مصر وفرنسا كان أمراً يشبه الكابوس . لم تكن حرب الجزائر تعنيهم . وحتى إذا كانوا يعتبرونها جميعهم جائزة ومجنونة ، فما من أحد منهم تدخل فيها بصورة من الصور . لكنهم لم يكونوا يفهمون بأي نوع من الضلال كان يمكن الشعب الفرنسي الأمل بالانتصار في الجزائر عن طريق سحق القاهرة . كانوا يعرفون أن عبد الناصر يستند إلى دعم الشعب المصري ، ولم يكونوا يصدقون أن الحكومة الفرنسية قد تخاطر بقطع الألف رباط التي كانت تجمع بين مصر وفرنسا ، من أجل إرضاء هزيل لحب الذات . كان الرهان مهماً ، على الصعيد المادي . فأربعمئة مليار فرنك من الاستثمارات و 15 شركة كبرى تعمل في مصر كانت تعطي فرنسا هيمنة اقتصادية لا جدال فيها . وعلى المستوى الروحي والأدبي ، ستكون الكارثة بمقاس المواقع المكتسبة منذ قرون . وكان مئة وخمسون ألف شاب مصري يدرسون في مدارس فرنسية ، وكانت انتليجنسيا ضفاف النيل تتغذى من الثقافة الناشئة على ضفاف السين . هل سيؤدي عمى بعض المتبجحين إلى الاجهاز على كل ذلك ؟

تعباً المنفيون بنشاط معادل للشغف الذي كانوا يحسون به حيال وطنيهم . وقد جعلهم الخطر ينسون الخصومات القديمة ، وبدا الإخوة الأعداء يصارعون يداً بيد كي يحولوا دون حصول مالا يمكن علاجه . أرسل هنري كورييل ديدار روسانو إلى انكلترا على وجه السرعة ، حيث التقت فينر بروكواي ، رئيس الحركة لأجل حرية المستعمرات ، وتوصلت حتى للقاء نهرو ، الذي كان يزور لندن ، من أجل التوسل إليه كي يتدخل ؛ وجرى تقديم الالتماس

ذاته لتتو عن طريق التراسل . وفي باريس ، كان المصريون يضاعفون الاتصالات بالمسؤولين الاشتراكيين الفرنسيين محاولين بذلك أن يفتحوا لهم أعينهم . ولقد كانت خيبة الأمل على قدر الأمل . فاهستيريا المعادية للناصرية أصابت حتى الصحفيين اليساريين . وتحفظ ديدار بذكرى مشادات ملحمة مع واحد كجيل مارتينييه مستعد للاشتراك في حملة صليبية . حتى « العادلون » كانوا يستسلمون . تلك هي حال جول روا ، الذي سيأخذ بعد سنوات مواقف شجاعة ضد حرب الجزائر ، وألبير كامو ، الذي من الرائج اليوم امتداح حزمه وبعد نظره . كان البائسان في حانة صباح الهجوم الفرنسي - البريطاني ، وكانوا يحتفلون بالنبا السعيد بشرب الويسكي : « كانت حرب السويس تخلصها . لم يعد ثمة مجال للاختيار ، فالاحداث هي التي كانت تقرر ، والانتصار يسوي كل شيء . وفي القاهرة حيث كانت الدبابات على وشك الدخول ، قد يتم قطاف زهرة التمرد الجزائري في الفنادق الفخمة . كانت المطالب المجنونة هؤلاء السادة والتوسوس بصدد العدالة تأخذ أحجامها الحقيقية . وتحمل مظاهرة القوة في المتوسط محل الحقوق : لم تفرض روما الحضارة بطريقة أخرى⁽¹⁾ » . روا ! كامو ! (كنت بائساً صغيراً ، أخدم في فوج للمظليين قادتني إليه ، بين عوامل أخرى ، الذكرى التي لا تُنسى لأمثال جاك ميرسييه ، أبطال التحرير . . . قبول الاعلان بأنه لم يتم اختيار الفوج للانقضاض على السويس بشعور الاحباط . لكن نبأ رائعاً أنعش الحماس : ردّاً على الضغط الوقح الذي مارسه الأميركيون والسوفييات لفرض وقف للنار على امتداد القناة ، أعلنت فرنسا الحرب عليهم . وقد كان التكلذب قاسياً بالنسبة إلينا . كان عمري عشرين عاماً ولن أدع أحداً يقول إن هذا هو العمر الأذكي في الحياة .)

حتى اللحظة الأخيرة ، استخدم مصريو باريس كل الأساليب المتاحة . كان يجاور آل اسطمبولي في فانف وزير الخارجية كريستيان بينو . وقد قامت بالرحلة خصيصاً ، السيدة روسو ، مديرة الصفوف الدنيا في الليسيه الفرنسي بالقاهرة ، وتمكن رمون اسطمبولي من ان يستحصل لها على مقابلة مع بينو . كانت في القاهرة شخصية قادرة على الدخول في كل الأوساط ، تلقى الاحترام لإخلاصها . حيث أنها عرفت ثلاثة أجيال من المصريين على الثقافة الفرنسية . وقد ارتمت المسكنة عند قدمي الوزير متوسلة إليه كي يمنع الجريمة الثقافية التي تنجم عن نزاع فرنسي - مصري . فبادرها الامبريالي - الاشتراكي بينو بحركة حاسمة ، قائلاً لها : « فات الأوان : لقد قضي الأمر ! » كان يتصور نفسه قيصر : في الواقع كان قيصر الذي صورّه بانول .

(1) جول روا ، La saison des za ، غراسيه ، ص 175 .

بما أنه كان يجب الاختيار في النهاية ، فقد اختار هنري كوربيل مصر .

كان على اتصال مستمر بخالد محيي الدين ، المنفي الى سويسرا بعد محاولته الانقلابية لصغيرة الفاشلة ضد عبد الناصر . كان يجتاز الحدود السويسرية مرة كل شهر ، بصحبة ديدار ، كي يلتقيه في جنيف . كانت اوراقه المزورة من صنع روزيت ، التي حققت تقدماً متواصلاً منذ محاولتها الأولى على جواز السفر النمساوي . وقد اتفق ان التقياً عند روجيه فايان ، في ميونا Meillonas. كان محيي الدين واعياً بمقدار رعونته لكنه كان يجتر باسمرار حقداً شديداً على عبد الناصر . وقد بذل كوربيل جهده لاقتناعه بضرورة تلب الصفحة : كانت سياسة عبد الناصر الخارجية تستحق دعم التقدميين حتى إذا كانت سياسته الداخلية تبرز انتقاداتهم . وانتهى خالد محيي الدين الى كتابة رسالة لعبد الناصر يقترح عليه المصالحة . وقد تلقى الأمان وعاد الى القاهرة . وكانت صلة مضمونة تؤمن الاتصال بهنري كوربيل .

من النافل ، بلا ريب ، أن ندخل في تفاصيل الطرق والوسائل التي حاول كوربيل بواسطتها على الخطة العامة للحملة الفرنسية - البريطانية . ولم يكن هذا خيالياً ، حيث ان المعلومات بهذا الصدد لم تكن تستقر في قعر صندوق مصفح بل كانت متداولة في كل باريس السياسية لشدة ما كان يسود اليقين بالقدرة على ابتلاع الجيش المصري بسهولة بالغة . (لم يكن الشبان ، حتى الحمقى ، المعدون للارتقاء فوق الأرض المصرية وعلى ظهرهم رزمة من الحرير ، لم يكونوا يستحقون معاملتهم بخفة جانبية الى هذا الحد . . .) وسوف يبقى الكتمان يحيط بالواسطة ، غير المهمة في كل حال ، التي أتاحت إيصال الخطط الى محيي الدين .

يتذكر هذا الأخير ان « الفكرة العامة كانت موجودة فيها . فلنقل ان 90% من العملية كانت مكشوفة ، الأمر الذي كان يسهل اعادة تكوين العشرة بالمئة الباقية . كانت الخطة الاجمالية ذكية : هجوم اسرائيلي لاجتذاب الجيش المصري الى سيناء ، ثم قصف كثيف لقواعدنا الجوية ، وإنزال بحري للقوات الفرنسية - البريطانية شرقي بور سعيد لعزل القوات المصرية وأخذها بين فكّي كماشة مع الاسرائيليين . وكانت الفكرة الاساسية هي تحاشي الاحتكاك بالسكان قدر الامكان .

« تلقيت الخطط قبل عشرين يوماً تقريباً من بدء الهجوم ، وقد أطلعت عبد الناصر عليها . تفحصناها بأكبر قدر من العناية . فلم يصدّقها ، ولا هيئة الأركان صدّقت هي الأخرى . كانت العملية تبدو حمقاء بالكامل لأنها كانت تستند الى إرادة ضمان حرية الملاحة الدولية في القناة ، بينما كانت نتيجتها الأكثر وضوحاً إيقاف كل ملاحه . فلقد اغرقنا في الواقع اربعين سفينة تقريباً في القناة منذ الساعات الأولى للهجوم . واعترف عبد الناصر فيها بعد في

اخطاب علي أنه كان على علم تام بالهجوم لكنه لم يصدّق المعلومات التي وصلته . وبالطبع ، كنت قد أخبرته كيف حصلنا على الخطط ، وحدثه عن هنري ، وعن وطنيته ، والظلم الملازم لطرده . وكان جمال موافقاً على عودته الى البلاد .

كان قد دار في خلد هنري كورييل العودة مع الحملة العسكرية الفرنسية - البريطانية . وهو مشروع مجنون ، في حدود الشذوذ ، لكنه يعطي صورة عن مبلغ عشقه لمصر . لم يكن يتحمل الانفصال عنها ، وكان يكرس لها كل ساعة من حياته ، وكل فكره . وقد كتبت إليه ديدار روسانو ، التي عادت الى القاهرة قبل أسابيع ، أن سجناء شيوعيين استطاعت إقامة اتصال بهم يطلبون عودته لانتهاء الخصومات وتصفية قضية ماري ، فقرر السفر بأوراق مزورة ، وببطاقة صحافة مزيفة ، مختلطاً ببراسلي الحرب الحازنين بقبول هيئة الأركان ؛ وكان صديق صحفي يزعم أنه يمكن لعب هذه اللعبة . وقد قام طبيب بتركيب طاقم اسنان له يغير هيئته بصورة ملائمة ، وبدّل سحنه شخص محترف . واعتبر القرييون منه انه لا تسهل معرفته ، لكن فيما كان ماراً في جادة جورج الخامس على قدميه ، فوجيء بأن أحد المشاة المتحمسين يناديه من الرصيف الآخر . كان احد زملاء الدراسة في معهد الفجالة . وكان مر عليها عشرون عاماً لم يريا خلالها أحدهما الآخر . وقد أشاع ذلك الحرج . ووافق الأقربون على انه إذا أمكن تغيير ملامح وجه هنري ، فإن قامته الطويلة المقببة وطريقة سيره الخاصة جداً سوف تخونانه دائماً . إلا أنه اصر على قرار السفر وتقديم حاملاً حقيقته في الموعد المحدد . وبدل الصحفي المتواطىء معه ، وجد كل اصدقائه المصريين ، الذين عبّروا عن رأيهم بصراحة قاسية : « هذا عمل مغامر . سوف تقتل نفسك ، إذا كنت ستسافر ، فاعلم بأن ذلك دون موافقتنا » . وقد تراجع هنري عن قراره ملتزماً بانضباط المناضل ، لكنه وقع مريضاً من الاحباط .

ظل لوقت طويل مقتنعاً بإمكانية عودة شرعية . فيها هو وطني مصري ، كان قد فضل بلد الولادة على الوطن المختار ، لكنه مثله مثل اصدقائه لم يشعر يوماً بأنه يخون الوطن الثاني . وقد قدّم معهم البرهان على ذلك غداة العودة المهينة للقوات الفرنسية - البريطانية . كانت حملة السويس جنوناً غير مفهوم ، وطعنة سيف في حبكة صداقة دهرية : كان ينبغي رتق مرقها الآن من جديد .

ثروت عكاشة ضابط حرقديم ، يحمل دكتوراه دولة من جامعة باريس ، وكان مسؤولاً في إحدى الفترات عن المخابرات المصرية ، ووزيراً سابقاً للثقافة ، وسفيراً لمصر في عدة عواصم ، وهو يسكن اليوم فيلا فخمة بعيداً عن ضجيج القاهرة . ما أن يفتح الباب الخادم المدرب حتى تعيد الموسيقى الراجعة لاحدى سمفونيات بيتهوفن الزائر المطلع الى الساعات

الحاسمة لانقلاب عام 1952. فلقد جرى اتخاذ القرار التاريخي في بيت عكاشة المولع بالموسيقى . كتب فيما بعد : « في العاشر من تموز ، جاءني جمال وخالد محيي الدين وطلبا مني ، كما كان يحصل في الغالب ، أن أسمعها «شهرزاد» لريمسكي كورساكوف . وسرعان ما راحت السمفونية تظهر مفاتها . كان جمال يصغي وعيناه حالمتان ، وأذناه مرهفتان . عند النوتة الأخيرة ، نهض وأوقف البيك - آب ، وأعلن فجأة : « سوف نتصرف في بداية الشهر القادم » .

أطفأ ثروت عكاشة ، المميز والودود ، الذي يشبه يونسكو بصورة مدهشة ، والمتفرس بالأعمال ، أطفأ البيك - آب ، وحدثني عن هنري كورييل - « ذلك الجنتلمان » : « لقد نذر حياته لقضية لم تكن قضيتي لكنت اكن له الاحترام والاعجاب . كان كائناً يضحي بنفسه كلياً . ولقد وقع ضحية هجمات شيطانية . اني استنكر كلياً الصورة السلبية التي حاولوا إشاعتها عنه . غالباً ما كنت أقصده ، ولأجل مشكلات معقدة دائماً . في كل مرة ، كان يتصرف بحس إنساني نادر . كانت الشهامة والانسانية صفتيه الأولى . ومن الناحية السياسية ، كان رجلاً من طراز رفيع . وأنا اعتبر أن اضطرابه للحياة والفعل ضمن نطاق السرية كان مأساة حقيقية . لو تمكن من تكريس نفسه للأعمال ، لكان قدّم خدمات جُلَى . لكنه كان شيوعياً ولم يكن ذلك يفتح له مستقبلاً ملائماً جداً . وفي رأيي أنه كان شيوعياً رزيناً ورجلاً صادقاً على الدوام تجاه مصر . في كل مرة كنت أمر بباريس ، كنت استشيريه بصدد سياستنا الدولية . وقد أعطاني جملة من الأفكار النافعة التي لم تكن مماثلة للسوفيات بصورة منهجية . لو انه كان عميلاً لموسكو ، كما اتهموه عندكم ، ما كانت تولدت لديّ الرغبة او الحاجة لالتقائه . ينبغي معرفة ما هو العميل ، وأنا اعتقد اني أعرف ذلك قليلاً . هذا الجنتلمان كان رجل سياسة من طراز رفيع . انه مختلف جداً .

التقيته للمرة الأولى بعد مشكلة السويس ، حين كنت عضواً في المكتب التنفيذي للاونيسكو في باريس . كانت القطيعة مع فرنسا كلية ، ولم تكن لدينا أية اتصالات . وبفضل هنري كورييل تمكنت من الاقتراب من شخصيات مرموقة وإعادة الحوار . وأذكر هنا بيار كوت ، وموريس كوف دو مورفيل ، ولوي جيه ، ولوي جوكس . وقد بدأنا معاً سيرورة مصالحة نافعة لبلدنا . وكانت الخدمات التي قدمها هنري كورييل في ذلك الظرف عظيمة لدرجة اني ألححت على عبد الناصر لاعادة جنسيته المصرية اليه . وفي وسعي ان أوكد لك ان عبد الناصر كان موافقاً . وللأسف ، انه كانت هناك عوائق على مستوى المحيطين به ولم يحصل ذلك . وأنا أشعر بالأسف » .

ولأن كورييل لم يستطع العودة الى مصر ، استمر في العمل لصالح من كان يؤدّهم ان يخرجوا منها .

*

**

كان هناك الف سجين شيوعي يخضعون لنظام اعتقال يتراوح بين الجحيم والمطهر . وكانت سنوات الجحيم اكثر عدداً من السنوات التي كان الحنان المصري والتساهل خلالها يلطفان من مصير المحتجزين . تلك كانت حال اليرأرييه ، الذي أوقف في سن الثالثة والعشرين وحُكمت عليه بحكمة عرفية بثماني سنوات سجن (بقي عشر سنوات) . طالما ظل والده حيّاً ، أتاحت له عطايا سخية للحراس بأن يتلقى زيارات وطروداً وكتباً ؛ لا بل حصل على نقله من سجن طُره (للأشغال الشاقة) إلى سجن في القاهرة لأجل ترصيص إحدى أسنانه : دامت العملية أربع سنوات . ثم مات الوالد وأُخضع أرييه للمصير المشترك .

كان السجناء في طُره مصفّدي القدمين ليل نهار . وكانت الحرارة مضنية . كان لكل تقليب سياسي أثره ، الجيد أو الرديء ، على نظام السجن . فتورة موالية للسوفييات في العراق أو عداء الشيوعيين السوريين لعبد الناصر ، كانا يدفعان الأخير لتصليب موقفه حيال الاتحاد السوفياتي ؛ وكان يُظهر مزاجه السيئ بتقسية شروط الاعتقال . وفي طُره ، جرى تنظيم معسكر خاص من النموذج النازي داخل المعتقل . وقد احتج الحزب الشيوعي الفرنسي ، الذي كان دعمه للمعتقلين ثابتاً مع أن سياسة عبد الناصر الخارجية كانت تلقى تأييده ، احتجاج بشدة وكتبت لومانيته بحق : « ثمة أناس مهتدون بالموت في طُره ، الموتهاوزن* المصري . إنهم يتعرضون لعذاب مقالع الحجارة ، الذي تخيّل النازيون في موتهاوزن . كان السجناء السياسيون يسيرون كل صباح مسافة كيلو مترين ، والحديد في قدميهم ، تحت الشمس الحارقة . وفي المقلع ، على امتداد ثماني ساعات ، وفيما الشمس تحرقهم ، عليهم نقل كتل صخرية ثقيلة ، وضربات السياط تنهال عليهم ، محرومين من الطعام ، وحتى من قذح ماء » . لن ينسى أي من معتقلي طُره ابداً مقلع البازلت المشؤوم .

وقد حدث ما هو أسوأ . فقد أظهر اسماعيل صبري عبد الله خلال محاكمته آثار التعذيب الذي تحمّله بشجاعة مدهشة . وخرج روبي غرونسبان بعد عشر سنوات من

* معسكر اعتقال نازي (م)

السجن ، الذي دخله وهو في العشرين من العمر ، خرج وظهره مخطط بسبب الندوب الناجمة عن ضربات السوط . وكانت شيوعية في الستة والعشرين من العمر قد دخلت مصر سرّاً لتأمين اتصالات ، فجرى اعتقالها كما حصل لجويس بلو ، لكنها لم تسحب الرقم ذاته في اليانصيب الجزائي : عانت من أحد عشر عاماً من الاحتجاز القاسي الذي طبعها الى الأبد جسدياً ونفسياً . وفي سجن أبي زعبل ، كان يجري استقبال الواصلين بصف مزدوج من الحراس المسلحين بالهراوات . كان شهدي عطيه ، المثقف المرموق المتخرج من كامبريدج ، اول مصري ينضم للايسكرا ، ثم غدا قائد أول انشقاق بعد الوحدة ؛ وكان اصبح مجدداً أميناً لسر اللجنة المركزية في فترة توقيفه . وقد انهى عبوره بين « سياج الشرف » وهو يختلج ، فأوقفه الحراس عديمو الشفقة مجدداً على قدميه وفرضوا عليه عبوراً ثانياً . فتوفي تحت الضربات قبل أن يصل الى الطرف . اعلن طبيب المعسكر انه توفي بسبب ضربة شمس ، لكن الطبيب الشرعي المحلي كان شجاعاً ورفض المصادقة ، ثم وقّع تقريراً يخلص الى ان الوفاة نجمت عن التعذيب . فيما بعد ، كان عبد الناصر في زيارة رسمية الى يوغسلافيا ، فدعاه تيتو لحضور المؤتمر الشيوعي . وقد وقف مندوب يوغسلافي وسط الجلسة الاحتفالية وحيّ « ذكرى الرفيق شهدي ، الذي مات تحت التعذيب في مصر » . فأمر عبد الناصر بوقف أعمال العنف ضد السجناء .

كانت الطبيعة كافية لمعالجة آلام البشر . كان معسكر الخارجة* ، حيث مر كل الشيوعيين تقريباً ، وسط الصحراء الجنوبية ، القريبة من حدود السودان . يتذكر شريف حتاته فيقول : « النار واللهيب . كانت الحرارة ٤٧° في الظل » . ويكمل ألبير أرييه اللوحة : « كانت تهب علينا عواصف رمل رهيبية ، والعقارب ، والعناكب . . . كان الوضع قاسياً الى حد أن الضباط كانوا يُنقلون كل ثلاثة اشهر ، والجنود كل ستة أشهر . رأينا جنوداً ينهارون ، يصابون بالجنون » . وقد أراني رسوماً له أنجزها احد رفاقه في المعتقل . تعود الرسوم إلى ما قبل عشرين عاماً ، لكنه يبدو فيها اكبر سناً مما هو اليوم . وجه من الحجر المتكلس ، ونظرة قاسية لا يمكن تحملها ، التعبير ذاته عن القتالية اليائسة الذي كان يبدو على وجوه منفّي تلك الفترة .

« صمدنا بفضل التضامن العالمي ، لكن قبل كل شيء بفضل هنري كورييل . انا لم اكن اعرفه شخصياً . فلقد كنت منتسباً باستمرار لمجموعات تقف منه موقف المعارضة الشرسة . غداة الحكم عليّ من قبل المحكمة العسكرية كضابط ارتباط متواضع ، فوجئت بملاحظة أني كنت أتصدر الصفحات الأولى للصحف المصرية : ذلك انهم كانوا يقرنون اسمي باسم هنري كورييل ، « اليهودي الصهيوني ، والقيادي الشيوعي المطرود من مصر » . وفي

* اسمه الكامل معسكر الواحات الخارجة ، ويعرف أيضاً باسم معسكر الواحات (المغرب)

المعسكر ، التقيت رجالاً كبدراً ، وشريف حناته . حدثوني عنه وتراجعت عن تقويمى الأول له . وتكفل تضامنه الخارق بالباقي . لقد تولى هو وأصدقائه دعمنا خلال سنوات عشر دون تهاون وبكل الطرق . تلقينا البسة وأغذية . حتى في سجن الخارجة ، وسط الصحراء ، تدبروا أمرهم لا يصال الشوكولا والسكر إلينا . كان هنري يتفنن كي يرسل الى القاهرة محامين فرنسيين من أمثال ميشال بوفيلار ، وغاستون آميلار . وكانوا يُعَدُّون لكننا كنا نعلم بذلك ونعرف أننا لسنا وحدنا . لقد استحصل على ان يطلب بيار كوت رؤيتنا بمناسبة زيارة رسمية للقاهرة ؛ وعجز عبد الناصر عن الرفض . وكانت زيارة لا تُسَى لأن كوت سلمنا سراً جهاز الترانزستور الذي عهد به كوريل إليه . لم تكن الترانزستورات تُباع آنذاك في مصر ولم يكن معنا غير راديو ضخم يصعب اخفاؤه . لقد بدّل جهاز كوت الصغير حياتنا . لكن الأهم كان الدعم المالى . فالسجين لا يستطيع الصمود إذا عرف ان عائلته تموت من الجوع في الخارج . تلقينا اعانات ضخمة وكنا ننظم بأنفسنا توزيعها داخل المعسكر . وكانت هناك اخيراً رسائل هنري الأخوية . فالمراسلة بيننا لم تنقطع رغم رقابة الحراس والشرطة السياسية . كنا نتكاتب بالحبر السري على ورق القشارة وكانت الرسائل تمر في أشياء يتم تسليمها لزارتين أو جنود مرتشين . وفي الخارجة ، ذلك المعسكر النائي جداً ، كان ضابط الشرطة السياسية يمضي كل سبت الى اقرب مدينة . وهو لم يعرف أبداً ان بريدنا كان يذهب معه ، بعد إخفائه تحت المقعد الأمامي لسيارته » .

أبدت الجماعة المصرية خلال تلك السنوات العشر نضالية لا مثيل لها على الأرجح من حيث الثبات ، والمقدرة والفراة . إما أن الالتزام السياسي يتعلق بأشخاص موهوبين ، أو أن حياة النضال تشكل مدرسة جيدة للحياة العادية ، فالواقع ان اعادة انخراط المنفيين اجتماعياً كانت ناجحة بقدر ما ستكون كذلك اعادة انخراط محاربين مُرد* وطويلي الشعر بعد أيار 1968 . كان ريمون اغيون قد غدا تاجر لوحات ناجحاً جداً في حين فرضت امرأته نفسها كخياطة مشهورة ؛ وأسس الفرد كوهين وريمون اسطمبولي (الذي استقر هو ايضاً في باريس) شركة مزدهرة متخصصة في النسيج ؛ ونجح ارمان سيتون نجاحاً باهراً في النشر ، وفي ميلانو ، نجح داوود ناحوم في صناعة التعدين . اما جوزف هازان ، الذي دخل في شراكة مع الناشر فرنان ناتان ، فاقطع لنفسه اقطاعاً يُحسد عليها في ميدان الفنون التخطيطية . ويلاحظ الفرد كوهين ما يلي : لم تحصل يوماً مشكلة مع هنري . فلقد كان في تلك الفترة يقوم بالعمل النضالي من السابعة صباحاً حتى منتصف الليل . لكنه كان يتفهم تماماً انشغالنا المهنية ويمحنا حتى على

* لم تثبت لحام (م)

النجاح . كان يردد امامنا : « اشتغلوا دائماً أكثر ، واربحوا اكبر قدر ممكن من المال كي تفيد منه النشاطات النضالية » .

يقول جوزف هازان ، وزير مالية الجماعة : « كنا حوالي الخمسين من ذوي الاشتراكات المنتظمة . وكان كل واحد يدفع ما بين 30 و50% من مداخيله ، ويجد ذلك طبيعياً . هل كان بالإمكان مقارنة تضحية مالية بآلام رفاقنا ؟ هل كان يمكن ترك عائلاتهم بين أنياب الحاجة في حين تعيش عائلتنا دون هموم في فرنسا ؟ عشر سنوات من حياة المعتقل ، هل يمكنك تصور ذلك ؟ ولو اننا فعلنا غير ذلك لكننا أحقر من لا شيء . لكن الشائعات ظلت تلاحقنا : « من أين يأتي المال ؟ » انطلقت من الحزب الشيوعي الفرنسي منذ عام 1954 وكان بيار كورتاد هو الذي أطلقها . كان يردد : « لا يمكن وضع الثقة في جماعة كورييل . فمن أين يأتي بموارده ؟ من أين يأتي المال ؟ » إلا أنه كان ثمة على الأقل سابقة في الثورة البلشفية ، متمثلة بليتفينوف . كان رجل أعمال كبيراً في لندن ، وملك التجارة الدولية . ولقد ارسل بمفرده سفينة محملة بالسلاح لثورة 1905. لماذا ما كان واضحاً بالنسبة اليه لا يكون كذلك ايضاً بالنسبة اليها ؟ هو يؤمن سفينة سلاح، ونحن الخمسين لا نكون قادرين على تمويل النجدة للسجناء وعائلاتهم ؟ كنا نعتبر أنفسنا اصحاب امتيازات لأننا لم نكن نفعل غير تقديم المال بينها كان رفاقنا البؤساء يقدمون للقضية عشر سنوات من حياتهم ! » .

تحدد حسابات جوزف هازان مجموع المبالغ التي أرسلتها الجماعة المصرية الى مصر بمليار ونصف مليار من الستتيمات (بقيمة العملة عام 1948) . ومن المفضل اضافة التكاليف لارسال مندوبين الى العديد من المؤتمرات العالمية ، ونفقات طبع بيانات وكراسات معدة للتعريف بمصير المحتجزين ، وإمداد العديد من لجان الدعم . كما ان الجماعة اضطلعت ايضاً بتكاليف معيشة هنري وروزيت علماً ان راتبهما المتواضع لم يكن يهدد بالاخلال بتوازن الموازنات .

مليار ونصف .

ولقد كان العقوق متناسباً مع السخاء .

إذا كان جرى استبعاد كورييل بصورة منهجية فلقد نجم ذلك عن قضية ماري . وإذا كان البعد والزمن صعباً عاماً أكثر من عام الحوار بين المنفيين وشيوعيين الداخل فلقد كان ذلك ظاهرة محزنة لكنها تافهة . لكن ما لم يكن متوقفاً ، ولا يمكن القبول به إنما هو ذلك التمييز العنصري الذي شعر الشيوعيون اليهود انهم عرضة له من جانب رفاقهم المصريين الذين ظلوا

داخل البلد ، سواء كانوا طليقيين او في المعسكرات . وكانت العلامات الأولى ظهرت بعد حرب فلسطين عام 1948. كان الكثير من المناضلين يعتبرون « أن على اليهود البقاء على حدة » ، وهو أمر كان يمكن تبريره تكتيكياً . لكن حين سمعت ايميه سيتون عضواً في اللجنة المركزية يقول : « بوصفك يهودية ، انتهى دورك . وكل ما تستطيعين عمله هو أن تقدمي لنا دعماً مالياً » ، فكرت كالتالي : « لم يعد ثمة أمل فيهم . هذه هي الخطوة الأولى وستليها خطوات » . وحين عادت ديدار الى القاهرة واعادت الاتصال بالمناضلات ، شعرت بأن أصلها اليهودي يثير نوعاً من الضيق . فطرحت بنفسها المشكلة ، وجاءها الجواب : « هناك اجتماع هذا المساء للتداول في هذا الموضوع » . وفي اليوم التالي ، قيل لها : « من الأفضل إن تستنكفي* . . » وكان شريف حتاته قد استفاد من الدعم الكثيف للغاية ، وقد استحصل كوريل من بن بلا على ان يتدخل لدى عبد الناصر بهدف اطلاق سراحه . وحين التقى هازان شريفاً في الجزائر قال له الأخير : « أفضل ما يمكن ان تفعلوه هو ان تنسحبوا . لا يمكنكم ان تفهموا الوضع في مصر . انتم اجانب » . وقد تذكر هازان حادثة تافهة سبقت توقيف رفيقه . كان قدم للحركة مبلغاً كبيراً جداً واعتقد شريف حتاته ان من الضروري شكره بإعطائه الجنسية المصرية « الكاملة » . اما هازان ، الذي لم يكن يشعر بأنه أقل مصرية من شريف ، ابن انكلترا عن طريق أمه ، فقد انفجر ضاحكاً ، ناظراً الى الموضوع على انه مزحة . الا ان الضحكة انتهت بكثيرة مرة .

وقد اتخذت الضربة القاضية شكل رسالة صادرة عن الحركة الشيوعية المصرية المعاد توحيدها للمرة السادسة او السابعة ، بانتظار الانشقاق اللاحق المحتوم . لقد أبلغت اللجنة المركزية الجديدة المنفيين بإقصائهم بصورة جماعية . فيما انهم اجانب ، عليهم ألا يتدخلوا في الشؤون المصرية ، وانضمامهم الى الحركة الشيوعية مرفوض . وتشدد الفقرة الأخيرة من الرسالة على ان المساهمات المالية من جانب المنفيين سوف تبقى مع ذلك تلقى القبول ، لا بل ستكون في حكم المتمنة . كانت الرسالة واضحة : « لا سياسة ، بل شيكات » .

اجتمع اركان الجماعة في مطعم الجزر restaurant des Iles ، على بحيرة غابة بولونيا . وكان العشاء عاصفاً . إن أيّاً من المنفيين لم يكن يعتبر أن تضحياته المالية تمنحه نفوذاً سياسياً خاصاً ، أيّ منهم لم يكن يقبل تجريده من صفته كمناضل وتحويله الى بقرة حلوب . وقد طلب البعض ، من مثل الفرد كوهين ، أن تتم معاقبة فظاظة الأسلوب بالقطيعة الكاملة . فرد هنري كوريل بأنه لا ينبغي تحميل المسجونين ذبول قرار جائر . وتابع قائلاً : « علينا الاستمرار في

* المقصود : عن المشاركة في الحياة التنظيمية (م)

المساعدة كالسابق لا بل اكثر . علينا المساعدة الى حد جعل الرفاق في اللجنة المركزية يشعرون بخطئهم . وقد تم اتخاذ القرار بالمواظبة على الدعم ، وهو الأمر الذي بقي قائماً حتى اطلاق سراح آخر سجين .
لكن أمر مصر كان مقضياً .

غادروها الواحد تلو الآخر ، وفي أوروبا ، انضم الجيل الشاب لمعتقلي طره والخارجة لقدامى هو كستيب وأمكنة أخرى ، لكن لم يتوصل احد منهم لنزحها من قلبه . بعد ثلاثين عاماً على الفراق ، لا يزال جوزف هازان يحلم بالعربية ؛ ولا ينفك اصدقاؤه يسترجعون الوطن المفقود . (ويلاحظ اسماعيل صبري عبد الله ، الذي كان المحامي النشيط في الدفاع عن طردهم ، يلاحظ برضى لكن بحق ، ان ذلك أمر طبيعي ، « فكل الذين يأتون الى مصر يرحلون وهم يعشقونها ») . يحتفظون بالمرارة لخصوماتهم القديمة ، ولتصفية الحسابات الداخلية التي لم يشملها مرور الزمن ؛ اما مصر فيخصونها بعشق لم تؤثر فيه التقلبات .

إذا كنا نحكم على السياسة بالنتائج ، فإن نجاحهم ليس بديهيًا . لم يكونوا غير حفنة من الضمائم* ضمن الجمهور المصري ، الذي سارع الى استئصالهم . لكن إذا كانت السياسة أيضاً قدراً جماعياً ، فلقد كانت مغامرهم عظيمة . كانوا الأولاد البعيدين لشتات قديم جداً وجد في العالم العربي مكان تفتحه . وكان آباؤهم قد نقضوا المعاهدة بالالتحاق بالبورجوازية الاستعمارية الأوروبية . اما الأبناء - الأفضل بينهم - فتعرّوا من امتيازاتهم ومضوا باحثين عن الشعب الذي تم فصلهم عنه . وهو أمر لم يحدث في أي مكان آخر ، إلا بصورة فردية . ارادوا ان يكونوا شيوعيين وهم يسمعون مدافع ستالينغراد ولأن الكتب الماركسية كانت تقدم التفسير والدواء للبؤس غير المحتمل الذي عبّأهم . وبصفتهم شيوعيين ، حلموا بأنفسهم في الجيش النضالي ذاته الذي يضم فلاح الدلتا وعامل شبرا الخيمة . إلا أنهم استيقظوا فإذا هم أجنب ويهود : ابناء البورجوازية الامبريالية التي أخضعت مصر سابقاً ، وإخوة رغباً عنهم للجنود العبريين الذين تسببوا لها بصعوبات مهينة . وإذا كان النشيد الأممي توقف عن ان يكون صحيحة ليصبح همساً آلياً ، فعلى ضفاف النيل ، في الخمسينيات ، حين أقصى شيوعيون شيوعيين لأنهم لا يملكون جوازات سفر . وهو أمر فاجأهم بقدر ما جرحهم ، وكان الجرح يتوسع بسبب عدم

* أنواع من البكتيريا القوسية (م) .

التفهم . لم يكن أحد يتصور آنذاك أن جنود الجيشين الآخرين ، الروسي والصيني ، سيتقاتلون على نهر أمور *Amour ؛ وإن فيتنام ستنتزل عن صليبها وتنتعل أحذية الفاتحين ، وأن الأمم الأكثر رصانة سوف تمزقها الصراعات الدينية والعرقية واللغوية . . . لقد ماتت الروح الأمية الفسيحة والحمراء . وكانوا بين أوائل من تلقوا اعلان الوفاة .

ثلاثة اشهر في الألوية الأمية ، وستة اشهر في الأدغال ، اوسنة في زنزانة ، تسمح لآخرين بالشعور بأنهم شرعيون حتى خريف حياتهم . إن لبانصيب الحياة النضالية أرقامه الجيدة . أما هم فقد سحبوا الأسوأ بينها . فنضالاتهم التي خاضوها ضمن ظروف بالغة التعقيد بقيت مجهولة ، وبقيت تضحياتهم غير معروفة . إلا أنهم كانوا مصر في 21 شباط 1946 - احد الأيام الخمسة التاريخية في القرن المصري . طره ، الخارجة ، الأقدام في اصفاد الحديد ، مقلع البازلت ، « سياج الشرف » ، الزردات الداميات المزودة بالسوط على ظهورهم المتكلسة : من يتذكر فعل الاستشهاد غير الشهداء ؟

لقد كانوا طائشين أيضاً ، وعديمي الصبر ، وغير حذرين ؛ وكان لبعضهم مطامح ؛ وهم ما كانوا بمصريين لو أنهم لم يناضلوا احياناً الى جانب كورتلين . لكنهم قدموا البرهان على نوعيتهم في أشد المحن سوءاً : محنة الانكار السابق ، والحاضر ، واللاحق ، لوجودهم السياسي . لأن ما هو مكتوب هنا لم يقله احد منهم . وعظمتهم تكمن في كونهم قبلوا كل شيء من دون التأسف على أي شيء . لقد خَدَمُوا ، وهذا كافٍ .

ليس التشبيه بحجة ، وسوف تظهر لهم هذه الحجة غير ماركسية . قبل خروجهم من الغيتو الأوروبي بمئة وخمسين سنة ، كان جيش بونابرت الصغير قد بلغ شاطئ مصر ، واحتل البلد ، وفكر بطيب خاطر ان يدخل في الاسلام ، وبدأ إصلاحات مَلَأك مهتم بالمستقبل ؛ ثم توارى من دون ضوضاء . كانت تلك الغزوة ، من بين كل الغزوات التي تعرضت لها مصر ، احدى اكثرها خطفأً . خفقة هدب للتاريخ . مغامرة على صورة تلك الأنهر الناتجة عن عاصفة ، والتي سرعان ما يتلعها الرمل . من كان صدّق ، في تلك الفترة ، أو بعد خمسين سنة ، أن الأعظم بين المصريين منذ الفراعنة ، جمال عبد الناصر ، سيكتب عن الحملة التي سرعان ما جرى صدّها : « كانت بداية النهضة » ؟ كان الأبعد نظراً بين رفاق هنري كورريل يعرفون ان دورهم ، الانتقالي بشكل أساسي ، سيخدم كأبدال **relais . فبواسطة جامعاتهم الشعبية ، وتعريبهم مؤلفات سياسية ، ومحاضراتهم ، وصحفهم ، كانوا يحملون رسالة

* نهر يفصل سيبيريا عن شمال شرقي الصين ، ويصب في بحر أوخوتسك (م) .

** الابدال كلاب أو أفراس معدة سلفاً لراحة كلاب أو أفراس متعبة (م)

ثورية . وسيقول التاريخ ما تدين فرادة مصر التي لا جدال فيها ضمن العالم العربي ، ما تدين به لعملهم الايديولوجي .

في صيف عام 1981 ، وفي معسكر السادات للاعتقال ، طلب شيوعيون مصريون في العشرين من العمر من محمد الجندي ، المحارب القديم ابن الخمسين في الحركة ، أن يحدثهم عن هنري كورييل ورفاقه .

*

**

الجميع ذهبوا ، الا اثنين .

كان اصدقاء شحاته هارون المنفيون يسمونه « آخر الموهيغان »* . وليس هذا دقيقاً ، لأن ألبر أرييه بقي هو الآخر في مصر . وفي سجن الاشغال الشاقة ، كان مكلفاً بالعناية بمسالك الزهور التي تزين محيط البيت الصغير الخاص بالكوماندان ، وهو ما كان يتيح له سماع أشياء كثيرة . وقد وقع في حب الزهور وانصرف للمتاجرة بها بعد اطلاق سراحه ، مصدراً إياها بالأطنان الى اوروبا الباردة . لكن أرييه وقع أيضاً في حب مسلمة هدته الى الاسلام ، وإلا لما كان تمكن من الاقتران بها حسب قانون البلد ، بحيث أن المسلم أرييه لم يعد من الموهيغان تماماً كالآخرين . يقول القاهريون عن شحاته : « صاحبنا اليهودي » .

إنه اليهودي الأقل تجوالاً بين يهود العالم . لقد اختفى مجتمع من تحت نظره في حين كانت القاهرة تتقل من مليون نسمة الى 13 أو 14 مليوناً ؛ شهد تشتت جالية يهودية تعدادها مئة الف نسمة ، كانت موجودة منذ الأزمنة التوراتية ولم يبق منها غير ثلاث دزينات من العجزة المريضين جداً بحيث لا يمكن ان يرحلوا ، والشائخين جداً بحيث لم يعودوا يعرفون من هم ؛ رافق الى الطائرة او السفينة كل رفاق طفولته الذين تشتتوا في شتى انحاء العالم ، اما هو فلا يتحرك من مكانه . منذ ولادته ، تنحصر الشقق المتتالية التي سكن فيها ضمن دائرة لا يزيد محيطها عن مئتي متر . فاذا اجتزت معه حيّة ، فأنت تقوم بجولة المالك . كل الناس يعرفونه لأنه يجيء مما قبل الطوفان : وجدوه في المكان ، مع المباني والتمائيل . ولقد رأى شحاته تاجر الخضار البدين الذي يملك اليوم بيتاً على الشارع ، رآه يتضور جوعاً ، ويجيء من قريته ليجلس على الرصيف خلف خسّاته الثلاث . ويعرف المتسول الصغير القصير القامة انه تصدّق على الجسد . وبين مسكنه ومكتب الحمامة الخاص به ، يجيء مئتي صديق ، أي أنه يكشفهم بانفجار الفرح الخاص برجل تم إنقاذ نهاره ، يلمسهم ، يقبلهم بعناية ، يتبادل معهم اسراراً

* قبيلة من الهنود الحمر في اميركا الشمالية (م)

مهمة همساً ، ينتزع نفسه من نقيب محامي القاهرة ليقع في أحضان بائع صحف ، ويتدخل سلطان في زحمة سير إذا ارتأى أن الشرطي ليس على مستوى مهمته . عند الصباح ، يرتدي طقمًا رمادياً ، وربطة عنق ويحمل محفظة ، ويبحر بين مكتبه ، حيث تلقي زوجته مراسيها طوال النهار ، ومقر حزب التجمع . وبعد الظهر ، كان يأتي ، لابساً على عجل ، فيعرفني على المدينة التي يجهلها السواح كما فعل قَدْماً مع روجيه فايان .

وجهه كوجه لوي دو فونيس معبر جداً الى حد انه حين كان يلعب دور المترجم أثناء محادثاتي مع مناضلين لا يتكلمون غير العربية ، كنت أقرأ الشهادة على وجهه حتى قبل ان يترجمها . كل شيء يتحرك : العينان ، الفم ، الجلد المتموج . وجهٌ كشاشة يُعرض عليها فيلم اجنبي بديهي للدرجة ان الترجمة تصبح نافلة .

أراد نفسه مصرياً حتى الموت . وحين انفجرت حرب 1956 ، مضى الى مركز تطوع . كان يتوقع ان يجد مركزاً رزيناً وأحس بركبتيه تصطكان حين اكتشف جمهوراً هائجاً . قال في نفسه : « سنوف يتعرفون إليّ ، ويقبضون عليّ كالجاسوس اليهودي الآتي لمراقبة الوطنيين » . وقد رفض الجيش المصري ترشيحه .

وعام 1967 ، خلال حرب الأيام الستة ، لم يتركوا له فرصة ليتقدم كمتطوع ، وأوقفوه منذ الليلة الأولى . وفي سيارة الشرطة التي كانت تنقله الى المفوضية ، قال لحارسه : « المهم الا تقصف اسرائيل سد أسوان . . . » كان ذلك هو هاجس الجميع . فنقّب واحد في السد كاف كي يكتس موج هائل كل وادي النيل حتى المتوسط ، شاطباً مصر من الخارطة . وفي مركز الشرطة ، همس الحارس في أذن المفوض . فشحب هذا ، ورمق شحاته بنظرة غضب وتهديد ، قائلاً : « انت اليهودي الذي يتمنى ان تقصف اسرائيل اسوان ؟ » . ثم حطم له نظارتيه ، وكسر ساعته ، وهدوء مرق ثيابه وأوسعها لهما . وألقي بشحاته في قاعة الاعتقال ، حيث كان يتلقى الضرب في كل مرة كان رجال الشرطة يُدخلون فيها سجيناً جديداً . وقد وجد الليل طويلاً . بعد ذلك جرى نقله الى معسكر اعتقال ، حيث قُدم الى الكوماندان ، القديم قَدْماً مصلحة السجون ، وكان استقبله اكثر من مرة وراء أسلاكه الشائكة . وقد صاح الرجل الطيب : « يا استاذي العزيز ! كيف تجرأوا ! هل تريد الاعتراض ؟ - فيما بعد » ، اجاب شحاته بحس أكيد بالفرصة الملائمة . وبعد اطلاق سراحه بثلاثة اشهر ، طلب مقابلة وزير الداخلية وحصل على نقل مفوض الشرطة . إنه يتمتع بروح قتالية عنيدة . بدونها كان حزم حقائبه مئة مرة . كل يوم من أيام حياته فعل إرادة .

في حين كان يتعرض للضرب المبرح في المركز ، غرقت القاهرة في الظلمة بسبب إنذار

جوي . فنزلت زوجته ، المولودة ليهودي من حيفا ويهودية من إزمير ، نزلت مع ابنتيها لتنضم الى المستأجرين الآخرين في ردهة المبنى . وفجأة ، هزت الجدران قرقرة زناجير ، فشدت زوجة شحاته ابنتيها اليها مرعوبة وهي تقول في نفسها : « إنهم الاسرائيليون ! سوف يقتلوننا جميعاً ! » يا للأقدار . .

إن سنوات نضاله الخمس والثلاثين جعلته يمر على كل سجون مصر ومعسكراتها ؛ يمكنه إذا شاء ان يكتب دليلاً ، ويمنح نجوماً . لديه دائماً دعويا ن أو ثلاث مع اتهامات من مثل « اعتداء على أمن الدولة » ، « تأمر ضد الدستور » ، الخ ، لكنه يقبل بطيب قلب بهذه الاهتياجات الحقوقية . لا بل هي تطمئنه . « حين تصبح الأمور هادئة جداً ، فلنقل : حين لا يكون حدث شيء منذ ثلاثة أشهر ، أقول في نفسي : « شحاته ، خذ حذرك ، سوف يلغون القبض عليك » .

عنيد كأهل الاوفرنى* ، صلب كمنهري* في مقاطعة بريتاني ، مرحُ مثل لاعب كرة من مرسيليا ، ذو شجاعة فائقة في أسوأ حالات الانفجار السياسية ، مصري أكثر من كل المصريين : هذا هو صاحبنا اليهودي .

✱

✱ ✱

بالنسبة لما هو أساسي ، كان هنري كورييل على حق . فعلى عكس القائلين قصيري النظر بالجهة الطبقية ، وبالحزب الخالص والصلب ، كان قد فهم ان المعطى السياسي الأساسي هو المطالبة بالاستقلال الوطني : لقد تمفصل تاريخ مصر في هذا القرن حول هذا المطلب . وكانت رؤيته واضحة بصدد المسألة السودانية . . . وكان على حق ضد الجميع في تحليله لحركة الضباط الأحرار .

إن صفاء موهبنا على المدى الطويل وقدرة نادرة على الإغاطة يفسران جزئياً استمرار النقد . يحیی الخصوم القدامى طوعاً والرجل الذي تحركه نوايا ممتازة ، والمناضل المخلص للثورة حتى التضحية بحياته ، لكنهم يعتبرون كشف حسابه المصري سلبياً . فبوصفه قيادياً جعله الطموح غير قابل للعزل ، حتى ولو اضطر لممارسة سلطته وراء الكواليس ، . عمد ، حسب تحليلهم الى تبديد فرص الحركة الشيوعية . ولو كان ذلك صحيحاً ، فان طرده من البلد وإبعاده

* مقاطعة فرنسية (م)

* نصب حجري عدودي عالٍ (م)

عن الحزب كان يجب ان يسمحا بفتح تلك الحركة ، التي تخلصت أخيراً من العائق وهو ما لم يحصل . فمع مرور الوقت ، بدأ عبد الناصر مفاوضات مع القادة الشيوعيين للمنظمتين الباقيتين ، عن طريق احمد حمروش . تظاهر بالموافقة على ان تتأسس لاحقاً منظمة شبه رسمية الى هذا الحد أو ذلك تجمع الشيوعيين خارج الاتحاد الاشتراكي ، الحزب الواحد للنظام . وقد جرى الانشغال بوضع النظام الداخلي ، لكن مع البدء بحل البنى الموجودة ، تنفيذاً لارادة عبد الناصر . وبعد ان تم التدمير ، رأى الشيوعيون المصريون الأكثر موهبة انهم امام الخيار بين الالتحاق غير المشروط والتصفية السياسية . غادر اسماعيل صبري عبد الله وفؤاد مرسي رمل المعسكرات الى الموكيت الوزارية . كانا قد سخرا بشراسة من جملة بائسة لهنري كورييل يقول فيها ان تعدد المنظمات الشيوعية المصرية يعبر عن غنى الحركة . ومعهما ، أعقب الفراغ المطلق الطفاح ، فأين التقدم ؟

إلا أن فؤاد مرسي هو الذي أطلق الحكم الأكثر بعد نظر ، والأكثر عدالة في نهاية المطاف ، بصدد القدر المصري لهنري كورييل : « كانت مأساته أنه اجنبي ويهودي في الوقت الذي كان البلد يحصد لنفسه فيه مهمة طرد الاجنبي ويرى العالم العربي يعهد له بقيادة النضال ضد الصهيونية . وان يكون ابن صاحب مصرف يهودي من اصل اجنبي استطاع انجاز ما انجزه هو بحد ذاته امر خارق ، لكن كان من غير الممكن تخطي العقبة » .

لقد بلغ سن النضج بعد غرق ابتلع اكثر بكثير من شخصه السياسي . هذا الرجل في البحر كان محاطاً بالصخور . وأي غير ، أقل إقداماً ، كان مصيره الغرق .

كان التزامه السياسي فصله عن ذويه . فلقد تسبب بياس اييه ، الذي توفي اثناء احتجاجه في هوكستيب . وامه التي لم تحجده توفيت في القاهرة عام 1965 . حملها الى القبر شعاعته هارون ، وألبر أرييه ، وفؤاد حبشي والشاعر كمال عبد الحليم . رآها مرة واحدة على امتداد 15 عاماً ، بفضل بن بلا الذي استحصل من عبد الناصر على إذن لها بالسفر الى باريس .

كان مصرياً ، وطرده الملك فاروق بصفته يهودياً وشیوعياً .

وكان شيوعياً ، فشهّر به رفاقه الفرنسيون ودمروه سياسياً . وبعض هؤلاء ربما لفتوا نظري الى انه لو استقر في براغ مستجيباً بذلك لنصيحة مارتى ، لكان تعرض على الأرجح للشنق . وهذه في الواقع تعزية .

كان مناضلاً تاريخياً في الحركة الشيوعية المصرية ، ومؤسساً للحزب الشيوعي السوداني ، وقد أقصاه رفاقه المصريون لكونه أجنبياً .

كان غير المرغوب فيه ، الى اقصى الحدود .

وبصدد هذا الرجل المصاب بجرح خطير، يجب ان نفهم ان حياته تنتهي هنا بصورة
ما . وما سينجزه مذاك ، سوف ينجزه لغياب مصر . سوف يجهل قتلته ذلك ، ولو كانوا على
علم به لما أثار اهتمامهم ، أما مغتابوه فكانوا أبعد ما يكونون عن تصوره ، ولم يكن رفاقه في
المعارك التي خاضها في السنوات العشرين الأخيرة على معرفة به ؛ لكن دعونا نفصل الكلمة
الرائعة : لو فتحوا قلب هنري كورييل المقتول غيلةً ، لوجدوا كلمة « مصر » محفورة فيه .

ملحق

رأينا أن نورد نصين قصيرين لأحد رموز الحركة الشيوعية المصرية في الفترة الأهم من حياة هذه الحركة، فترة الأربعينيات وأوائل الخمسينيات. وهذا الرمز، لطف الله سليمان بالتحديد، يلمح بيرو إليه في الصفحة 175 من كتابه (الأصل الفرنسي)، دون ذكر اسمه. أما النصان، فأولهما كتبه سليمان بعد أيام من مقتل كورييل وصدر على صفحات مجلة Politique Hebdomadaire ، العدد 311 ، من 15 إلى 22 أيار 1978 ، والثاني كتبه بعد صدور كتاب بيرو، ونشره في مجلة «فرنسا والبلاد العربية»، العدد 120 ، تموز-آب 1984 .

(المعرب)

موت ثوري

(السياسة الأسبوعية، عدد 311، 15 - 22 أيار 1978)

مذ انتشر خبر اغتيال هنري كورييل، انهالت عليّ المخابرات الهاتفية. وكان معظم المتصلين بي صحفيين، كما لو أن الصحافة اكتشفت فجأة انها لم تكن تعرف شيئاً، او كانت تعرف القليل، عن الرجل الذي سقط برصاصات من العيار الثقيل لقتلة محترفين يعملون في اطار «عمل دقيق ومنتظم». لكنني كنت احد الذين يستطيعون الادلاء بشهادتهم حول الفترة المصرية من حياة ذلك الذي سبق ان صوّرته أمية الحمقى بأنه، في آن معاً، عميل الكاجي بي K G B والرأس المفكر للارهاب الدولي.

وقد بلغ الفحش ذروته حين لفت أحد المتصلين بي نظري، بعد أن أبلغته مدى تأثري، إلى أننا (المقصود كورييل وأنا) «لم نكن، مع ذلك، نتشارك الرأي».

كما لو أنه لم يكن من الضروري توجيه التحية للصدق، والاستقامة، والشجاعة لدى رجل لم أقاسمه يوماً بشكل كامل لا آراءه ولا طوقه، لكنه كان مخلصاً أبداً لالتزاماته، وأحب مسقط رأسه، مصر، بشغف، واحترم بدقة مؤسسات بلد الاختيار، فرنسا، ولم يتهرب يوماً من الاستجابة لنداء يطلقه معذبو الارض.

في المساء ذاته، اذاعت القناة 2، في جريدة الساعة الثامنة، مقابلة مع هنري كورييل، ايام كان تحت الإقامة الجبرية في ديني Digne : أية شهامة في موقف رجل كان عرضة لقرار طرد، وبالحال من شهامة في أقواله! كان ثمة ما يستوجب إعادة بعض المسيحيين، الذين لا يزالون يمتدحون انفسهم لكونهم يواظبون على حضور القداس، إعادتهم إلى أحجامم بالغة الصغرا!

كوريل «جهوي»

لقد تعرفت على هنري كوريل في القاهرة، عام 1939 ، وكنت آنذاك لا أزال ريفياً، دعاني إلى محاضرة ونقاش في «الاتحاد الديمقراطي». وأنا لم اعد اذكر لماذا لم يكن هنري كوريل حاضراً. اما ما اتذكره فهو أنني اضطررت لمغادرة المنصة بسبب صيحات الاستنكار لفريق صغير من الناشطين. كنت قد اعتبرت ان على كل القوى الديمقراطية الانخراط في الحرب ضد الفاشية، وذلك باسم الدفاع عن الاتحاد السوفياتي بالذات، ومن دون ان أهاجم مباشرة المعاهدة الألمانية - السوفياتية.

التقيت هنري في الصباح التالي. وقد اضطررنا للاعتراف، منذ البدء، أنه ما عدا هدفاً مشتركاً، فكل ما تبقى يفصل ما بيننا كنا كلانا شيوعيين، لكن في تلك الفترة كان من جانبه ستالينياً وكنت مصنفاً كتروتسكي. وإذا كانت ذاكرتي لا تخونني، فأنا لا اعتقد انه تولد لدي الانطباع بأن هنري اعتبرني ، من جهته، «أفنى سامة». لا شك انه حاول ان يثبت لي أن ثمة تناقضاً بين موقفني النظري و«ادعائي» العملي بـ «الدفاع غير المشروط عن الاتحاد السوفياتي»، لكنه لم يتلفظ بكلمة واحدة يمكن أن تبدو مشككة بـ «التزامي الثوري» او جارحة لي شخصياً. وهو ما لن يكون حال معظم أعضاء حركته الذين لم اكن بالنسبة إليهم «تحريفياً يمينياً» وحسب، بل كذلك «خائناً» و«عميلاً للامبريالية».

ذلك اللقاء في تشرين الأول او تشرين الثاني 1939 ، كان اللقاء الجوهري الوحيد، بين هنري كوريل وبينني. لا شك أنه ما بين ذلك التاريخ وطرده هنري كوريل من مصر عام 1950 (وليس في أيام عبد الناصر الذي لم يستول على السلطة الا عام 1952)، وحتى بعد تلك الفترة، غالباً ما كنت ألتقيه لا بل اصطدم به، لكن دائماً عبر التنظيم الذي قام بتأسيسه، «الحركة المصرية للتحرر الوطني»، الذي اندمج في ايار 1947 مع حركة اورثوكسية اخرى، هي الايسكرا، فغداً «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني» (حدثو) .

بخلاف شيوعيين مصريين آخرين ، كان هنري كوريل «جهوياً» على الدوام . طبعاً كان على الشيوعيين ، في نظره ، ان يكونوا «النواة القائدة» للجهة ، لكن كان على هذه النواة ان تتغذى أثناء العمل وعبر الاحتكاك الدائم بال جماهير المتحركة . هكذا مقارنة جعلت من ح.م.ت.و. حركة أكثر انفتاحاً وشعبوية من الحركة الاخرى، الايسكرا، التي كانت تريد لنفسها ان تكون أكثر نخبوية. لكن سياسة انفتاح جهوية تتطلب دائماً يقظة متواصلة ووعياً شديداً للوضوح لأجل معرفة الى اين يمكن، او لا يمكن، الذهاب. فخطر الانزلاق قائم. كما ان خطر الدوغمائية قائم هو الآخر أيضاً.

تروتسكي الخائن

تعود إلى ذاكرتي حادثة في هذا الصدد، حدثت عام 1945 . كانت الحركة الوطنية المصرية آنذاك في أوج غليانها . وكانت تطالب بجلاء كل القوات وإزالة كل القواعد الأجنبية ، وإعادة النظر بالمعاهدة الانكليزية- المصرية لعام 1936 . وبالطبع كانت كل الحركات الشيوعية مشاركة في هذه الحركة : حدثو بشقيها، حمتو واليسكرا ، بالإضافة إلى «الفجر الجديد» ، و«الطلیعة» الخ : ، ومجموعتنا المؤلفة بشكل اساسي من المثقفين ، من دون بنى تنظيمية حقيقية . وكان يشارك فيها أيضاً بعض الاحزاب التقليدية ، كالوفد ، المثل بشكل خاص بـ «طلیعته» و «شبيبته» ، ومنظمات اصولية ، كالاخوان المسلمين . لكن في تلك الفترة بالذات ، كان يوجد «وضع» داخل الطبقة العاملة خلقه تحويل ورش عسكرية للحلفاء أو إغلاقها وتسريح عمالها الذين جرى الالتقاء بهم في سوق العمل فغدوا يشكلون جيشاً سرعان ما التقطه ارباب العمل في شبيرا الخيمة محاولين أن يخرسوا بذلك مطالب عمالهم .

كان الوضع آنذاك عبثاً . فمن جهة ، المظاهرات «الوطنية» المؤلفة عموماً من الطلاب الذين كانوا ينطلقون من جامعة القاهرة ويتجهون إلى عابدين (القصر الملكي) هاتفين «فليحي الجلاء» ، «عاش الاستقلال» . ومن جهة أخرى ، المظاهرات العمالية التي كانت تنطلق من شبيرا الخيمة ، غير متمكنة ابداً من اقتحام حواجز الشرطة والوصول إلى وسط العاصمة ، وتطالب بشكل اساسي «بضمان العمل» .

في ذلك الحين بالذات ، بدا لنا من المفيد لا بل الملح أن نوجه نداء إلى الطلاب : «لا إلى عابدين ، بل إلى شبيرا الخيمة» (*) . وقد لقي نداؤنا تأثيراً أكيداً في جامعة القاهرة ، لا سيما أنه حظي بالدعم الحماسي للطلیعة الوفدية .

بعد ظهر اليوم ذاته الذي اطلقنا نداءنا خلاله ، تلقيت زيارة احد مساعدي هنري كورييل (الذي سيلعب فيما بعد دوراً مهماً في السودان) . وكانت المقابلة صاخبة ، فبحجة أنه لا يمكن الاخوان المسلمين القبول بأن يجري «حَرْف» الحركة الوطنية ، جرى اتهامي بـ «الخيانة في خدمة الامبريالية» وتهديدي بالتعرض لـ «العقوبة» نفسها التي تعرض لها «عرابي» ، تروتسكي - الخائن . وقد اكد لي هنري كورييل بعد انقضاء زمن طويل ، وبالتحديد عام 1966 ، وفي باريس ، بأنه لم يكن على علم بزيارة مساعده وتهديداته . وليس لدي أي مبرر للشك بصحة كلامه . في كل حال ، كان قد بات ذلك بعيداً جداً !

* أي فلتتوجه إلى شبيرا الخيمة ، تضامناً مع العمال ، لا إلى عابدين ، حيث قصر الملك . (العرب) .

عام 1947/1948 ، تجاهت مجموعتنا من جديد مع ح.د.ت.و. . فالحركة المذكورة دعمت آنذاك مشروع تقسيم فلسطين ، انطلاقاً بلا شك ، من ولائها للاتحاد السوفياتي . اما نحن فكنا ضد التقسيم وشرحنا يومئذ موقفنا في بيان طويل بعنوان «لسنا مع سلامكم ، ولا مع حربكم» ، اوضحنا فيه أن تقسيم فلسطين هو اسوأ الحلول وأن مفهوم «العمل اليهودي» هو رجعي من حيث الجوهر . كما رفضنا ايضاً التضامن مع الحرب التي خاضتها الانظمة العربية القائمة آنذاك . وقد جرى توقيف هنري كورييل بسبب موقفه ، وأسقطت عنه الجنسية وطرد من مصر . وكان ذلك ظلماً مبيتاً ، لأن كورييل كان يحب بلده وشعبه بشغف . ورغم الافتراءات التي لم تنفك تلصقها به اسوأ الرجعيات ، بقي على حبه لهما . وفيما بعد ، كرّس نفسه للسلام العربي - الاسرائيلي ، وربما كان ذلك سبب مصرعه .

مرة اخرى ، كانت طريقانا تتقاطعان . كان في وسعي ان أزيد الطريق التي سلكها للوصول الى ذلك السلام ، او ان اقف على العكس ، ضدها . لكن يبقى ان كورييل بقي مخلصاً لذاته إذ تصرف بالطريقة التي اعتمدها . وهكذا إخلاص يستدعي الاحترام ، والسخط على كل الذين جعلوا منه ، إما مباشرة او مداورة ، هدفاً لقتلة مأجورين . وبالنسبة للصحفيين الذين شاركوا في هذه المهمة ، فذلك أسوأ من جريمة : إنه خزي وعار .

دفتر مذكرات لطف الله سليمان

مجلة «فرنسا والبلاد العربية»، العدد 120 تموز - آب 1984

ما كنت كتبت هذه السطور حول كتاب جيل بيرو لولا ادعاء الاخير - عبر كتابة سيرة «الرجل من طراز فريد» الذي مثله بلا شك شخص هنري كورييل - ، انه يضع «كشف حساب نقدياً» لمرحلة انتمي اليها، وبلد هو بلدي .

لن أتوقف كثيراً عند خمسة بيرولي ، دون ذكر اسمي ، على الصفحة 175 من كتابه . ففي سياق حديثه عن «المؤامرة الشيوعية الكبرى» التي اثارت موضوعها حكومة اسماعيل صدقي في تموز 1946 من اجل تحطيم اندفاع الحركة الوطنية المصرية ، كتب ما يلي : «كان زعيم «المؤامرة الشيوعية الكبرى» (المقصود كورييل*)» ، قبل الاخير بين من جرى اخلاء سبيلهم ، إذ ان الاخير كان تروتسكي (المقصود لطف الله سليمان*)» حمل نفسه قدر ما استطاع . فبما انه كان في تلك الفترة التروتسكي الوحيد المعروف في مصر ، ساد تصوّر مفاده انه اراد التعويض من صغر العدد بالتضخم النشاطي . «ولو ان بيروكلّف نفسه عناء استجوابي حول هذا الموضوع او العودة الى مقالي المنشور في «بوليتيك - ابيدو**» غداة اغتيال هنري ، لكان وفر على نفسه تقويماً متسرعاً الى هذا الحد . لقد كان لكل منا ، أنا وهنري ، طريقتان مختلفتان في النظر الى «الجهوية» . ودون أن يكون هدي في «تحميل نفسي قدر ما استطيع» ، فإن روايتي ، التي لم تكن سرّاً بالنسبة لأحد ، بدت اكثر اذهاً للمحققين ، لأنها كانت تستبعد بعض التحالفات وتعطي الاولوية لآخرى . اكثر من ذلك ، كان بإمكانني ان أعلمه بأنه في اليوم الذي جرى فيه تمديد فترة

* ملاحظة من المغرب .

* المقال المنشور قبل هذا النص . مباشرة (المغرب) .

اعتقالي 14 يوماً، بمقتضى ما يسمح به القانون، وتم فيه اطلاق سراح هنري كوريل، مرر لي هذا الاخير كلمة مفادها انه يستطيع، إذا شئت، ألا يدفع كفالة المئة جنيه، وان يبقى معي خلال ذينك الاسبوعين الاخيرين. فكان جوابي أن ذلك من قبيل الحماقة. نكتة مقابل نكتة، مع الفرق المتمثل في ان هذه لا تضيفي القتامة على صورة كوريل. لا بل العكس.

كما لن اتوقف ايضاً عند بعض الجمل عديمة الذوق تماماً، مثل تلك التي تقول بصدد ماكسيم رودنسون «أن احداً لن يغتاله ابدًا، ولله الحمد.» (وان اعترف بيرو بعد صفحات قليلة بما تنطوي عليه من غدر)، او مثل تلك الجمل، المكررة، المتعلقة بريمون أغيون وزوجته! فريمون ينتمي لتاريخنا، بقدر هنري، لا بل مع نقطة اضافية لصالحه: تلك المتمثلة بكونه اعترف في الوقت المناسب، مثله مثل شوارتز وبوجه خاص مارسيل اسرايل، أنه آن الأوان بالنسبة لبعض الرواد أن «يتنحوا». فبسبب تقسيم فلسطين وخلق دولة اسرايل، لم تعد مصر بعد عامي 1947/1948 - ولم يعد بإمكانها ان تكون - مصر قبل ذلك التاريخ.

إن «التنحي» لا يعني اطلاقاً أن يكون المرء غائباً. فريمون أغيون وغيره من «رعيل المصريين» لم يكونوا غائبين يوماً، لكن بخلاف «يونس» (اسم هنري المستعار) لم يزعموا يوماً انهم يقودون انطلاقاً من مفاهيم اقدار الحركة التي ساهموا في تأسيسها. وأياً تكن خياراتهم والمآخذ التي يستطيع هؤلاء او اولئك أن يأخذوها على «خطوط سيرهم»، فإن في وسع أسمائهم ان تندرج في تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، دون ان يستدعي ذلك تحفظات من جانب اي كان. لقد كانوا ضمن تلك الحركة، وهذا واقع تاريخي. وبقوا حاضرين دون زعم القيادة. وهذا ايضاً واقع تاريخي. وكان هنري كوريل هو الآخر جزءاً من تلك الحركة، إذا لم يكن اكثر من غيره فعلى الاقل بمقدارهم. وهذا ايضاً واقع تاريخي لا يمكن احداً ان يجادل فيه. لكن هنري أراد مواصلة لعب دور «الآلهة النازلين بواسطة آلة» *deus ex machina*. وهو بذلك لا يمكن أن يفلت من التحفظ إزاءه، لا بل من الاعتراض.

لقد كان ثمة مع ذلك العديد ممن «نصحوا» هنري بأن «يتنحي»، لمصلحة الحركة التي كان قد خلقها، بالذات، وذلك غداة نشر «اخبار اليوم» صورته على صفحتها الاولى مع مانشيت كريمة في حقدها وعدائها للسامية. اما هو فلم يرد الاستماع لاي شيء. ويود جيل بيرو أن يجعلنا نصدق ان ذلك عائد لكونه لم يشأ يوماً التسليم بـ «أنه غير مصري». ولا شك ان ثمة ما هو حقيقي في هذا التأكيد. حقيقي ولكن ليس كل الحقيقة، فثمة ايضاً واقع ان «يونس» كان ستالينياً بشكل اساسي - رغم طيبة قلبه الظاهرة -، بمعنى انه لم يكن يستطيع الامتناع عن الخلط بين التاريخ وزعامته الخاصة به.

إن جيل بيرو يتحمل على التاريخ حين يكتب ان هنري لم يقع في فخ المعاهدة الالمانية -

الاحتفائية وان مدافع ستالينغراد هي التي جعلت منه شيوعياً. وبصفته ستالينياً حتى العظم، كان ضد «الحرب الامبريالية» مثلما ايد فيها بعد «تقسيم فلسطين». وبالطبع، يمكن الادعاء بأن هذا التأييد كان ناتجاً عن رؤية حادة للحد الاعلى الذي سيستطيع العرب والفلسطينيون المطالبة به بعد ثلاثين او اربعين سنة. ولانه لمن السهل كتابة التاريخ لاحقاً *aposteriori*، لا سيما حين يندرج هذا التاريخ على خلفية اخطاء وهزائم وخيانات متتالية. من السهل، بعد السادات وكامب ديفيد، كتابة ان مصر والشعب المصري لم يكونا يريدان حرب 1948 وان الفلسطينيين لم يكونوا يريدون ان تتدخل مصر فيها، في حين ان تاريخ عمليات عام 1948 يثبت ان مصر كانت الوحيدة تقريباً بين الدول العربية التي خاضت تلك الحرب جدياً وحصدت كل نتائجها.

لقد ماتت الحركة الشيوعية المصرية، في شكلها الاول، اسوأ مئة عام 1947-1948. وإن انحيازها الى السياسة السوفياتية في تلك الفترة زاد من حدة اجنبيتها حيال المجتمع المصري والمجتمع العربي عموماً. اننا في حين لا ننكر على الآباء المؤسسين جدارتهم، نقول انه كان عليهم ان يسلموا «السلطة». وقد فهم ذلك البعض، بينما لم يفهم آخرون. لم اكن يوماً متفقاً مع الحزب الشيوعي المصري الذي كنت اعتبره اكثر دوغمائية واكثر «سوفياتية» من هنري كورييل، وحمته، وفيما بعد حدثت، المتصفين جميعاً بالنزعة التجريبية. الا اني متفق معه على القول بأنه كانت هنالك حاجة في نهاية الاربعينيات لـ «انطلاقة جديدة»

أما ما آلت إليه تلك «الانطلاقة الجديدة» فقصة اخرى لكن الرواد، وأنا من بينهم، كانوا قد غدوا لا أكثر من كائنات منقرضة.

لسطف الله سليمان